الجامـــــعة الإسلامية – غزة

عمـــــــادة الدراسات العليا

كليـــــــــــــــة الآداب

قســـــــــم التاريخ والآثار

العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين في مصر وبلاد الشام

(491 – 570هـ/1098 – 1173م)

إعداد الباحث/

أمجد حافظ حسين طاعة

إشراف/

أ.د. رياض مصطفى شاهين

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

1433هـ/ 2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

"بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (138) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً (139)"

سورة النساء

"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51)"

سورة المائدة

الإهـــداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى أمي التي زودتني بالحنان والمحبة

وإلى أبي الذي لم يبخل عليّ يوماً بشيء

أقول لهما: أنتما وهبتماني الحياة والأمل والنشأة على شغف الاطلاع والمعرفة

وإلى أخي حسين الذي قضى نحبه في سبيل الله – عز وجل–، أحتسبه عند الله شهيداً

وإلى إخوتي وأهلي جميعاً

وإلى زملائي وطلابي في مدرسة ذكور الفاخورة الإعدادية "أ" للاجئين

ثم إلى كل من علمني حرفاً أصبح سنا برقه يضيء الطريق أمامي

وأخيراً إلى شهداء فلسطين، وشهداء الثورات العربية الإسلامية، خصوصاً الثورة السورية العظيمة

شكر وتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبد الله– صلى الله عليه وسلم–، وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.. وبعد..

امتثالاً لقول المولى –عز وجل– "لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ"[1]، وقول الرسول – صلى الله عليه وسلم– :"لا يشكر الله من لا يشكر الناس"[2]، فإن طالب العلم المتأدب بآداب القرآن، وخلق الإسلام، وصفات النبي العدنان، والمتصف بالأمانة، والمتحلي بذكر أهل الفضل ينطلق بالثناء والحمد والشكر لله –عز وجل–، لأنه صاحب الفضل والمنة أولاً وآخراً.

ثم أتوجه بالشكر الجزيل، والثناء العاطر، والتقدير الوافر لمن كان لي معونة، وطيب عمل، وصوب مشورة، وأخص بالذكر– بعد والديّ– أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور رياض مصطفى شاهين – المشرف على هذه الرسالة–، والذي لم يبخل عليّ بوقته وجهده، فكان الباحث الفطن، والأستاذ الموجه، والأخ الناصح، فجزاه الله خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص الشكر والامتنان للجامعة الإسلامية، والقائمين عليها؛ لاحتضانها لي لمواصلة دراستي العليا، ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى قسم التاريخ والآثار بالجامعة، راجياً أن يظل عامراً بأساتذته وطلابه، وأن يحقق هدفه في نشر العلم وتخريج الأجيال.

والشكر مقدّم إلى مكتبة الجامعة الإسلامية، والقائمين عليها الذين لم يبخلوا بإمدادي بما يلزم من مصادر ومراجع هذه الرسالة، وكذلك أتوجه بالشكر إلى القائمين على مكتبة جامعة الأقصى، ومكتبة جامعة الأزهر، ومكتبة بلدية خان يونس.

كما أخص بالشكر أيضاً الأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة، على ما سيبذلونه من جهد ومتابعة في تقويم هذه الرسالة.

وختاماً أشكر كل من أعانني في إعداد هذه الرسالة.

وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على النبي الأمين، محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

---

(1) سورة إبراهيم، آية 7.

(2) رواه أبو داود (حديث رقم 4811).

الفهـــــــــــرس

المحتويات	الصفحة
إهداء	**ج**
شكر وتقدير	**د**
قائمة المختصرات	**ح**
المقدمة	**1**
دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع	**5**
الفصل الأول: أوضاع الدولة الفاطمية قبيل الحروب الصليبية في مصر وبلاد الشام	**81_23**
المبحث الأول: نشأة الخلافة الفاطمية بالمغرب وانتقالها إلى مصر وسيطرتها على بلاد الشام	**24**
أولاً: نسب الفاطميين	24
ثانياً: نشأة الخلافة الفاطمية بالمغرب وانتقالها إلى مصر	27
ثالثاً: سيطرة الفاطميين على بلاد الشام	30
المبحث الثاني: علاقات الفاطميين مع القوى المحلية في بلاد الشام	**34**
أولاً: علاقة الفاطميين بالقرامطة	34
ثانياً: موقف الفاطميين من أفتكين التركي	44
ثالثاً: العلاقات بين الفاطميين وبني الجراح	48
رابعاً: العلاقات بين الدولة الفاطمية والحمدانيين	56
خامساً: العلاقات بين الدولة الفاطمية وبني مرداس	61
المبحث الثالث: العلاقات الفاطمية السلجوقية	**65**
أولاً: موقف السلاجقة من الدعوة الفاطمية في العراق	65
ثانياً: دخول السلاجقة بلاد الشام وموقفهم من الدولة الفاطمية	68
المبحث الرابع: ضعف الخلفاء الفاطميين وهيمنة الوزراء على الحكم	**74**
أولاً: الوزارة وأثرها في اضطراب أحوال مصر	74
ثانياً: ازدياد سلطة الوزراء في الدولة الفاطمية	78
الفصل الثاني: موقف الفاطميين من الحملة الصليبية الأولى	**145_82**
المبحث الأول: التحالف الفاطمي الصليبي مطلع الحملة الصليبية الأولى	**83**

أولاً: إعلان الحروب الصليبية على الشرق الإسلامي	83
ثانياً: بداية الحرب الصليبية الأولى وموقف الفاطميين منها	88
ثالثاً: التحالف الفاطمي الصليبي وأثره على مدن بلاد الشام	93
المبحث الثاني: الاحتلال الصليبي لبيت المقدس وأثره على العلاقات الفاطمية الصليبية	**108**
أولاً: موقف الفاطميين من زحف الصليبيين إلى بيت المقدس	108
ثانياً: الاحتلال الصليبي لبيت المقدس وموقف الفاطميين منه	114
ثالثاً: معركة عسقلان 492هـ/ 1099م وأثرها على العلاقات بين الفاطميين والصليبيين	120
المبحث الثالث: التوسع الصليبي في فلسطين وموقف الفاطميين منه	**124**
أولاً: موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي للجليل وحيفا	124
ثالثاً: موقف الفاطميين استيلاء بلدوين الأول على أرسوف وقيسارية	128
المبحث الرابع: المحاولات الفاطمية لاسترداد بيت المقدس.	**132**
أولاً: الحملة الفاطمية الأولى على بلاد الشام سنة 494هـ/1101م	132
ثانياً: الحملة الفاطمية الثانية على بلاد الشام سنة 495هـ/1102م	136
ثالثاً: الحملة الفاطمية الثالثة على بلاد الشام سنة498هـ/1105م	143
الفصل الثالث: الاحتلال الصليبي لمدن ساحل بلاد الشام وموقف الفاطميين منه	**200_146**
المبحث الأول: موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي لمدن شمال ساحل بلاد الشام	**147**
أولاً: إقامة إمارة طرابلس الصليبية وموقف الفاطميين منها	**147**
ثانياً: موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي لمدينة بيروت	154
ثالثاً: الاحتلال الصليبي لمدينة صيدا وموقف الفاطميين منه	156
رابعاً: موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي لمدينة صور	160
المبحث الثاني: عسقلان ودورها في العلاقات الفاطمية الصليبية من سنة 499هـ/1106م حتى سقوطها بيد الصليبيين سنة 548هـ/1153م	**171**
أولاً: موقف الفاطميين من الصليبيين بعد فشلهم في استرداد بيت المقدس ودور عسقلان في ذلك	171
ثانياً: حملة بلدوين الأول على مصر سنة512هـ/1118م وموقف الدولة الفاطمية	176

منها	
ثالثاً: سياسة بلدوين الثاني وفولك الأنجوي تجاه عسقلان وموقف الفاطميين منها	179
المبحث الثالث: سقوط عسقلان بيد الصليبيين سنة 548هـ/1153م وأثره على العلاقات الفاطمية الصليبية	**185**
أولاً: موقف الفاطميين من حصار عسقلان وسقوطها بيد الصليبيين سنة 548هـ /1153م	185
ثانياً: موقف الفاطميين من الصليبيين عقب سقوط عسقلان وعلاقتهما بنور الدين محمود	192
الفصل الرابع: الصراع الزنكي الصليبي على مصر وأثره في سقوط الدولة الفاطمية	**255_201**
المبحث الأول: حملات شيركوه على مصر وأثرها على الصراع الإسلامي الصليبي	**202**
أولاً: حملة شيركوه الأولى سنة 559هـ/1164م	**202**
ثانياً: حملة شيركوه الثانية سنة 562هـ/1167م	**212**
ثالثاً: حملة شيركوه الثالثة سنة 564هـ/1168م	219
المبحث الثاني: وزارة صلاح الدين على مصر وإنهاء الخلافة الفاطمية	**229**
أولاً: وزارة صلاح الدين وموقف الفاطميين منها	229
ثانياً: موقف الصليبيين من وزارة صلاح الدين الأيوبي	236
ثالثاً: وفاة الخليفة العاضد وزوال الدولة الفاطمية	240
المبحث الثالث: التآمر الفاطمي الصليبي ضد صلاح الدين الأيوبي	**246**
النتائج والتوصيات	**256**
قائمة المصادر والمراجع	**258**
ملخص باللغة الإنجليزية	**277**

المختصـــــــــرات

أولاً: المختصرات العربية

الكلمـــــــة	الرمـــــــز
التاريخ الميلادي:	م
التاريخ الهجري:	هـ
توفي:	ت
الجزء:	ج
دون تاريخ نشر:	د.ت
دون طبعة:	د.ط
دون مكان نشر:	د.م
دون ناشر:	د.ن
صفحة:	ص
الطبعة:	ط
العدد:	ع
القِسْم:	ق
مجلد:	مج

ثانياً: المختصرات الأجنبية

p. : page

Vol. : Volume

المقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على معلم الإنسانية، وهادي البشرية الأمين محمد – صلى الله عليه وسلم –، عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه أفضل الصلاة وأتم التسليم... وبعد:

يشكل موضوع الحروب الصليبية، وما نتج عنها من علاقات بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، إذ أن الحروب الصليبية شكلت جزءاً مهماً من تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب على حدٍ سواء، ومثّلت تلك الحروب حلقة من حلقات الصراع التقليدي المرير بين الشرق والغرب، إلا أنها تميزت باستغلالها للدافع الديني لتحقيق أهدافها الاستعمارية في الشرق الإسلامي.

لقد كان من الطبيعي أن تنشأ علاقات سياسية وعسكرية بين الصليبيين وبين القوى الإسلامية في بلاد الشام، باعتبارها المسرح الرئيسي لأحداث الحروب الصليبية، وتمثل العلاقات بين الصليبيين والفاطميين أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، وذلك لأن طبيعة تلك العلاقات اختلفت كثيراً عن موقف القوى الإسلامية الأخرى من الصليبيين الغزاة.

إن الأهداف التي أقام من أجلها الفاطميون علاقات حسنة مع الصليبيين خلال الحروب الصليبية، كانت تختلف عن أهداف القوى الإسلامية الأخرى التي كانت تبذل كل جهدها من أجل التصدي للصليبيين مطلع دخولهم آسيا الصغرى وأجزاء من بلاد الشام، والدراسة التي بين أيدينا توضح أهداف السياسة الفاطمية تجاه الصليبيين، وموقف الصليبيين من تلك السياسة، والعلاقات التي دارت بين الطرفين.

إن العلاقات التي سادت بين الفاطميين والصليبيين فترة الحروب الصليبية كانت غير واضحة المعالم والأهداف بالنسبة للكثيرين، كما أنها مبعثرة بين ثنايا الكتب، لا يجمعها كتاب واحد، فكان لابد من جمعها ودراستها دراسة تاريخية تحليلية توافقاً مع المنهج التاريخي السليم.

وقد اقتضت طبيعة دراسة الموضوع تقسيمه إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة؛ اشتملت المقدمة على دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها في موضوع الدراسة.

لقد كانت ساحة الصراع الإسلامي الصليبي تتمثل بشكل أساسي في بلاد الشام؛ ولذلك كان لابد من الحديث عن تلك البقعة الجغرافية قبل الاحتلال الصليبي لها، ولذلك فقد كان الفصل الأول بعنوان " أوضاع الدولة الفاطمية قبيل الحروب الصليبية في مصر وبلاد الشام"، حيث كانت بلاد الشام في معظمها تخضع تحت سيطرة الفاطميين.

وكان من الضروري عند دراسة الدولة الفاطمية التطرق إلى نسبهم، بسبب اختلاف المؤرخين حول صحة ذلك النسب، ولذلك عكف الباحث على تناول نسبهم وأصلهم بشيء من الإيجاز والتمحيص في آنٍ واحد، وهذا هو موضوع المبحث الأول الذي يشمل أيضاً ظهور الخلافة الفاطمية بالمغرب، ثم انتقالها إلى مصر، وسيطرتها على بلاد الشام.

وتعرّض الفصل الأول أيضاً إلى علاقات الفاطميين مع القوى المحلية في بلاد الشام، والتي كان لها موقفها المناوئ من الفاطميين الذين غيروا مذهب السكان المحليين، واستحوذوا على مكانة زعمائهم، وصادروا ممتلكاتهم، وتطرق الفصل نفسه إلى علاقات الفاطميين مع السلاجقة[1] السُنِّيِّين الذين تمكنوا من دخول بلاد الشام، مستغلين ضعف الفاطميين، تلك العلاقات التي كان لها أثرها في موقف الفاطميين من السلاجقة مطلع الحملة الصليبية الأولى.

وعند الحديث عن الفاطميين لا بد من تناول أوضاعهم الداخلية التي كان لها أعظم الأثر على سياستهم الخارجية، والمبحث الرابع والأخير يتناول ذلك مبيناً ضعف الخلفاء الفاطميين أنفسهم، واستحواذ وزرائهم على السلطة واستئثارهم بها، والنتائج المترتبة على ذلك.

أما الفصل الثاني وعنوانه "موقف الفاطميين من الحملة الصليبية الأولى"، فتضمن الحديث عن بدء الحملة الصليبية الأولى، وتوجهها نحو بلاد المسلمين، والصعوبات التي واجهتها تلك الحملة مطلع دخولها الأراضي الإسلامية الخاضعة للسلاجقة، وتطرق بالتفصيل إلى موقف الفاطميين من الصليبيين مطلع حملتهم الأولى تجاه بلاد الشام، والتحالف الذي أقاموه معهم من أجل تحقيق أهدافهم في سلب بلاد الشام من أيدي السلاجقة.

كما تناول الفصل الثاني انطلاق الصليبيين من شمال بلاد الشام – بعد أن قاموا باحتلال مدنه – نحو الجنوب من أجل تحقيق هدفهم المنشود المتمثل في احتلال بيت المقدس، وأشار الفصل الثاني إلى احتلال الصليبيين لبيت المقدس وانتزاعه من أيدي الفاطميين، وأثر ذلك على

(1) عن السلاجقة، ينظر: ص65.

العلاقات الودية بين الطرفين، وتناول الفصل أيضاً قيام الصليبيين بتوسيع مملكة بيت المقدس الصليبية الناشئة في بلاد الشام عقب احتلالهم لبيت المقدس، مشيراً إلى موقف الدولة الفاطمية من تلك التوسعات التي تقوض حكم الفاطميين في تلك المدن، واستعرض الفصل الثاني محاولات الفاطميين الحربية التي قاموا بها من أجل استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين، والفشل الذريع الذي مُنوا به أكثر من مرة، وأثر ذلك في استمرار سياسة الصليبيين التوسعية في بلاد الشام.

أما الفصل الثالث فتحدث عن الاحتلال الصليبي لمدن الساحل الشامي، لا سيما تلك المدن الحصينة التي كانت حجر عثرة أمام أطماعهم التوسعية لفترة طويلة بعد تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية، والتي احتاج احتلالهم لها فترات طويلة على مراحل عديدة، متطرقاً إلى موقف الفاطميين من تلك الخطوات التي تهدد بقية أملاكهم في بلاد الشام.

وتناول الفصل نفسه موقف الدولة الفاطمية من مملكة بيت المقدس الصليبية بعد فشل الفاطميين في استرداد بيت المقدس، ودور عسقلان[1] في مواجهة أطماع الصليبيين في مصر وبلاد الشام، وأشار الفصل أيضاً إلى سياسة الصليبيين تجاه مصر التي كانت تعتبر مركز الخلافة الفاطمية، وقيام الصليبيين بمحاولة احتلالها بعد أن أقاموا العديد من الحصون والقلاع التي كان لها دور في تأمين الجهة الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية، وتطرق الفصل إلى سياسة الصليبيين تجاه مدينة عسقلان، وموقف الفاطميين من تلك السياسة.

وتعرض الفصل الثالث إلى حصار الصليبيين لمدينة عسقلان، ثم سقوطها بأيديهم سنة 548هـ/ 1153م بعد أن صمدت أكثر من خمسين سنة أمام محاولاتهم المتكررة لاحتلالها، وأثر سقوطها على الفاطميين، واختُتِم الفصل الثالث بالحديث عن موقف الفاطميين من الصليبيين عقب سقوط عسقلان بأيديهم، وعلاقة كل من الطرفين بنور الدين محمود[2].

أما الفصل الرابع والأخير، والذي بعنوان "الصراع الزنكي الصليبي على مصر وأثره في سقوط الدولة الفاطمية"، فتضمن الحملات التي قام بها أسد الدين شيركوه[3] – قائد نور الدين

---

(1) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص122.

(2) نور الدين محمود: هو الملك العادل أبو القاسم محمود بن أتابك زنكي بن أقسنقر التركي، ولد سنة 511هـ/ 1118م، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن، تملّك حلب بعد وفاة أبيه، ثم أخذ دمشق سنة 549هـ/1154م، وتوفي سنة 569هـ/ 1174م، وكان – رحمه الله تعالى– أحسن الملوك سيرة، وأعدلهم حكماً. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص187؛ الذهبي: العبر، ج3، ص58؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج25، ص108_111.

(3) شيركوه: هو أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان بن يعقوب، وُلد في بلدة دُوِين في أذربيجان، ونشأ بتكريت، ويرجع أصل أهله إلى الأكراد الرَوَادّية، وأنكر بعضهم نسبتهم إلى الأكراد، وقالوا بأن أصولهم عربية وتزوجوا من الأكراد، وقد أصبح شيركوه من أكبر أمراء عماد الدين زنكي، وبعد وفاة زنكي أصبح شيركوه من أكبر أمراء ابنه=

محمود – على مصر، بغرض إعادتها إلى المذهب السني، وردها إلى الخلافة العباسية، والعمل على إعادة الوحدة بين مصر وبلاد الشام في سبيل مواجهة الخطر الصليبي المتفاقم في بلاد الشام، وتطرق الفصل إلى موقف الفاطميين والصليبيين من تلك الإجراءات.

كما تناول الفصل الرابع تولي صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب الوزارة للفاطميين بمصر عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه، ودوره في إلغاء الخلافة الفاطمية، وإنهاءه للحكم الفاطمي في مصر تدريجياً؛ كي لا يثير بقايا الفاطميين وأنصارهم في مصر.

واخْتُتِم الفصل الرابع بالحديث عن التآمر الفاطمي الصليبي ضد صلاح الدين الأيوبي، والمحاولات الحثيثة التي قام بها الطرفين من أجل تقويض حكمه بمصر، والتخلص منه كلٌّ حسب مصلحته، حيث وجد بقايا الفاطميين ضرورة استعادة الحكم الفاطمي، والدعوة الفاطمية بمصر، كما رأى الصليبيون خطر انتزاع صلاح الدين لمصر من أيدي الفاطميين، على اعتبار أن سيطرة صلاح الدين عليها وبقاءه بها يمثل الخطر الأكبر على الوجود الصليبي في الشرق.

وأخيراً انتهت الدراسة بخاتمة تعرض أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

أما عن العقبات التي واجهت الباحث فتتمثل في تناثر المادة العلمية في المصادر التاريخية، عوضاً عن ندرة الدراسات التاريخية التي تناولت رسم صورة حقيقية لتلك الحقبة المثيرة للجدل من التاريخ الإسلامي، وقد تم التغلب على تلك العقبات من خلال المثابرة، والبحث الجاد عن المصادر التي تجمع في ثناياها تلك المعلومات والحقائق، لا سيما مصادر التاريخ الإسلامي.

وتظل هذه الدراسة عملاً متواضعاً في تاريخ العلاقات السياسية والعسكرية التي سادت خلال الحروب الصليبية، دراسة سعت إلى تسليط الضوء على فترة تعد من أهم الفترات التي مرت بها الأمة الإسلامية في تاريخ العصور الوسطى، وعلى علاقات أثارت تساؤلات العديد من مؤرخي العصور الوسطى قبل أن تثير المهتمين من المؤرخين المعاصرين.

فإن أحسنت فبتوفيق من الله – عز وجل– ، وإن قصرت فمن نفسي والشيطان.

= نور الدين محمود. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص195؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ص438؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص438؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص148.

دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

أ- المصادر التاريخية:

تعد المصادر التاريخية من أهم المصادر التي يمكن الرجوع إليها في دراسة الحقب التاريخية السابقة، وإذا ما تحدثنا عن موضوع الدراسة فإن مصادرها التاريخية شملت مادة وافية وغزيرة عنها، لا سيما تلك المصادر المعاصرة، والقريبة من الأحداث التي تناولتها الدراسة، ومن أبرز المصادر التاريخية للدراسة:

1- كتاب ذيل تاريخ دمشق:

وهو للمؤرخ أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي الشهير بابن القلانسي، ولد سنة 472هـ/1079م، وقد اهتم كثيراً بدراسة العلوم الدينية والأدب، وأمضى معظم حياته في ديوان الإنشاء في دمشق، وأصبح رئيساً له مرتين، وكان لذلك أعظم الأثر في الاطلاع على كافة الأمور والأحداث، وقد أحجمت كتب التراجم عن ذكر تفاصيل حياته رغم أن أسرته من أعظم الأسر مكانة في دمشق، وتوفي ابن القلانسي في شهر ربيع الأول سنة 555هـ/ مارس 1160م[1].

وترجع أهمية كتاب ذيل تاريخ دمشق إلى أن مؤلفه كان معاصراً للأحداث التي دونها في كتابه لاسيما موضوع الحملة الصليبية الأولى، وسار ابن القلانسي في تاريخه على طريقة الحوليات، وبدأه بسنة 363هـ/974م.

وقد أفاد تاريخ ابن القلانسي الدراسة كثيراً، خصوصاً أنه تحدث عن بداية دخول الفاطميين إلى بلاد الشام، وأسباب كراهية سكان بلاد الشام للفاطميين، عوضاً عن أنه تحدث عن علاقات الفاطميين بالقوى السياسية التي كانت في بلاد الشام آنذاك.

كما أمدنا الكتاب بحوادث الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، وموقف القوى الإسلامية منها، متطرقاً إلى موقف الدولة الفاطمية من الصليبيين عند احتلالهم لمدن بلاد الشام، واستطرد ابن القلانسي في تاريخه الحديث عن علاقات الفاطميين السياسية والعسكرية بالصليبيين، خاصة عند قيام الصليبيين باحتلال مدن الساحل الشامي، وانتزاعها من أيدي الفاطميين.

---

(1) الذهبي: سير، ج20، ص388_389؛ العبر، ج3، ص23؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص290؛ الأغا: الحياة الاجتماعية، ص13، هامش 1.

2- الكامل في التاريخ:

وصاحبه المؤرخ عز الدين بن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني الشهير بابن الأثير الجزري، ولد بالجزيرة الفراتية[1] سنة 555هـ/1160م، وكان ابن الأثير إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب[2].

وابن الأثير مؤرخ أصيل، ناقد الفكر، ينظر للحوادث العظيمة نظرة فاحصة، ويربط بين جزئياتها وما يتصل بها من حوادث؛ ففي كلامه عن احتلال الصليبيين لأنطاكية[3] سنة 491هـ/ 1098م يقول :"كان ابتداء ظهور دولة الفرنج، واشتداد أمرهم، وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها سنة 478هـ/1085م، فملكوا مدينة طُلَيْطُلَة[4]، وغيرها من بلاد الأندلس... ثم قصدوا... وتطرقوا إلى أطراف إفريقية[5]... وخرجوا إلى بلاد الشام"[6]، وبذلك يضع ابن الأثير الحروب الصليبية في إطارها الطبيعي من حركة التاريخ الإنساني.

وكتاب الكامل من أشهر كتب التاريخ، وأحسنها ترتيباً وتنسيقاً، وعلاوة على ذلك فإنه يعد من أهم المصادر التي تناولت الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة وحتى سنة 628هـ/1230م.

لقد أفاد كتاب الكامل الدراسة في جميع فصولها، وذلك بدءاً بالحديث عن دخول الفاطميين إلى بلاد الشام، وموقف سكان بلاد الشام منهم، مروراً بتناول دخول السلاجقة إلى بلاد الشام، كما أمدّنا الكتاب بمعلومات مهمة أفادت الدراسة في الحديث عن العلاقات الحربية التي دارت رحاها بين الصليبيين والفاطميين في بلاد الشام، باعتبارها جزء من العلاقات السياسية والعسكرية بين

---

(1) الجزيرة الفراتية: هي المناطق التي تقع بين نهري دجلة والفرات، وسميت بالجزيرة لأنها تقع بينهما، بها مدن جليلة، وحصون وقلاع كثيرة. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص134.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348.

(3) أنطاكية: هي قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، وهي موصوفة بالنزاهة والحسن، وطيب الهواء، وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه، وتعد بلداً عظيماً ذا سور له ثلاثمائة وستون برجاً، وقد تناوب على حكمها الروم أحياناً، والمسلمون أحياناً أخرى. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص266-269. الثغور: جمع ثغر، وهو الموضع الذي يكون حدًّا فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار. ابن منظور: لسان العرب، ص486.

(4) طُلَيْطُلَة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالاندلس تتصل بوادي يقال له وادي الاندلس، وتقع على شاطئ نهر تاجه. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص39_40.

(5) إفريقية: هو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية، ينتهي آخرها إلى بلاد الأندلس، والجزيرتان – صقلية والاندلس– في شماليها، فصقلية منحرفة إلى الشرق، والأندلس منحرفة إلى الغرب. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص228.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص119.

الفاطميين والصليبيين فترة الحروب الصليبية.

وإلى جانب كتاب الكامل فإن الدراسة قد أفادت أيضاً من كتاب الباهر في الدولة الأتابكية للمؤرخ نفسه، والذي سار فيه ابن الأثير أيضاً على طريقة الحوليات، وتحدث فيه عن الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي، وصراع ابنه نور الدين مع الصليبيين، وسياسته تجاه الدولة الفاطمية.

3- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:

للمؤرخ جمال الدين بن محمد بن سالم أبو عبد الله المازني التميمي المعروف بابن واصل، كان فقيهاً شافعياً، ولد في مدينة حماة[1] سنة 604هـ/1208م، وتلقى فيها علومه، ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق وبيت المقدس وبغداد والقاهرة وغيرهم من المدن، ونبغ في علوم كثيرة، وله عدة مصنفات، وقد أقام ابن واصل في مصر فترة طويلة، وعاصر الحملات الصليبية المتأخرة، وسقوط الدولة الأيوبية، وقيام الدولة المملوكية، وتوفي سنة 697هـ/1298م[2].

ويعد كتاب مفرج الكروب من المصادر المهمة التي تناولت تاريخ الأيوبيين، وتعود أهمية الكتاب لكثرة ما يحويه من تفاصيل عنهم، إذ يعد أوفى كتاب لتاريخ دولة بني أيوب، وقد ألّف ابن واصل كتابه على طريقة الحوليات، وكانت إفادة الكتاب كبيرة عند تناول الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين، وموقف الفاطميين من ذلك، ثم قيام صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية في مصر.

4- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية:

للمؤرخ عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم المقدسي الشافعي، أصله من القدس، ولد بدمشق سنة 599هـ/1203م، وعُرف بأبي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، وكان فقيهاً شافعياً[3].

وقد جاء كتاب الروضتين على طريقة الحوليات معتمداً على معلوماته لمعاصرته للأحداث التي كتبها، وعلى مصنفات المؤرخين الذين عاشوا في الأحداث التي سبقت مولده كابن القلانسي وابن الأثير.

---

(1) حماة: مدينة كبيرة عظيمة، كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار، واسعة الرقعة، حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم، تأخذ مائها من نهر العاصي. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص300.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، مقدمة المحقق، ج1، ص4.

(3) أبو شامة: الروضتين، مقدمة المحقق، ج1 ، ص7؛ الزركلي: الأعلام، ج3، ص299.

ويعد كتابه من الكتب المهمة، وذلك لمعاصرته للأحداث التي كتبها، وقد بدأ كتابه بأحداث سنة 548هـ/1153م، وانتهى بأحداث سنة 589هـ/1193م، وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين الأيوبي، وتناول كتابه سيرتي نور الدين محمود وصلاح الدين، والأحداث التي جرت في عهدهما لا سيما الصراع مع الصليبيين، وقد جاءت تفاصيل كثيرة في كتابه عن الصراع الإسلامي الصليبي في مصر وبلاد الشام، وكانت تلك المعلومات دقيقة، وتفوق أحياناً ما ذكر في كتب أخرى، لا سيما عند الحديث عن الحملات التي سيرها نور الدين محمود إلى مصر، وموقف الصليبيين والفاطميين منها.

وإلى جانب كتاب الروضتين، كتب أبو شامة مؤلفات أخرى أفادت الدراسة في بعض مواضعها، ككتاب الذيل على الروضتين، وكتاب عيون الروضتين.

5- كنز الدرر وجامع الغرر:

للمؤرخ ابن أيبك، وهو أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، نشأ وعاش بالقاهرة، وكان شغوفاً بالعلم والمعرفة، ومهتماً بالأدب والأخبار والتاريخ، وقد أحجمت المصادر التاريخية عن ذكر تفاصيل كثيرة عن حياته، كما أنه لم يتحدث كثيراً عن نفسه في تاريخه[1].

ومن أبرز مؤلفات ابن أيبك التي أفادت الدراسة كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، والذي يتكون من تسعة أجزاء، ولكل جزء عنوان خاص به يختلف عن غيره، ويختص كل جزء بدولة أو فترة محددة، وتقتصر إفادة الدراسة من كتابه على الجزأين السادس والسابع من كتابه.

فأما الجزء السادس فهو بعنوان الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، ويختص بذكر الخلفاء الفاطميين بمصر، وبدأه ابن أيبك بحوادث سنة 359هـ/970م حتى سنة 554هـ/1159م، واقتصر كتابه على الجمع والتلخيص والنقل عمّن سبقه من المؤرخين[2].

وقد أفاد هذا الجزء الدراسة في فصولها الأولى، وذلك عند الحديث عن علاقات الدولة الفاطمية بدويلات بلاد الشام، وكذلك عن أوضاع الفاطميين الداخلية، وعن علاقاتهم مع الصليبيين أيضاً.

أما الجزء السابع، والذي بعنوان الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، فقد أفاد الدراسة في فصولها الأخيرة، خاصة عند الحديث عن الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين على

---

(1) ابن أيبك: الدرة المضية، مقدمة المحقق، ص8_9.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص628؛ ابن أيبك: الدرة المضية، مقدمة المحقق، ص14؛ كنز الدرر، مقدمة المحقق.

مصر، وموقف الفاطميين من ذلك الصراع.

6- صبح الأعشى في صناعة الإنشا:

للمؤرخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، ولد سنة 756هـ /1355م في قلقشندة[1]، ونشأ وتوفي في القاهرة، وفي أبنائه وأجداده علماء أجلاء[2].

وكتاب صبح الأعشى يبيّن لنا سعة اطلاع مؤلفه، وكثرة معلوماته، ودقته، وفكره الثابت، وذهنه الصافي، حيث أنه برع في اللغة العربية نظماً ونثراً، وكتب في الإنشاء.

ويعد الكتاب موسوعة علمية في التاريخ والجغرافيا والسياسة والأدب وغير ذلك من العلوم، ويحتوي الكتاب على النصوص الإدارية والتجارية والمعاهدات والاتفاقيات، وبعض المعلومات الجغرافية التي أفادت الدراسة.

وإلى جانب كتاب صبح الأعشى فقد أفادت الدارسة أيضاً من كتابي مآثر الإنافة، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للمؤرخ نفسه، لا سيما عند الحديث عن نسب الفاطميين، وغيرهم من القبائل التي مر ذكرها في متن الدراسة.

7- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا:

لتقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك[3] بالشام، وينسب إلى حارة المقارزة (إحدى حارات بعلبك في أيامه)، ولد في القاهرة سنة 766هـ/1365م، ونشأ بها. تولى والده بعض وظائف القضاء وكتب التوقيف بدار الإنشاء، وبرع المقريزي في الأدب وغيره من العلوم، وذاع صيته في البلاغة والإنشاء، وجالس الأئمة وتأثر بهم وولي الحسبة والخطابة مرات عدة، وتولى ديوان الإنشاء سنة 788هـ/1386م، واتصل بأمراء المماليك في أيامه، وعرضوا عليه تولي قضاء دمشق بعد أن دخلها سنة 810هـ/1408م، فأبى وعاد إلى مصر، ومات في القاهرة سنة 845هـ/1441م[4].

---

(1) قلقشندة: هي بلدة حسنة المنظر، كثيرة البساتين، تقع إلى الشمال من مدينة القاهرة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص403. ذكرها ياقوت الحموي باسم قرقشندة. معجم البلدان، ج4، ص327.

(2) القلقشندي: مآثر الإنافة، مقدمة المحقق؛ الزركلي: الأعلام، ج1، ص177.

(3) بعلبك: مدينة قديمة بالشام، وتبعد عن دمشق غرباً 12 فرسخاً، وفيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة. الحموي: معجم البلدان: ج1، ص453. الفرسخ يساوي 5544 متراً. الزحيلي، وهبة: الفقه الإسلامي وأدلته، ج1، ص75.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، مقدمة المحقق، ص11_12؛ إغاثة الأمة، مقدمة المدقق، ص3_4؛ الزركلي: الأعلام، ج1، ص177؛ مصطفى، شاكر: التاريخ والمؤرخون العرب، ج3، ص140.

أما عن كتابه اتعاظ الحنفا فيعد أوفى مصدر في التاريخ الفاطمي، إذ يتناول سيرتهم منذ نشأة دولتهم بالمغرب ومشكلة نسبهم، ثم انتقالهم إلى مصر حتى انتهاء دولتهم، وبذلك يكون الكتاب قد أفاد الدراسة في جميع فصولها.

وإلى جانب كتاب اتعاظ الحنفا فقد أفادت الدراسة أيضاً من كتب أخرى للمقريزي وهي:

أ- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، والمعروف بـ "الخطط المقريزية":

يتناول هذا الكتاب مدينة القاهرة منذ تأسيسها، وخططها، وأوضاعها الاجتماعية والفنية والاقتصادية، إلى جانب الأوضاع السياسية في بعض الأحيان، وقد أفاد الكتاب الدراسة في هذه المواضيع.

ب- المقفَّى الكبير:

يحتوي هذا الكتاب على تراجم المصريين الذين نشأوا وتعلموا وأقاموا بها، والأحداث التي مروا بها في حياتهم، وقد أفاد الكتاب موضوع الدراسة في الحديث عن تلك الشخصيات، لا سيما التي كان لها دور في التاريخ السياسي للفاطميين.

ج- السلوك لمعرفة دول الملوك:

يعج كتاب السلوك كتاب حوادث ومجريات، سار فيه المقريزي على طريقة الحوليات، تناول فيه الحديث عن فترة حكم الدولتين الأيوبية والمملوكية، وقد أفاد الدراسة في آخر فصولها، لاسيما عند الحديث عن الصراع الزنكي الصليبي على مصر، وموقف الفاطميين من ذلك الصراع.

د- إغاثة الأمة في كشف الغمة:

يتناول هذا الكتاب الأوضاع الاقتصادية السيئة، والمجاعات التي مرت بها مصر منذ أقدم العصور حتى سنة 808هـ/1406م، وأثر ذلك على مصر، وقد أفاد الكتابُ الدراسة في الحديث عن المجاعات التي مرت بها مصر في العصر الفاطمي، وأثر تلك المجاعات على أوضاع مصر السياسية.

8- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة:

للمؤرخ أبي المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي، ولد سنة 813هـ/1410م، ونشأ على يد عدد من علماء الدين في القاهرة، ثم لازم المقريزي وأخذ عنه التاريخ وشغف به، وهوايته هذه جعلت منه المؤرخ الكبير، ويضاف إلى ذلك ما استطاع الاطلاع

عليه من معلومات، وأخبار عصره نتيجة صلاته الواسعة مع البلاط السلطاني في العهد المملوكي، وتوفي ابن تغري بردي سنة 874هـ/1470م [1].

أما عن كتابه النجوم الزاهرة فهو سرد لتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي لها حتى سنة 872هـ/ 1468م، وقد اختلف ابن تغري بردي في طريقه طريقة الحوليات إذ جعل كل فترة من فترات الملوك والسلاطين فصلاً قائماً بذاته، ثم ذكر السنين وحوادثها تباعاً داخل الفصل، وما يميز هذا الكتاب اهتمامه الواسع بالتاريخ الفاطمي خاصة السياسي منه، وبذلك كان الكتاب مصدر مهم من مصادر هذه الدراسة.

ب- كتب الجغرافيا والرحلات:

لقد قدمت مؤلفات المؤرخين المسلمين الجغرافية معلومات قيمة عن الكثير من المدن والقرى التي ذُكرت في الدراسة، وعلاوة على ذلك فقد حددت أماكن وقوع تلك المدن والقرى بالنسبة للبلدان والأمصار.

أما عن كتب الرحلات فقد أفادت الدراسة أيضاً في معلومات مهمة لا تقتصر على الجانب الجغرافي والمشاهدات، بل تعدت إلى تناول العلاقات السياسية والحربية في بعض الأحيان، ومن أهم كتب الجغرافيا والرحلات التي أفادت الدراسة:

1- صورة الأرض:

للمؤلف أبي القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي، عاش في القرن الثالث الميلادي/ العاشر الهجري، ويعد ابن حوقل أحد التجار الرحالة المثقفين الذين عرفوا خصائص الأقاليم، وطبائع الشعوب، وتدوين ذلك[2]، وقد أفاد الكتاب الدراسة عند تناول الأقاليم والمدن التي ذكرها في كتابه لا سيما مدن مصر وبلاد الشام.

2- سفرنامة:

وصاحبه الرحالة ناصر خسرو المولود سنة 394هـ/1003م في خراسان[3] لأسرة متوسطة، وتثقف خسرو بثقافة واسعة نتيجة اتصاله بحكام خراسان، وقام برحلات طويلة في العالم

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج1، ص3؛ مصطفى، شاكر: التاريخ والمؤرخون العرب، ج3، ص169.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، ص5.

(3) خراسان: بلاد واسعة تمتد من العراق حتى الهند، وتشتمل على مدن عديدة. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص350.

الإسلامي، فذهب إلى القدس ثم إلى بلاد الحجاز، وحج بمكة المكرمة، ثم زار مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي، وكان قد بدأ رحلاته تلك سنة 437هـ/1045م، وانتهى منها سنة 444هـ/1052م، وقام بوصف الأماكن التي زارها[1].

وكانت رحلته تلك بعد استيلاء الفاطميين على مصر وبلاد الشام بحوالي 100 سنة، وقبل الاحتلال الصليبي لتلك المناطق بحوالي نصف قرن، وقد أفاد الكتاب الدراسة عند وصف العديد من المدن التي وصفها خسرو في كتابه.

3- الاعتبار:

للمؤرخ مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مُقَلَّد بن نصر بن منقذ الكناني الشيزري، ولد سنة 488هـ/1095م، وكان من كبار رجال بني منقذ – حكام قلعة شيزر[2] – وكان أسامة من الرجال المشهورين بالفروسية والشعر، تنقل بين مصر والشام في أيام نور الدين محمود، وخليفة الفاطميين الحافظ لدين الله[3].

وفي أواخر أيامه دوّن كتاب الاعتبار مراعياً أمانة النقل، وصدق الرواية، ودقة الملاحظة، والكتاب متضمن موجز تاريخ العلاقات بين المسلمين والصليبيين، لا سيما عندما مكث ابن منقذ في القاهرة أحياناً، ودمشق أحياناً أخرى، وقد أظهر ابن منقذ دوره في محاربة الصليبيين في بلاد الشام، كما أشار إلى بعض العلاقات السلمية التي طرأت على العلاقة بين المسلمين والصليبيين في بعض الأحيان، وتحدث أيضاً في كتابه الاعتبار عن الحياة الاجتماعية التي سادت بلاد الشام آنذاك، وقد أفاد الكتاب الدراسة عند الحديث عن العلاقات بين نور الدين محمود والفاطميين، وموقفهما من الصليبيين، ودور أسامة بن منقذ في تلك العلاقات.

4- تقويم البلدان:

للمؤرخ والجغرافي إسماعيل بن علي بن محمد بن محمود بن عمر بن شاهنشاه[4] بن أيوب

---

(1) خسرو: سفرنامة، مقدمة المحقق، ص10_23.

(2) شيزر: قلعة بالشام، فتحت على يد الصحابي أبي عبيدة عامر بن الجراح سلماً عام 17هـ/ 638م. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص383.

(3) ابن منقذ: الاعتبار، مقدمة المحرر؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص195_196. الحافظ لدين الله: هو أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز الفاطمي، ولد بعسقلان سنة 467هـ/1074م، وبويع بولاية العهد سنة 524هـ/1130م، ثم استقل بالخلافة سنة 526هـ/1132م، وتوفي سنة 544هـ/ 1149م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص235_236.

(4) شاهنشاه: كلمة فارسية تعني ملك الملوك، أو الملك الأعظم. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص501.

بن شاذي، الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء صاحب حماة، ولد في جمادى الأولى سنة 672هـ/ نوفمبر1273م بدمشق، ثم رحل إلى مصر، واتصل بأمرائها المماليك، وجعلوه سلطاناً مستقلاً في حماة، وقرّب العلماء وحسنت سيرته إلى أن توفي، وقد حفظ أبو الفداء القرآن الكريم وكتباً أخرى، وبرع في الفقه والأصول والعربية والتاريخ والأدب، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب، ونظم الشعر، وأجاد الموشحات، وصنف كتباً عديدة في التاريخ والنحو[1].

أما عن كتاب تقويم البلدان فهو كتاب جغرافي شامل للكثير من القرى والبلدان والإسلامية وغير الإسلامية، وقد أفاد الكتاب الدراسة في توضيح أماكن بعض المدن والقرى التي ذكرت في متن الكتاب، وعوضاً عن ذلك فقد أفادت الدراسة من كتاب المختصر في أخبار البشر في التاريخ للمؤرخ نفسه، وذلك في مواضع عديدة من الدراسة.

5- معجم البلدان:

صاحبه الجغرافي والمؤرخ أبو عبد الله ياقوت شهاب الدين بن عبد الله الرومي الحموي، ولد بين سنتي 574_ 575هـ/ 1178_1179م، وسُمي بالحموي نسبة لمولاه التاجر عسكر بن إبراهيم الحموي، وهو مؤرخ ثقة من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب وغيرها من العلوم، أصله من بلاد الروم، أُسر من بلاده صغيراً واشتراه أحد تجار بغداد، واستخدمه في تجارته، ولمّا توفي مولاه استقل بعمله، وتنقل بين كثير من البلدان، ثم أقام بحلب[2]، وتوفي بظاهرها سنة 732هـ/1331م[3].

استفاد الحموي من رحلاته الكثيرة فوائد جغرافية عديدة سنّت له تأليف هذا الكتاب الذي لا يُعد معجماً جغرافياً فحسب، وإنما هو أيضاً كتاب تاريخ وأدب، ومن أعظم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في الجغرافيا[4]، وبذلك كان هذا الكتاب أهم الكتب الجغرافية الذي تم الرجوع إليها في توضيح أغلب الأماكن التي ذُكرت في الدراسة.

---

(1) الزركلي: الأعلام، ج1، ص319.

(2) حلب: مدينة حصينة تقع في بلاد الشام، وهي عظيمة واسعة، كثيرة الخيرات، طيبة الهواء. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص155؛ الحموي: معجم البلدان، ج2، ص282.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج6، ص127_139؛ الزركلي: الأعلام، ج8، ص131؛ مصطفى، شاكر: التاريخ والمؤرخون العرب، ج2، ص250_251.

(4) الحموي: معجم البلدان، مقدمة المحقق، ج1، ص6.

ت- كتب التراجم:

تظهر أهمية كتب التراجم بشكل جلي في موضوع الدراسة، حيث أن تلك الكتب لها دور كبير في ترجمة سير القادة السياسيين، والزعماء العسكريين، وغيرهما ممن كان لهم دور في التاريخ الإسلامي، وما يتعلق بهم من أحداث، ومن أهم كتب التراجم التي تم الاعتماد عليها في الدراسة:

1- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:

للمؤرخ ابن خلكان، وهو شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد، ولد سنة 608هـ/ 1211م في إربل[1] بالعراق، وقد تفقه في الموصل[2] وبلاد الشام على يد كبار العلماء، ثم توجه إلى مصر، وأقام بها مدة تولى خلالها القضاء، ثم ولي القضاء في بلاد الشام، وكان ابن خلكان شافعي المذهب، بصيراً باللغة العربية، علامة في الأدب والشعر والتاريخ، وولي التدريس في كثير من مدارس دمشق إلى أن توفي في رجب سنة 681هـ/أكتوبر 1282م[3]، وكان ابن خلكان مولعاً بالاطلاع على سير المشهورين، وذلك سبب تأليفه لكتاب وفيات الأعيان إذ يقول:"دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم..."[4].

ويعد الكتاب من أشهر كتب التراجم، ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً، وقد اتبع ابن خلكان ترتيب كتابه حسب الحروف الهجائية من الألف إلى الياء، وقد علل ذلك بالقول :"ليكون أسهل للتناول، وإن كان هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر في العصر... لكن هذه المصلحة أحوَجَت إليه"[5]، وقد دلّ عنوان الكتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان" على طرق جمعه لمعلوماته[6].

وكتاب وفيات الأعيان أهم الكتب التي ذكرت سير السلاطين والملوك والأمراء – لا سيما الأيوبيين والمماليك- الذين كان لهم دور في التاريخ السياسي والعسكري للمسلمين، بالإضافة إلى ذكر تراجم العلماء والأدباء وغيرهم، وقد أفادت الدراسة كثيراً من تلك التراجم.

---

(1) إربل: هي قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، تقع في فضاء من الأرض واسع بسيط، ويقع في طرفها قلعة ذات خندق عميق، وتعد من أعمال الموصل. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص138.

(2) الموصل: هي إحدى قواعد بلاد الإسلام، وتعد باب العراق ومفتاح خراسان، وهي إحدى بلاد الإسلام العظيمة، وسميت بذلك لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق. معجم البلدان، ج5، ص223.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص5_7.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص19.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص20.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص21.

2- سير أعلام النبلاء:

للمؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، حافظ ومؤرخ، علامة ومحقق، برع في علوم الحديث والقراءات والتاريخ، ولد سنة 673هـ/1274م، وفقد بصره سنة 741هـ/1340م، وتوفي في دمشق سنة 748هـ/1347م، وكان قد رحل إلى القاهرة، وطاف كثيراً من البلدان، تصانيفه كثيرة تقارب المائة[1].

ويعد كتاب سير أعلام النبلاء من أكبر الموسوعات التاريخية الشاملة التي بحثت في التراجم والطبقات، والتي غطت ما يزيد عن سبعة قرون من تاريخ رجال الإسلام، وذلك منذ بزوغ الدعوة الإسلامية حتى سنة 746هـ/1345م، وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب في معظم فصول الدراسة، وإلى جانب هذا الكتاب فقد أفادت الدراسة من كتابين للمؤرخ نفسه وهما: تاريخ الإسلام، والعبر في خبر من غبر.

3- الوافي بالوفيات:

للمؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، ولد في صفد[2] بفلسطين سنة 696هـ/1297م، وإليها نسبته، وتعلم في دمشق، وكان مولعاً بالأدب وتراجم الأعيان، تولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، وكان لذلك أعظم الأثر في سعة اطلاعه وغزارة علمه، وله زهاء مائتي مصنف، وتوفي الصفدي سنة 764هـ/1363م[3].

ويعد كتابه الوافي بالوفيات والذي يقع في 29 مجلد موسوعة تاريخية عظيمة، إذ ترجم فيه صاحبه لأكثر من 12,000 شخصية من الخلفاء الراشدين وأعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والوزراء...إلخ، وهو مرتب على حروف المعجم حتى تسهل الاستفادة منه، وقد أفادت الكتاب الدراسة في معظم فصول الدراسة.

وقد أفادت الدراسة من مؤلف آخر للصفدي وهو أمراء دمشق في الإسلام، والذي يتضمن ذكر من ولي إمرة دمشق في الإسلام أو من دخلها من الخلفاء مرتبين على حسب حروف المعجم.

---

(1) الزركلي: الأعلام، ج5، ص326.

(2) صفد: هي بلدة متوسطة بين الكبر والصغر، ولها قلعة ذات بناء جيد، وهي مشرفة على بحيرة طبرية. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص243. ذكر ياقوت الحموي أنها تقع على جبل عاملة. معجم البلدان، ج3، ص412. جبل عاملة: هو جبل ذو قرى نفيسة، وأعناب وثمار وزيتون، يقع إلى الغرب من بحيرة طبرية، ويطل على البحر، ويتصل بجبل لبنان. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص161_162.

(3) الصفدي: الوافي بالوفيات، مقدمة المحقق، ج1، ص13_15.

ثانياً: المصادر التاريخية الأجنبية:

1- يوميات صاحب أعمال الفرنجة:

لم يحدد المؤرخون صاحب هذا الكتاب، ويعد هذا المصدر من المصادر المهمة للحروب الصليبية، وكان المؤرخ المجهول برفقة الأمير النورمندي بوهيموند[1]، إذ أُعجب به وبأعماله، واهتم به أكثر من غيره من قادة الحرب الصليبية الأولى.

وقد بدأ مجهول كتابه بقيام البابا أوربان الثاني[2] بالدعوة إلى الحروب الصليبية في مؤتمر كليرمونت[3] سنة 488هـ/1095م، مروراً بتوجه الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية[4]، ومركّزاً على جيش بوهيموند دون غيره من القادة الصليبيين[5].

ويتضح اشتراك مجهول في الحرب الصليبية الأولى كجندي بقوله (انطلقنا- وصلنا- احتفلنا- مكثنا)، وغيرها من العبارات والألفاظ التي تدلل على وجوده ضمن جيش بوهيموند، راوياً أخباره ببساطة دون تصنع، ومتناسبة مع ثقافته ومكانته كجندي عادي، وما يؤكد وجوده جندياً عادياً عدم اشتراكه كقائد أو أمير أو مبعوث من قبل بوهيموند[6].

---

(1) بوهيموند: هو أمير بارنيو ابن روبرت جيسكارد دوق أبوليا. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص110.
Smith, Jonathan Riley: The crusades A history, p30.

(2) أوربان الثاني (481_492هـ/1088_1099م): هو صديق وتلميذ جريجوري السابع، وهو حامل لواء حركة الإصلاح الكلونية، وتمكن من الإنفراد على عرش البابوية، وهو الذي أطلق جماح الحركة الصليبية. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص87، هامش 3. جريجوري السابع: كان راهباً من أصل توسكاني، تولى الكرسي البابوي بين عامي (465_478هـ/1073 _1085م)، وكان طموحاً حتى أن أعداءه اتهموه بحب السيطرة والسيادة، وفي عهده بدأ الكفاح العنيف بين البابوية والإمبراطورية على الأمور الدنيوية، وفي عهده استقلت البابوية استقلالاً تاماً في الناحيتين الدينية والسياسية. الأغا، حسام: الأوضاع الاجتماعية، هامش1، ص34.

(3) كليرمونت: هي إحدى مدن فرنسا، وتقع خلف جبال الألب (أي أنها تقع في جنوب فرنسا). الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص98.

(4) القسطنطينية: هي مدينة عظيمة جداً، وفائقة الجمال، وقياس محيطها ثمانية أميال، وقد بنيت على شكل مثلث، وأبنيتها في شكلها وهيكلها تشبه أبنية روما، ويمتد جانبان منها على ضفتي ذراع بحري، اسمه ذراع القديس جرجس (البوسفور) في حين يقوم الجانب الثالث على الأرض، والمدينة مزينة بتزيينات متنوعة ومختلفة، وهي قد بنيت من قبل الإمبراطور قسطنطين الذي سماها القسطنطينية. لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص258. للمزيد عن وصف القسطنطينية، ينظر: الحموي: معجم البلدان، ج4، 347_348.

(5) مجهول: يوميات، ص83.

(6) المصدر نفسه، ص84.

ولمّا استحوذ بوهيموند على أنطاكية بعد احتلالها، وقع صراع بين أمراء الحملة الصليبية على أنطاكية خاصة بين بوهيموند وريموند الصنجيلي[1]، فبقي بوهيموند في أنطاكية، وخرج بقية الزعماء من أنطاكية متوجهين نحو بيت المقدس، وخرج المؤلف المجهول معهم ليكمل تدوين أخبار الحملة الصليبية الأولى حتى سنة 492هـ/1099م.

وقد أفاد الكتاب الدراسة في الحديث عن سير الحملة الصليبية الأولى تجاه الشرق الإسلامي، وموقف البيزنطيين ثم المسلمين منها، كما أفاد الدراسة عند تناول الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، وموقف الدولة الفاطمية من الصليبيين أثناء وعقب احتلالهم لبيت المقدس.

2- تاريخ الحملة إلى القدس:

وصاحب هذا الكتاب هو فوشيه الشارتري المولود في فرنسا سنة 450هـ/1058م، أو سنة 451هـ/1059م، واشترك الشارتري في الحملة الصليبية الأولى، وانضم إلى بلدوين الأول – أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية– عندما انشق عن الجيش الصليبي الرئيسي في آسيا الصغرى، وأقام معه في الرها[2] نحو سنتين، ثم مكث في بيت المقدس حتى سنة 521هـ/1127م، وتكمن أهمية الكتاب في كون صاحبه القسيس الخاص لبلدوين الأول، إذ مكنه ذلك من الاطلاع على دخائل الأمور، وأتاح له أن يكون شاهد عيان لأحداث لم يسجلها غيره، فأصبح كتابه مصدراً أساسياً لا يُستغنى عنه في دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ومملكة بيت المقدس الصليبية في عقودها الأولى[3].

وقد جاء كتاب الشارتري في ثلاثة أقسام كلها أفادت الدراسة، بدأ أولها بأخبار البابا أوربان الثاني ومؤتمر كليرمونت، وانتهى بموت جودفري بويون[4] في القدس، وغطى القسم الثاني أخبار

---

(1) ريموند: هو كونت تولوز، كان قد مكث ثلاثين عاماً من عمره في إعادة تجميع أرض أجداده، وعندما شارك في الحروب الصليبية كان في الخمسينيات من عمره، وكان يسيطر على ثلاثة عشر مدينة في جنوبي فرنسا، ويعتبر نسبه من الأنساب المعقدة بسبب زواج والدته من أكثر من رجل.

Smith, Jonathan Riley: The crusades A history, p31.

ويفضل المؤرخون المعاصرون أن يطلقوا عليه لقب كونت صنجيل، وكان أكبر القادة الصليبيين سناً، وقد أمضى بقية حياته في الشرق حيث مات سنة 498هـ/ 1105م في طرابلس. توديبود: تاريخ الرحلة، ص83، هامش2. طرابلس: مدينة بالشام، بينها وبين دمشق تسعين ميلاً. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص253.

(2) الرها: مدينة بالجزيرة تقع بين الموصل والشام. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص106.

(3) الشارتري:، فوشيه: تاريخ الحملة، مقدمة المترجم، ص7_11.

(4) جودفري: هو ابن الكونت يوستاش، وينتمي لعائلة عريقة النسب في الغرب، وكان دوق اللورين بدون أولاد، فتبنّى ابن أخته جودفري ليكون ابناً له، وفي حالة وفاته فإن جودفري يتولى عرش الدوقية، ومن خلال ذلك عرف=

وسياسة بلدوين الأول حتى وفاته سنة 512/ 1118م، أما القسم الثالث فتضمن أخبار بلدوين الثاني[1] حتى وفاته سنة 525هـ/ 1131م.

3- تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس:

للمؤرخ بطرس توديبود، وهو من مواطني مدينة بواتييه بفرنسا، لحق بقوات بوهيموند أثناء الحملة الصليبية الأولى بعد أن رحل إلى إيطاليا، وشارك في حصار أنطاكية، ، ثم ترك بوهيموند والتحق بقوات ريموند الصنجيلي الذي قاد بقية الصليبيين لتحقيق هدفهم المنشود المتمثل في الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ، بل وشارك معه في كل أعمال الحملة حتى احتلال الصليبيين للمدينة المقدسة، وفي معسكر الأخير بدأ توديبود في تدوين تاريخه [2].

وقد أفاد الكتاب الدراسة في فصلها الثاني بشكل كبير، إذ بدأ توديبود تاريخه بالحديث عن دعوة البابا أوربان الثاني لسكان أوروبا للاشتراك في الحملة الصليبية الأولى، ثم استعداد أمراء الغرب للرحيل إلى الشرق، ثم تحدث المؤلف بالتفصيل عن وصول الأمراء الصليبيين إلى القسطنطينية، وينهي تاريخه بالحديث عن معركة عسقلان التي وقعت في رمضان سنة 492هـ/أغسطس 1099م التي انتصر فيها الصليبيون على الفاطميين، وتكمن أهمية الكتاب في أن صاحبه كان مشاركاً في كل الأحداث التي رواها، وشاهد عيان لما ذكره في كتابه.

4- تاريخ الحروب الصليبية:

لوليم الصوري، وهو رئيس أساقفة صور[3]، ولد في مدينة بيت المقدس سنة 524هـ/ 1130م، وقد أمضى عشرين سنة من حياته (540_560هـ/1145_1165م) متنقلاً بين مدن أوروبا – بعد أن سافر إليها- طلباً للعلم، فدرس الفلسفة والرياضيات والقانون، وفي سنة 560هـ

=الأمير جودفري البويوني بدوق اللورين السفلى، وهو أول من تولى عرش مملكة بيت المقدس عقب الاحتلال الصليبي لها. الفيتري: تاريخ بيت المقدس، هامش2، ص30.

(1) بلدوين الثاني: هو بلدوين دي بورج، وينحدر نسله من أسقفية ريمز، وأبوه هو هيج كونت "رينيل"، وأمه كونتيسة مليزاند، وهو قريب بلدوين الأول، وخلفه أولاً في ولاية الرها عام 493هـ/ 1100م، ثم خلفه عندما أصبح ملكاً لبيت المقدس عام 512هـ/ 1118م، واتخذ اسم بلدوين الثاني. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص96، هامش168؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص335_ 336، 342.

(2) توديبود: تاريخ الرحلة، ص27_29.

(3) صور: مدينة مشهورة، سكنها خلق من الزهاد والعلماء، وهي من ثغور المسلمين، وتشرف على بحر الشام – المتوسط –، الذي يحيط بها من جميع جوانبها إلا جانب واحد، وهو الذي منه شروع بابها، وهي حصينة جداً، افتتحها المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه_. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص433.

/1165م عاد إلى الشرق حيث تقلد عدة مناصب دينية كان آخرها رئيساً لأساقفة صور بين سنتي 571_580هـ/1175_1184م، ومنذ سنة 570هـ/1174م عمل وليم الصوري مستشاراً لمملكة بيت المقدس الصليبية، إلى جانب رئاسته لأساقفة صور، وبذلك كان لوليم الصوري اتصالاً بالعديد من رجال البلاط ونبلاء المملكة، وساعده هذا الاتصال على زيادة الوقوف على ما يتطلع إليه من المعلومات التي تساعده في تأليفه[1].

وتأتي أهمية كتاب وليم الصوري في أنه يتناول حقبة طويلة من تاريخ الصليبيين امتدت حتى سنة 580هـ/1184م، وذلك عوضاً عن أنه كان معاصراً لأحداث الحروب الصليبية، وكان شاهد عيان عليها.

وقد أفاد الكتاب الدراسة في معظم فصولها، إذ أنه أمدنا بمعلومات وافرة عن مسير الجيوش الصليبية من أوروبا ثم توجهها إلى القسطنطينية، ثم سيرها إلى آسيا الصغرى ومنها إلى بلاد الشام، وتناول كذلك علاقة الصليبيين بالقوى الإسلامية مطلع دخولهم تلك المناطق.

وأمدنا وليم الصوري بالعلاقات السياسية والعسكرية التي سادت بين الصليبيين والفاطميين منذ احتلالهم لبيت المقدس مروراً باحتلالهم لمدن الساحل الشامي الحصينة، كما بيّن الصوري في كتابه أثر مدينة عسقلان على العلاقات الصليبية الفاطمية، وزودنا بموقف ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية من أملاك الفاطميين بمصر وبلاد الشام.

5- تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس:

للمؤرخ الصليبي ريموناجيل الذي لا يوجد تفاصيل دقيقة لحياته، أو حتى تاريخ محدد لمولده أو وفاته، كما أن المؤرخين لم يحددوا المدينة التي ينتمي إليها رغم أنهم يجمعوا على أنه من كبار الفرسان المقربين من ريموند الصنجيلي – كونت تولوز، وأحد زعماء الحملة الصليبية الأولى– ثم أصبح القسيس الخاص به[2]، ما جعل ريموناجيل على علم بما يدور في مجالس الحرب التي عقدها زعماء تلك الحملة، الأمر الذي يضفي على كتابه أهمية خاصة تجعله لا يقل في قيمته عن تآليف زملائه ممن شاركوا فيها وكتبوا عنها، ولذلك يحتل هذا الكتاب أهمية خاصة، ومكانة مميزة بين مؤلفات غيره من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى[3].

---

(1) الصوري، وليم: تاريخ الحروب الصليبية، مقدمة المترجم، ج1، ص10_25؛ الفيتري، يعقوب: تاريخ بيت المقدس، مقدمة المترجم، ص18، هامش1.

(2) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، المقدمة الإنجليزية للكتاب، ص39_41.

(3) المصدر نفسه، تقديم الكتاب، ص7_8.

وكان ريموناجيل قد بدأ كتابه بالحديث عن الرحلة التي قطعها ريموند الصنجيلي من الغرب الأوروبي متجهاً إلى بيت المقدس، وعلاقته بالإمبراطورية البيزنطية، ثم دخول الصليبيين لآسيا الصغرى، واحتلالهم للعديد من مدن بلاد الشام، مدينة تلو الأخرى إلى أن انتهى باحتلال الصليبيين لبيت المقدس والأحداث التي تلتها، وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب في عرضه لتلك الأحداث.

6- تاريخ بيت المقدس:

ليعقوب الفيتري، وهو من مواليد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ببلدة الفيتري الواقعة على نهر السين بفرنسا، وقد أتم دراسته بباريس ثم أصبح راهباً، وتقلد مناصب دينية عدة، وكان متحمساً للحروب الصليبية على الشرق، وتولى منصب رئيس أساقفة عكا[1] سنة 613هـ/1216م، وتولى أسقفية بيت المقدس سنة 614هـ/1217م، وشارك في الحملة الصليبية الخامسة على دمياط[2] سنة 615هـ_618هـ/ 1218_1221م، وبقي في فلسطين حتى سنة 622هـ/1225م، عاد بعدها إلى أوروبا، واستقال من منصبه الأسقفي، وأصبح ممثل البابا في فرنسا وألمانيا، وتوفي في روما سنة 637هـ/1240م[3].

ويتضح من كتاب تاريخ بيت المقدس أن صاحبه قد نقل الأحداث عن غيره، لا سيما بعد بدء الحملة الصليبية الأولى بأكثر من نصف قرن.

وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب عندما تحدث صاحبه عن احتلال الصليبيين لبيت المقدس سنة 492هـ/1099م، وأثر ذلك على العلاقات بين الصليبيين والقوى الإسلامية- خاصة الفاطميين- في بلاد الشام ومصر.

---

(1) عكا: مدينة حصينة، تقع على ساحل بلاد الشام، وتعد من أحسن بلاد الساحل. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص143.

(2) دمياط: مدينة قديمة تقع بين تنيس والقاهرة على زاوية بين البحر المتوسط والنيل، تتميز بهوائها الطيب وثيابها الفائق. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص472. تنيس: بلد صغير يقع في جزيرة وسط البحر (المتوسط) وأرضها سبخة تقع بالقرب من الفرما، وتشتهر بالثياب الملونة، ويعمل أهلها بصيد السمك. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص201؛ القزويني: آثار البلاد، 176؛ الفرما: مدينة تقع على بحر الشام (المتوسط)، وهي مجاورة لبحيرة تنيس، وليس بها زرع ولا ماء يشرب إلا ماء المطر الذي يخزن وماء النيل الذي يحمل إليهم في المراكب، وتربتها مالحة، فتحها عمرو بن العاص – رضي الله عنه- سنة 18هـ/639م. الإدريسي: نزهة المشتاق، ص357؛ الحموي: معجم البلدان، ج4، ص255_256.

(3) الفيتري، يعقوب: تاريخ بيت المقدس، ص13_15.

وعوضاً عن المصادر التاريخية الأجنبية فقد أفادت الدراسة أيضاً من العديد من كتب الرحالة الأجانب الذين وفدوا إلى مدن بلاد الشام خاصة بيت المقدس، وقاموا بوصفها ووصف ما شاهدوه خلال رحلاتهم تلك.

وتمثل تلك الكتب جزءاً من المصادر المهمة في تاريخ الحروب الصليبية، باعتبار أن تلك الكتب قد وضعها الرحالة الأجانب المعاصرين لفترة الحروب الصليبية والقريبين منها، ومن أبرز كتب الرحالة التي أفادت الدراسة: كتاب وصف بيت المقدس والأراضي المقدسة للرحالة سايولف، وكتاب وصف الأماكن المقدسة للرحالة ثيوديريش.

ثالثاً: الدراسات السابقة:

لقد أثْرت الدراسات السابقة موضوع الدراسة في كثير من مواطنها، ولا يقتصر ذلك الإثراء على فصل بعينه، بل أفادت تلك الدراسات الدراسة في جميع فصولها، وشتى مراحلها التاريخية بدءاً من ظهور الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، ثم سيطرتها على مصر وبلاد الشام، مروراً بعلاقاتها مع القوى المحلية في الشام، ثم علاقاتها مع الصليبيين، وانتهاء بإلغاء الخلافة الفاطمية في مصر، وموقف الصليبيين من ذلك.

كما عرّفتنا تلك الدراسات على اهتمامات الباحثين والدارسين بفترة الحروب الصليبية على الشرق الإسلامي، وما توصلت إليه دراساتهم، خاصة الأوضاع السياسية والعسكرية بين الصليبيين والفاطميين في بلاد الشام ومصر في ذلك الوقت.

وإن من أهم الدراسات السابقة التي أفادت الموضوع هي دراسة الدكتور يوسف الشيخ عيد، والتي جاءت بعنوان "أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين"، والتي تناولت الحركات الباطنية التي وقفت إلى جانب الصليبيين ضد القوى الإسلامية المقاومة إبان وجود الصليبيين في بلاد الشام، وقد تطرقت هذه الدراسة إلى العلاقات بين الصليبيين والفاطميين، ودور الفاطميين في عرقلة جهاد القوى الإسلامية ضد الصليبيين.

ومن الدراسات السابقة التي أفادت الموضوع أيضاً دراسة جلال سلامة، والتي جاءت بعنوان "الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة"، والتي ركزت على حركة الاستيطان الصليبي في فلسطين، متناولة الصراع الذي دار بين الصليبيين والقوى الإسلامية، وإلى جانب هذه الدراسة هناك العديد من الدراسات التي أثرت الدراسة أيضاً ومنها دراسة حسن المسحال والتي بعنوان "عسقلان في فترة الحروب الصليبية"، وقد اهتمت هذه الدراسة بأهمية دور عسقلان في الصراع الإسلامي الصليبي فترة الحروب الصليبية، لا سيما عندما كانت عسقلان رأس حربة الجيوش الفاطمية في

مهاجمة مملكة بيت المقدس الصليبية، وكذلك دراسة الدكتور عادل نبهان والتي جاءت بعنوان "عسقلان منذ منتصف القرن الرابع الهجري، وحتى النصف الثاني من القرن السابع الهجري"، ودراسة عبد الله الغامدي وعنوانها "استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين"، والتي كان لها أهمية وفائدة كبيرة في الفصل الرابع والأخير من الدراسة.

ومن الجدير ذكره أن هذه الدراسة النقدية التحليلية لأهم المصادر والمراجع الإسلامية والأجنبية للدراسة إنما الهدف منه إلقاء الضوء على أهمية بعض مصادر تاريخ الدولة الفاطمية وعلاقتها بالصليبيين، مشيراً إلى أهمية كل مصدر من هذه المصادر المهمة، ومدى قربها أو بعدها من أحداث الحروب الصليبية، ومبيناً مدى اهتمام تلك المصادر بعصر الحروب الصليبية.

الفصل الأول

أوضاع الدولة الفاطمية قبيل الحروب الصليبية في مصر وبلاد الشام

المبحث الأول: نشأة الخلافة الفاطمية بالمغرب وانتقالها إلى مصر وسيطرتها على بلاد الشام

المبحث الثاني: علاقات الفاطميين مع القوى المحلية في بلاد الشام

المبحث الثالث: العلاقات الفاطمية السلجوقية

المبحث الرابع: ضعف الخلفاء الفاطميين وهيمنة الوزراء على الحكم

المبحث الأول

نشأة الخلافة الفاطمية بالمغرب وانتقالها إلى مصر وسيطرتها على بلاد الشام

أولاً: نسب الفاطميين:

نَسَبَ الفاطميون أنفسهم إلى عبيد الله المهدي[1] بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب– رضي الله عنه–[2].

ولم يتفق المؤرخون على صحة هذا النسب، فمنهم من يدعم ذلك الرأي[3]، مستندين إلى ادعاء عبيد الله المهدي بأنه من نسل علي بن أبي طالب– رضي الله عنه– دون تمحيص[4]، وآخرين ينفون نسبهم لآل النبي – صلى الله عليه وسلم– ويقولون بأنه زعم وافتراء، وأن عبيد الله المهدي اسمه سعيد، وكان زوج أمه الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح[5]، وجدُّ القداح هو ديصان أحد الثنوية[6]، الذي يرجع أصله إلى المجوس[7]، وبعضهم ينسبه إلى

---

(1) سُمّي في بعض المصادر باسم عبد الله المهدي. القاضي النعمان: الأرجوزة المختارة، ص192؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص50.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص177؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج19،ص241. وقيل أنه عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهم –. ابن الأثير: الكامل، ج5، ص357؛ وهناك أقوال أخرى، للمزيد، ينظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص190؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص117؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص318؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص50؛ القرماني: أخبار الدول، ج2، ص229.

(3) للمزيد، ينظر: ابن الأثير: الكامل، ج5، ص358؛ أبو الفداء: المختصر، ج1،ص389؛ ابن الطقطقا: الفخري، ص263؛ ابن خلدون: المقدمة، ص27؛ تاريخ، ج4، ص40؛ السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص165_ 166؛ عنان، محمد: الحاكم بأمر الله، ص49.

(4) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص35.

(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3،ص118؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص5؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج19، ص241؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص84؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص28. سُمّي قداحاً لأنه كان كحالاً يقدح العين إذا نزل فيها الماء. ابن الأثير: الكامل، ج5، ص360؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص118؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص5؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج19، ص242؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص84؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص50. أشار المقريزي إلى أن ميمون القداح كان يحمل مذهباً اتسم بالغلو. المقريزي،: الخطط المقريزية، ج2، ص26.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج24، ص23. الثنوية مذهب للمجوس يعتقدون فيه بوجود خالقين اثنين؛ أحدهما يخلق النور، والآخر يخلق الظلمة. ابن أيبك: الدرة المضية، ص17؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص23.

(7) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص27؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص80.

اليهود[1]، وينسبه آخرون إلى القرامطة[2]. ويرى أصحاب هذا الرأي أن عبيد الله المهدي قد بذل الأموال لأشراف ونقباء العلوية لما كذبوا نسبه لإرضائهم وإسكاتهم[3]، ويستدلون على نفي النسب بالحديث الذي جرى بين الخليفة المعز الفاطمي[4](341-365هـ/952-975م) وبين ابن طباطبا[5]، عندما سأله ابن طباطبا عن نسبه أمام أشراف مصر، فَسَلَّ المعزُّ سيفه، وقال: هذا نسبي، ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبي[6].

كما ذكر الثعالبي[7] أن صاحب مصر – يقصد العزيز الفاطمي[8]– كتب إلى المرواني[9] – صاحب الأندلس– كتاباً يسبه ويهجوه فيه، فكتب إليه المرواني :" أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا،

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص358؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص389؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج24، ص22؛ القلقشندي: مآثر الإنافة، ج2، ص258؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص37.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص158_159. والقرامطة ينسبون إلى حمدان بن قرمط الذي ظهر بمدينة الكوفة سنة 278هـ/891م. ابن الجوزي: المنتظم، ج12، ص291. وذكر ابن الجوزي أيضاً في كتابه المنتظم أن هناك أسباب أخرى لتسميتهم بالقرامطة. ج12، ص288-293؛ للمزيد عن نشأة القرامطة، ينظر: ابن الأثير: الكامل، ج5، ص272_275؛ الغزالي: فضائح الباطنية، ص22؛ ابن خلدون: تاريخ، ج3، ص419. والكوفة: مدينة شهيرة تقع في سواد العراق، تم تمصيرها وبناءها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في سنة 17هـ/638م، وقيل سنة 18هـ/639م، وقيل أيضاً أن ذلك كان سنة 19هـ/640م. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص490_491.

(3) البيروني: الآثار الباقية، ص39.

(4) المعز الفاطمي: هو أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله بن المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص224؛ الذهبي: العبر، ج2، ص122؛ القيرواني: المؤنس، ص60.

(5) ابن طباطبا: هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن علي بن الحسن بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب– رضي الله عنه–. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص81؛ الذهبي: سير، ج15، ص496_497.

(6) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص82؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص147؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص187؛ وأشار ابن خلكان إلى أن ابن طباطبا توفي سنة 348هـ/959م، أي قبل دخول المعز لمصر، وذكر بأن صاحب هذه الواقعة كان ابنه أو غيره من أشراف مصر. وفيات الأعيان، ج3، ص82_83.

(7) يتيمة الدهر، ج1، ص360-361.

(8) العزيز الفاطمي: هو أبو منصور نزار بن المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن عبيد الله، ولي العهد بمصر في 14 ربيع الآخر 365هـ/21 ديسمبر 975م، واستقل بالأمر بعد وفاة أبيه. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص371؛ الذهبي: العبر، ج2، ص170؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص116؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص461؛ القيرواني: المؤنس، ص65.

(9) المرواني: هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص231.

ولو عرفناك لأجبناك، والسلام"[1] في إشارة إلى نفي نسب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب– رضي الله عنه–.

وفي بداية ولاية العزيز الفاطمي صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة مكتوب فيها:

إنـــا سمعـــنا قـــولاً منـكراً يُتلـــى على المنبر في الجامعِ

إن كنت فيـما تدَّعي صادقاً فاذكر أباً بعـد الأب الرابـــع

وإن تـــــرد تحقيــق ما قلـته فانسب لنا نفســـــك كالطائـع[2]

أو لا دع الأنســاب مستورة وادخل بنا في النسب الواســـع

فإن أنســـــــاب بني هاشم يَقصُرُ عنها طمــع الطامـــــع[3]

وصعد العزيز يوماً آخر على المنبر فرأى ورقة مكتوب فيها:

بالظلم والجور قد رضيـــــنا وليـــــس بالكفر والحماقـــــة[4]

وقد عُقد في بغداد سنة 402هـ/1011م محضر لقدح نسب الفاطميين لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه –، ووقّع عليه جماعة من القضاة والفقهاء والأشراف، وعدد من كبار العلوية[5]، كما عُقد محضر آخر سنة 444هـ/1052م لنفس الغرض[6]، وعزى بعض المؤرخين عقد تلك المحاضر إلى الصراع المذهبي بين الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر[7].

---

(1) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص232؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص118؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص461. ذكر أبو الحسن الروحي أن هذه الحادثة كانت بين الحكم المستنصر بن عبد الرحمن المرواني والعزيز الفاطمي. بلغة الظرفاء، ص86.

(2) الطائع لله: هو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله، نزل له أبوه عن الخلافة في 13 ذي القعدة سنة 363هـ/5 أغسطس 974م، وكان عمره 43 سنة، وتوفي ليلة عيد الفطر سنة 393هـ/ 2 أغسطس 1003م. ابن الأثير: الكامل، ج6، ص82_83؛ الذهبي: سير، ج15، ص118_119؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص321_324.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص373.

(4) المصدر نفسه، ج5، ص373.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص292؛ الذهبي: العبر، ج2، ص200؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص4. العلوية: نسبة إلى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –. ابن الأثير: الكامل، ج5، ص356.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص533_534؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص336؛ الذهبي: العبر، ج2، ص284؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص48_49؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص55.

(7) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص40؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص27.

يتضح مما سبق أن نفي النسب الفاطمي كان على المستوى الرسمي ممثلاً في الخلافتين الأموية في الأندلس والعباسية في بغداد، وعلى المستوى الشعبي بعدم تقبل المصريين لمذهبهم منذ استيلائهم على مصر، وكذلك نجد أن أعيان العلويين في بغداد طعنوا في هذا النسب.

وسواء صحَّ انتساب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة الزهراء – رضي الله عنهما – أو كان ادعاءً، فإنه كان الدعامة الأساسية التي اعتمد عليها الفاطميون في إقامة دولتهم في المغرب، ثم في مصر وبلاد الشام فيما بعد.

لقد استمد الفاطميون لقبهم من اسم فاطمة الزهراء[1]– رضي الله عنها – بضعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وسموا بالعلويين انتساباً إلى علي بن أبي طالب[2]– رضي الله عنه–، والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن محمد بن جعفر الصادق[3]، وأطلق عليهم اسم العبيديين نسبة إلى جدهم عبيد الله المهدي[4]، كما عرفوا بالمصريين[5] نسبة إلى مصر، باعتبارها ملاذهم السياسي الأخير قبل انتهاء دولتهم[6].

ثانياً: نشأة الخلافة الفاطمية بالمغرب وانتقالها إلى مصر:

نشأت الدولة الفاطمية في المغرب بعد أن دَبَّ الضعف في أوصال الخلافة العباسية[7]، حيث بويع لعبيد الله المهدي بمدينة رُقَّادة[8] يوم الجمعة 21 ربيع الآخر 297هـ/8 يناير 910م[9].

عمل عبيد الله المهدي على توطيد دولته الشيعية بالتخلص من منافسيه، فبادر بقتل داعيته أبي عبد الله الشيعي[10] في 15 جمادى الآخر 298هـ/18 فبراير 911م بعد أن مهّد له المغرب من

---

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج29، ص197؛ القرماني: أخبار الدول، ج2، ص229، 237.
(2) القلقشندي: مآثر الإنافة، ج2، ص248؛ حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج4، ص305.
(3) اليماني: كشف أسرار الباطنية، ص21.
(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص119؛ ابن خلدون: المقدمة، ص27.
(5) العظيمي: تاريخ حلب، ص277.
(6) القلقشندي: مآثر الإنافة، ج2، ص248.
(7) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص198.
(8) رُقَّادة: مدينة بإفريقية، بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة 263هـ/877م، سكنها أبو عبيد الله المهدي إلى أن انتقل إلى المهدية سنة 308هـ/920م. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص55.
(9) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص191؛ الداعي عماد الدين: عيون الأخبار، ص174.
(10) أبو عبد الله الشيعي: هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، وهو من أهل صنعاء باليمن. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص192؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص67–68. ذكر القاضي النعمان بأنه من أهل الكوفة. افتتاح الدعوة، ص26. كما عُرف بأبي عبد الله المشرقي. افتتاح الدعوة، ص39.

الناحيتين الدينية والسياسية[1]، وقام المهدي ببناء مدينة المهدية[2] لحماية ملكه من ثورات المغاربة[3].

لقد أدرك الفاطميون وضعهم غير المستقر في المغرب في ظل ثورات أهلها، وعدم تقبلهم للمذهب الشيعي[4]، كما أدركوا مدى الأهمية الاقتصادية والسياسية لمصر[5] التي كانت في نظرهم ميدان المعركة الحاسمة مع العباسيين، وقاعدة الانطلاق إلى الشام واليمن وأرض الحرمين لإقامة دولتهم على أسس قوية[6].

لذلك لا نعجب إذا رأينا الخلفاء الفاطميين من خلافة المهدي يدأبون على امتلاك تلك البلاد، فقد أرسلوا ثلاث حملات برية وبحرية لتحقيق ذلك الهدف؛ أولها كانت سنة301هـ /913م[7]، والثانية سنة 307هـ/919م[8]، والثالثة سنة 324هـ/936م[9]، وقد استغرقت كل حملة من هذه الحملات مدة سنتين على الأقل؛ إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها في السيطرة على مصر، وضمها إلى سلطان الفاطميين؛ لأن مصر كانت في ذلك الوقت من القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الفاطميين[10].

---

(1) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص43؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص195؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص192؛ الذهبي: العبر، ج1، ص435؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص415.

(2) المهدية: مدينة تقع بالقرب من القيروان، بناها عبيد الله المهدي، وكانت عبارة عن جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند، وبدأ بنائها في 5 ذي القعدة 303هـ/11 مايو 916م، وانتقل إليها في شوال 308هـ/فبراير 921م، وجعلها دار مملكته، وحصنها بالأسوار والأبواب المحكمة. ابن حوقل: صورة الأرض، ص73؛ القزويني: آثار البلاد، ص276. القيروان: مدينة عظيمة بإفريقية بناها القائد المسلم عقبة بن نافع في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما–. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص420.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص404؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص192.

(4) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص97؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص277؛ جمال الدين، عبد الله: الدولة الفاطمية، ص94؛ حسن، حسن وطه شرف: المعز لدين الله، ص68؛ سيد، أيمن: الدولة الفاطمية، ص127؛ فراج، سمير: الدولة الفاطمية، ص49.

(5) سيمينوفا، ل.أ : تاريخ مصر الفاطمية، ص37.

(6) بدوي، جمال: الفاطمية، ص40؛ العبادي، أحمد: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص247.

(7) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص192؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج2، ص178؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص49؛ للمزيد، ينظر: الدشراوي، فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص208–217.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص417؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص181.

(9) الكندي: الولاة والقضاة، ص288؛ القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص200.

(10) حسن، علي: تاريخ جوهر الصقلي، ص25؛ العبادي، أحمد: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص247.

وبعد أن اختلت أحوال مصر سياسياً واقتصادياً[1] تمكن الفاطميون من إدخالها تحت حكمهم، وضمها إلى سلطانهم، وكان ذلك في عهد رابع خلفائهم المعز لدين الله الفاطمي الذي أرسل قائده جوهر الصقلي[2] إلى مصر يوم السبت 14 ربيع أول 358هـ/5 فبراير 969م[3]، ودخلها في يوم الثلاثاء 17 شعبان 358هـ/6 يوليو 969م[4]، ومنح أهلها الأمان[5]، ثم أمر بقطع الدعوة العباسية عن منابر مصر بعد ثلاثة أيام من دخولها[6]، وأقام الخطبة للمعز الفاطمي[7]، وأزال اسم خلفاء بني العباس عن السِّكة، وعوَّض عن ذلك باسم مولاه المعز[8].

نجح جوهر في تثبيت أركان الدولة الفاطمية في مصر ببناء مدينة القاهرة[9] سنة 358هـ/969م[10]، حيث اتخذها الفاطميون عاصمة لملكهم حتى نهاية دولتهم[11]، وعمل جوهر على تغيير البنية المذهبية للمصريين؛ فأمر المؤذنين بذكر(حي على خير العمل) في الأذان[12]،

---

(1) المقريزي: إغاثة الأمة، ص10؛ المقفى الكبير، ج3، ص89؛ كحيلة، عبادة: العقد الثمين، ص240.

(2) جوهر الصقلي: هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب الرومي. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص375؛ الذهبي: سير، ج16، ص467_468. وقد ولد جوهر الصقلي في جزيرة صقلية، وعمل في خدمة الخلفاء الفاطميين. حسن، علي: تاريخ جوهر الصقلي، ص9. ولقبه المعز بلقب مولى أمير المؤمنين. الجوذري: سيرة جوذر، ص135.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص97؛ القيرواني: المؤنس، ص62.

(4) الكندي: الولاة والقضاة، ص298؛ الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص132؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 159؛ الروحي: بلغة الظرفاء، ص150؛ ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص84؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص13؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص317؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص349؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص54؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص599؛ القيرواني: المؤنس، ص62.

(5) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج11، ص172؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج3، ص90؛ الداعي عماد الدين: عيون الأخبار، ص677؛ عنان، محمد: الحاكم بأمر الله، ص29.

(6) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص84؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص221.

(7) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص448؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص441.

(8) ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص426.

(9) كانت القاهرة تسمى بالمنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور والد المعز، ثم سميت باسمه القاهرة المعزية. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص111؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص188؛ القيرواني: المؤنس، ص63.

(10) خسرو: سفرنامة، ص103؛ ابن الأثير: الكامل، ج6، ص53.

(11) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص25؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص318؛ سرور، محمد: تاريخ الدولة الفاطمية، ص65.

(12) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص13؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص448؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج27، ص32؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص317؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص61؛ المقريزي: المقفى=

ولتعزيز ذلك النهج بنى الجامع الأزهر الذي جعله الفاطميون مركزاً لبث عقائدهم، ولنشر ثقافتهم[1].

لما رأى جوهر أن دعائم الحكم الفاطمي قد توطدت في مصر، أرسل إلى الخليفة المعز يدعوه للحضور إلى القاهرة ليستقر بها، وتكون عاصمة خلافته[2]، فسار المعز من المنصورية[3] بعد أن ودعها يوم الاثنين 21 شوال سنة 361هـ/5 أغسطس972م[4] مستخلفاً على المغرب بُلُكِّين[5] الصنهاجي[6]، وكان وصول المعز الفاطمي لمدينة القاهرة في 5 رمضان سنة 362هـ/ 9 يونيو 973م[7]، وبذلك غدت مدينة القاهرة مقر الخلافة الفاطمية بدلاً من المنصورية بالمغرب، وأصبحت مصر داراً للخلافة بعد أن كانت داراً للإمارة تابعة للخلفاء الفاطميين بالمغرب.

ثالثاً: سيطرة الفاطميين على بلاد الشام:

بعد أن فرض الفاطميون سيطرتهم على حكم مصر، تطلعوا إلى مد نفوذهم شرقاً تجاه بلاد الشام؛ لتأمين حدود مصر من ناحية الشرق[8]، ولانتزاع الشام من سلطان الخلافة العباسية، وجعلها

=الكبير، ج3، ص103؛ الداعي عماد الدين: عيون الأخبار، ص694؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص318؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص426

(1) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص85؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص364؛ حسن، علي: تاريخ جوهر الصقلي، ص62؛ كحيلة، عبادة: العقد الثمين، ص240-241.

(2) القيرواني: المؤنس، ص62. كانت الرسائل ترد من جوهر الصقلي إلى المعز بالمغرب باستمرار منذ دخول جوهر مصر. الجوذري: سيرة جوذر، ص135.

(3) المنصورية: مدينة بالقرب من القيروان بناها المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي الفاطمي سنة 337هـ /949م. ابن حوقل: صورة الأرض، ص74؛ الحموي: معجم البلدان، ج5، ص211.

(4) الداعي عماد الدين: عيون الأخبار، ص717.

(5) بُلُكِّين: هو أبو الفتوح بن زيري بن مناد الصنهاجي، ويسمى أيضاً يوسف، لكن بلُكِّين أشهر، وتوفي يوم الأحد 22 ذي الحجة 373هـ/26 مايو 984م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص286.

(6) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص226؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص452؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص331؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص349.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص72؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج5، ص 227؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص295؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص452؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص147؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، 339؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص63؛ القيرواني: المؤنس، ص64. وقيل أن وصوله كان يوم 6 رمضان/10 يونيو. الكندي: الولاة والقضاة، ص298. وذكر آخرون أن دخوله القاهرة كان في 7 رمضان/11 يونيو. الأنطاكي: تاريخ، ص148؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج3، ص108؛ وذكر مؤرخون آخرون أن ذلك كان في 8 رمضان/12 يونيو. ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص215؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ج26، ص249؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص34.

(8) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ مدينة صيدا، ص68.

قاعدة لنشر الدعوة الشيعية[1]، كما أن سيطرة الفاطميين على بلاد الشام تكسبهم عطف عامة المسلمين إلى جانبهم من خلال مواجهة الروم في الجبهة الشمالية للشام[2].

أعد القائد الفاطمي جوهر الصقلي جيشاً كثيفاً أنفذه إلى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح[3] أواخر سنة 358هـ/969م[4]، وكانت مدينة الرملة[5] أولى المدن التي توجه إليها القائد جعفر بن فلاح، وقد أبدى أهالي الرملة مقاومة شديدة بقيادة الحسن بن طغج الإخشيد[6] الذي تقاعس عن نصرته العديد من أمراء بلاد الشام رغم استنجاده بهم، فحلت به الهزيمة[7]، وتم أسره، ثم حُمل إلى مصر[8]، ثم إلى المغرب[9]، وكان جعفر بن فلاح قبل أسر الإخشيد قد تمكن من السيطرة على الرملة عنوة، وقام باستباحتها هو وجنده[10]، وقتل كثيراً من أهلها[11] حتى قصده النابلسي الزاهد[12]

---

(1) العريني، السيد الباز: الشرق الأدنى، ص11؛ فراج، سمير: الدولة الفاطمية، ص189.

(2) حسن، حسن وطه شرف: المعز لدين الله، ص92.

(3) جعفر بن فلاح: هو أبو علي جعفر بن فلاح الكُتَّامي، كان أحد قواد المعز لدين الله الفاطمي، وهو أول من ولي الشام للفاطميين. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص361؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج26، ص201.

(4) ابن القلانسي: ذيل، ص1؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص361.

(5) الرملة: سميت بالرملة لغلبة الرمل بها، وهي تعد قصبة فلسطين، بناها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك – رحمه الله –، وبها سور عظيم من الحجر والجص. خسرو: سفرنامة، ص65؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص241؛ الحميري: الروض المعطار، ص268؛ ابن سباهي زادة: أوضح المسالك، ص351.

(6) المقريزي: المقفى الكبير، ج3، ص51؛ والحسن بن طغج هو: الحسن بن عبيد الله بن طغج بن جف الإخشيدي، وُضع لتدبير أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد، وقيل أن القائد جوهر بعث به مع جملة الأسارى إلى المعز بالمغرب، وقيل أنه مات في القصر، وصلى عليه العزيز نزار بن المعز سنة 371هـ/981م. ابن خلكان، ج5، ص60_61؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج12، ص61_62. وينسب الإخشيديون إلى محمد بن طغج بن جف الإخشيدي من ملوك فرغانة، والإخشيد لقب ملوك فرغانة، وتعني ملك الملوك، وقد أسس الإخشيديون دولة لهم بمصر والشام. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص56_61؛ زامباور: معجم الأنساب، ص143_144.

(7) ابن أيبك: الدرة المضية، ص125,123؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص123.

(8) ابن القلانسي: ذيل، ص1.

(9) الأنطاكي: تاريخ، ص143، 456؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص318.

(10) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص61؛ جمال الدين، عبد الله: الدولة الفاطمية، ص143.

(11) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص53؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج3، ص51.

(12) النابلسي: هو محمد بن أحمد بن سهل بن نصر، أبو بكر الرملي المعروف بابن النابلسي، أحد علماء الرملة، وقد قدَّم قتال الفاطميين عن الروم بقوله :"لو كان معي عشرة أسهم، لرميت الروم سهماً، ورميت بني عبيد بتسعة". قُتل وسُلخ على يد يهودي بأمر من المعز الفاطمي سنة 363هـ/974م. ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص185؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج26، ص310_311؛ العبر، ج2، ص116؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج2،=

فتوقف عن ذلك[1].

بعد أن استقرت الرملة لجعفر بن فلاح استخلف ابنه عليها، ثم توجه نحو طبرية[2] ليستكمل فتح جنوب سورية[3]، وكانت طبرية تحت حكم الاخشيديين[4]، ونجح جعفر في دخولها فسلّم له أهلها، وأقاموا الدعوة الفاطمية بدون قتال[5].

واصل الجيش الفاطمي زحفه بقيادة جعفر نحو دمشق، وعندما وصلها قاتله أهلها قتالاً شديداً[6]، ثم دخلها بعد أن فاوضه جماعة من أشرافها[7]، وأقام بها الخطبة للمعز الفاطمي، وأمر بالنداء في الأذان بـ(حي على خير العمل) في شهر محرم سنة 359هـ/ نوفمبر969م[8]، "فتألم الناس لذلك"[9]، وبعد أيام ثار الشريف ابن أبي يعلى الهاشمي[10] على جند الفاطميين بدمشق، ولبس السواد (شعار العباسيين)، وأعاد الخطبة للمطيع لله العباسي[11]، فأطاعه أهلها[12]، وقد

=ص33_34؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج2، ص285؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص366_367؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج5، ص177. يُنسب النابلسي إلى مدينة نابلُس، وهي: وهي مدينة مشهورة بأرض فلسطين، وتقع بين جبلين، وهي وفيرة المياه، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص248_249.

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص1.

(2) المصدر نفسه، ص1. طبرية: هي بلدة مطلة على بحيرة طبرية من جهة الشرق، وتحيط بها الجبال من جهة الغرب، وكانت قديماً قاعدة الأردن، فتحت على يد الصحابي شرحبيل بن حسنة – رضي الله عنه– سنة 13هـ /634م صلحاً. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص17؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص243.

(3) الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص40.

(4) ابن أيبك: الدرة المضية، ص125؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج3، ص52.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص53؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص61.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص318؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج3، ص53؛ الداعي عماد الدين: عيون الأخبار، ص700؛ زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص80.

(7) المقريزي: المقفى الكبير، ج3، ص54؛ جمال الدين، عبد الله: الدولة الفاطمية، ص143.

(8) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص61؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص164.

(9) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص61.

(10) ابن أبي يعلى: هو الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي، أحد أبرز أشراف دمشق في عصره، وكان جليل القدر، نافذ الحكم في أهلها. ابن الأثير: الكامل، ج6، ص53.

(11) المطيع: هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر بالله بن جعفر بن المعتضد بالله العباسي، ولد سنة 301هـ/913م، وبويع بالخلافة سنة 334هـ/945م، وتوفي سنة 364هـ/975م. الذهبي: سير: ج15، ص113؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص341.

(12) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص61.

استمر الصراع بين الدمشقيين بزعامة الشريف أبي القاسم، والفاطميين بقيادة جعفر حتى عقد صلح بينهما في ذي الحجة سنة 359هـ/ أكتوبر 970م، ويقضي ذلك الصلح بدخول جعفر وجنده دمشق مقابل تأمين أهلها[1].

وبذلك استقام حكم دمشق لجعفر بن فلاح، وأُعيدت الخطبة للمعز الفاطمي، وحذف اسم الخليفة المطيع العباسي[2]، وانتشر المذهب الفاطمي رغم سخط أهل السنة[3].

لم يؤد استيلاء قوات جعفر بن فلاح على دمشق إلى بسط سلطان الفاطميين على جميع أرجاء بلاد الشام، فكان هناك الحمدانيون[4] في حلب، وقد لجأ إليهم كثير من أنصار الإخشيدين، كما أن الروم كانوا يهددون من حين لآخر المدن الشمالية والساحلية ببلاد الشام، كذلك كان لقرامطة بلاد البحرين بعض النفوذ في هذه البلاد منذ أن أغاروا عليها سنة 357هـ/968م[5].

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص62.

(2) الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص41.

(3) الحصني،: منتخبات التواريخ، ج1، ص131؛ الغامدي، علي: بلاد الشام قبل الغزو الصليبي، ص34.

(4) الحمدانيون: ينسبون إلى حمدان بن حمدون، وهم بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية، وكانوا ملكوا الموصل والجزيرة وحلب في أيام الخليفة المكتفي بأمر الله العباسي، وأول من ملك منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان. ابن الأثير: الكامل، ج5، ص335؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص236. المكتفي بأمر الله: هو أبو محمد علي بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل، دامت خلافته ست سنوات ونصف، وتوفي سنة 295هـ/908م. ابن الأثير: الكامل، ج5، ص348.

(5) سرور، محمد: الدولة الفاطمية، ص277.

المبحث الثاني

علاقات الفاطميين مع القوى المحلية في بلاد الشام

أولاً: علاقة الفاطميين بالقرامطة:

نشطت الحركة القرمطية نشاطاً واسعاً في القرن 3هـ/9م في سواد العراق[1]، وقامت بأعمال تخريبية، ثم انتقلت إلى البحرين[2] سنة 286هـ/899م على يد أبي سعيد الجنّابي[3]، الذي تمكن من السيطرة على الأحساء[4] فأسس دولة القرامطة في بلاد البحرين[5]، وأول الأعمال التي قام بها الجنابي هي مهاجمة البصرة[6] التي كانت تحت حكم العباسيين الذين قاموا ببناء سور لحمايتها من هجمات القرامطة[7].

وفي اتجاه آخر كانت صلات المودة والصداقة تربط ما بين دولة القرامطة، وبين الدولة الفاطمية، فكلتا الدولتين على النهج الشيعي تدعو لإمامة آل البيت، وتعترف بأحقيتهم في الخلافة، وقد اعترف القرامطة بخلافة عبيد الله الفاطمي بالمغرب، حيث كانوا "يراسلونه ويدعون إليه ويترامون عليه"[8].

وكان ذلك التحالف المعلن بين القرامطة في المشرق، والفاطميين في المغرب، يستهدف تقويض أركان ودعائم الدولة العباسية، والقضاء عليها تماماً[9]؛ فقد قام القرامطة بزعامة أبي طاهر

---

(1) سواد العراق: هي ضياع العراق التي افتتحها المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–، وسمي بذلك لظهوره باللون الأسود من شدة اخضراره بالزروع والأشجار. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص272.

(2) البحرين: هو اسم جامع لبلاد ما على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص347. المقصود هنا ببحر الهند هو الخليج العربي الذي يشرف على سواحل شبه الجزيرة العربية من الشرق.

(3) الجنّابي: هو الحسن بن بهرام الجنّابي– نسبة إلى جَنَّابة–، كان كبير القرامطة، ظهر سنة 286هـ/899م في البحرين، واجتمع إليه الأعراب والقرامطة، وقوي أمره بهم. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج11، ص314. جَنَّابة: بلدة صغيرة من سواحل فارس. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص165.

(4) الأحساء: مدينة بالبحرين، معروفة ومشهورة، كان أول من عمرها وحصنها أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنّابي القرمطي. الحموي: معجم البلدان ج1، ص112.

(5) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج11، ص314؛ محاسنة، محمد: تاريخ مدينة دمشق، ص90.

(6) البصرة: مدينة إسلامية عظيمة بالعراق، وتسمي بالبصرة لغلظة أرضها. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص430. وقد بنيت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص309.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص304؛ الذهبي: العبر، ج1، ص411.

(8) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص39؛ للمزيد، ينظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص189.

(9) العاوور، صلاح: القرامطة، ص173.

القرمطي[1] بمهاجمة أملاك العباسيين في العراق والشام، ومهاجمة قوافل الحجاج والفتك بهم؛ لتأكيد إخلاصهم وولائهم للدعوة الفاطمية[2]، وليس أَدَلّ على ذلك من قيام القرامطة بزعامة أبي طاهر القرمطي بمهاجمة مكة يوم التروية (8 ذي الحجة) سنة 317هـ/12 يناير929م، حيث تعرضوا للحجيج، وقاموا بقتلهم[3]، كما قتلوا أمير مكة ويُدعى ابن محلب[4]، وقلعوا الحجر الأسود من الكعبة المشرفة وأرسلوه إلى هجر[5]، وكان قلعه يوم الاثنين 14 ذي الحجة/18 يناير[6]، وكان هدفهم من ذلك استبدال مكة بالأحساء وجعلها مركز المسلمين حيث أن الحجر الأسود يجذب المسلمين من أنحاء المعمورة[7]، ولم يرد القرامطة الحجر الأسود إلا سنة 339هـ/ 1003م[8]، وكان ذلك بعد22 سنة إلا أربعة أيام من احتجازه[9]، وذلك بعد أن كتب المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي كتاباً مليئاً بالتهديد لأبي طاهر بعدما بلغه فعله بأهل مكة والحجاج وأخذه للحجر الأسود، وأنكر عليه ذلك[10].

استجاب القرامطة للفاطميين وقاموا برد الحجر الأسود قائلين: "رددناه بأمر من أخذناه بأمره"[11]، وكانوا قد رفضوا رده عندما دفع إليهم العباسيون خمسين ألف دينار [12]، وتظهر تلك

---

(1) أبو طاهر القرمطي: هو سليمان بن الحسن بن بهرام، تزعم القرامطة بعد وفاة أبيه سنة 301هـ/913م. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج15، ص224.

(2) ماجد، عبد المنعم: تاريخ الخلافة الفاطمية، ص71.

(3) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج5، ص115؛ ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص51؛ ابن الأثير: الكامل، ج5، ص476؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص148؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص403؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص93؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج2، ص374_375؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص81. وذكر اليافعي أن عدد من قُتل بمكة ثلاثون ألفاً، وسُبي من النساء والأطفال مثل ذلك. مرآة الجنان ج2، ص204.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج5 ، ص476؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص403. ذكر ابن مسكويه أن اسم أمير مكة ابن مجلب. تجارب الأمم، ج5، ص115. بينما أورد ابن خلدون أن اسمه ابن مخلب. تاريخ، ج3، ص472.

(5) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص403؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج2، ص204؛ ابن خلدون، ج3، ص472. وهجر: هي قاعدة "قصبة" بلاد البحرين. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص393.

(6) ابن فهد: إتحاف الورى، ج2، ص377.

(7) خسرو،: سفرنامة، ص160.

(8) اليافعي: مرآة الجنان، ج2، ص246؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص407.

(9) ابن فهد: إتحاف الورى: ج2، ص395.

(10) ابن خلدون: تاريخ، ج3، ص472؛ العاوور، صلاح: القرامطة، ص173.

(11) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج25، ص43. ذكر ابن عذاري رواية مخالفة لما سبق، وهي أن الحجر الأسود أُرسل إلى عبيد الله المهدي بالمغرب، البيان المغرب، ج1، ص284؛ وأضاف ابن عذاري أن المنصور القائم بن عبيد الله المهدي هو الذي رد الحجر الأسود سنة 339هـ/950م. البيان المغرب، ج1، ص220.

(12) ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص207.

الاستجابة مدى التوافق المذهبي والسياسي – الذي كان سائداً آنذاك – بين الفاطميين في المغرب والقرامطة في المشرق في العمل على تقويض أركان الدولة العباسية.

تمكن القرامطة بزعامة الحسن الأعصم[1] من التغلب على بلاد الشام في ذي الحجة سنة 357هـ/ نوفمبر 968م، وولىَّ عليها أحد أتباعه[2]، كما أجبر الحسن الأعصم الإخشيديين على دفع إتاوة قدرها ثلاثمائة ألف دينار سنوياً[3]، ثم رجع إلى الأحساء سنة 358هـ/ 969م[4].

عندما سيطر الفاطميون بقيادة جعفر بن فلاح على بلاد الشام سنة 359هـ/969م قطعوا الإتاوة التي كان يدفعها الإخشيديون للقرامطة[5]، ولما بلغ القرمطي ذلك، عَظُم عليه؛ لأن المعز كان يهاديه لمّا كان بالمغرب[6]، وقرر القرمطي المسير إلى دمشق والاستيلاء عليها[7]، وشجعه على ذلك زعيم الأحداث[8] محمد بن عصودا، وقائد جند العقيليين ظالم بن موهوب[9]، اللذان هربا إلى الأحساء، وطلبا المساعدة من الأعصم لمواجهة الفاطميين[10]، وكان ذلك إيذاناً بتبدل صلة المودة بين الفاطميين وقرامطة البحرين.

---

(1) الحسن الأعصم: هو الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجَنَّابي، ويُعرف بالأعصم، ولد بالأحساء، وتوفي بالرملة، كان كبير القرامطة في عصره، وتمكن من السيطرة على بلاد الشام. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج11، ص287؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص374.

(2) الصفدي: أمراء دمشق، ص45؛ الوافي بالوفيات، ج11، ص287؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص57.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص68؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص63؛ الدشراوي، فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص392.

(4) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج11، ص287؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص57.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص63؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص78.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص78.

(7) ابن القلانسي: ذيل، ص1؛ محاسنة، محمد : تاريخ مدينة دمشق، ص88.

(8) الأحداث: هم الشباب أو الفتيان حديثي السن. ابن منظور: لسان العرب، ص797. يقصد بالأحداث هنا جماعات من شباب دمشق شكلوا نوعاً من أنواع الميليشيات (الشبيبة البلدية)، واختاروا زعماء منهم مثل: محمد بن عصودا الذي تصدى لجعفر بن فلاح. العاوور، صلاح: القرامطة، ص177، الهامش.

(9) ظالم بن موهوب: هو أمير العرب، وأصله من بني عقيل، قصد دمشق أكثر من مرة إلى أن تغلب على القرامطة بها بمساعدة الفاطميين، ثم استولى عليها سنة 363هـ/974م، وأقام بها الدعوة للمعز الفاطمي. الذهبي: سير، ج16، ص271_272؛ الصفدي: أمراء دمشق، ص104؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص210. العقيليون هم: بنو عقيل بن مرة بن موهوب بن مالك بن سويد، من بني زيد من القحطانية. القلقشندي: نهاية الأرب، ص148.

(10) ابن أيبك: الدرة المضية، ص132؛ الدشراوي، فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص392.

سار الحسن الأعصم إلى بغداد، وطلب من الخليفة المطيع لله العباسي أن يمده بالمال والرجال، وأن يوليه الشام ومصر ليُخرج منها المعز، إلا أن الخليفة المطيع لله امتنع عن مساعدة الأعصم، وقال: "كلهم قرامطة وعلى دين واحد، فأما المصريون (يعني الفاطميين) فأماتوا السنن وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء (يعني القرامطة) فقتلوا الحاج، وقلعوا الحجر الأسود، وفعلوا ما فعلوا"[1].

يتبين مما سبق أن الخليفة العباسي كان يكره التعاون مع القرامطة؛ لأنهم امتداد لأعدائه الفاطميين الشيعة، وبالرغم من أن القرامطة والفاطميين على مذهب واحد، إلا أنه على ما يبدو أن المصالح السياسية هي التي طغت على مذهبهم، وبرفض الخليفة المطيع مساعدتهم لم يحصل القرامطة على صبغة شرعية من الخلافة العباسية في بغداد في مواجهة الفاطميين في بلاد الشام، وبالتالي خسروا كسب عطف أهل الشام المناوئين للسياسة الفاطمية ونهجهم الشيعي.

وعند وصول القرامطة بغداد أمدهم صاحبها عز الدولة بختيار بن بويه[2] بالسلاح، وأمر صاحب الرحبة[3] أبي تغلب بن حمدان[4] بإمداده بأربعمائة ألف درهم، "وبمن كان عنده من الإخشيدية الذين كانوا بمصر، وصاروا إليه لما انهزموا من المغاربة"[5]، وذلك ليتحقق هدف البويهيين في الحفاظ على نفوذهم السياسي[6]، والحمدانيين في بذر الشقاق بين القرامطة في الشرق وأنصارهم الفاطميين القادمين من بلاد المغرب [7]، وبذلك يتبين أن أهل الشرق سُنّة كانوا أو شيعة يكنون العداء للفاطميين الذين سيطروا على مصر وبلاد الشام، ويتمنون زوال دولتهم؛ لأنهم أصبحوا مصدر خطر على مذهب العباسيين السنة، وعلى مصالح القرامطة الشيعة.

سار الأعصم إلى بلاد الشام، ومعه أعلام سود – شعار الخلافة العباسية– كتب عليها

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص78.

(2) عز الدولة بختيار: هو أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة بن معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه الديلمي. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص267. وبنو بويه: ينسبون إلى أبي شجاع بويه الذي يرجع أصله إلى ملوك الفرس، وتمكنوا من السيطرة على مقاليد الحكم في بغداد سنة 334هـ/946م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص174_175؛ الذهبي: سير، ج16، ص231_232.

(3) الرحبة: هي مدينة تقع بين الرقة وبغداد، على شاطئ نهر الفرات. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص34. الرقة: هي مدينة مشهورة تقع شرق نهر الفرات. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص59.

(4) أبو تغلب بن حمدان: هو أبو تغلب بن صاحب الموصل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان التغلبي، قَبض على أبيه، وتملك الموصل ثم سار إلى الرحبة، ثم قصد دمشق، وقُتل على أيدي الفاطميين سنة 369هـ/ 979م. الذهبي: سير، ج16، ص306_307.

(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص126.

(6) حسن، حسن وطه شرف: المعز لدين الله، ص105.

(7) الدشراوي، فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص393.

اسم الخليفة المطيع العباسي، وتحته مكتوب "السادة الراجعون إلى الحق"، وأظهر أن الخليفة المطيع ولاه الشام[1]، في محاولة لكسب ود أهل الشام الذين ضاقوا ذرعاً بسياسة الفاطميين.

عند اقتراب الأعصم من دمشق، جمع جعفر بن فلاح خواصه واستشارهم، فاتفقوا على قتال القرامطة في أطراف دمشق كي لا يتمكنوا منها[2]، فخرج إليهم جعفر – وقد استهان بهم– وواقعهم فانهزم منهم، وأخذ السيفُ أصحابه، ووُجِد جعفر قتيلاً في 6 ذي القعدة 360هـ/31 أغسطس971م على الطريق خارج دمشق، فجاءه محمد بن عصودا فقطع رأسه وصلبه على حائط داره ثأراً لأخيه إسحاق الذي قتله جعفر وصلبه[3].

بعد أن استقر الحسن الأعصم بدمشق أمر بلعن الخليفة الفاطمي المعز وأبيه على منابر المدينة، وأعلن بطلان نسبهم لآل النبي – صلي الله عليه وسلم–، وأقام الدعوة لبني العباس، وأمر بحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة[4]، وقد لقي عمله هذا ترحيباً من أهالي المدينة؛ ويرجع سبب ذلك إلى كونهم من السنيين المعادين للشيعة[5]، وبذلك نجح القرامطة في استعادة دمشق، وأحسنوا معاملة أهلها[6]، في محاولة لتكريس وجودهم في بلاد الشام على حساب الخلافة العباسية التي كانت تئن ضعفاً في ذلك الوقت، وبدلاً من الوجود الفاطمي الغير مرغوب فيه من قبل سكان بلاد الشام.

توجه الأعصم بعد ذلك إلى الرملة وكان بها رجلاً من الفاطميين يقال له سعادة بن حيان[7]، أرسله جوهر الصقلي لمهمة تحصين المدينة والدفاع عنها من خطر القرامطة[8] الذين تمكنوا من دخولها دون مقاومة، بعد خروج سعادة إلى يافا[9]، في ظل مساندة أهالي مدن الشام

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص78.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص68؛ العاوور، صلاح: القرامطة، ص179.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص127.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص78.

(5) سرور، محمد: تاريخ الدولة الفاطمية، ص281.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص68.

(7) ابن القلانسي: ذيل، ص2. سعادة بن حيان: قائد مغربي أرسله المعز مدداً لجوهر في جيش كبير سنة 360هـ/971م، ثم ولاه جوهر مدينة الرملة، ثم عاد إلى مصر بسبب حملات القرامطة، توفي في محرم 362هـ/أكتوبر972م. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص128، 130، 132. كما ذكره المقريزي باسم معاذ بن حيان. الخطط المقريزية، ج2، ص686.

(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص128؛ المقفى الكبير، ج2، ص686.

(9) يافا: بلدة ساحلية مشهورة، كثيرة الرخاء، كانت حصناً كبيراً، وفيها أسواق عامرة بالتجار، وبها ميناء كبير فيه مرسى المراكب الواردة إلى فلسطين والمقلعة منها إلى كل بلد. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص239.

للقرامطة الذين أبدوا تسامحهم واهتمامهم بمصالح السكان منذ دخولهم الشام ومواجهتهم للفاطميين.

وقد ترتب على ذلك فشل الفاطميين في التغلغل في بلاد الشام، وعودة دمشق إلى حظيرة القرامطة، الذين تشجعوا على استعادة كل الشام من أيدي الفاطميين، فتوجهوا إلى مدينة يافا وفرضوا حصارهم عليها، إلا أنهم اضطروا لفك الحصار لقلة مؤنهم[1].

لقد أطمعت الانتصارات التي قام بها الحسن الأعصم في بلاد الشام إلى التفكير في غزو مصر، فتوجه إليها بعساكر جمة بعد انضمام القبائل العربية في جنوب الشام إليه[2]، بغية القضاء على الحكم الفاطمي الذي لم يكن قد استقر بعد[3]، وعندما علم جوهر الصقلي بذلك أقام خندقاً عظيماً حول القاهرة[4]، وقام بتحصينها[5]، وفرق السلاح على جنده الفاطميين[6].

وفي ذي الحجة 360هـ/ أكتوبر 971م، شنّ القرامطة هجوماً على مدينة القُلزُم[7]، وأخذوا واليها الفاطمي عبد العزيز بن يوسف وما كان له من خيل وإبل، وخرجت مدينة تنيس على واليها الفاطمي، واعترفت بسلطان القرامطة، وأعلن سكانها عصيان جوهر الصقلي[8] في إشارة إلى رغبة سكان مصر– أو بعض مدنها على الأقل– في التخلص من الحكم الفاطمي لهم، وذلك يبين عدم اقتناع ورضا سكان مصر بمذهب وسياسة الفاطميين تجاههم.

تمكن القرامطة من بلوغ عين شمس[9]، بعد أن قتلوا خمسمائة رجل من أهلها، وغنموا

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص63؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص58.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص327؛ الداعي عماد الدين: عيون الأخبار، ص714؛ جودة، صادق: مدينة الرملة، ص103.

(3) حسن، حسن وطه شرف: المعز لدين الله، ص113.

(4) ابن أيبك: الدرة المضية، ص144. وقد ذكر المقريزي في الخطط المقريزية أن القائد جوهر الصقلي قام ببناء القاهرة؛ لتكون حصناً منيعاً للفسطاط من القرامطة في الشرق، وأنه احتفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام القرامطة مدينة القاهرة وما ورائها. ج2، ص55؛ للمزيد، ينظر: مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص6.

(5) مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص6.

(6) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص687؛ الداعي عماد الدين: عيون الأخبار، ص715.

(7) القُلزُم: مدينة مبنية على بحر القُلزُم – الأحمر– وإليه تنسب، وليس بها زرع ولا ماء ولا شجر، ويحمل إليها الماء من آبار بعيدة، ومنها تحمل حمولات مصر والشام إلى الحجاز واليمن. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص388. وبحر القُلزُم: هو شعبة من بحر الهند – المحيط الهندي – أوله من بلاد البربر والسودان وعدن، وفي آخره مدينة القُلزُم بمصر. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص344.

(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص129_130؛ حسن، علي: تاريخ جوهر الصقلي، ص48.

(9) عين شمس: مدينة كبيرة تقع بين الفسطاط وبلبيس، تبعد عن مدينة الفسطاط ثلاثة فراسخ، وكانت تعتبر قصبة كورة أتريب. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص178. بلبيس: مدينة عن الفسطاط بمسافة عشرة فراسخ على طريق=

أموالهم وأسلحتهم ودوابهم[1]، "وفي مستهل ربيع الأول361هـ/22 ديسمبر 971م، التحم القتال[بين الفاطميين والقرامطة] على باب القاهرة، وكان يوم جمعة فقُتل من الفريقين جماعة، وأُسر جماعة، وأصبحوا يوم السبت متكافئين، ثم غدوا يوم الأحد للقتال، وسار الحسن الأعصم بجميع عساكره، ومشى للقتال على الخندق والباب مغلق، فلما زالت الشمس فتح جوهر الباب واقتتلوا قتالاً شديداً، وقُتل خلقاً كثيراً ثم وَلىّ الأعصم منهزماً"[2]، وقد استولى الفاطميون على ما تركه القرامطة من الأسلاب في ميدان القتال[3]، وعرض جوهر الأموال الكثيرة على من يأتي بالقرمطي أو برأسه[4].

وقد ترتب على ذلك النصر القضاء على الروابط التي تربط الأعصم بالإخشيدية والكافورية[5]، فانفضوا من حوله، ودخل بعضهم في طاعة الفاطميين، وقبض على بعضٍ آخر، واستعاد الفاطميون الفرما وتنيس[6].

عاد القرامطة إلى الشام، وجَدُّوا في حصار يافا التي حاول جوهر إنجادها بالمراكب التي سيطر عليها القرامطة، ولم ينج منها إلا القليل[7]، وشددوا حصارهم عليها حتى أكل أهلها الميتة، وهلك أكثرهم جوعاً، وقد سار الأعصم عنها إلى الأحساء، وترك عليها قائديه ظالم بن موهوب العقيلي، وأبي الهيجا بن منجّا[8]، إلا أنهما قاما برفع الحصار عن يافا بسبب وقوع خلاف بينهما،

=الشام. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص479. الكورة: هي المدينة أو الصقع. ابن منظور: لسان العرب، ص3954. أتريب: اسم كورة في شرقي مصر مسماة بأتريب، وهو من سلالة نوح عليه السلام. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص87.

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص2.

(2) الأنطاكي: تاريخ، 146_147؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص130؛ الخطط المقريزية، ج2، ص687؛ المقفى الكبير، ج3، ص106.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص68؛ حسن، علي: تاريخ جوهر الصقلي، ص50.

(4) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص687.

(5) الكافورية: ينسبون إلى أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي، الذي ترقى في الوظائف لدى زعماء الإخشيديين إلى أن جعله محمد بن طغج الإخشيد أتابكاً لابنيه أنوجور وعلي، ثم استولى على أمور مصر والشام بعد وفاة أبو الحسن علي بن محمد بن طغج الإخشيد سنة 326هـ/938م، وخُطب له بمصر والشام والحجاز إلى أن توفي سنة 356هـ/967م. الذهبي: سير، ج16، ص190_191.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص2؛ حسن، حسن وطه شرف: المعز لدين الله، ص115.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص327؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص64.

(8) أبو الهيجا بن منجّا: هو عبد الله بن علي ويكنى أيضاً بأبي المنجّا، أحد أصحاب الحسن الأعصم بن أحمد القرمطي، وكان يرجع إليه لحسن رأيه وسياسته، استخلفه الأعصم على دمشق بعد انهزامه من الفاطميين، أسره ظالم بن موهوب في رمضان 363هـ/يونيو974م، وأرسله إلى مصر هو وابنه في قفصين. الصفدي: الوافي=

الفرصة التي استغلها جوهر، فأرسل جيشاً تمكن من التصدي للقرامطة الذين تقهقروا إلى دمشق[1]، وبذلك نجح الفاطميون في استرداد معظم فلسطين من أيدي القرامطة.

لما علم الأعصم بسقوط يافا عاد من الأحساء – بعد أن أخمد ثورة بها– إلى الشام، وعمل على توطيد نفوذ العباسيين بعد أن أقره الخليفة المطيع العباسي على العرش، فأخذ يلعن الخلفاء الفاطميين على المنابر، وينفي نسبهم إلى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه–[2]، وبذلك يتضح أن الخلافة العباسية في هذه المرة استغلت نفوذ القرامطة السياسي في العمل على إضعاف الدولة الفاطمية الشيعية، والعمل على استعادة نفوذهم على بلاد الشام بالرغم من الخلاف المذهبي بين العباسيين والقرامطة.

تمكن الأعصم من استعادة هيبته واسترداد نفوذه في بلاد الشام حتى "قويت أيدي القرامطة في الشام"[3]، واستمر الأعصم في عدائه للفاطميين فجهز مراكب محملة بالمقاتلين، وسيرها إلى مدينة تنيس، وغيرها من سواحل مصر[4]، "والتف معه أمير العرب ببلاد الشام، وهو حسان بن الجراح الطائي[5] (358–368هـ/968–977م) في عرب الشام بكمالهم"[6] لينزعوا مصر من الفاطميين[7]، ولما اشتد الحال بجوهر كتب إلى المعز بالقيروان ينبئه خطورة الموقف؛ فغادر المعز المهدية في المغرب، ووصل إلى القاهرة في رمضان سنة 362هـ/يونيو 973م[8].

وعلى ما يبدو فإن عظم الحشد الذي جمعه الأعصم من القرامطة وعرب الشام، جعلت المعز لدين الله يفكر في أساليب غير عسكرية لمواجهته؛ فكتب لامعز إلى الأعصم كتاباً عنوانه: "من عبد الله ووليه، وخيرته وصفيه، سعد بن أبي تميم المعز لدين الله، أمير المؤمنين، وسلالة

=بالوفيات، ج26، ص12؛ أمراء دمشق، ص104. يسميه ابن كثير بأبي المنجّا. البداية والنهاية، ج15، ص348. ذكر ابن خلدون أن اسمه أبي اللجاء. تاريخ ، ج4، ص64.

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص188؛ العاوور، صلاح: القرامطة، 180.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص188؛ حسن، حسن وطه شرف: المعز لدين الله، 116_ 117.

(3) الداعي عماد الدين: عيون الأخبار، ص731.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص188_ 189.

(5) حسان بن الجراح: هو حسان بن مفرج بن دغفل بن جراح الطائي، وهو أحد زعماء أسرة بني جراح من قبيلة طيء، وكان على قدر كبير من القوة والدهاء. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 4، ص 252؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص203.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص347.

(7) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص601.

(8) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص64؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص58؛ المعاضيدي، خاشع: الحياة السياسية، ص38.

خير النبيين، ونجل علي أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد"[1]، لاستمالته إلى جانبه، متبعاً أسلوب الترغيب والترهيب، فذكره بأجداده الذين وقفوا إلى جانب الخلفاء الفاطميين "إن دعوة آبائك إنما كانت إلى آبائي قديماً، فدعوتنا واحدة"[2]، ثم اتهمه بالخروج عن الإسلام، وندد بانضمامه إلى العباسيين، وعاب عليه موقفه من جعفر بن فلاح، وسعادة بن حيان[3]، ثم عرض المعز على الأعصم شروطاً ثلاث، أولها: فداء نفسه ومن معه بجعفر بن فلاح وسعادة بن حيان ومن كان معهما، وردّ كل ما كان معهم، وثانيها: أن يردهم أحياء، وثالثها: أن يسير هو ومن معه إلى المعز ليحكم فيهم بما يراه[4].

لم يكترث الحسن الأعصم بكتاب المعز، وأجابه بخطاب موجز سخر فيه من المعز، فقال فيه: "وصل كتابك الذي قلّ تحصيله، وكَثُر تفصيله، ونحن سائرون إليك، والسلام"[5].

لمّا رأى المعز لدين الله الفاطمي عظم الحشد الذي جمعه القرامطة، وأيقن بأنه ليس قادراً على قهرهم عسكرياً في ساحة المعركة، عمد إلى الحيلة والدهاء لتفكيك التحالف بين القرامطة وعرب الشام، فقام بمراسلة ابن الجراح واستمالته ووعده بمائة ألف دينار – صنعها المعز من النحاس وطلاها بالذهب ووضعها في أكياس– إن تخلى عن القرمطي[6].

وعندما اشتدت المعركة بين القرامطة والفاطميين انسحب ابن الجراح بمن معه من العرب، فلحقت الهزيمة بالقرامطة الذين اضطروا للانسحاب إلى بلاد الشام[7]، وعاد الأعصم إلى الأحساء[8]، وبذلك تمكن الفاطميون من انتزاع بلاد الشام من القرامطة باستمالتهم لابن الجراح، وإرسالهم حملات عسكرية لمطاردة فلول القرامطة في الشام[9].

عين المعز الفاطمي ظالم بن موهوب العقيلي والياً على دمشق سنة 363هـ/974م[10]،

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص189.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص347.

(3) ابن أيبك: الدرة المضية، ص152_153؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 195، 198.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص199.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص64؛ للمزيد، ينظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص202؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص347.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص3؛ ابن أيبك: الدرة المضية، 159، ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص347.

(7) ابن أيبك: الدرة المضية، 160؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص 64.

(8) ابن القلانسي: ذيل، ص3؛ فوزي، فاروق ومحسن حسين: الوسيط في تاريخ فلسطين، ص105.

(9) ابن أيبك: الدرة المضية، 160؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص206.

(10) ابن القلانسي: ذيل، ص4؛ ابن خلدون: ج4، ص64.

بعد أن ترك نصرة الأعصم القرمطي، وتمكن ظالم من إخضاع دمشق، وقبض على أبي الهيجا – زعيم القرامطة– ومن معه، وأرسلهم إلى القاهرة[1].

عاد القرامطة إلى مسرح السياسة سنة 365هـ/976م عندما استعان بهم أفتكين[2] التركي لمواجهة الفاطميين[3]، حيث قدم الحسن الأعصم من الأحساء إلى دمشق، ثم زحف برفقة أفتكين إلى الرملة، وجبى القرامطة المال من أهلها[4].

بعد وصول قوات أفتكين والأعصم إلى الرملة أُجبر جوهر على الانسحاب إلى عسقلان، فاستغل الأعصم الفرصة، ففرض الحصار عليه حتى كاد يهلك هو ومن معه من الجوع؛ لذلك اضطر جوهر لمفاوضة أفتكين، واتفقا على انسحاب جيش جوهر إلى مصر بعد أن بذل له مالاً[5]، فلما وصل القرمطي وبَّخ أفتكين على ذلك قائلاً له: "لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته، وجوهر ذو رأي وحزم ودهاء ومكر، وقد استقلك بما عقده معك، وسيرجع إلى صاحبه ويحمله على قصدنا، ثم لا يكون لنا به طاقة فيأخذنا،[وطلب منه العودة عن هذا الاتفاق] ومن الصواب أن ترجع عن ذلك حتى يهلك هو وأصحابه جوعاً وتأخذهم بالسيف"، إلا أن أفتكين رفض أن يرجع عن ذلك[6].

أغرى جوهر الصقلي العزيز الفاطمي بأن يخرج بنفسه لقتال أفتكين والقرمطي[7]، فأخذ العزيزُ العساكر لذلك، وسار وجوهر في مقدمته، فتأهبا كلاً من أفتكين والأعصم في الرملة، حيث اصطف الطرفان للمعركة التي انتهت بالقبض على أفتكين سنة 368هـ/978م[8].

قام بعد ذلك العزيز بمراسلة الحسن الأعصم، واتفقا على أن يدفع الفاطميون ثلاثين ألف دينار له ولأصحابه ترسل إليهم كل سنة، ويكونوا على الطاعة والموادعة، وحمل إليه مال سنة، وأضيف إليه ثياب كثيرة وخيل، واستحلفه العزيز على الوفاء، وانسحب القرامطة إلى الأحساء، وعاد

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص64؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص210؛ المقفى الكبير، ج1، ص128.

(2) أفتكين: هو مولى معز الدولة بن بويه، ويسمى هفتكين، وقد تمكن من التغلب على دمشق، ثم خرج على العزيز الفاطمي، فهُزم منه وهرب أفتكين ثم قُبض عليه، وحُمل إلى العزيز فأطلقه، وأحسن إليه إلى أن توفي سنة 372هـ/982م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، 54؛ الذهبي: سير، ج16، ص307؛ تاريخ الإسلام، ج26، ص550.

(3) ابن الشدياق: أخبار الأعيان، ص656.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص238.

(5) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص456؛ كرد علي، محمد: خطط الشام، ج1، ص205.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص18.

(7) ابن أيبك: الدرة المضية، ص180؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66.

(8) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص 386_387.

العزيز إلى مصر ولم يزل المال المقرر يُعطى للأعصم إلى أن مات[1].

أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم، حتى أن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم، واضطروا للهجرة إلى جزيرة أوال[2] حيث انتقم منهم أعداؤهم، وانتهز الخليفة العزيز هذه الفرصة لاستمالة هؤلاء القرامطة وإعادتهم ثانية إلى طاعة الفاطميين، واستمر ولاء القرامطة للفاطميين حتى زالت دولتهم من جزيرة "أوال" سنة 458هـ/1066م، ثم من البحرين بعد أن قضى السنّيون عليهم سنة 470هـ/1077م[3].

ثانياً: موقف الفاطميين من أفتكين التركي:

طُبعت دمشق بطابع ثوري منذ امتداد النفوذ الفاطمي إليها، وقد أخطأ الولاة الفاطميون في سياستهم نحو الأهالي الذين فضّلوا حكم القرامطة عن الفاطميين؛ لأنهم أمَّنوا الأهالي ووفروا لهم الهدوء، وقد تميزت الفترة التي بدأت منذ سنة 363هـ/974م بالاضطرابات الشديدة نتيجة كثرة تبديل الولاة الفاطميين[4].

وقد أدت تلك الاضطرابات إلى إضعاف الحكم الفاطمي بدمشق، ومهدت السبل لدخول مزيد من الأتراك بزعامة أفتكين إلى بلاد الشام واستقرارهم بها، وبذلك واجه الفاطميون عنصراً جديداً لعب دوراً مهماً في مناهضة نفوذهم في هذه البلاد[5]، وكان أفتكين قد خرج من بغداد سنة 363هـ/974م بعد أن ساءت علاقته ببختيار البويهي[6].

استقر أفتكين بحمص[7] فكاتبه أهل دمشق للمجيء إليها، وعندئذ هرب واليها الفاطمي ريان الخادم[8]، وغلب أفتكين على دمشق[1] بعد أن أعانه أهلها وأشرافها الذين رحبوا بقدومه وطلبوا

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص20.

(2) أوال: هي جزيرة بالبحر بناحية البحرين، فيها نخل كثير وبساتين. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص274.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص118؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص61؛ العاوور، صلاح: القرامطة، ص184.

(4) الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص43.

(5) سرور، محمد: تاريخ الدولة الفاطمية، ص288.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص94.

(7) ابن القلانسي: ذيل، ص11. ذكر الصفدي أن أفتكين نزل قريباً من حمص. أمراء دمشق، ص108، وأيده على ذلك ابن خلدون. تاريخ، ج3، ص533. حمص: مدينة مشهورة كبيرة وقديمة ومسوّرة، وتقع بين دمشق وحلب، الحموي: معجم البلدان، ج2، ص302.

(8) ريان الخادم: كان والياً على طرابلس فأمره المعز بالمسير إلى دمشق سنة 363هـ/974م. ابن القلانسي: ذيل، ص10_11.

منه الإقامة عندهم، والنظر في أحوالهم، ودفع الأذية التي لحقت بهم نتيجة سياسة الفاطميين تجاههم[2]، فاستجاب لهم أفتكين، وحقق لهم الأمن، وقطع الخطبة للمعز الفاطمي، ودعا للخليفة الطائع العباسي، وكان ذلك في شعبان سنة 364هـ/ ابريل 975م[3]، وهكذا لم يكد يستقر النفوذ الفاطمي في بلاد الشام بعد إخراج القرامطة حتى ظهرت قوة جديدة مناهضة للنفوذ الفاطمي في بلاد الشام، وبالتالي ازدادت متاعب الفاطميين بالشام.

بعد استقرار أفتكين بدمشق واستتباب الأمن له بها، قام بمراسلة المعز الفاطمي بمصر مظهراً ولائه له، فطلب المعز منه الحضور إلى القاهرة ليقرّه على ولايته بدمشق، لكنه رفض الذهاب خشية تعرضه لمكيدة يدبرها له الخليفة المعز[4]، فتجهز المعز لمحاربته، وأعد العساكر لذلك، إلا أن الموت عاجله، وحال دون تحقيق ذلك[5].

استغل أفتكين موت المعز سنة 365هـ/975م فقصد مدن ساحل الشام، فبدأ بصيدا[6] فحاصرها، وبرز إليه الفاطميون فاقتتلوا، وانتصر عليهم، وقتل منهم أربعة آلاف، ثم سار إلى عكا فحاصرها، وقصد طبرية، وفعل فيها مثلما فعل في صيدا، ثم عاد إلى دمشق[7]، وبذلك أصبح أفتكين سيد بلاد الشام.

حاول العزيز الفاطمي استمالة أفتكين[8] مثلما فعل والده المعز، فرد عليه أفتكين بغلظة وقال: "هذا بلد أخذته بالسيف ما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً"[9]، فغضب العزيز من رد أفتكين، واستشار وزيره يعقوب بن يوسف بن كلّس[10] بذلك، فأشار عليه بإرسال القائد جوهر

---

(1) الصفدي: أمراء دمشق، ص108_109؛ القلقشندي: مآثر الإنافة، ج1، ص316.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص11؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص169؛ ابن خلدون: تاريخ، ج3، ص534.

(3) الذهبي: العبر، ج2، ص130؛ الصفدي: أمراء دمشق، ص109؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص371، ص164؛ الحصني: منتخبات التواريخ، ص132؛ خرابشة، سليمان: حركة الأمير أفتكين، ص115.

(4) ابن القلانسي، ذيل، ص12؛ خرابشة، سليمان: حركة الأمير أفتكين، 116_117.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج3، ص534، ج4، ص65.

(6) صيدا: مدينة تقع على ساحل بحر الشام، وتعد من أعمال دمشق. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص437.

(7) ابن أيبك: الدرة المضية، ص176_177؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، 238_239.

(8) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص22.

(9) ابن القلانسي: ذيل، ص15.

(10) يعقوب بن كِلّس: هو يعقوب بن يوسف أبو الفرج بن كِلّس وزير العزيز الفاطمي صاحب مصر، كان يهودياً من أهل بغداد، ثم توكل للتجار بالرملة، فانكسر وهرب إلى مصر، فأسلم بها، ثم دخل على المغرب، وخرج مع المعز إلى مصر، فلما مات استوزره ابنه العزيز سنة 365هـ/976م. ابن القلانسي: ذيل، ص82؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص240؛ الذهبي: سير، ج16، ص442_443؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج2، ص308.

لقتاله[1]، ولما علم أفتكين بمسير جوهر جدّد عهده مع الدماشقة الذين أعلنوا تضامنهم معه في وجه أي قوة تهدد وجودهم، وأعلنوا أنهم مستعدون للدفاع عن دمشق حتى الموت[2]، حيث أن "أهل دمشق يأبون المغاربة لمخالفتهم في الاعتقاد، ولأنهم أمويون، ولقبح سيرة الناظرين الذين كانوا عليهم"[3]. ويدلل ذلك على أن أسباب بغض أهل دمشق خاصة والشام عامة للفاطميين ترجع إلى أنهم على غير مذهبهم، ولأن أهل دمشق على مذهب أهل السنة باعتبارها كانت مركز خلافة بني أمية، إضافة إلى سوء تعامل الولاة الفاطميين الذين وُلّوا على دمشق.

جهز العزيز جيشاً بقيادة جوهر الصقلي لاسترداد دمشق من أفتكين، وأعطاه أماناً وكتاباً بالعفو عن أفتكين إن سلّم بدون قتال[4].

دخل جوهر بلاد الشام في ذي القعدة 365هـ/ يوليو 976م[5]، ولم يستجب أفتكين للأمان الذي منحه له جوهر بأمر من العزيز الفاطمي، ونشبت حرب بينه وبين جوهر استمرت مدة شهرين[6]، جرى خلالهما أكثر من أربعين وقعة بين الطرفين، وظهر من أفتكين وأصحابه شجاعة عظيمة[7]، إلا أن أفتكين اضطر لمكاتبة الحسن الأعصم، بعد أن أشار أهل دمشق عليه بذلك لدفع الفاطميين ومحاربتهم[8].

استمرت الحرب بين أفتكين وجوهر، وفي تلك المرحلة انهزم أفتكين، وعزم على الفرار إلى بلاد الروم، ثم ثبت عندما بلغه قدوم الأعصم من الأحساء إليه[9]؛ رغبة في الانتقام من الفاطميين لما حل بالقرامطة على أيديهم من هزائم عسكرية في سنتي (361هـ و363هـ/971م و973م)[10]، فلما اقترب القرامطة من دمشق رحل جوهر عائداً إلى جهة مصر فدخل طبرية[11]، ثم سار أفتكين والأعصم في أثره، واجتمع معهما خلقٌ عظيم فلحقوا جوهراً قرب الرملة[12] بخمسين ألف فارس،

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص15؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66.
(2) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66؛ جودة، صادق: مدينة الرملة، 112.
(3) ابن القلانسي: ذيل، ص16.
(4) المصدر نفسه، ص16؛ جمال الدين، عبد الله: الدولة الفاطمية، ص152.
(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66.
(6) ابن القلانسي: ذيل، 16.
(7) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص22.
(8) ابن القلانسي: ذيل، ص16؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص238.
(9) ابن أيبك: الدرة المضية، 179؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج3، ص110.
(10) خرابشة، سليمان: حركة الأمير أفتكين، ص123.
(11) ابن القلانسي: ذيل، ص16.
(12) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص456.

ونازلوه بالقرب من نهر الطواحين[1]، فارتحل إلى عسقلان وحاصروه بها[2] حتى أشرف جوهر وعسكره على الهلاك من الجوع؛ فراسل جوهر أفتكين، وبذل له أموالاً عظيمة على أن يمن عليه ويطلقه، فرحل عنه أفتكين وسار جوهر إلى مصر[3]، وندد الحسن الأعصم بموقف أفتكين من جوهر، وطلب منه أن يعود عن ذلك، فرفض أفتكين[4].

خرج العزيز بنفسه من مصر لقتال أفتكين والأعصم، وكان أول لقاء بينهما بظاهر الرملة في محرم367هـ/سبتمبر977م، وبعث العزيز إلى أفتكين يدعوه إلى الطاعة فرفض[5]، واستطاع العزيز إيقاع الهزيمة بأفتكين بعد أن قتل عشرين ألفاً من جنده، ومضى أفتكين هارباً، ووعد العزيز بإعطاء من يأتي به مائة ألف دينار[6]، وكان أفتكين قد لجأ إلى صديقه المفرج بن دغفل الطائي (368_404هـ/978_1013م) بعد أن أعياه العطش مع مجموعة من جنده، وقام المفرج بتسليمه للفاطميين، ليأخذ الجائزة التي بذلها العزيز فيه[7].

وبأسر أفتكين استطاع الفاطميون استعادة قبضتهم على المناطق التي كانت تخضع لهم، وكان ذلك في المحرم 368هـ/ أغسطس 978م، وقد أحسن العزيز لأفتكين وأكرمه[8] إلى أن توفي بسمٍّ دسه له الوزير يعقوب بن كلّس[9].

وبذلك تمكن العزيز بمهارته السياسية وقوته العسكرية أن يُفشل حركة أفتكين التركي في بلاد الشام، فاستعاد الفاطميون نفوذهم عليها، واستعادوا حكم مدينة دمشق، كما أوقفوا هجمات القرامطة على المنطقة عن طريق اجتذاب العزيز للقرامطة، وعقد الصلح معهم على الطاعة والموادعة، إلا أن حكم الفاطميين لبلاد الشام بقي غير مستقر خاصة في مدينة دمشق، بسبب استمرار الشغب بين أحداث المدينة والجيش الفاطمي[10].

---

(1) الطواحين: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين بالشام. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص45.
(2) ابن القلانسي: ذيل، 16_17؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66.
(3) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص456؛ الحصني: منتخبات التواريخ، ص133.
(4) ابن القلانسي: ذيل، ص18.
(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66.
(6) ابن القلانسي: ذيل، ص19؛ زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، 82.
(7) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66.
(8) ابن القلانسي: ذيل، 20؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص239؛
(9) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص67؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص371.
(10) محاسنة، محمد: تاريخ مدينة دمشق، ص103.

لقد بيّنت حركة أفتكين التركي كره أهل دمشق للفاطميين ولمذهبهم الشيعي، وتمسكهم بالمذهب السني، ومساندتهم لأي حاكم يرغب في التخلص من الحكم الفاطمي لهم، كما أظهرت حركة أفتكين أهداف القرامطة المتمثلة في الحكم والانتقام من الفاطميين، وأهداف أفتكين في الرئاسة والزعامة.

ثالثاً: العلاقات بين الفاطميين وبني الجراح:

لم تنته متاعب الفاطميين في فلسطين وبلاد الشام الجنوبية بهزيمة أفتكين التركي وحلفائه القرامطة أمام الجيش الفاطمي الذي قاده العزيز، فقد ظهرت قوة جديدة مناهضة للفاطميين في بلاد الشام متمثلة في زعماء القبائل العربية المحلية الذين استغلوا ضعف النفوذ الفاطمي في جنوب الشام[1].

ومن أشهر تلك القبائل بني الجراح الذين تمكنوا من تأسيس كيان سياسي مستقل لهم في جنوب بلاد الشام سنة 358هـ/ 968م[2]، والذين شاركوا بزعامة قائدهم حسان بن الجراح الطائي القرامطة في حربهم ضد الفاطميين سنة 363هـ/974م، فتوجهوا نحو مصر بعد أن وحدوا قواهم بزعامة الحسن الأعصم[3]، ولم يجد العزيز الفاطمي بداً من استمالة ابن الجراح إلى جانبه ووعده بمائة ألف دينار إن تخلى عن الأعصم[4]، فتم تنفيذ الاتفاق وهُزم الأعصم كما مر آنفاً.

وقد توثقت علاقة الفاطميين ببني الجراح عندما قدموا لهم المساعدة في مواجهة أفتكين التركي، وتسليمه للعزيز الفاطمي سنة 368هـ/978م[5]، وقد كافأ العزيز بني الجراح بأن جعل فلسطين للمفرج بن دغفل بن الجراح[6]، وكان الدافع الحقيقي وراء هذا التعيين ضمان عدم معارضة بني الجراح للفاطميين في بلاد الشام، باعتبار أن بني الجراح أقوى عرب الشام خاصة بعد توقف غارات القرامطة، واحتواء المقاومة التي كانت بزعامة أفتكين[7].

تمكن المفرج بن دغفل من فرض سيطرته على الرملة وما جاورها معلناً طاعة العزيز

---

(1) عثامنة، خليل: فلسطين، ص268.

(2) زامباور: معجم الأنساب، ص160.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص347؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص600_601؛

(4) ابن أيبك: الدرة المضية، ص159؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص347؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص205؛ المعاضيدي، خاشع: الحياة السياسية، ص54.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص66.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص271.

(7) عثامنة، خليل: فلسطين، 269.

اسمياً[1]، وقد توطدت علاقة الفاطميين بابن الجراح عندما واجهوا أبا تغلب بن حمدان – صاحب الموصل– الذي قدِم إلى دمشق بعد انهزامه من عضد الدولة بن بُوَيْه[2]، فمنعه قَسَّام الحارثي[3] من دخولها خشية سيطرته عليها[4] حيث كان أبو تغلب يطمع بأن يوليه العزيز الفاطمي دمشق[5].

رأى الفاطميون أن أبا تغلب يشكل خطراً عليهم؛ فأرسل يعقوب بن كلِّس – وزير العزيز الفاطمي– جيشاً للتصدي له، وعند دخول قائد الجيش الفاطمي الرملة سلّم إلى المفرج بن دغفل كتاباً من العزيز بتوليته على الرملة بهدف مساندة الفاطميين في مواجهة أبي تغلب[6] الذي تمكن من الاستيلاء على أقاليم عدة في بلاد الشام بعد أن تحالف مع بني عقيل، إلا أن التحالف بين الفاطميين وابن الجراح كان له دور في إلحاق الهزيمة بأبي تغلب وقتله في صفر 369هـ/ سبتمبر 979م[7]، لتستقر أمور بلاد الشام للفاطميين بمساعدة بني الجراح الذين أيضاً كانوا يبحثون عن استمرار نفوذهم في بلاد الشام بغض النظر عمّن يكون حليفاً معهم.

لم تستمر علاقات الود بين الفاطميين وبني الجراح، إذ قام المفرج بن دغفل بخلع طاعة العزيز الفاطمي؛ فسير الأخير جيشاً بقيادة رشيق العزيزي[8] إلى مدينة الرملة سنة 371هـ/981م، فهُزم ابن الجراح، وسار بعد هزيمته جنوباً ليقطع طريق الحجيج، وقام بمهاجمة أيلة[9]؛ فأرسل له العزيز جيشاً آخر بقيادة رجل اسمه مفلح الوهباني فهزمه، ثم أرسل جيشاً آخراً بقيادة رشيق العزيزي لحق بابن الجراح بعد أن دخل الشام، وقصد ابن الجراح بلاد الروم ملتمساً نجدتهم، ثم التمس من

---

(1) الأنطاكي: تاريخ، ص191_192.

(2) عضد الدولة: هو أبو شجاع فَنَاخُسرُو الملقب عضد الدولة بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه الديلمي، سيطر على أقاليم عدة من بلاد المسلمين، وضم إليه الموصل وبلاد الجزيرة ، وهو أول من خوطب بالملك في الإسلام، وأول من خُطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة، ولقب بتاج الملة. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص50_51.

(3) قَسَّام الحارثي: أصله من بني الحارث بن كعب من اليمن، ويقال له قسام الزبال، وكان يعمل بنقل التراب على الدواب، ثم اتصل بأحد قادة أحداث دمشق، وكثر أعوانه بها حتى غلب عليها مدة إلى أن هُزم من الفاطميين فضعف أمره، وأُسر ونُقل إلى مصر، وعُفى عنه إلى أن توفي سنة 376هـ/986م. الذهبي: سير، ج16، ص363_364؛ الصفدي: أمراء دمشق، ص87؛ الوافي بالوفيات، ج24، ص182.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص67.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص21.

(6) ابن أيبك: الدرة المضية، 193.

(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص252.

(8) رشيق العزيزي: هو خال ولد الوزير يعقوب بن يوسف بن كلِّس. الأنطاكي: تاريخ، ص199.

(9) أيلة: مدينة علي ساحل بحر القلزم (الأحمر)، وهي آخر الحجاز وأول الشام، وهي مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص292.

العزيز الأمان فأجابه إليه[1].

ساءت أحوال فلسطين في عهد المفرج بن الجراح حيث عاث في الأرض فساداً وخراباً بعد أن كثرت جموعه وقويت شوكته "حتى كاد الإنسان يدخل الرملة فيطلب شيئاً يأكله فلا يجده"[2]، فاستغل العزيز الفاطمي ذلك، وقام بإرسال عساكره مع القائد يلتكين التركي[3] إلى الرملة لمحاربة ابن الجراح، فهُزم ابن الجراح من يلتكين، واضطر للّجوء إلى أنطاكية، حيث استجار بصاحبها فأجاره وأمّنه[4].

شهدت سنة 380هـ/990م تقارباً بين ابن الجراح وجيوش الخلافة الفاطمية المرسلة من مصر إلى دمشق لتأديب منير الخادم[5] الذي اتُّهم بمراسلة خليفة بغداد[6]. وعلى ما يبدو فإن هذا التقارب يرجع إلى رغبة الخليفة الفاطمي العزيز في الحفاظ على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، والقضاء على أي خطر مذهبي أو سياسي ضد الفاطميين.

وفي سنة 387هـ/997م حاول بنو الجراح تكوين دولة مستقلة لهم بفلسطين عن الخلافة الفاطمية، إذ استغل المفرج ابن الجراح ثورة أهالي صور على الفاطميين، وقام بالنزول على الرملة، وقام بأعمال النهب والسلب، فقام بَرْجَوان[7] بإرسال القائد جيش بن محمد بن الصمصامة الذي تمكن من إخضاع صور، ثم قصد المفرج بن دغفل وقواته التي تقهقرت أمام جيوش الفاطميين،

---

(1) الأنطاكي: تاريخ، ص199_200.

(2) ابن أيبك: الدرة المضية، ص198.

(3) يلتكين: هو أحد غلمان أفتكين – أمير دمشق–، وقد أهداه أفتكين للوزير ابن كِلّس الذي اصطنعه وجرده إلى الشام في عسكر كبير، وولي دمشق بعد أن دخلها في ذي الحجة سنة 372هـ/مايو983م. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج74، ص203؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج26، ص550.

(4) ابن القلانسي: ذيل، ص25؛ ابن خلدون: تاريخ ج4، ص167؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص256.

(5) منير الخادم: هو والي فاطمي تولى حكم دمشق للفاطميين في رجب سنة 378هـ/أكتوبر988م، وبقي بها، ثم ثار على الفاطميين فهزموه سنة 381هـ/991م، وأُسر ثم حُمل إلى مصر فعُفي عنه. الصفدي: أمراء دمشق، ص105.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص40؛ جودة، صادق: مدينة الرملة، ص129.

(7) بَرْجَوان: هو أبو الفتوح بَرْجَوان، كان من خدّام العزيز الفاطمي – صاحب مصر–، وكان من مدبري دولته، وكان نافذ الأمر مطاعاً، نظر في أيام الحاكم بأمر الله في ديار مصر والحجاز والشام والمغرب، وقتل سنة 390هـ/1000م بأمر من الحاكم الفاطمي. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص270. الحاكم بأمر الله: هو أبو علي منصور بن عبد العزيز بن نزار بن المعز العبيدي، صاحب مصر والشام والحجاز والمغرب، فُقد في شوال سنة 411هـ/فبراير 1021م، قتل خلقاً كثيراً من كبراء دولته، وأمر بشتم الصحابة – رضي الله عنهم–، وكتب ذلك على أبواب المساجد، وقيل أن أخته ست الملك هي من جهزت عليه من قتله. الذهبي: العبر، ج2، ص219.

حتى اضطر للهرب إلى جبلي طيء[1].

بالرغم من العداء بين بني الجراح والفاطميين، إلا أن بني الجراح قدموا المساعدة للفاطميين في صد خطر الثائر أبي ركوة[2] بين سنتي (395_397هـ/1005_1007م) حيث اتحد أولاد المفرج الثلاثة علي وحسان ومحمود، وقدموا إلى القاهرة، وساعدوا الحاكم في القضاء على ثورة أبي ركوة سنة 397هـ/1007م، وبذلك عادت الخلافة الفاطمية تنظر بعين الرضا إلى بني الجراح[3].

عادت سياسة العداء مرة أخرى بين الفاطميين وبني الجراح، وذلك عندما توجه القائد ياروختكين[4] إلى حلب من أجل إخضاعها للفاطميين، وعند دخوله بلاد الشام أمر القواد بتبجيله والترجل له، وكان بينهما علي ومحمود ابنا المفرج، اللذان عادا إلى أبيهما وخوفاه من سيطرة الفاطميين على الرملة، وأيَّدهما بالرأي الوزير أبي القاسم المغربي[5]، وطالبوا المفرج بمواجهة الفاطميين[6].

حارب حسان بن المفرج الفاطميين، وأوقع الهزيمة بالقائد الفاطمي ياروختكين، وقام بأسره

---

(1) جبلي طيء: هما جبلين يقعان في الجزيرة العربية ناحية الشام ويسميان بجبل أجأ وجبل سلمى، ويقال أنهما ينسبان إلى رجل اسمه أجأ، وامرأة اسمها سلمى، ونزلهما طيء الذي يُسمى جلهمة بن أُدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وسُمي بطيء لطيّه المنازل، وأقام المفرج بن دغفل بهذين الجبلين هو وأبنائه نظراً لوفرة المياه والشجر والنخيل بهما. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص94_97.

(2) أبو ركوة: ينسب إلى بني أمية، وهو من سلالة هشام بن عبد الملك واسمه الوليد، سُمي بذلك لأنه كان يصطحب معه ركوة في أسفاره يحملها على مذهب الصوفية، التقى بكثير من العلماء بمصر، ثم انتقل إلى مكة، ثم إلى اليمن، ثم عاد إلى بلاد الشام، وأخذ البيعة من أنصاره، ولقب نفسه بالثائر بأمر الله المنتصر لدين الله من أعداء الله، ثم قبض عليه الحاكم الفاطمي وقتله. ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص53؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج27، ص235؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص515.

(3) الأنطاكي: تاريخ، ص265؛ جودة، صادق: مدينة الرملة، ص132.

(4) ياروختكين: هو والي حلب للحاكم بأمر الله الفاطمي، أرسله الحاكم إلى المدينة المنورة لينقب دار الإمام جعفر الصادق، وقام بنهب ما فيها وحمله إلى القاهرة. ابن الأثير: الكامل، ج6، ص281؛ بدوي، جمال: الفاطمية، ص55.

(5) أبو القاسم المغربي: هو الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام، ويرجع نسبه إلى الفرس، كان وزيراً للفاطميين ويعرف بالوزير المغربي، هرب إلى الرملة بعد أن قام الحاكم بأمر الله الفاطمي بقتل أبيه وعمه وأخويه في ذي القعدة 400هـ/ يونيو 1010م، ثم توجه إلى العراق وتوفي بميافارقين سنة 418هـ/1027م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2/172_177. ميافارقين: هي أكبر مدن ديار بكر، وبنيت على قرية عظيمة، وهي من أبنية الروم. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص236. ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل من العدنانية. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص494.

(6) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص141_142.

وقتله سنة 401هـ/1011م، وأرسل رأسه إلى أبيه المفرج الذي أدرك خطورة إقدام ابنه على قتل ياروختكين بالرغم من أن الخليفة الفاطمي طلب الإفراج عنه مقابل خمسين ألف دينار يدفعها لابن الجراح[1].

ثار بنو الجراح ضد الفاطميين محاولين الاستقلال عنهم، وحاولوا إضفاء الشرعية في تلك المواجهة، وذلك بموافقة حسان بن المفرج على الاقتراح الذي قدمه الوزير أبي القاسم المغربي بخلع طاعة الحاكم الفاطمي، وإقامة أمير مكة خليفة سنة 401هـ/1011م[2].

ومن أجل ذلك ذهب الوزير المغربي مبعوثاً للمفرج إلى مكة واجتمع بأبي الفتوح[3]، وعرض عليه فكرة تنصيبه إماماً، وضمن له الوفاء والحماية وطاعة حسان بن المفرج له، فوافق أبو الفتوح على الفكرة بعد أن شاور أقاربه الذين بايعوه، وتلقب بـ (الراشد بالله)، وصعد المنبر، وخطب لنفسه[4]، وقد رجح خرابشة أن أبا الفتوح قد تشجع على ذلك بسبب موقف الحاكم الفاطمي من الصحابة وأمره بسبهم [5].

توجه أبو الفتوح العلوي إلى الرملة، ورحب أهلها بقدومه، وقبّلوا الأرض بين يديه، وسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، فأمّن الناس، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر[6]، وبذلك أصبح أبو الفتوح أمير مكة إماماً، والوزير المغربي مدبراً لإمارة بني الجراح في الرملة، والتي اتسعت بسيطرة ابن الجراح على معظم جنوب بلاد الشام من الفرما إلى طبرية، كما حاصروا حصون الفاطميين الساحلية مدة طويلة دون أن يتمكنوا من أخذ شيء منها[7].

بعد أن علم الحاكم بتحالف ابن الجراح مع أمير مكة، عمل على الإيقاع بينهما، فقام باستمالة بني الجراح، وبذل لهم الأموال، وتنكروا على أبي الفتوح، كما قلد على مكة بعض بني عم أبي الفتوح؛ فخشي أبو الفتوح من خروج الحرمين من يده، وأحس من حسان بالغدر فرجع إلى مكة،

---

(1) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص142، المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص737.

(2) المقريزي: اتعاظ، ج2، ص87؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج2، ص436.

(3) أبو الفتوح: هو أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أحد الأشراف بمكة، تولى إمارتها بعد وفاة أخيه عيسي بن جعفر سنة 384هـ/ 994م. ابن فهد: إتحاف الورى: ج2، ص421؛ خرابشة، سليمان: ثورة شريف مكة، ص15.

(4) ابن فهد: إتحاف الورى، ج2، ص437_438؛ فوزي، فاروق ومحسن حسين: الوسيط في تاريخ فلسطين، ص111.

(5) ثورة شريف مكة، ص14_15.

(6) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص143.

(7) الأنطاكي: تاريخ، ص291؛ فوزي، فاروق ومحسن حسين: الوسيط في تاريخ فلسطين، ص113.

وراسل الحاكم واعتذر إليه فقبل عذره، وأقام أبو الفتوح الدعوة للحاكم بعد أن أقامها لنفسه[1]، وبذلك يتبين أن الفاطميين أظهروا براعة سياسية في العمل على استمالة بني الجراح ضد أفتكين التركي، ثم في الإيقاع بين أمير مكة وأبي الفتوح، وإضعافها للأخير بتولية أبناء عمه على مكة ودعمهم بالأموال.

تمكن الفاطميون من إعادة نفوذهم على بلاد الشام في سنة 404هـ/1013م، حيث سيّر الحاكم بأمر الله الفاطمي جيشاً بقيادة علي بن فلاح الملقب بـ (قطب الدولة) لانتزاع المناطق التي تملّكها المفرج بن دغفل في بلاد الشام، وكوتبت الجيوش التي كانت بدمشق والسواحل بلقائه وسار العساكر من الجهتين نحوه[2]، وفي نفس الوقت كان الحاكم قد خدع المفرج بعد أن استمال كاتباً له، وبذل له أموالاً حتى دس السم للمفرج فمات[3]، وضعف أمر ابنه حسان وهُزم من الجيش الفاطمي، ودخل قطب الدولة الرملة[4]، وعندئذ اضطر حسان إلى إنفاذ والدته إلى مصر طالبة الأمان لابنها من الحاكم، فعفا عنه وأعاده إلى الشام، وظل حسان على ولاءه للفاطميين حتى وفاة الحاكم[5].

وفي سنة 415هـ/1024م تمكن حسان بن المفرج من استعادة مدينة الرملة من أيدي الفاطميين، وقام بأعمال السلب والنهب والأسر[6]، كما أن بني الجراح وغيرهم من العرب دخلوا مدينة أيلة، وأخذوا منها الأموال والغلال، وسبوا النساء والأطفال، وأرسل الفاطميون عساكراً من القاهرة لمحاربتهم[7].

وفي شعبان من السنة ذاتها استنجد حسان بن الجراح بأميرا العرب في بلاد الشام لمواجهة الفاطميين، وهما: صالح بن مرداس[8]، الذي نزل على حلب وأخذها، وسنان بن عليان زعيم

---

(1) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص144؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص737؛ كرد علي، محمد: خطط الشام، ج1، ص219؛ خرابشة، سليمان: ثورة شريف مكة، ص29.

(2) الأنطاكي: تاريخ، ص305.

(3) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص144.

(4) الأنطاكي: تاريخ، ص306.

(5) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص145.

(6) الأنطاكي: تاريخ، ص389؛ العظيمي: تاريخ حلب، ص326.

(7) المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص521.

(8) صالح بن مرداس: هو أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس بن نصر من بني كلاب، أمير بادية الشام، وأول الأمراء المرداسيين بحلب، انتزع مدينة حلب من أيدي الفاطميين في ذي الحجة سنة 417هـ/ يناير 1027م، ثم قُتل على أيديهم سنة 420هـ/1029م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص487؛ الزركلي: الأعلام، ج3، ص196_197.

الكلبيين، "وتحالفوا على اجتماع الكلمة وأن يكونوا يداً واحدة على صاحب مصر، وقسموا البلاد بينهم، فصار لحسان الرملة إلى مصر، ولمحمود أخيه طبرية وما يتصل بها من الساحل، ولسنان بن عليان دمشق وسوادها، ولصالح ما بقي من الشام إلى عانة"[1]، ولم يكتفوا بذلك التحالف بل نجد أنهم طالعوا الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (366_416هـ/ 976_1025م) على تحالفهم ذلك، وطلبوا منه المساعدة إلا أنه رفض[2].

وتنفيذاً لذلك الاتفاق شرع أمراء الشام في محاصرة دمشق – التي كانت بأيدي الفاطميين–، وتعاونت قوات الزعماء الثلاثة على هذا الحصار بعد أن تمت سيطرتهم على الريف المحيط بالمدينة، وكانت القوة التي أرسلها حسان لنجدة قوات التحالف تبلغ ثلاثة آلاف فارس، إلا أن إصابة سنان بن عليان خلال الحصار كانت سبباً في عقد هدنة مع المدافعين عن دمشق، وهو أمر أغضب حسان بن المفرج، فأهاب بسنان أن يستأنف القتال[3].

في الوقت الذي هاجم فيه حسان بن الجراح وحلفائه أملاك الفاطميين في بلاد الشام، ظل على اتصال بالقاهرة مظهراً طاعته للفاطميين، ومن ذلك إرساله كتاباً "بأنه تحت الطاعة، فلا يجب أن يشغل السلطان قلبه بأمر الشام، وأنه يقوم بأمر فلسطين ويجبي خراجه وينفق في رجاله، ودمشق فيها ابن عمه سنان، صمصام الدولة، وحلب مردود تدبيرها إلى صالح بن مرداس أسد الدولة، وأنه قد كفى أمر الشام كله"[4].

تجرأ حسان بن الجراح على إرسال حملة عسكرية قوامها ألفي فارس إلى مدينة الفرما سنة 415هـ /1024م بغرض تشتيت قوات الفاطميين التي تحتشد هناك استعداداً للخروج إلى فلسطين للقضاء على خطر بني الجراح[5]، ولم تحقق حملته تلك الهدف المرجو منها، حيث أرسل الفاطميون جيشاً بقيادة الدزبري[6] لاسترداد بلاد الشام من أمراء العرب بها (حسان– صالح–

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص155؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص102_103. عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت في أعمال الجزيرة، وهي مشرفة على نهر الفرات وبها قلعة حصينة. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص72. هيت: بلدة على نهر الفرات من نواحي بغداد. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص421.

(2) الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص390.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص156_157.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص160.

(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص166، عثامنة، خليل: فلسطين، ص281.

(6) الدزبري: هو دزبر، وتلفظ تزبر بن أويتم الديلمي، كان نائباً بمدينة دمشق للظاهر الفاطمي، وكان ذا شهامة ومعرفة بأسباب الحرب. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص487. توفي الدزبري سنة 433هـ/1042م بحلب بعد أن أصابه مرض. الذهبي : سير، ج17، ص513.

سنان)، إلا أنه لم يتمكن من ذلك، وهُزم الدزبري، ثم توجه إلى عسقلان[1]، وقد أدت سيطرة حسان بن المفرج وأمراء العرب على بلاد الشام إلى ضعف دولة الظاهر[2] الفاطمي[3].

وفي جمادى الآخرة 419هـ/ يوليو1028م توفي سنان بن عليان، ودخل ابن أخيه رافع بن أبي الليل بن عليان في طاعة الظاهر الفاطمي الذي "اصطنعه وعقد له الإمارة على الكلبيين، وعوّضه إقطاعات سنان عمه، وسير معه عسكراً، وانضافت إليه العساكر المقيمة في بلاد الشام، واجتذب أيضاً جماعة من العرب، وقصدوا بأجمعهم حرب حسان بن المفرج"[4]، وبذلك اجتمع عسكر مصر، ورافع بن أبي الليل مقدم طائفة الكلبيين، وأنوشتكين الدزبري لحرب حسان بن الجراح، وخاضوا المعركة الفاصلة في 25 ربيع الآخر سنة 420هـ ./مايو1029م، بمكان يسمى الأقحوانة[5]، فهُزم أمراء الشام، وقُتل صالح بن مرداس، وأعاد الدزبري السيطرة على بلاد الشام[6]، وعلى إثر ذلك هرب حسان بن المفرج إلى حلفائه البيزنطيين للاحتماء بهم[7]، وبذلك استقر النفوذ الفاطمي في الشام مدة من الزمن، لكن سرعان ما عادت الاضطرابات والفوضى إليها مرة أخرى، حيث استقل حسان بن المفرج بفلسطين واستقل معز الدولة بن صالح الكلابي بحلب[8].

وهكذا ظل بنو الجراح في صراع مع الخلافة الفاطمية يشتد ساعدهم إذا ما ضعف جانب الخلافة، ويضطرون للخضوع للإرادة الفاطمية إذا ما قوي جانبها، إلى أن دخل السلاجقة بلادهم، كما هو الحال بالنسبة لبقية أرجاء بلاد الشام[9].

---

(1) الأنطاكي: تاريخ، 392.

(2) الظاهر: هو الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم منصور بن العزيز نزار بن المعز العبيدي، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة 411هـ/1021م. الذهبي: العبر، ج2، ص256_257؛ سير، ج15، ص184؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، 247.

(3) ابن أيبك: الدرة المضية، 324.

(4) الأنطاكي: تاريخ، ص410.

(5) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص202؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص326؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج29، ص395_396؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج2، ص642. ذكر آخرون أن المعركة كانت سنة 419هـ/1028م. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ص157؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص627. الأقحوانة: موضع ببلاد الشام على يطل على بحيرة طبرية. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص234.

(6) الأنطاكي: تاريخ، ص411؛ ابن القلانسي: ذيل، ص73؛ العظيمي: تاريخ حلب، ص329؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج29، ص395_396؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص176.

(7) عثامنة، خليل: فلسطين، 282.

(8) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص79؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص104.

(9) الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص104.

رابعاً: العلاقات بين الدولة الفاطمية والحمدانيين:

أسس الحمدانيون إمارتهم في حلب على يد سيف الدولة الحمداني[1](333هـ-356هـ/ 944-967م) بعد أن تمكن من دخولها يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 333هـ/29 أكتوبر 944م[2] بعد أن استدعاه إخوة والي حلب أبا الفتح عثمان بن سعيد الكلابي ليُولّوه على حلب[3].

ثم دخل سيف الدولة دمشق إثر هزيمته لكافور الإخشيدي في رمضان سنة 333هـ/ ابريل 945م، واستمر الصراع بين سيف الدولة والإخشيديين حتى سنة 336هـ/947م، حيث استقرت ولاية سيف الدولة بحلب[4].

لقد اختلف أهل حلب عن أهالي بلاد الشام بأنهم - في بداية أمرهم- كانوا يميلون للمذهب الشيعي، حيث أنهم اتبعوا الأذان الشيعي منذ عهد سيف الدولة سنة 347هـ/ 958م[5]، (أي قبل سيطرة الفاطميين على مصر والشام)، وبالرغم من ذلك لم يثق الفاطميون بهم، وما يدلل على ذلك رسالة المعز الفاطمي لقائده جوهر يحذره فيها منهم بقوله: "أحذر أن تبتدئ أحداً من آل حمدان بمكاتبته... فبنوا حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب، يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة، فاحذر كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم"[6].

بدأ الضعف يدب في إمارة بني حمدان عقب وفاة سيف الدولة الحمداني سنة 356هـ/ 967م، حيث تمكن قرغويه[7] من فرض هيمنته على حلب سنة 358هـ/969م، وأخرج أبا المعالي سعد الدولة الحمداني منها[8]، فسار أبو المعالي إلى والدته بميافارقين، وأقام عندها، ثم سار إلى

---

(1) سيف الدولة: هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان بن حمدون، ولد سنة 301هـ/914م، وتوفي في25 صفر 356هـ/ 9 فبراير967م ودفن في ميافارقين. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص405.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ص68.

(3) الغزي: نهر الذهب، ج3، ص45.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ص68، 72؛ الطباخ الحلبي: إعلام النبلاء، ج1، ص230.

(5) الغزي: نهر الذهب، ج3، ص57.

(6) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص36.

(7) قرغويه: هو أحد غلمان سيف الدولة الحمداني. الصفدي: أمراء دمشق، ص37. ولاه سيف الدولة الحمداني حلب عام 354هـ/965م، وتوفي سنة 380هـ/990م. ابن العديم: زبدة الحلب، ص86 ،103.

(8) ابن أيبك: الدرة المضية، ص200. وأبو المعالي هو سعد الدولة شريف بن سيف الدولة بن حمدان توفي في رمضان 381هـ/ ديسمبر991م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص406.

حماة وأقام بها[1]، ثم توجه إلى حمص وعمرها[2]، وقام قرغويه بقطع الدعاء لأبي المعالي سعد الدولة، بعد أن تقرب من أهل حلب[3].

وفي سنة 360هـ/971م اصطلح قرغويه مع أبي المعالي، فخطب له قرغويه بحلب، ثم قطعا الخطبة للخلافة العباسية وأقاماها للفاطميين، فخطب قرغويه للمعز في حلب، وأبو المعالي خطب له بحمص، بيد أن الفاطميين لم يجدوا نصيراً قوياً في الشام، لأن السواد الأعظم من أهل السنة والجماعة كانوا يخالفونهم في مذهبهم[4]، كما أن سياسة الشدة التي انتهجها ولاة الفاطميين في بلاد الشام لم تساهم في نشر المذهب الشيعي في بلاد الشام.

بعد أن أحكم قرغويه سيطرته على حلب عين مولاه بكجور[5] نائباً له بها، فلما قوي أمر بكجور قبض على سيده قرغويه وقام بحبسه، وملك بكجور حلب[6] في ذي الحجة سنة 364هـ/أغسطس 975م[7]، ثم حانت الفرصة لسعد الدولة بالعودة إلى حلب بعد أن كاتبه أهلها بالقدوم إليهم من حمص لأن بكجور أساء سيرته معهم[8].

سار سعد الدولة إلى حلب وحاصرها أربعة شهور، وتحصن بكجور في قلعتها مدة، ثم جرت وساطة أعيان حلب بين سعد الدولة وبكجور، على أن يكون لبكجور الأمان، وأن يتولى حمص، فأجابه سعد الدولة إلى ذلك[9].

دخل سعد الدولة حلب في ربيع الآخر 367هـ/ نوفمبر 977م، وقيل أنه غير في الأذان وزاد فيه "حي على خير العمل، محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلي (رضي الله عنه) خير البشر"[10].

تقرب بكجور من الدولة الفاطمية بحمايته لدمشق من العرب، وتقديمه الأقوات لأهلها

---

(1) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص449_550.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص27؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص200؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص372.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ص93.

(4) كرد علي، محمد: خطط الشام، ج1، ص197.

(5) بكجور: وهو الأمير أبو الفوارس مولى سيف الدولة بن حمدان، ولي إمرة حمص، ثم دمشق للعزيز الفاطمي، وخرج عن طاعته؛ فحاربه العزيز سنة 378هـ/988م، فانتصر الفاطميون وتصالحا، وذهب بكجور إلى الرقة وأقام بها دعوة العزيز إلى أن قُتل بنواحي حلب سنة 381هـ/991م. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج27، ص29_30.

(6) ابن أيبك: الدرة المضية، ص200؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص372.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ص99.

(8) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص372.

(9) ابن القلانسي: ذيل، ص28؛ الطباخ الحلبي: إعلام النبلاء، ج1، ص270.

(10) ابن العديم: زبدة الحلب، ص99_100.

عندما حلت بها الفتنة والغلاء[1]، ثم كتب إلى العزيز الفاطمي "أن أنفذ إليّ عسكراً لآخذ لك حلب"[2] بعد أن أخبره رفقائه في حلب بتشاغل سعد الدولة عنها[3]، وانضمامه إلى الخلافة العباسية[4]، فأجابه العزيز وأنفذ إليه بعض عسكر دمشق[5]، كما بعث العزيز إلى نزال الغوري[6] والي طرابلس يأمره بإعداد الجيوش لمساعدة بكجور والانقياد تحت إمرته في قتال سعد الدولة[7]، إلا أن نزال تباطأ في المسير إلى حلب لمعاضدة بكجور ضد سعد الدولة[8].

قام سعد الدولة الحمداني بمراسلة الإمبراطور البيزنطي الذي ساعده ضد بكجور، ووقعت الحرب بين بكجور الذي يدعمه الفاطميون وبعض العرب، وبين سعد الدولة الذي يسانده الروم[9]، وهُزم بكجور ورحل عن حلب، وسار الروم خلفه ودخلوا حمص، وأعملوا فيها الخراب والدمار[10].

وبذلك تأكد العزيز الفاطمي من ولاء بكجور له، ومنحه ولاية دمشق تنفيذاً للعهد الذي قطعه على نفسه "تصير إلى بابنا لنوليك دمشق"[11]، وكان ذلك في شهر رجب سنة 373هـ/ ديسمبر 983م[12].

أساء بكجور سيرته وتعامله مع أهل دمشق، فكثر قتله وصلبه للناس، "وكثرت مخالفته"، كما خرج عن طاعة العزيز الفاطمي، فبعث إليه جيشاً بقيادة منير الخادم سنة378هـ/988م، فانتصر منير ثم تصالحا، وذهب بكجور إلى الرقة وأقام بها الدعوة للعزيز الفاطمي[13].

وفي سنة381هـ/991م سار بكجور من الرقة إلى قتال سعد الدولة بن حمدان بحلب،

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص68.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص29.

(3) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص127.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ص100؛ الشرقاوي، مديحة: الحمدانيون، ص265.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص29.

(6) ذكره الذهبي باسم بزال، وقد تولى حرب منير الخادم الذي ثار على الفاطميين بدمشق، وولي طرابلس من سنة 370هـ/ 980م إلى سنة 381هـ/991م. تاريخ الاسلام، ج27، ص29.

(7) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص127.

(8) ابن القلانسي: ذيل، ص34.

(9) المصدر نفسه، ص34_35.

(10) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص258_259.

(11) ابن القلانسي: ذيل، ص28.

(12) ابن أيبك: الدرة المضية، ص212؛ الشرقاوي، مديحة: الحمدانيون، ص266.

(13) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج27، ص30.

فاقتتلا، وهُزم بكجور، ثم قُبض عليه وحُمل إلى سعد الدولة أسيراً فقتله[1]. وبذلك فقد الفاطميون حليفاً مهماً لهم في بلاد الشام، خاصة أن الفاطميين يعتمدون في سياستهم على إخضاع بلاد الشام بشكل غير مباشر جراء عدم تمكنهم من السيطرة المباشرة على مدن بلاد الشام.

كتب أولاد بكجور إلى العزيز الفاطمي ما حدث لأبيهم، ورجوا منه أن يتدخل لإنقاذهم، فأرسل العزيز إلى سعد الدولة أن يبعثهم إلى مصر، ويتهدده في ذلك، فأساء سعد الدولة الرد[2]، وقال: "لست ممن يستفزه وعيدك، وما بك حاجة لتجهيز عسكر إليّ، فإنني سائر إليك، وخبري يأتيك من الرملة"[3]، إلا أن الموت عاجله بعد أن أوصى إلى ابنه أبي الفضائل من بعده، ووصى عليه وعلى إخوته غلامه لؤلؤ الجراحي[4]، الذي أخذ البيعة لأبي الفضائل من الجند في رمضان 381هـ/ نوفمبر 991م[5].

ويبدو أن وفاة سعد الدولة إلى جانب تشجيع الوزير الفاطمي أبو الحسن المغربي[6] للخليفة للعزيز بضرورة الاستيلاء على حلب؛ جعلته يجهز جيشاً كثيفاً أنفق عليه أكثر من ألف ألف دينار سيره إلى حلب بقيادة منجوتكين[7]، فلما وصل إلى دمشق تلقاه أهلها وقوادها، فأقام بها مدة ثم رحل إلى حلب[8] ومعه زهاء ثلاثين ألف مقاتل، ومن أجل مواجهة النفوذ الفاطمي اتصل أبو الفضائل بن سعد الدولة ومولاه لؤلؤ، بالإمبراطور البيزنطي باسيل، فبعث إلى البرجي واليه على أنطاكية، فسار في خمسة آلاف رجل، ونزل الجسر الجديد بين أنطاكية وحلب[9].

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص276؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص163.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص69.

(3) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص131.

(4) المصدر نفسه، ص131.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص39.

(6) أبو الحسن المغربي: هو علي بن عمر العداس، من وزراء الدولة الفاطمية بمصر، استوزره العزيز بعد وفاة وزيره يعقوب بن كلِّ سنة 380هـ/990م، فأقام سنة واحدة، ثم عُزل وحُوسب، وتوفي بالقاهرة سنة 391هـ/1001م. الزركلي: الأعلام، ج4، ص315.

(7) منجوتكين: هو منجوتكين التركي، ويلقب بالعزيز، ولي دمشق سنة 381هـ/991م، وبقي مدة ثم عزله الحاكم سنة 407هـ/1018م، فخلع منجوتكين طاعته، فقبض الحاكم عليه بمساعدة ابن الجراح الطائي، وأُرسل إلى مصر وعُفي عنه. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج27، ص159_160؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج29، ص29.

(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص281.

(9) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص132؛ ابن القلانسي: ذيل، ص41. ذكر ابن خلدون أن عدد الروم كان 50,000. تاريخ ج4، ص69. وأورد ابن العديم أن عددهم بلغ 70,000، زبدة الحلب، ص106. ويُعتقد بأن هذان العددان لا يتناسبان مع القوات العسكرية لمدينة أنطاكية في ذلك الوقت، ونستدل على ذلك من أن الجيش=

استشار منجوتكين قواده فأشاروا عليه بمواجهة البيزنطيين وترك حصار حلب، ونزل على مشورتهم وباغت البيزنطيين قبل اجتماعهم بأبي الفضائل، وتمكن من هزيمتهم، ودخل منجوتكين أنطاكية، وقام بنهبها وإحراقها، فأنفذ أبو الفضائل جنده فنقل الغلال إلى حلب، وأحرق الباقي للإضرار بالجيش الفاطمي، ثم عاد منجوتكين لحصار حلب[1]، إلا أن لؤلؤ مولى أبي الفضائل تمكن بسياسته ودهائه من فك الحصار عن حلب ببذله الأموال إلى الوزير أبي الحسن المغربي لإغراء منجوتكين بالعودة عن حلب[2].

غضب العزيز الفاطمي فور علمه بنبأ عودة منجوتكين عن حصار حلب، وكتب إليه بالعودة لحصارها، وأمده بالمؤن والذخيرة عن طريق البحر[3]؛ فعاد منجوتكين إلى حصار حلب مرة أخرى، وفي هذه المرة بنى بإزائها مدينة[4] فيها من الحمامات والقصور والأسواق[5]، واستمر حصار منجوتكين لحلب أحد عشر شهراً تعذرت فيه الأقوات وغلت الأسعار[6].

اضطر أبا الفضائل ولؤلؤ الخادم إلى الاتصال بالبيزنطيين مرة أخرى، وحذراهم من خطر سيطرة الفاطميين على حلب لقربها من أراضيهم[7]، فسار الإمبراطور البيزنطي نحو حلب بجيش بلغ عدده أربعين ألف جندي[8]، ولقي أبا الفضائل ولؤلؤاً بعد أن اضطر منجوتكين لرفع الحصار عن حلب، ثم توجه الإمبراطور البيزنطي نحو حمص ودخلها، ثم قام بنهب شيزر بعد أن وصلها، ثم حاصر طرابلس أربعين يوماً وعاد بعد ذلك إلى بلاده بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها[9].

ضيق لؤلؤ وابنه أبو نصر على أبناء أبي الفضائل بعد وفاة أبيهم في صفر 392هـ/يناير 1002م، فقبضوا عليهم وأرسلوهم إلى مصر[10]، وبعد أن سيطر أبو نصر بن لؤلؤ على حلب قام

=الذي أحضره الإمبراطور البيزنطي بنفسه 40,000 جندي نحو حلب بعد أن استدعاه أبو الفضائل؛ للمزيد، ينظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص285.

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص41_42.

(2) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، 133؛ عدوان، أحمد: الدولة الحمدانية، ص329.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص69.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ص107.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص69.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص42_43.

(7) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ص133؛ ابن القلانسي: ذيل، ص43.

(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص285.

(9) ابن القلانسي: ذيل، 43_44؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص69.

(10) ابن العديم: زبدة الحلب، ص109، 111.

بقطع الخطبة لبني العباس، وأقامها للحاكم الفاطمي، فلقبه الحاكمُ بلقب (مرتضى الدولة)[1]، وأقره على حلب وأعمالها سنة 404هـ/1013م[2].

وفي رمضان 407هـ/1016م عين الحاكم الفاطمي الأمير عزيز الدولة أبا شجاع فاتك[3] على حلب ولقبه (أمير الأمراء)[4]، وقد وطد فاتك سلطاته في حلب، وجدد تحصيناتها، وعظم شأنه بها، وعقد معاهدة مع الروم[5]، ثم خلع طاعة الحاكم ودعا لنفسه على المنبر، وضرب السكة باسمه[6]؛ فأرسل الحاكم جيوشه للقضاء عليه، فاستنجد فاتك بإمبراطور الروم، ولم يلتقيا بحرب بسبب وفاة الحاكم سنة 411هـ/1020م[7].

لم تدم ولاية فاتك على حلب طويلاً إذ عقب وفاة الحاكم تمكنت أخته ست الملك من تحريض غلام لفاتك ويسمى (بدر)، فأقدم على قتله سنة 413هـ/1022م، وشكرته ست الملك ولقبته (وفيّ الدولة)[8].

تولى الظاهر الخلافة بعد وفاة الحاكم بأمر الله، وقام بتعيين اثنين من الولاة على حلب، أحدهما على المدينة والآخر على القلعة؛ كي لا ينفرد أحدهما بالحكم عن الآخر[9]، وبذلك نجح الفاطميون بإخضاع حلب بسياستهم بعد أن عجزت جيوشهم في تحقيق النصر على الحمدانيين.

خامساً: العلاقات بين الدولة الفاطمية وبني مرداس:

بدأ ظهور المرداسيين على مسرح السياسة في بلاد الشام عندما تمكن زعيمهم صالح بن مرداس من دخول حلب والسيطرة عليها في 14 ذي القعدة 415هـ/17 يناير1025م، بمساعدة أهلها الذين سئموا حكم الفاطميين وظلمهم[10]، حتى أن أهالي حلب نصبوا الصلبان ثلاثة أيام،

(1) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص488؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص326.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ص113_114.

(3) فاتك: هو عزيز الدولة أبو شجاع فاتك الوحيدي غلام منجوتكين، ولاه الحاكم الفاطمي حلب في رمضان 407هـ/ فبراير1017م، ثم عصى الحاكم ودعا لنفسه على المنبر، قُتل على يد غلام له ليلة السبت 4 ربيع الآخر سنة 413هـ/7 يوليو 1022م. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص129_130.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص129.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ص124؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص92.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص129.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ص124.

(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص129_130.

(9) الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص93.

(10) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص171.

ودعوا لملك الروم، ونادوا بالحرب أثناء حصار نائبِي صالح بن مرداس للولاة الفاطميين في قلعة حلب[1].

يتضح مما سبق أن أهالي حلب لم يبغضوا حكم الفاطميين لهم فحسب، بل كرهوا مذهبهم حتى أنهم قاموا برفع الصلبان ودعوا لملك الروم، أملاً في أن يقوم بمساعدتهم ضد الفاطميين.

لم تقف أطماع صالح عند حدود حلب وشمال بلاد الشام، بل انتزع بعض مدن الساحل الشامي من أيدي الفاطميين[2]، وتحالف صالح مع بقية أمراء الشام (حسان بن الجراح–وسنان بن عليان)، وانتزعوا معاً معظم أعمال دمشق وحلب من أجل طرد الفاطميين من بلاد الشام[3].

أرسل الفاطميون جيشاً بقيادة أمير الجيوش الدزبري لاسترداد بلاد الشام من أيدي صالح بن مرداس وحسان بن المفرج، فالتقى الدزبري معهما في معركة الأقحوانة في ربيع الآخر420هـ/ مايو 1029م، وانتصر عليهما، وقُتل صالح بن مرداس وأحد أبنائه وأُنفذ رأسيهما إلى مصر[4]، ونجا شبل الدولة أبو كامل نصر بن صالح وأخوه أبو علوان عز الدولة ثمال، وتوجها إلى مدينة حلب، فاقتسما حكمها[5].

وفي سنة 421هـ/1030م انفرد شبل الدولة نصر بالسلطة واستقرت له الإمارة، وقاد عدة حملات ضد الروم، ثم لجأ إليهم سنة 428هـ/1037م عندما ساءت علاقته بالمستنصر الفاطمي، ثم استرضى نصرُ المستنصر بهدية وطلب منه حكم حمص فأجاب طلبه[6].

وفي سنة 429هـ/1038م توجهت العساكر الفاطمية بقيادة الدزبري نحو حلب لانتزاعها من شبل الدولة نصر، فالتقيا عند حماة، وقُتل شبل الدولة نصر[7]، وحاول أخوه معز الدولة ثمال بن صالح امتلاكها إلا أن الدزبري تبعه وتمكن من دخول حلب وإعادتها تحت الحكم الفاطمي[8]،

---

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ص130.

(2) الأنطاكي: تاريخ، ص402؛ العظيمي: تاريخ حلب، ص327؛ زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص73.

(3) طقوش، محمد: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص57.

(4) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص202؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص326؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج29، ص395_396؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج2، ص642.

(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص178؛ المقفى الكبير، ج2، ص642.

(6) العظيمي: تاريخ حلب، ص332.

(7) الغزي: نهر الذهب، ج3، ص70؛ الطباخ الحلبي: إعلام النبلاء، ج1،

(8) العظيمي: تاريخ حلب، ص333.

وقد أحسن الدزبري سيرته مع أهالي حلب ورد عليهم ما كان صالح بن مرداس قد اغتصبه منهم[1]، ثم قفل راجعاً إلى دمشق[2].

وفي سنة 433هـ/1042م توفي والي الشام الدزبري، وعلى أثر ذلك تمكن ثمال بن صالح من استعادة حلب من أيدي الفاطميين الذين أرسلوا عدة جيوش لردعه إلا أنها لم تنجح[3].

وفي سنة 449هـ/1057م حسّن ثمال علاقته بالفاطميين فنزل لهم عن حلب، وعوضه المستنصر عنها بمدن بيروت[4] وعكا وجبيل[5]، وأرسل المستنصر مكين الدولة أبو علي الحسن بن علي بن دينار والياً على حلب فتسلمها من ثمال في ذي القعدة من السنة نفسها، وقطعت من على منابرها خطبة الخليفة القائم بأمر الله العباسي[6]، وأقيمت فيها الخطبة للمستنصر الفاطمي[7].

ظلت حلب خاضعة للفاطميين ثلاث سنوات فقط إذ طمع بنو كلاب في حلب، وقدّموا عليهم الأمير محمود بن نصر بن صالح لأن حلب كانت لأبيه شبل الدولة[8]، وساعدهم على تحقيق ذلك الهدف مكاتبة أهلها لمحمود بن نصر ليسلموه المدينة بعد أن أساء واليها الفاطمي سيرته مع أهلها[9].

تمكن محمود بن نصر من دخول حلب في جمادى الآخرة سنة 452هـ/ يوليو1060م، ثم

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص75.

(2) العظيمي: تاريخ حلب، ص333؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص145.

(3) الغزي: نهر الذهب، ص 70_71؛ كرد علي، محمد: خطط الشام، ج1، ص225_226.

(4) بيروت: هي مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام، وكانت تعد من أعمال دمشق، احتلها الصليبيون سنة 503هـ/1110م، وحررها صلاح الدين منهم سنة 583هـ/1187م. وقد ظهر بها كثير من العلماء المسلمين. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص525.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ص155. جبيل: مدينة مشهورة تقع على ساحل بلاد الشام، وهي من فتوح يزيد بن أبي سفيان. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص109.

(6) القائم بأمر الله: هو أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله، ولد في منتصف ذي القعدة سنة 391هـ/6 أكتوبر 1001م، وأمه أم ولد أرمنية اسمها بدر الدجى، وقيل: قطر الندي، ولي الخلافة عند وفاة أبيه يوم الاثنين 11 ذي الحجة 322هـ/22 نوفمبر 934م، وكان ولي عهده في حياته، وهو الذي لقبه القائم بأمر الله وتوفي يوم الخميس 13 شعبان 467هـ/3 ابريل 1075م. ابن القلانسي: ذيل، ص107؛ الذهبي: سير، ج15، ص138؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص329.

(7) ابن القلانسي: ذيل، ص86؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص235.

(8) ابن العديم: زبدة الحلب، ص156.

(9) الغزي: نهر الذهب، ص71.

سار إليه الأمير ناصر الدولة بن حمدان[1] لانتزاعها منه وإعادتها للحكم الفاطمي، فوقعت بينهما معركة الفنيدق[2]، التي هزم فيها ناصر الدولة، وعلى أثرها عاد إلى مصر[3]، لتعود إمارة بني مرداس من جديد إلى حلب، ليتجدد الصراع بين بني مرداس والفاطميين إلى أن دخلها السلاجقة السُّنِّيون.

(1) ناصر الدولة بن حمدان: هو ناصر الدين الحسين بن ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان بن حمدون، من قبيلة تغلب. الذهبي: سير، ج17، ص620_621؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص309.

(2) الفنيدق: من أعمال حلب، ووقعت بها معارك عديدة من بينها المعركة المذكورة. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص278.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص90؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج30، ص275؛ دول الإسلام، ج1، ص389.

المبحث الثالث

العلاقات الفاطمية السلجوقية

أولاً: موقف السلاجقة من الدعوة الفاطمية في العراق:

يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين أقاموا في الصحراء الشاسعة التي تمتد من حدود الصين شرقاً حتى شواطئ بحر قزوين غرباً، وعرفوا باسم الأوغوز أو الغز[1]، وقد سمتهم بعض المصادر الإسلامية بالتركمان (ترك الإيمان) بعد اعتناقهم الإسلام[2]، وينسبون إلى سلجوق بن دُقاق[3].

ظهر السلاجقة على مسرح السياسة في القرن 5هـ/ 11م، حيث تمكنوا من إخضاع بلاد ما وراء النهر[4]، ومناطق أخرى من أواسط آسيا إلى أن ثبتت أقدامهم بخراسان، وخُطب لهم على منابرها أواخر سنة 431هـ/1040م بعد أن قضوا على سلطة البويهيين في بلاد فارس[5].

ومما لا شك فيه أن الخليفة العباسي القائم بأمر الله رأى أن طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق وجنده السلاجقة الأقوياء خير من يخلصه من بقايا البويهيين الشيعة، ويتصدى للدعوة الفاطمية التي انتشرت في العراق، والجند الترك الذين أشاعوا الفتن والاضطرابات في بغداد[6]، وقد دعم ذلك الموقف تمسك السلاجقة بمذهب أهل السنة، ومحاربتهم للمذهب الشيعي المعادي لمذهب

---

(1) ابن الطقطقا: الفخري، ص292؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص681؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص136؛ القرماني: أخبار الدول، ج2، ص451؛ بدوي، عبد المجيد: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص99؛ الفقي، عصام الدين: الدول المستقلة، ص138.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص681.

(3) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص5؛ ابن الطقطقا: الفخري، ص292؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص681؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص136. ذكره الحسيني باسم "يقاق". أخبار الدولة السلجوقية، ص1. بينما ورد في الكامل "تُقاق". ابن الأثير، ج6، ص456. أما ابن تغري بردي فذكر أن اسمه دقمان. النجوم الزاهرة، ج5، ص132. كلمة دقاق تعني القوس الحديد. الكامل، ج6، ص456؛ الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص1.

(4) بلاد ما وراء النهر: المناطق الواقعة شرقي نهر جيحون بخراسان، وكان يسمى قبل وصول الإسلام إليه ببلاد الهياطلة، وفي الإسلام سمي ما وراء النهر، وهو من أخصب الأقاليم وأكثرها خيراً. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص45.

(5) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص517_518؛ عثامنة، خليل: فلسطين، ص283؛ المعاضيدي، خاشع: الحياة السياسية، ص82. بلاد فارس: ولاية واسعة، وإقليم فسيح، أول حدوده من جهة الغرب العراق، وبه كور عديدة، وأنهار كثيرة. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص226_228.

(6) ابن الطقطقا: الفخري، ص293؛ الفقي، عصام الدين: الدول المستقلة، ص144.

الخلافة العباسية في بغداد[1].

في سنة 447هـ/1055م استنجد الخليفة القائم العباسي بطغرل بك السلجوقي، ووعده بالسلطنة، بعد ما بلغ الخليفة بأن أرسلان البساسيري[2] قد عزم على نهب دار الخلافة، والقبض على الخليفة[3].

وفي 25 رمضان/18 ديسمبر من السنة نفسها قدم طغرل بك إلى بغداد، ودخلها بعد أن أذن له الخليفة بذلك، وقد خرج في استقباله القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء، وخُطب لطغرل بك على منابر بغداد[4]، وقُبض على الملك الرحيم[5] وزالت دولة بني بويه[6].

توجه البساسيري إلى الرحبة بعد فراره من بغداد، وخطب بها للفاطميين[7]، وكاتب المستنصر الفاطمي بأنه على طاعته، وعزمه على إقامة الدعوة له في العراق، وأنه قادر على ذلك[8]، فولاّه المستنصرُ الرحبة[9]، وأرسل له "خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوفاً، ومن الرماح والنشاب شيئاً كثيراً"[10].

أقام البساسيري وأتباعه الخطبة للمستنصر الفاطمي في الكوفة والموصل وواسط[11]،

---

(1) حسنين، عبد المنعم: دولة السلاجقة، ص41.

(2) البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري مقدم الأتراك ببغداد، كان مملوكاً للبويهيين، ثم عظم أمره، وخرج على الخليفة العباسي القائم بأمر الله ببغداد، ودعا للفاطميين، قُبض عليه ثم قُتل وصُلب ببغداد على أيدي السلاجقة في ذي الحجة سنة 451هـ/ يناير1060م، وسمي بالبساسيري نسبة إلى بلدة بسا أو فسا ببلاد فارس. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص412؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص192.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج30، ص20؛ العبر، ج2، ص289.

(4) ابن خلدون: تاريخ الإسلام، ج3، ص567_568.

(5) الملك الرحيم: هو أبو نصر خسرو بن الملك أبي كاليجار بن الملك سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، كان خاتمة ملوك بني بويه، توفي محبوساً بأيدي السلاجقة. الذهبي: سير، ج18، ص120.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص548؛ الذهبي: العبر، ج2، ص289؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص730.

(7) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج30، ص21. ذكر ابن خلدون أنه فرّ إلى الموصل. تاريخ، ج3، ص570.

(8) ابن القلانسي: ذيل، ص87.

(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص731.

(10) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج30، ص37.

(11) واسط: هي مدينة شهيرة تتوسط مدينتي الكوفة والبصرة، أسسها الحجاج بن يوسف الثقفي – رحمه الله–. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص347.

وأعلنوا شعار الفاطميين، وجاءته الخلع والهدايا من مصر، فاستفحل أمره[1]، وأراد العودة إلى بغداد، وإقامة الخطبة الفاطمية بها، فقام بمراسلة إبراهيم ينال أخ السلطان طغرل بك يطلب منه عصيان أخيه، ويطمعه في الملك، ويعدُه بمعاضدته عليه[2]؛ فحاول إبراهيم ينال الانفصال عن أخيه طغرل بك الذي خرج من بغداد إلى همذان[3] للقضاء على تمرد أخيه[4]، فاستغل البساسيري خروج طغرل بك من بغداد وانشغاله بقتال أخيه، فدخلها يوم الأحد 8 ذي القعدة سنة 450هـ/27 ديسمبر1058م، وأعلن ولائه للمستنصر الفاطمي، وخطب له في جوامع بغداد، وزاد في الأذان (حي علي خير العمل)[5]، وانتقم البساسيري من أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وقتل من كان يعاديه[6]، وأجبر القضاة والأعيان من العلويين والعباسيين على بيعة المستنصر الفاطمي، فبايعوا قهراً[7].

لم يكن نجاح الدعوة للفاطميين في بغداد دليلاً على أية قوة حقيقية كانت للفاطميين بقدر دلالته على الدسائس التي كانت تحاك ضد الخلافة العباسية من قبل مناوئيها[8]، ويُعتقد بأن المستنصر الفاطمي قد سُرّ لذلك، إلا أن المصادر لم تذكر بأنه واصل دعمه لثورة البساسيري، وربما يرجع ذلك إلى سوء حالة مصر الاقتصادية.

وعلى أية حال فإن ثورة البساسيري، ودعوته للفاطميين في بغداد لم تدم طويلاً، فبعد انتصار طغرل بك على أخيه إبراهيم ينال، عاد إلى بغداد، وأعاد الخليفة القائم بأمر الله إلى عرشه، ثم قاتل البساسيري حتى قتله لتعود الدعوة العباسية إلى العراق مرة أخرى[9].

---

(1) الذهبي: العبر،ج2، ص292؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص737.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص87_88.

(3) همذان: هي مدينة عذبة الماء وطيبة الهواء، فتحها المسلمون بقيادة الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – سنة 24هـ/645م، وهي مدينة حصينة ومنيعة، كثيرة الأهل، واسعة الأنهار، ملتفة الأشجار، كثيرة المقاتلة. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص410_411.

(4) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص14؛ الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص19؛ ابن الأثير: الكامل، ج6، ص567؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص533_534؛ حسنين، عبد المنعم: دولة السلاجقة، ص39.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص88؛ العظيمي: تاريخ حلب، ص342؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج16، ص32؛ الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص20؛ ابن خلدون، ج3، ص573؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص329.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص759.

(7) الذهبي: تاريخ الاسلام، ج30، ص32؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج15، ص765.

(8) سيد، أيمن: الأفضل بن بدر الجمالي، ص73.

(9) ابن القلانسي: ذيل، ص89_90؛ الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص17؛ الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص21؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص535_536؛ الذهبي: العبر، ج2، ص297.

ثانياً: دخول السلاجقة بلاد الشام وموقفهم من الدولة الفاطمية:

بعد أن استقرت الأمور للسلاجقة في خراسان والعراق، تطلع سلطانهم ألب أرسلان[1] إلى القضاء على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، ثم الزحف إلى مصر لإسقاط الدولة الفاطمية، وإعادتها للمذهب السني[2]، وقد شجعه على ذلك ناصر الدولة بن حمدان أحد أبرز القادة في مصر، حيث طلب من ألب أرسلان إرسال جيش إلى مصر لتسلمها، وإقامة الدعوة العباسية بها[3].

وفي سنة 463هـ/1071م خطب محمود بن نصر بن مرداس بحلب للخليفة القائم بأمر الله العباسي، وللسلطان السلجوقي ألب أرسلان[4]، ويرجع ذلك إلى خشيته من قوة السلاجقة وازدياد نفوذهم[5]، وضعف الدولة الفاطمية[6]، فما كان من القائم بأمر الله العباسي إلا أن أرسل إليه بالخلع والهدايا[7].

وعلى ما يبدو فإن ألب أرسلان لم يطمئن إلى إعلان محمود بن مرداس ولاءه للخلافة العباسية، حيث توجه بنفسه إلى حلب لإخضاعها، وفرض الحصار عليها، وأصر على مثول محمود بن مرداس بين يديه، فامتنع محمود عن ذلك إلا أنه خشي من سقوط حلب بسبب استمرار حصارها، فخرج ليلاً إلى السلطان مصطحباً أمه معه لتشفع له؛ فعفا السلطان عنه، وأقره على منصبه[8].

---

(1) ألب أرسلان: هو أبو شجاع محمد بن جَغْرِيبَك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، ويلقب بعضد الدولة ألب أرسلان، وألب أرسلان اسم تركي معنها الأسد الشجاع، وهو ابن أخ السلطان طغرل بك. ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص273_275.

(2) طقوش، محمد: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص114.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ص174؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص302؛ كرد علي، محمد: خطط الشام، ج1، ص236؛ طقوش، محمد: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص114.

(4) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص36؛ ابن الأثير: الكامل، ج6، ص622؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص10؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص27؛ ابن خلدون، ج3، ص581؛ الغزي: نهر الذهب، ج3، ص73. ذكر بعض المؤرخين أن محمود بن مرداس أقام الخطبة العباسية بحلب سنة 462هـ/1070م. ابن العديم: زبدة الحلب، ص173؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص388؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص302.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص622؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص10؛ العبر، ج2، ص313؛ زيان، حامد: الصراع السياسي والعسكري، ص41.

(6) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص332.

(7) اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص66؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص27.

(8) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص36_37؛ ابن الأثير: الكامل: ج6، ص622؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص175_176.

لم يكتف ألب أرسلان بإخضاع حلب، إذ أرسل في السنة نفسها (463هـ/1071م) الأمير التركي أتسز بن أوق الخوارزمي[1] إلى بلاد الشام، ففتح الرملة وبيت المقدس وما جاورهما من البلاد ما عدا عسقلان، ثم قصد دمشق، وحاصرها، وخرب أعمالها، ولكنه لم يتمكن من فتحها[2]؛ فعاد إلى بيت المقدس حيث أخضعها نهائياً تحت سيطرته سنة 465هـ/1073م، ونادى أهلها بالأمان، وجعلها قاعدة للانطلاق لاستكمال سيطرته على بلاد الشام[3].

استمر أتسز يقصد دمشق كل سنة عند نضج محاصيلها فيأخذها للإنفاق على جنده، وللإضرار باقتصاد دمشق، ولم يتمكن واليها الفاطمي المعلى بن حيدرة من الاستمرار في مواجهة هجمات السلاجقة؛ فهرب منها سنة 468هـ/1076م، فلمّا علم أتسز بذلك قام بمحاصرتها فسلّمت إليه بالأمان، ودخلها في ذي القعدة/يونيو من السنة نفسها، وخطب للمقتدي بأمر الله العباسي[4]، وأبطل من الأذان (حي على خير العمل)[5]، وقد أبدى الناس سرورهم في أرجاء الشام المختلفة بقدوم السلاجقة، وزوال الفاطميين حيث كانوا يعتبرون الحكم الفاطمي حكماً ظالماً غاشماً[6].

وهكذا يتبين أن تحركات السلاجقة كانت تهدف إلى القضاء على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، وعاضدهم على ذلك بُغض أهالي الشام للفاطميين ولمذهبهم الشيعي.

وعلى ما يبدو فإن الانتصارات التي حققها أتسز على الفاطميين واستيلائه على فلسطين، قد شجعته على التفكير في التوجه صوب مصر لفتحها وانتزاعها من يد الفاطميين؛ فتوجه على رأس جيشه نحو مصر سنة 469هـ/1077م، فخرج إليه أمير الجيوش بدر الجمالي[7] بجيش

---

(1) ويسمى أيضاً الأقسيس وأطسز، الذهبي: العبر، ج2، ص329؛ ذكره الفارقي في تاريخه باسم أحبش، ص192.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص625؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص14؛ العبر، ج2، ص314؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص89؛ زيان، حامد: الصراع السياسي والعسكري، ص42.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص310؛ ماجد، عبد المنعم: بيت المقدس، ص168.

(4) المقتدي بأمر الله: هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله، مات أبوه في حياة القائم، وبويع له بالخلافة بعد وفاة جده، وله تسعة عشر سنة وثلاثة شهور، وتوفي سنة 385هـ/995م. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص333_334.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص648؛ الذهبي: العبر، ج2، ص323؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص6.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص32؛ الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، ص201.

(7) بدر الجمالي: هو أمير الجيوش بدر، أصله أرمني، اشتراه جمال الدولة بن عمار، وتربى عنده، وتقدم بسببه، استنابه المستنصر الفاطمي على مدينة صور، وقيل عكا، ولما ضعف المستنصر بمصر استنجد به لضبط الأمور، فركب البحر، ودخل القاهرة، وضبط أمورها، ووزر للمستنصر إلى أن توفي في ربيع الأول سنة 487هـ/1094م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص448-450.

كبير، فهَزم بدرُ الجمالي أتسز، ووضع السيف في عساكره قتلاً ونهباً وأسراً[1]، فقُتل أكثر أصحابه، وقُتل أخ له، وقُطعت يد أخ آخر، وعاد منهزماً إلى الشام في نفر قليل من عسكره، فوصل إلى الرملة ثم سار منها إلى دمشق[2].

ويبدو أن ذلك الانتصار الذي حققه بدر الجمالي قد شجعه على إرسال حملة في السنة التالية (470هـ/1078م) لاسترداد دمشق، وجعل قائدها ناصر الدولة الجيوشي[3] الذي ما لبث أن وصل حلب، وحاصرها مدة، ثم رحل عنها دون السيطرة عليها[4].

لم ييأس الفاطميون من إعادة السيطرة على مدينة دمشق، فقد أرسل بدر الجمالي قائده الجيوشي مرة أخرى سنة 471هـ/1079م على رأس جيش كبير تمكن من السيطرة على جنوب بلاد الشام، وحاصر دمشق طمعاً في دخولها[5]، فاضطر أتسز إلى الاستنجاد بتاج الدولة تتش[6] بن ألب أرسلان الذي كان بحلب، وكان أخوه السلطان ملكشاه[7] قد أقطعه بلاد الشام وما يفتحه من تلك النواحي سنة 470هـ/1078م[8]، فلمّا سمع ناصر الدولة الجيوشي بقرب تتش في عسكر كبير لنجدة أتسز رحل عن دمشق راجعاً إلى مصر[9]، وتقدم السلطان تتش السلجوقي إلى دمشق ودخلها وأحسن إلى أهلها بعد أن أساء أتسز إليهم[10]، وبذلك أحبط تتش محاولة الفاطميين في السيطرة على دمشق، وإعادتها للحكم الفاطمي مرة أخرى، ويُعتقد بأن ذلك الفشل يرجع إلى قوة السلاجقة السنيين، وضعف الفاطميين وعدم استقرار أحوالهم، عوضاً عن مساندة أهالي الشام

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص109_111.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص651.

(3) ذكر ابن القلانسي أن القائد اسمه نصر الدولة. ذيل، ص112. بينما ذكر ابن تغري بردي أن اسمه نصير الدولة. النجوم الزاهرة، ج5، ص126.

(4) الذهبي: دول الإسلام، ج1، ص404.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص112.

(6) تاج الدولة تتش: هو أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي، ولد في رمضان سنة 458هـ/1066م، دخل دمشق بعد أن استنجد به أتسز بن أوق الخوارزمي، واستولى على البلاد الشامية، قُتل في صفر سنة 488هـ/1095م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص295.

(7) ملكشاه: هو السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق التركي السلجوقي، تولى السلطة بعد وفاة أبيه 465هـ/1072م، وكان من أحسن الملوك سيرة، ويلقب بالسلطان العادل، توفي سنة 485هـ/1092م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، 283_284؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص132_133.

(8) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص6_7.

(9) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص7.

(10) الذهبي: العبر، ج2، ص329.

للسلاجقة.

وفي سنة 475هـ/1082م استغل شرف الدولة مسلم بن قريش[1]– صاحب حلب– خروج تتش إلى أنطاكية وما جاورها لقتال الروم؛ فجمع جيشاً، وراسل الخليفة بمصر يطلب منه الإمدادات ليحاصر دمشق، فوعده الخليفة بتحقيق ذلك، إلا أنه لم يفِ بوعده، وفي نفس الوقت قاتل عسكر دمشق مسلم بن قريش أثناء حصاره للمدينة، فهزموه، واضطر إلى الرحيل عن دمشق[2]، وكان شرف الدولة قد سيطر على حلب سنة 472هـ/1080م وضمنها للسلطان السلجوقي ملكشاه[3] إلى أن أخضعت نهائياً للسلاجقة سنة 478هـ/1085م[4].

لم يحافظ الفاطميون على استمرار نفوذهم في بلاد الشام، ففي صفر سنة 476هـ/ يوليو1083م سلّم والي قلعة بعلبك من قبل المستنصر الفاطمي القلعة إلى تاج الدولة تتش[5]، وبالرغم من ذلك إلا أن الفاطميين حاولوا مراراً استعادة نفوذهم في بلاد الشام، ففي سنة 478هـ/1085م قاد أمير الجيوش بدر الجمالي بنفسه جيشاً تمكن من حصار دمشق، وضيق على تاج الدولة تتش إلا أنه لم يتمكن منها فعاد أدراجه إلى مصر[6].

وفي سنة 482هـ/1089م أرسل الوزير الفاطمي بدر الجمالي جيشاً من مصر بقيادة ناصر الدولة الجيوشي، فنزل على صور وحاصرها، وكان بها بها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل الذي صمد في مواجهة الفاطميين الذين تسلّموا المدينة بعد وفاته[7]، حيث لم يكن بمقدور أبنائه الصمود أمام حصار الفاطميين[8].

وفي السنة نفسها زحف الفاطميون إلى مدينة صيدا، وتمكنوا من فرض السيطرة عليها وإخضاعها تحت حكمهم، ثم استولوا على مدينتي عكا وجبيل[9] اللتان تقعان على الساحل، وأخذوا

---

(1) مسلم بن قريش: هو أبو المكارم مسلم بن قريش الملقب شرف الدولة، طمع في الاستيلاء على بغداد بعد وفاة السلطان طغرل بك، ثم رجع عن ذلك واستولى على ديار ربيعة ومضر، وملك حلب، وحاصر دمشق، وكاد أن يسيطر عليها. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص267_268.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص18.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص113؛ زيان، حامد: الصراع السياسي والعسكري، ص44.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص9.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص115.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص30؛ الذهبي: دول الإسلام، ج1، ص410.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص126.

(8) ابن القلانسي: ذيل، ص120؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص51؛

(9) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص51_52؛ الذهبي: دول الإسلام، ج1، ص414.

مدينة غزة[1] في نفس السنة[2]، ثم نزلوا على بعلبك فاضطر صاحبها إلى إقامة الخطبة للمستنصر الفاطمي[3]، وعاد بعد ذلك الجيش الفاطمي إلى مصر بعد أن ولى أمير الجيوش على تلك البلاد الأمراء والعمال رغبة في بقائها تحت الحكم الفاطمي[4]، وقد سمح ترك الجيش الفاطمي تلك المدن تحت حكام موالين لهم إلى عودة نفوذ السلاجقة مرة أخرى إلى المناطق التي دخلت في طاعة الفاطميين، فاستعاد تتش حصن بعلبك سنة 483هـ/1090م[5]، ثم نزل بجيشه على حِمص، وعِرْقَة[6]، وأفامية[7]، وسيطر عليهم، وضرب حصاراً على طرابلس ثم عاد عنها[8].

وفي سنة 486هـ/1093م أعلن والي صور منير الدولة الجيوشي عصيانه للفاطميين، فسير أمير الجيوش جيشاً حاصر صور، وتمكن من دخولها بعد أن ثار أهلها على منير الدولة ونادوا بشعار المستنصر، وهجم الجيش الفاطمي على المدينة وأعمل فيها النهب والسلب، وقام بأسر منير الدولة ومن معه من أصحابه، وحُملوا إلى مصر، وقُتلوا جميعاً، وفُرض على أهل صور غرامة مالية قدرها ستون ألف دينار[9].

وفي سنة 490هـ/1097م خطب حاكم حلب رضوان بن تتش السلجوقي – بعد صراع مع أخيه دقاق– للمستعلي الفاطمي[10] ثم للأفضل ثم له، بعد أن وصله رسول الأفضل من مصر

---

(1) غزة: هي مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر (تقع إلى الجنوب الغربي من فلسطين وتقع على ساحل البحر المتوسط)، وفيها مات هاشم بن عبد مناف جدّ الرسول – صلى الله عليه وسلم–، وبها قبره؛ ولذلك يقال لها غزة هاشم. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص202.

(2) المقريزي: المقفى الكبير، ج2، ص399.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص126.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص52.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص128.

(6) عِرْقَة: بلدة في شرقي طرابلس، وهي آخر أعمال دمشق، وتقع على سفح جبل، وعلى جبلها قلعة لها. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص109.

(7) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص، ويسميها البعض فامية بلا همزة. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص227.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص72_73.

(9) المصدر نفسه، ج7، ص86؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص135. رجحت علية الجنزوري أن ثورة أهل صور على منير الدولة كانت خوفاً من أمير الجيوش. الحروب الصليبية، ص234، هامش57.

(10) المستعلي: هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي، ولد في المحرم 469هـ/أغسطس1076م، وبويع سنة 487هـ/1094م، وتوفي في صفر 495هـ/1102م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص178_180.

يدعوه إلى طاعة المستعلي وإقامة الدعوة له[1]، إلا أنه عدل عن ذلك بعد مدة قصيرة عندما دخل سقمان وياغي سيان – صاحب أنطاكية– إلى حلب، وإنكارهم لما قام به من خطبة للفاطميين[2].

وفي ربيع الأول/مارس من السنة نفسها، أعلن والي صور المعروف بالكتيلة خروجه عن طاعة الفاطميين، فأرسل أمير الجيوش الأفضل جيشاً فتحها عنوة، وقتل كثيراً من أهلها، ونهب أموالها، وأُسر الكتيلة، وأُخذ إلى مصر حيث قُتل هناك[3].

وفي شهر شعبان سنة 491هـ/ يوليو1098م تمكن الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي[4] من فرض سيطرته على بيت المقدس بعد أن انتزعها من حاكميها ايلغازي وسقمان ابني أرتق[5]، ومعهما جماعة من أقاربهما ورجالهما وعساكر من الأتراك فراسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم المدينة إليه بغير حرب فلم يجيباه لذلك؛ فقاتل البلد، ونصب عليها المنجنيقات[6]، وهدم منها جانباً[7]، فاضطر الأراتقة إلى تسليم المدينة للفاطميين بعد أن قاتل أهلها أكثر من أربعين يوماً، وخرج سقمان إلى الرها، وايلغازي إلى بغداد، واستناب الفاطميون رجلاً يعرف بافتخار الدولة[8].

وهكذا ظل السلاجقة والفاطميون في نزاع مستمر حتى باغتهم الصليبيون وهم منهكو القوى، وبلادهم في فوضى شاملة، وجيوشهم قد سئمت الحرب، وزهدت في القتال، ما أدى إلى زيادة عوامل التفكك والانحلال السياسي في بلاد الشام في القرن 5هـ/11م، ممّا سهل الزحف الصليبي على البلاد الإسلامية[9].

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص117؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص235؛ الذهبي: العبر، ج2، ص362.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص133.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص113؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج33، ص45.

(4) الأفضل: هو أبو القاسم شاهنشاه الملقب بالملك الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، تولى الوزارة للمستنصر الفاطمي بعد وفاة أبيه سنة 487هـ/1094م، وكان حسن التدبير، فحل الرأي، غلب على مصر في ظل وجود الخلفاء الفاطميين إلى أن قُتل سنة 515هـ/1121م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص448–451.

(5) أرتق: هو أرتق بن أكسب جدّ الملوك الأرتقية؛ وهو تركماني الأصل، سار إلى بلاد الشام سنة 448هـ/ 1056م أو سنة 449هـ/1057م، وملك القدس لتاج الدولة تتش السلجوقي، ولما توفي أرتق سنة 484هـ/1091م تولى ابناه نجم الدين إيلغازي وسقمان القدس بعده، وبقيا بها حتى تم انتزاعها من قبل الفاطميين. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص191.

(6) المنجنيق: هو القذاف الذي ترمى بها الحجارة، وهو لفظ أعجمي معرب، أصله فارسي، ويعني: ما أجودني. ابن منظور: لسان العرب، ص4142.

(7) ابن القلانسي: ذيل، ص135؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص204.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص126؛ الحنبلي: الأنس الجليل، ج1، ص305.

(9) الجنزوري، علية: الحروب الصليبية، 209_210.

المبحث الرابع

ضعف الخلفاء الفاطميين وهيمنة الوزراء على الحكم

أولاً: الوزارة وأثرها في اضطراب أحوال مصر:

ظهر منصب الوزارة في الدولة الفاطمية في عهد العزيز الفاطمي، وكان وزيره يعقوب بن كِلِّس[1] حيث أن المعز – أول الخلفاء الفاطميين بمصر– "لم يوقع اسم الوزارة على أحد في أيامه"، وبعد وفاة الوزير يعقوب بن كلس، أطلق لفظ "وساطة" أو "سفارة" على من يلي هذا المنصب، واستمر ذلك في عهدي العزيز والحاكم[2].

لقد كان من يتولى رتبة "الوساطة" يسمى بـ"الوسيط" لأنه كان يتوسط بين الخليفة وسائر طبقات المجتمع[3]، وكانت الوساطة تصحب بما يسمى "السفارة" لتدل على رتبة من يقوم بتنفيذ رغبات الخليفة وتدبير أعماله[4]، ويُعتقد بأن استعمال الخليفة هذين اللفظين "الوساطة" و"السفارة" يرجع إلى رغبته في تحقيق أغراض سياسية يهدف من ورائها الإبقاء على سلطته والاستئثار بكل سيطرته[5].

عاد منصب الوزارة إلى ساحة الفاطميين السياسية مرة أخري في عهد الظاهر عندما قام بتعيين أحمد بن علي الجرجرائي وزيراً له سنة 418هـ/1027م[6].

وفي سنة 442هـ/1050م عَين المستنصر الفاطمي الحسن بن علي اليازوري وزيراً له[7]، ولقبه "بالناصر للدين، غياث المسلمين، الوزير الأجل المكين، سيد الرؤساء، تاج الأصفياء، قاضي القضاة وداعي الدعاة" كما نُقش اسمه على السكة إلى جانب اسم المستنصر[8].

وخلال وزارة اليازوري تعرضت مصر لمجاعة وغلاء في الأسعار بسبب نقص مياه نهر

---

(1) ابن الصيرفي: الإشارة، ص49؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص483؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص232؛ السيوطي: حسن المحاضرة ، ج2، ص201.

(2) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص232.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص81.

(4) ابن الصيرفي: الإشارة، ص59.

(5) ماجد، عبد المنعم: نظم الفاطميين،ج1، ص79.

(6) ابن الصيرفي: الإشارة، ص69.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص520؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص212.

(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص212؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص202.

النيل، وخلو المخازن السلطانية من الغلال الضرورية، حيث اهتم اليازوري بتجارة الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل دون الغلال[1]، مبيّناً بذلك إهمال السياسة الفاطمية التي كانت تهتم بالجوانب المادية والمحاصيل التي تدر لهم أرباحاً دون الاهتمام بالغلال التي يحتاجها السكان.

تعرضت مصر لمحنة اقتصادية أخرى سنة 447هـ/1055م[2]، وقد بذل اليازوري جهوداً كبيرة لمواجهة غلاء الأسعار وقلة الغلال حتى وفرها في الأسواق وقلت أسعارها[3].

دخلت مصر في أزمة إدارية شديدة إثر عزل الوزير اليازوري ثم قتله سنة 450هـ /1058م[4]، تولى خلالها تسعة عشر وزيراً الوزارة – تولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة –، واستمرت تلك الأزمة حتى سنة 466هـ/1074م[5].

وقد أدى كثرة تغيير الوزراء الفاطميين، وقصر مدتهم بالحكم في ذلك الوقت إلى عدم قدرتهم على تدبير شئون الدولة، كما وقع الاختلاف بين جند الدولة، وأصبح زعماء الدولة هم قادة الجيش[6]، وبالتالي تحول الحكم في مصر من أيدي الخلفاء والوزراء إلى قادة وزعماء الجيش؛ لتدخل مصر في فترة عدم استقرار سياسي، واضطرابات وقلاقل داخلية كبيرة رافقها حدوث أزمة اقتصادية كبيرة بين سنتي457_464هـ/1065_1072م[7] سميت بالشدة العظمى أو الشدة

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص224_225؛ إغاثة الأمة، ص14.

(2) المقريزي: إغاثة الأمة، ص16؛ ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر، ص132. ذكر المقريزي في كتابيه اتعاظ الحنفا، ج2، ص226؛ والخطط المقريزية، ج2، ص43 أن تلك المحنة كانت سنة 446هـ/1054م. إلا أنها يرجح أن تكون في سنة 447هـ/1055م، وذلك لأن المقريزي نفسه ذكر في كتابه إغاثة الأمة أن هذه المحنة وقعت بعد 5 سنوات من وزارة اليازوري، واليازوري تولى الوزارة سنة 442هـ/1050م كما ذُكر آنفاً، كما ذكر أن سنة 447هـ/1055م شهدت قصر النيل وارتفاع في الأسعار. اتعاظ الحنفا، ج2، ص240. كما أن ابن الأثير ذكر أن مكة تعرضت لغلاء شديد بسبب عدم حمل الطعام من مصر في سنة 447هـ/1055م. الكامل: ج6، ص550.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا: ج2، ص226؛ إغاثة الأمة، ص17.

(4) ابن الصيرفي: الإشارة، ص81؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص262.

(5) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص202_204؛ للمزيد، ينظر: ابن الصيرفي: الإشارة، ص82_100؛ ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر، ص135_136؛ الصاوي، أحمد: مجاعات مصر الفاطمية، ج2، ص87_89.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص262؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص13.

(7) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص34؛ المقريزي: إغاثة الأمة، ص19. اختلف المؤرخون في تحديد سنة بداية هذه الشدة، واتفقوا على أنها استمرت مدة سبع سنوات، فذكر ابن الأثير أنها كانت سنة 462/1070م، الكامل، ج6، ص620. بينما أورد ابن أيبك أنها كانت سنة 448هـ/1056م. الدرة المضية ص369. أما السيوطي فقد ذكر أنها كانت سنة 460هـ/1068م. حسن المحاضرة ج2، ص287. وابن إياس ذكر أنها كانت سنة=

المستنصرية[1] – نسبة إلى المستنصر الفاطمي–، تمثلت في وقوع غلاء شديد في الأسعار تبعه وباء، شبهه المؤرخون بالسنوات العجاف في عصر سيدنا يوسف –عليه السلام–[2]، "فقد تعطلت الأرض من الزراعة وشمل الخوف... وبيع رغيف الخبز بخمسة عشر ديناراً، وأُكلت الكلاب والقطط حتى قلّت الكلاب، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً... ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره، وصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه، وذهب وَقاره، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن: الجوع! الجوع! تردن المسير إلى العراق..."[3].

أدت حالة الفوضى والاضطرابات التي كانت تسود البلاد وقت المجاعات؛ بسبب ضعف السلطة المركزية – متمثلة في الخليفة– إلى تسيب حالة الأمن بالبلاد، وكثيراً ما يكون وراء اضطراب حالة الأمن طوائف الجند والعربان الذين استعانوا بقواتهم المسلحة للحصول على المكاسب المادية[4]، عوضاً عن أن قوات الجيش تتكون من عناصر متباينة الأصل ومختلفة الجنس[5].

وظهر ذلك جلياً عندما قام الصراع بين العبيد والأتراك، ويرجع ذلك الصراع إلى قيام أحد الأتراك بتجريد سيفاً على أحد العبيد سنة 454هـ/1062م أثناء إحدى نزهات المستنصر؛ فاجتمع العبيد على التركي وقتلوه، وحنق الأتراك لقتله، وتبرأ الخليفة من ذلك الفعل فاجتمعت الأتراك بزعامة ناصر الدولة بن حمدان لمحاربة العبيد فوقعت بينهما معركة شديدة بناحية كوم شريك[6] قُتل فيها كثير من العبيد وانهزم باقيهم[7]؛ فشُقّ ذلك على أم المستنصر لأنها السبب في كثرة العبيد السود بمصر، وذلك لأنها كانت جارية سوداء فأحبت الاستكثار من بني جنسها، واشترتهم من كل

=451هـ/1059م، بدائع الزهور ج1، ق1، ص216؛ وعلى ما يبدو فإن سبب هذا الاختلاف هو توالي المجاعات ونقص مياه نهر النيل خلال تلك المدة.

(1) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص28.

(2) القرماني: أخبار الدول، ج2، ص243.

(3) المقريزي: إغاثة الأمة، 19_20؛ للمزيد، ينظر: ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص216_219.

(4) الصاوي، أحمد: مجاعات مصر الفاطمية، ص101.

(5) السيد عبد العزيز سالم، سحر: تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص35.

(6) كوم شريك: منطقة تقع بالقرب من الإسكندرية، تنسب إلى الصحابي الجليل شريك بن عبد يغوث بن حرز الغطيفي الذي كان أحد قواد عمرو بن العاص– رضي الله عنه– عندما فتح مصر، واعتصم بهذا الكوم أثناء قتاله الروم. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص495. الكوم: هو تراب مجتمع من الحجارة والرمل. ابن منظور: لسان العرب، ص3959.

(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص265_266؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص14.

مكان حتى ازداد عددهم عن خمسين ألف عبد أسود، وأمدّتهم بالأموال والسلاح سراً[1]، وأمرتهم بالفتك بزعماء الأتراك، واستمر القتال بين الفريقين ثلاثة أيام انتهت بخروج العبيد من القاهرة ثم من الإسكندرية[2]، وفرّوا إلى الصعيد إلى أن سار إليهم الأتراك وقضوا عليهم[3].

يتضح مما سبق أن أم المستنصر قد تحكمت في الدولة نيابة عن ابنها الخليفة الذي لم يكن له أي دور في الصراع بين طوائف الجند، وأن الصراع كان بين طائفة العبيد بتوجيه من أم المستنصر، والأتراك بزعامة ناصر الدولة بن حمدان.

استغل ناصر الدولة وجنده صراعهم مع العبيد وأخذوا شيئاً كثيراً من مال المستنصر[4]، واستهانوا به، واستخفوا بقدره، وصار مقررهم في كل شهر أربعمائة ألف دينار، وأخرج ما كان في القصر من ذخائر وتحف وباعها بأبخس الأثمان لإيفائهم بالمال[5].

حاول المستنصر وضع حد لاستبداد ناصر الدولة فحشد قواته من المغاربة، وبعض الأتراك بقيادة رجل يقال له إلدكز[6]، فاشتبك مع ناصر الدولة وهزمه، ففرّ ناصر الدولة إلى الإسكندرية ثم استقر بالبحيرة[7]، وقام بنهب الوجه البحري، ثم تمكن من حصار القاهرة – في ظل الشدة المستنصرية–، وقطع خطبة المستنصر من الإسكندرية ودمياط وجميع الوجه البحري، وأقامها للقائم بأمر الله العباسي[8].

هكذا ضعف أمر المستنصر بمصر، فاضطر إلى مصالحة ابن حمدان على مال يحمل إليه، وتلاشى ذكر الخليفة، وتصرف ابن حمدان في أمر الخلافة[9]، ثم خضعت مصر لإلدكز الذي دبر مؤامرة لقتل ابن حمدان بعلم الخليفة المستنصر[10].

---

(1) المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص926.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص18_19.

(3) مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص14.

(4) ابن القلانسي: ذيل، ص95.

(5) المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص928.

(6) إلدكز: هو شيخ الأتراك والمقدم عليهم، ويلقب بأسد الدولة، ، تزوج ابنة ناصر الدولة بن حمدان، ولم يمنع ذلك من أن يدبر كل منهما المكائد للآخر. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص279.

(7) البحيرة: هي كورة معروفة من نواحي الإسكندرية بمصر، تشتمل على قرى كثيرة، ودخل واسع. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص351.

(8) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص81؛ المستنصر: السجلات المستنصرية، ص185.

(9) مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص14.

(10) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص81؛ ماجد، عبد المنعم: الخلافة الفاطمية، ص252.

ثانياً: ازدياد سلطة الوزراء في الدولة الفاطمية:

لقد تأثرت السياسة الخارجية للدولة الفاطمية بالشدة المستنصرية والصراعات الداخلية، فتقلصت ممتلكاتها في الحجاز الذي أقيمت فيه الدعوة العباسية[1]، وبلاد الشام الذي سيطر عليه السلاجقة السنيون كما ذكر آنفاً، ولما وجد المستنصر ألا جدوى في إرجاع سلطته والقضاء على الاضطرابات في البلاد، استعان بأحد ولاته المخلصين في بلاد الشام وهو بدر الجمالي الذي استأذن من المستنصر بإحضار جنده معه لقهر من تغلب على مصر[2]، واشترط عليه القبض على إلدكز لدخول القاهرة فقبض المستنصر عليه، ودخل الجمالي على المستنصر في جمادى الأولى سنة 466هـ/ يناير 1074م[3]، فخلع المستنصر عليه، ورد النظر إليه، وبطل حينئذٍ أمر الوزارة[4] التي تحولت من وزارة تنفيذ إلى وزارة تفويض، بمعنى أن الخليفة فوض إلى الوزير جميع سلطاته المدنية والحربية والتشريعية، فأصبح الوزير بذلك هو الرئيس الفعلي للدولة، وبذلك دخلت الدولة الفاطمية في العصر الفاطمي الثاني وهو العصر الذي سيطر فيه الوزراء على الحكم في الدولة [5]، ولعلنا نستدل على ذلك من الألقاب التي حازها الجمالي من المستنصر وهي: "السيد الأجل أمير الجيوش" و "كافل قضاة المسلمين" و "داعي دعاة المؤمنين" [6].

وبتفويض المستنصر أصبح بدر الجمالي هو الذي يولي القاضي والداعي، فيكون كل منهما نائباً عنه، وكان فيما تضمنه تقليده الوزارة: "وقد قلدك أمير المؤمنين جوامع تدبيره، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبراً للبلاد"[7].

بتولي بدر الجمالي الوزارة صار وزير السيف من عهده إلى آخر الدولة هو سلطان مصر، وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأخبار والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية[8]، وأصبح لبدر الجمالي– ومن جاء بعده من الوزراء– مقر خاص يحكم منه يسمى بـ"دار الوزارة الكبرى"[9]، وتسمى بالدار الأفضلية نسبة إلى

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص85؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص65.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص82.

(3) المقريزي: المقفى الكبير، ج2، ص396.

(4) ابن الصيرفي: الإشارة، ص95.

(5) سيد، أيمن: الأفضل بن بدر الجمالي، ص74_75.

(6) ابن أيبك: الدرة المضية، ص399؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص82.

(7) المقريزي: المقفى الكبير، ج2، ص397.

(8) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص233.

(9) مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص15.

الأفضل بن بدر الجمالي الذي تولى الوزارة فيما بعد[1]، وأصبح بدر هو الذي يرتب الدواوين ويعين الأمراء على الولايات[2]، كما ألزم بدرُ المستنصر بالله القصر، "ولم يبق له أمر ولا نهي إلا الركوب في العيدين [3]".

شرع أمير الجيوش بدر الجمالي في تدبير الأمور، وقضى على أمراء الدولة وزعمائها بالرغم من أنهم بالغوا في إكرامه وضيافته، حيث دعاهم إلى دعوة صنعها لهم، فلم يتخلف عنه منهم أحد، فأوكل كل واحد من جماعته أميراً من الأمراء، فقضوا عليهم[4]، ثم قام أمير الجيوش بدر بالقضاء على العناصر المعادية للخليفة الفاطمي، فذهب إلى البحيرة وقضى على العرب الذين ثاروا بها، ثم ذهب إلى الإسكندرية، ثم إلى الصعيد فقضى على أعداء الفاطميين[5]، كما تصدى أمير الجيوش للسلاجقة الذين حاولوا انتزاع مصر من الفاطميين سنة 469هـ/1076م، بل وحاول استرداد دمشق منهم أكثر من مرة إلا أنه فشل في ذلك، وقد ذُكر ذلك سابقاً.

وفي سنة 477هـ/1084م ثار الأوحد بن أمير الجيوش بدر على أبيه، واعتصم بالإسكندرية، وصار في جميع كثير من العرب؛ فسار إليه أبيه فأخذ الإسكندرية منه، وقام بقتله، وقتل كثيراً من الناس، وفرض على أهلها غرامة مالية كبيرة[6]، واستمر أمير الجيوش متحكماً في أمور الدولة حتى وفاته في جمادى الأولى سنة 487هـ/ مايو1094م، بعد أن أوصى لابنه الأفضل شاهنشاه من بعده بالوزارة[7].

تولى الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي وزارة المستنصر بعد وفاة أبيه، ولُقب بالسيد الأفضل، وكان قد مهّد لذلك بتشكيله فرقة من الجند سميت بالأفضلية – نسبة إليه–[8]، وبذلك أصبح منصب الوزارة وإمرة الجيوش، والإشراف على القضاء والدعوة بيد الأفضل شاهنشاه الذي سار على نهج أبيه في الحكم[9].

---

(1) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص229.

(2) ابن الصيرفي: الإشارة، ص95_96.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص84.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص312؛ ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر، ص92.

(5) ابن الصيرفي: الإشارة، ص96؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج2، ص397_398.

(6) ابن الجوزي: المنتظم، ج16، ص241_242؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج2،ص399؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص119؛ ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر، ص93.

(7) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص450.

(8) ابن الصيرفي: الإشارة، ص97_98؛ ماجد، عبد المنعم: الخلافة الفاطمية، ص261.

(9) سيد، أيمن: الأفضل بن بدر الجمالي، ص75.

توفي المستنصر الفاطمي في ذي الحجة 487هـ/ ديسمبر1094م[1]، ولما بلغ الأفضل شاهنشاه موت المستنصر، أجلس أحمد – الابن الأصغر للمستنصر– في القصر، ولقبه بالمستعلي بالله، واستدعى إخوته نزار وإسماعيل وعبد الله ليبايعوه [2] بالرغم من أن المستنصر ولى عهده لابنه الأكبر نزار، وشرع في أخذ البيعة له أثناء مرضه، غير أن الوزير الأفضل أخذ يماطل الخليفة حتى توفي، فخلع نزار وبايع المستعلي[3]، ويُرجع المؤرخون ذلك إلى كره الأفضل لنزار، وذلك لأن نزار خرج يوماً يتجول في القصر، فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبوابه فقال له نزار: إنزل يا أرمني يا نجس، فحقد الأفضل عليه[4].

وعلى أية حال فإن الأفضل كان يرغب في أن تستمر سلطاته المطلقة الذي تمتع بها أواخر عهد المستنصر الفاطمي، وقد سنحت له الفرصة أثناء مرض المستنصر فقام بعزل نزار وتعيين الابن الأصغر للمستنصر خليفة.

رفض أبناء المستنصر (نزار وإسماعيل وعبد الله) مبايعة أخيهم أحمد لصغر سنه؛ فطلب منهم الأفضل شاهنشاه أن يقبلوا الأرض للمستعلي ويبايعوه، فامتنعوا وادعى كل منهم أن أباه وعده بالخلافة [5].

اضطر إسماعيل وعبد الله – ابنا المستنصر– أن يبايعا أخيهما الأصغر –المستعلي بالله أحمد– بعد أن بايعه أعيان الدولة ورؤساؤها، بينما هرب نزار إلى الإسكندرية[6] وثار على أخيه المستعلي والوزير الأفضل، وأعلن الإمامة بالإسكندرية، وعاونه على ذلك القائد ابن مصال اللكي –أحد أمراء الأفضل– وناصر الدولة أفتكين التركي – أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي–، بعد أن وعده نزار بالوزارة، فطمع أفتكين في ذلك وبايع نزاراً، وبايعه أيضاً جميع أهل الإسكندرية ولُقّب بالمصطفى لدين الله[7] وقام نزار بلعن الأفضل على رؤوس المنابر، وسانده في ذلك قاضي الإسكندرية جلال الدولة علي بن أحمد بن عمار[8] .

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص95؛ الروحي: بلغة الظرفاء، ص157؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص84.

(2) المقريزي: المقفى الكبير، ج1، ص665.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص140؛ حسن، حسن: تاريخ الإسلام، ج4، ص171.

(4) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص194.

(5) المقريزي: المقفى الكبير، ج1، ص665.

(6) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص85؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص141.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص95؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص141.

(8) الروحي: بلغة الظرفاء، 158؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص144؛ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الإسكندرية، ص191.

خرج الأفضل من القاهرة في آخر المحرم 488هـ/ أوائل فبراير 1095م بعساكره، وسار إلى الإسكندرية، فبرز إليه نزار وأفتكين، وهُزم الأفضل وعاد إلى القاهرة، وتمكن نزار ومن معه من الاستيلاء على الوجه البحري[1] .

أصر الأفضل على قمع حركة نزار التي أصبحت تشكل خطراً على خلافة المستعلي وعلى وزارة الأفضل ونفوذه، فجهز جيشاً لمحاربة نزار، واستمال زعماء العرب بالأموال، وانضم إليه كثير من عرب البحيرة، فزحف إلى الإسكندرية وحاصرها حصاراً شديداً، فهرب ابن مصال ومن معه إلى المغرب، فَفَتّ ذلك في عضد نزار وأفتكين اللذان كاتبا الأفضل يطلبان الأمان، فأمنهما ثم قبض عليهما، وقتلهما بعد أن أخذهما للقاهرة [2].

وبفضل ذلك الانتصار استمرت قبضة الأفضل على خلافة المستعلي "الذي ليس له أمر ولا نهي، وإنما يُخطب له على المنابر ويُنقش اسمه على السكة، وسائر الأمور مرجعها إلى الأفضل"[3].

(1) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص195.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص142، 143؛ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الإسكندرية، ص193.

(3) المقريزي: المقفى الكبير، ج1، ص666.

الفصل الثاني

موقف الفاطميين من الحملة الصليبية الأولى

المبحث الأول: التحالف الفاطمي الصليبي مطلع الحملة الصليبية الأولى

المبحث الثاني: الاحتلال الصليبي لبيت المقدس وأثره على العلاقات الفاطمية الصليبية

المبحث الثالث: التوسع الصليبي في بلاد الشام وموقف الفاطميين منه

المبحث الرابع: المحاولات الفاطمية لاسترداد بيت المقدس

المبحث الأول

التحالف الفاطمي الصليبي مطلع الحملة الصليبية الأولى

أولاً: إعلان الحروب الصليبية على الشرق الإسلامي:

ظهرت فكرة الحروب الصليبية[1]على الشرق الإسلامي لأول مرة في مشروع البابا جريجوري السابع (465_478هـ/1073_1085م) سنة 467هـ/1074م، عندما طلب من ملوك وأمراء أوروبا مساعدة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع الذي استنجد بالبابوية طالباً منها إرسال نجدات سريعة؛ لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية، وأراضيها في آسيا الصغرى من هجمات السلاجقة[2] المسلمين الذين تمكنوا من تحقيق النصر على البيزنطيين في معركة مانزكرت[3] سنة 463هـ /1071م[4].

وعلى ما يبدو فإن أمراء وملوك أوروبا كانوا غير مستعدين لأي حرب خارج القارة في ظل الصراعات الداخلية بين الأمراء الإقطاعيين، عوضاً عن النزاع على عرش البابوية بين رجال الدين النصارى[5]، كما أنهم لم يفضلوا أن يزجوا بجندهم في حرب مجهولة المصير، لذلك عكفوا على دراسة الشرق الإسلامي والإطلاع على أحواله قبل خوض أي حرب ضد المسلمين، واستغلال أي قوى يمكن أن تساعدهم في مشروعهم الصليبي في الشرق الإسلامي والاستفادة قدر المستطاع، وفي ذلك الشأن ذكر المؤرخ الجنوي المعاصر للحرب الصليبية الأولى كفارو أن عدداً من زعماء الحملة الصليبية الأولى برئاسة جودفري بويون زاروا الإسكندرية سنة 475هـ/1083م، وقد رحب الفاطميون بهم، ثم ركبوا البحر برفقة مجموعة من عساكر الفاطميين، ونزلوا في يافا، ثم خرجوا

---

(1) أطلق المؤرخون اللاتين أسماء عديدة على الحروب الصليبية منها: الحج، الحملة العسكرية، الحرب المقدسة، حرب الاستيطان، وحركة الهجرة الكبيرة. براور، يوشع: الاستيطان الصليبي، ص13. وسميت بالحروب الصليبية لأنها اتخذت من الصليب شعاراً لها، وسُميت بشارة الخلاص. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص108؛ الزين، أحمد: تاريخ صيدا، ص56.

(2) الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص83_85؛ عاشور، سعيد: أوروبا في العصور الوسطى، ج1، ص439؛ الحركة الصليبية، ج1، ص129؛ زابوروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، ص31.

(3) مانزكرت: هي إحدى المعارك الفاصلة التي جرت بين السلاجقة بقيادة ألب أرسلان، وبين البيزنطيين بقيادة الإمبراطور رومانوس الذي أُسر في هذه المعركة، وتمكن بعدها السلاجقة المسلمين من إخضاع آسيا الصغرى تحت سيطرتهم. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص83_85؛ للمزيد، ينظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص262.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص624.

(5) الشارتري، فوشيه، : تاريخ الحملة، ص39.

منها إلى بيت المقدس، وقد استغرقت رحلتهم تلك مدة سنتين[1].

وقد رجح نبهان أن الوفد الصليبي قصد برحلته تلك القيام بمهمة تجسسية الغرض منها معرفة أحوال القوى الإسلامية في بلاد الشام، إذ من المستبعد جداً أن يهجر جودفري وغيره من زعماء الصليبيين أملاكهم في الغرب الأوروبي لفترة طويلة بغرض زيارة بيت المقدس[2]، وما يدعم ذلك الرأي أن رئيس الوفد الذي جاء سنة 475هـ/1083م هو نفسه الذي تولى زعامة أحد الجيوش الصليبية المتجهة نحو بيت المقدس، وهو أول أمير لبيت المقدس من الصليبيين، كما أن ذهاب الوفد قد جاء بعد دعوة البابا جريجوري السابع لمساعدة البيزنطيين في محاربة المسلمين، لا سيما وأن البابا جريجوري قد جمع جيشاً يتكون من 50,000 مقاتل لتحقيق ذلك الهدف[3].

لقد كانت الحروب الصليبية نتاجاً للعديد من العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت غرب أوروبا في العصور الوسطى، إذ أن البابا أوربان الثاني كان يرغب في إظهار البابوية في صورة الهيئة المتزعمة للعالم الغربي المسيحي، والعمل على بسط سيطرته على الكنيسة الشرقية[4] مستغلاً استغاثة الإمبراطور الكسيوس كومنين(1081_1118م)[5] بالبابوية لمساعدته في التصدي لنفوذ السلاجقة المتزايد في آسيا الصغرى، ولتأكيد موقفه أرسل الإمبراطور الكسيوس بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع الديني في مدينة بياكنزا شمالي ايطاليا في مارس سنة 488هـ/1095م[6].

كما أن غالبية الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية، وخرجوا قاصدين الشرق الإسلامي، أرادوا أن يتخلصوا من الأوضاع الاجتماعية السيئة التي كانوا يعيشونها، وقد عبر البابا أوربان الثاني عن ذلك بنفسه فقال: "لا يكاد أحد يجرؤ على السفر في الطرقات مؤملاً السلامة خوفاً من الخطف على يد قطاع الطرق في النهار أو اللصوص في الليل"[7].

---

(1) الكناني: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص85؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص133.

(2) نبهان: عسقلان، ص134.

(3) زابوروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، ص32.

(4) عاشور، سعيد: أوروبا في العصور الوسطى،ج1، ص439.

(5) الكسيوس كومينين: كان يشغل وظيفة كبير الحجاب (مدبر شئون القصر الإمبراطوري)، وكانت هذه الوظيفة تلي مباشرة الإمبراطور، وقد تولى الكسيوس حكم الإمبراطورية البيزنطية بعد أن خلع سيده نقفور الثالث (471_474هـ /1078_1081م). الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص155.

(6) الشارتري: تاريخ الحملة، ص87، هامش 11؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص131؛ سميث، جوناثان: ما الحروب الصليبية، ص26_27.

(7) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص35.

لقد تجسدت الفكرة النهائية للحروب الصليبية في مؤتمر كليرمونت الشهير الذي عقد في فرنسا في ذي القعدة 488هـ/ نوفمبر1095م، حيث دعا البابا أوربان إلى مد يد العون إلى المسيحيين في الشرق[1]، وتحرير –حسب زعمه– الأماكن المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين، ولم يكتف أوربان بما قاله في كليرمونت، بل أخذ يجوب مدن أوروبا داعياً للحروب الصليبية على الشرق، وأخذ يشجع رجال الدين النصارى والأمراء على ذلك[2]، وعلاوة على ذلك فقد أرسل مبعوثيه إلى مدينة جنوة الايطالية يطلب مشاركتهم في المشروع الصليبي الكبير في الشرق الإسلامي، ولم يلبث الجنوية أن استجابوا لدعوة البابا رغبة منهم في تحقيق مصالحهم الاقتصادية، وأبدوا استعدادهم للإسهام بالحركة الصليبية دون الاكتفاء بتسخير سفنهم لخدمة الصليبيين بل بإمدادهم بالمقاتلين الأكفاء[3].

أثارت دعوة البابا أوربان الثاني موجة كبيرة من الحماسة في مدن فرنسا وغيرها من المدن الأوروبية[4]، فتشكلت حركة شعبية ضخمة تزعمها بطرس الناسك[5] الذي لم يلبث أن توجه نحو الشرق في 24 جمادى الثانية 489هـ/20 ابريل 1096م بمن معه من الصليبيين الغير مدربين، وقد سبقه المغامر الفرنسي والتر المفلس في11 جمادى أولى/8 مارس من السنة نفسها مع عدد قليل من الفرسان[6]، وكان تحرك الناسك ومن سبقه بمثابة عصيان لأوامر البابا الذي حدد 22 شعبان 489هـ/15 أغسطس 1096م موعداً لبدء الحملة الصليبية نحو الشرق[7].

وصل بطرس الناسك القسطنطينية يوم 6 شعبان 489هـ/30 يوليو 1096م [8]، وقد خشي الإمبراطور الكسيوس من قيام الصليبيين بأعمال الفوضى والسلب والنهب في أراضي الإمبراطورية لعلمه بميلهم إلى الفوضى، وحبهم لعدم الاستقرار[9]، لاسيما بعد قيامهم بالتخريب في المناطق التي

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص36؛ سميث، جوناثان: ما الحروب الصليبية، ص27–28.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص103، 105.

(3) الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص114.

(4) توديبود: تاريخ الرحلة، ص61.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص110. بطرس الناسك: هو أحد القسيسين النصارى، اسمه بطرس ولقبه الناسك، ينتمي إلى أسقفية أمنين بفرنسا، وكان يقوم بزيارة الأماكن المقدسة والكنائس من أجل العبادة والصلاة. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص90.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص112.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص145؛ موسى، تيسير: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص62.

(8) مجهول: يوميات، ص79؛ توديبود، تاريخ الرحلة، ص62.

(9) أنا كومنينا: الالكسياد، ص10.

مروا بها قبل وصولهم إلى القسطنطينية[1]، وبالرغم من ذلك فإن الإمبراطور رحب بهم فور وصولهم إلى أراضي الإمبراطورية، وأثنى على هدفهم، وزودهم بالسفن اللازمة لنقلهم تجاه الشرق[2]، لكن ذلك كان رغبة في التخلص منهم لأنهم أساءوا ودمروا داخل أراضي الإمبراطورية، وهدموا القصور، وأشعلوا فيها النيران[3]، وذلك لا يعني أن الإمبراطور كان عازفاً عن تقديم خدمات لهم أثناء عبورهم بأراضيه، بل كان يرغب في مساعدتهم بغية العمل على استعادة الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية قبل فتح المسلمين لها.

نصح الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومينين القوات الصليبية بالانتظار والتجمع بالقرب من أحد المراكز الحصينة غرب مضيق البوسفور؛ حتى تأتيهم الإمدادات والجيوش النظامية من الغرب[4]، إلا أنهم لم يأخذوا بنصائحه واستمروا يعتدون على المزارع والقرى والكنائس القريبة دون أن يدروا باقترابهم من مدينة نيقية[5] مركز السلطان السلجوقي قلج أرسلان بن قتلمش[6].

حشد السلاجقة جيشهم بقيادة قلج أرسلان، وواجهوا الصليبيين بالقرب من مدينة نيقية، وكان عدد الصليبيين خمسة وعشرين ألفاً بينهم خمسمائة فارس، ولم يستطع الصليبيون الصمود أمام هجوم السلاجقة المدربين، فأعملوا فيهم ذبحاً وتقتيلاً، ولم ينج من الصليبيين سوى ثلاثة آلاف[7].

وقد ذكرت بعض المصادر الصليبية أن الإمبراطور البيزنطي قد سُرَّ بهزيمة الصليبيين من السلاجقة، وأصدر تعليماته بعبور الصليبيين الناجين البوسفور بعد تجريدهم من أسلحتهم[8]، ويعتقد بأن ذلك السرور كان نابعاً من قيام الصليبيين بأعمال التخريب والتدمير في أراضي الإمبراطورية أثناء توجههم نحو الشرق[9].

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص115.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص124.

(3) توديبود: تاريخ الرحلة، ص62.

(4) مجهول: يوميات، ص79؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص139.

(5) نيقية: مدينة من أعمال القسطنطينية، تتميز بموقع رائع حيث تشرف عليها الجبال التي تحيط بها من شتى النواحي، ولها عشرة حصون، وتتميز بأبراجها شاهقة الارتفاع، وتبعد عن البحر مسافة ثمانية أميال، ولها بحيرة عذبة. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص106؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص200.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص125- 126.

(7) المصدر نفسه، ص129.

(8) مجهول: يوميات، ص81؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص64.

(9) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص115.

وبذلك أخفقت الحملة الشعبية التي قادها بطرس الناسك، وعادت أدراجها قبل وصولها إلى بلاد الشام، ويرجع سبب ذلك الإخفاق إلى عدم تنظيم الحملة منذ انطلاقها، ثم إساءة جنود الحملة للمناطق التي يدخلونها، إضافة إلى قوة السلاجقة الأتراك الذين تصدوا لتلك الحملة.

وفي 22 شعبان 489هـ/ 15 أغسطس 1096م بدأت حملة الأمراء (الفرسان) الصليبية تجاه الشرق الإسلامي[1]، ولم يكن من بين هؤلاء الزعماء ملوك، فقد كان فيليب الأول[2] ملك فرنسا، ووليم الثاني ملك إنجلترا، وهنري الرابع[3] ملك ألمانيا مطرودين من رحمة الكنيسة حين كان يدعو أوربان الثاني إلى الحرب الصليبية، لكن كثيراً من الأشراف انضموا إلى صفوف المقاتلين، وكانوا كلهم تقريباً من الفرنسيين أو الفرنجة، وبذلك كانت الحملة الصليبية الأولى في الأغلب الأعم مغامرة فرنسية، ولذلك سماها المسلمون بالحروب الفرنجية[4].

تألفت الحملة الصليبية الأولى من أربعة جيوش رئيسية؛ الجيش الأول كان بقيادة الأمير جودفري بويون، وضم عدداً كبيراً من الزعماء وأصحاب المكانة السامية[5]، وقد وصل جودفري إلى القسطنطينية في ذي الحجة 489هـ/ ديسمبر1096م[6] وسط مخاوف من الإمبراطور الكسيوس، وخشيته من قيام الصليبيين بالفوضى داخل أراضي الإمبراطورية[7]، وبالفعل لم تسلم أراضي الإمبراطورية من الاشتباكات التي اتخذت طابعاً عسكرياً بين جيوش الإمبراطورية، وبين الصليبيين بقيادة جودفري، ونتيجة ذلك اضطر جودفري إلى الخروج من معسكره بالقسطنطينية، ثم عاد إليه بعد أن عقد صلحاً مع الإمبراطور[8].

وتولى قيادة الجيش الصليبي الثاني القائد ريموند، وكان معه الأسقف أدهيمار[9] المندوب

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص145.

(2) فيليب الأول (452هـ_501هـ/1060م_1108م): ملك فرنسا، وكان قد اصطدم مع الكنيسة بسبب علاقته غير الشرعية مع بيرترادا مونتفرات، حكم عليه بالحرمان في مجمع كليرمونت ذي القعدة 488هـ/ نوفمبر1095م. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، هامش 2، ص87.

(3) هنري الرابع (436هـ_499هـ/1045م_1106م): ملك ألمانيا، وعدو البابوية التي تأخذ بالإصلاحات الكلونية، كان قد توج امبراطوراً للدولة الرومانية سنة 477هـ/1084م. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، هامش1، ص87.

(4) عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص27_28.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص145.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص155.

(7) أنا كومنينا: الالكسياد، ص10.

(8) مجهول: يوميات، ص82_83.

(9) أدهيمار: هو أدهيمار أوف مونتيل، المنتمي لعائلة فيلا نتينوا، أصبح أسقف لابوي بمساعدة البابا جريجوري السابع، وكانت الأبرشية تابعة للبابا مباشرة، وعليه فقد كانت مركزاً للنفوذ البابوي والإصلاح الكلوني في تلك=

البابوي، ووصلا إلى القسطنطينية في شهر جمادى الأولى سنة 490هـ/ ابريل 1097م[1]، وفي الشهر ذاته وصل الجيش الصليبي الثالث الذي كان بقيادة بوهيموند، وضم معه عدد كبير من الإيطاليين، أما الجيش الرابع فقد كان بقيادة روبرت كونت نورماندیا[2]، وهو ابن وليم الفاتح ملك إنجلترا، وكان معه حشد من النبلاء[3].

ثانياً: بداية الحرب الصليبية الأولى وموقف الفاطميين منها:

بعد أن اجتمع بالقسطنطينية في ربيع 490هـ/1097م ما يزيد عن 600,000 شخص[4] من بينهم 100,000 فارس صليبي[5] نصح الإمبراطور البيزنطي قادة الحملة الصليبية بأن يسعوا للوصول إلى نوع من الاتفاق مع الفاطميين في مصر؛ إذ أن الفاطميين كانوا من أشد الناس خصومة للسلاجقة، ولا يقبلون مطلقاً مصالحتهم، بينما اشتهروا بالتسامح مع رعاياهم المسيحيين، وكانوا دائماً مستعدين للتفاهم مع الدول المسيحية[6].

لم يكن الفاطميون قد أخفوا سرورهم حين قدم إليهم موفدو الإمبراطور الكسيوس في جمادى الأولى 490هـ/ ابريل1097م يخبرونهم بوصول حشود الفرسان الصليبيين إلى القسطنطينية وبداية هجومهم على آسيا الصغرى، وقد نقل الأفضل – وزير المستعلي الفاطمي– إلى الإمبراطور تمنياته بالنجاح، وطلب أن يكون – بوصفه صديقاً– على علم بأخبار تقدم الحملة[7].

طلب الإمبراطور البيزنطي الكسيوس من زعماء الحملة الصليبية الأولى أن يقسموا له

=النواحي، وقد حضر البابا أوربان الثاني إلى لابوي في 10 شعبان 488هـ/ 15 أغسطس 1095م، واستشار أدهيمار بشأن خطته لمجلس مجمع كليرمونت وللحملة الصليبية، وقد اختاره البابا أوربان الثاني مندوباً عنه للحملة الصليبية بالشرق. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، هامش 14، ص88.

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص182؛ باركر، آرنست: الحروب الصليبية، ص26_27.

(2) روبرت النورماندى: هو روبرت دوق نورماندیا، وهو الابن الأكبر لوليم الفاتح، ولد تقريباً سنة 446هـ/1054م، وكان أخوه الأصغر ويلي أم روفوس ملكًا لانجلترا، ولقد كانت مشاركته في الحروب الصليبية مخرجاً له من مصاعبه التي كانت قائمة مع عائلته. الأغا، حسام: الأوضاع الاجتماعية، ص37، هامش7.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص41.

(4) رجح آرنست باركر أن عدد المقاتلين الصليبيين كان 150,000 فقط. الحروب الصليبية، ص27. إلا أننا نعتمد على ما جاء في المصادر الصليبية باعتبارها معاصرة للأحداث.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص46؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص192.

(6) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص343؛ الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص126؛ الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص139.

(7) معلوف، أمين: الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص69.

بالولاء والتبعية؛ فأقسم جميع الزعماء الصليبيين – باستثناء بعض القادة مثل ريموند الصنجيلي وتنكرد[1]–، وتعهد الصليبيون للإمبراطور بأنهم سوف يردّون للدولة البيزنطية جميع الأراضي التي يسيطروا عليها من المسلمين[2]، وتكفل الإمبراطور مقابل ذلك بأن يقوم بتقديم المساعدات الوفيرة لهم، وإمدادهم بالسفن اللازمة لنقلهم إلى آسيا الصغرى[3]، وأن يشارك هو بدوره في الحرب الصليبية ضد المسلمين، كما تعهد الإمبراطور بتزويدهم بفرق من جيشه في حال تعذر مسير الإمبراطور نفسه معهم[4].

عبرت قوات الصليبيين إلى الجانب الآسيوي ترافقها وحدات من الجيش البيزنطي[5]، وتلك الخطوة تبين أن الإمبراطور البيزنطي كان يهدف من وراء ذلك استعادة أقاليم البيزنطيين في آسيا الصغرى مباشرة من الصليبيين في حال سيطرتهم عليها تنفيذاً للاتفاقية، وعلى ما يبدو فإن الإمبراطور كان يخشى من أن يتنصل الصليبيون من الاتفاقية التي وقعها معهم، وأن لا يعيدوا أقاليم الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى في حال سيطرتهم عليها من السلاجقة.

وصل الصليبيون إلى مدينة نيقية في شهر جمادى الآخرة 490هـ/ يونيو1097م وفرضوا الحصار عليها، وكان عليها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش[6]، والذي بُهت هو ومن معه من المسلمين بوصول القوات الصليبية الكبيرة البالغ عددها 600,000 صليبي، في الوقت الذي كان فيه ميراث الشك والعداوة بين حكام المنطقة المسلمين طوال قرن كامل من الحروب والمنازعات قد جعل المسلمين عاجزين عن مواجهة الصليبيين[7].

لقد واجه الصليبيون مقاومة شديدة من سلاجقة نيقية والمدافعين عنها، وساعد السلاجقة في

---

(1) تنكرد: ينتمي لأسرة شهيرة؛ فوالده الماركيز آدوبونز، ووالدته هي إما ابنه روبرت جويكارد، وقد حقق تنكرد مجداً عسكرياً حيث فاق أقاربه في الشجاعة واستخدام السلاح، وكان قد قدم مع الحملة التي قادها بوهيموند النورماندي، وعمل مع الأمير جودفرى، ثم أصبح أميراً. الأغا، حسام: الأوضاع الاجتماعية، ص36، هامش8.

(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص45.

Smith, Jonathan Riley: The crusades A history, p33.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص120؛ العيني: عقد الجمان، ص5؛ يوسف، جوزيف: الدولة البيزنطية، ص216.

(4) عاشور، فايد: جهاد المسلمين، ص101.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص191؛ مولر: القلاع زمن الحروب الصليبية، ص11.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص120.

Smith, Jonathan Riley: The crusades A history, p34_35.

(7) يوسف، جوزيف: الإسلام والصليبية، ص212؛ وهبة، مصطفى: موجز الحروب الصليبية، ص25.

مهمتهم الدفاعية أسوار نيقية المنيعة[1]، كما أن قلج أرسلان عاد على عجل لإنقاذ مدينته –حيث كان خارجها– واشتبك مع الصليبيين، وكادت الدائرة تدور عليهم لولا مجيء قوات جديدة لتدعيم القوات الصليبية التي تهاجم السلاجقة[2]، وقد أبدت المصادر الصليبية إعجابها من مدى قوة وشراسة السلاجقة في المعارك الحربية، وتفوقهم في الفنون الحربية الحديثة مقارنة بالصليبيين[3].

عندما أيقن سكان نيقية من تعذر حصولهم على المساعدة من زملائهم المسلمين المجاورين لهم خارجها، أرسلوا إلى الإمبراطور البيزنطي الكسيوس بمبعوث يخبره بأنهم على استعداد لأن يسلموا إليه المدينة شريطة أن يسمح لهم بالرحيل عن المدينة في أمان بصحبة زوجاتهم وأطفالهم وكل ما يملكون، وسمح الكسيوس برحيل سكان المدينة آمنين مطمئنين وأمر بإرسالهم إلى القسطنطينية، وقد فرح الإمبراطور بامتلاكه المدينة لدرجة أنه أمر بتوزيع كثير من الصدقات على الفقراء[4]، وقد تم استيلاء الصليبيين والقوات البيزنطية المرافقة لها على مدينة نيقية في7 رجب 490هـ/20 يونيو1097م[5]، ويمكن اعتبار احتلال الصليبيين لمدينة نيقية الحصينة خطوة مهمة أمام الحملة الصليبية حيث يمكن عن طريقها تعبيد الطريق نحو الشرق الإسلامي[6].

لم يتمكن حاكم مصر– المستعلي بالله الفاطمي– من إخفاء فرحته البالغة فور سماعه بنبأ سقوط نيقية من يد قلج أرسلان بيد الصليبيين وبهزيمة جيشه فيها، وأُثلج صدره بانتصار الصليبيين على السلاجقة السنيين، واعتبر ذلك مكسباً له ولدولته[7].

أما قلج أرسلان فقد تراجع، وبدأ في تجميع جيشه في منطقة دوريليوم[8] بعد أن عقد هدنة مع المناوئين لحكمه، وكان قادة الصليبيين قد اتفقوا على تقسيم جيشهم إلى قسمين، على أن يسبق القسم الأول القسم الآخر بمسيرة يوم، وذلك لحل مشكلة تأمين الغذاء لتلك الأعداد الضخمة، وسار القسم الأول بقيادة بوهيموند النورماني الذي التقى بجيش قلج أرسلان في دوريليوم، وكادت أن

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص46_47.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص204؛ موسى، تيسير: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص69.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص48.

(4) توديبود: تاريخ الرحلة، ص111.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص47؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص221. ذكر روجر أوف ويندوفر أن ذلك كان في8 رجب 490هـ/21 يونيو1097م. ورود التاريخ، ج1، ص36_37.

(6) Smith, Jonathan Riley: The crusades A history, p35.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص304.

(8) دوريليوم: مدينة تقع بآسيا الصغرى، كانت تعتبر مجمع العساكر للعرب وللروم على حدٍ سواء. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص113.

تحسم المعركة لصالح السلاجقة لولا وصول القسم الثاني من الجيش الصليبي، حيث تراجع قلج أرسلان إثر ذلك[1].

واصل الصليبيون زحفهم على مدن السلاجقة في آسيا الصغرى، وقد واجهوا أثناء سيرهم كثيراً من المتاعب بسبب صعوبة الأرض، وقلة الزاد، وندرة الماء، وارتفاع درجة حرارة الصيف، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم، ولم يجدوا ما يحمل متاعهم وأثقالهم، واستمروا يقاسون الأمرّين في زحفهم إلى أن وصلوا في مطلع رمضان 490هـ/ منتصف أغسطس 1097م سهول نيقية الغنية بكلئها وشجرها[2]، حيث استراحوا بها عدة أيام ثم انقسموا إلى قسمين؛ حيث انشق تنكرد ومعه بلدوين – شقيق جودفري بويون– واتجهوا في مطلع شوال 490هـ/ منتصف سبتمبر 1097م، صوب قيليقية في الركن الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى، في حين اتخذ بقية الصليبيون – وعلى رأسهم المندوب البابوي وجودفري نفسه وبوهيموند– طريقاً شمالياً شرقياً صوب قيصرية التي استولوا عليها في17 شوال 490هـ/27 سبتمبر 1097م[3]، ثم تمكنوا بقواتهم العسكرية من إخضاع مدن أخرى لصالحهم، من بينها مدينة مرعش[4] التي سيطروا عليها، وأقاموا معسكراً لهم بها لمدة 3 أيام[5].

وفي الوقت ذاته استطاع القسم الثاني من الجيش الصليبي – والذي يتزعمه بلدوين وتنكرد– من فرض سيطرتهم على مدينة طرسوس[6] بمساعدة من سكانها النصارى[7]، ثم تمكنوا من إخضاع عدة مدن، عنوة تارة وبالحيلة تارة أخرى، ومن أهمها مدينة تل باشر[8] التي سلمها الأرمن الذين كانوا يسكنون فيها للصليبيين[9].

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص65؛ موسى، تيسير: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص69.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص234.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص231_232؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص167.

(4) مرعش: مدينة في الثغور، تقع بين الشام وبلاد الروم، لها سوران وخندق، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني نسبة إلى الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء المسلمين في عهد بني أمية. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص107.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص234، 255.

(6) طرسوس: مدينة بثغور الشام، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، تم بناؤها في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد– رحمه الله–. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص28.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص239؛ زابوروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، ص80.

(8) تل باشر: قلعة حصينة، وكورة واسعة، تقع شمالي حلب، أغلب سكانها أرمن نصارى، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص40.

(9) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص52.

ويبدو أن بلدوين كان يطمح في تحقيق مشروع خاص به بإنشاء إمارة صليبية يتولى حكمها بنفسه، وظل محتفظاً لنفسه بسرية المشروع، معتمداً على قدراته الذاتية مع من يسانده في تحقيق ذلك المشروع، وقد ظهر ذلك التوجه جلياً عقب انفصاله عن الجيش الرئيسي للصليبيين.

وفي تلك الأثناء كانت مدينة الرها[1] تحت حكم زعيم أرمني اسمه ثوروس، حيث تمكن من الوصول إلى حكمها سنة 488هـ/1095م مستغلاً صراع السلاجقة الداخلي، ومتجنباً الدخول في صراع معهم، كما أنه اعترف بالتبعية للإمبراطور البيزنطي خشية امتداد النفوذ السلجوقي لها، ولذلك كان ثوروس ينظر بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق[2].

وفد على بلدوين مبعوثون من الرها – بعلم حاكمها– يلتمسون منه تقديم العون لهم، فرحب بلدوين بذلك بغية تحقيق هدفه في إقامة إمارة له في الشرق[3]؛ فتقدم صوب الرها متجنباً الكمائن التي أعدها السلاجقة لهم[4]، ودخلها بقواته بمساعدة النصارى الأرمن الذين كانوا يتخوفون من استعادة السلاجقة للرها، وقد عبر ابن الأثير عن ذلك بقوله: "أن الفرنج كانوا قد ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها لأن أكثرها أرمن، وليس بها من المسلمين إلا القليل"[5].

رحب حاكم الرها وأهلها النصارى بالصليبيين، وأصبح بلدوين بمثابة الابن والوريث الشرعي لحاكم الرها بعد أن تبناه لتقدم سنه، وعدم وجود أبناء يرثونه، إلا أن بلدوين دبر تمرداً ضد الشخص الذى أحسن إليه، واستولى على المدينة، وأقام بها أول مقاطعة صليبية في الشرق، محققاً لرغباته الشخصية في الاستقلال عن أمراء الحملة الصليبية في إمارة خاصة به[6].

واصل الأرمن النصارى دورهم في مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على عدد من المدن الإسلامية، واستمروا بتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من مواد وأقوات، حيث أن تلك المساعدات كان لها دور في تهيئة الأجواء لمواصلة العدوان المسلح والتوغل الصليبي في الشرق الإسلامي[7]، وقد ظهر ذلك جلياً عندما قدّم الأرمن المساعدة للجيش الصليبي الرئيسي في المهام العسكرية

---

(1) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص106. اسم الرها باللغة الرومية أوديسا (أذاسا). الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص258.

(2) الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص258_259.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص259.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص52.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص155.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص260_261؛ براور، يوشع: عالم الصليبيين، ص44.
Smith, Jonathan Riley: The crusades A history, p36.

(7) يوسف، جوزيف: العرب واالروم واللاتين، ص235.

ومحاربة المسلمين السلاجقة داخل قلعة أرتاح[1] وإنزال الهزيمة بهم[2].

ويبدو أن هزائم السلاجقة من القوات الصليبية الكبيرة العدد، جعلتهم يفقدون مدنهم وحصونهم وقلاعهم في آسيا الصغرى، وبذلك أصبحت الفرصة مواتية للصليبيين للتوجه نحو بلاد الشام الذي أصبح الطريق إليه مفتوحاً أمامهم.

ثالثاً: التحالف الفاطمي الصليبي وأثره على مدن بلاد الشام:

في الوقت الذي كان فيه بلدوين يوطد سلطاته في إمارة الرها توجه الجيش الصليبي الرئيسي نحو مدينة أنطاكية الواقعة شمال بلاد الشام[3]، وما أن ترامت أنباء الغزو الصليبي لسكان بلاد الشام حتى اضطربت البلاد، لأن كثرة عدد الصليبيين وزحفهم جعل الأهالي يشعرون أنهم أمام خطر رهيب، حتى قال ابن القلانسي عن ذلك أن الصليبيين وصلوا "في عالم لا يحصى عدده كثرة، وتتابعت الأنباء بذلك، فقلق الناس لسماعها، وانزعجوا لاشتهارها"[4].

كانت أنطاكية تحت حكم الأمير ياغي سيان الذي حكمها للسلطان ملكشاه السلجوقي سنة 479هـ/1086م[5]، وقد ضعف ياغي سيان عن مواجهة الصليبيين بسبب دخوله في صراع البيت السلجوقي – الذي كان بين ابني تتش فخر الملوك رضوان – ملك حلب– وشمس الملوك دقاق – ملك دمشق–، حيث كان يرغب رضوان في انتزاع دمشق من دقاق وطرده منها، وأيده على ذلك ياغي سيان الذي لم يلبث أن ترك رضوان وانضم إلى أخيه دقاق وهاجماه في حلب، ثم عاد ياغي سيان إلى أنطاكية في المحرم 489هـ/ يناير 1096م[6].

يتضح مما سبق أن السلاجقة في أنطاكية لم يكونوا مهيئين ومستعدين لمواجهة الحشد الصليبي الكبير الذي كان يؤازره الإمبراطور البيزنطي، ويساعده النصارى الأرمن في آسيا الصغرى، ويؤيدهم في ذلك الفاطميين في مصر.

اتخذ ياغي سيان التدابير اللازمة لحماية أنطاكية من الصليبيين فحشد قواته داخل القلعة

---

(1) أرتاح: حصن منيع من أعمال حلب. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص140. تعرف أرتاح باسم سالسيس، وتمثل إحدى المدن الأسقفية التابعة لكرسي بطركية أنطاكية. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص266.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص266.

(3) توديبود: تاريخ الرحلة، ص135

(4) ذيل، ص134.

(5) العظيمي: تاريخ حلب، ص354؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص221.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص131_132؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص188_189.

وشرع في توفير المؤن اللازمة، وقام بتحصين المدينة، وأخرج النصارى منها؛ حيث خشي من انضمامهم إلى جانب الصليبيين[1].

وصل الصليبيون إلى أسوار مدينة أنطاكية في 22 ذو القعدة 490هـ/21 أكتوبر 1097[2]، وعند وصولهم اختلف الزعماء الصليبيون حول فرض الحصار على أنطاكية، فرأى بعضهم ضرورة تأخير حصار المدينة حتى مطلع الربيع؛ نظراً لقرب الشتاء، ولانتظار تنفيذ الإمبراطور البيزنطي عزمه على إرسال فرقة بيزنطية كبيرة من قواته القادمة من أوروبا، وفريق آخر رأى ضرورة سرعة فرض الحصار على المدينة لمباغتة أهلها وعدم إعطائهم فرصة لالتقاط الأنفاس[3].

نزل الصليبيون على الرأي الثاني وقام بوهيموند بفرض الحصار على أنطاكية من جهتها الشمالية، ثم تبعه عدد من الأمراء لإكمال الحصار الصليبي على المدينة من جهاتها الأخرى، وكان من بين أولئك الأمراء روبرت أمير فلاندر[4]، وروبرت أمير نورماندیا، وهيج أمير فرمندوا[5]، وستيفن (إيتن) أمير بلوا[6]، وريموند الذي كان معه المندوب البابوي أدهيمار، ومعهم فرسان بروفانس، وجودفري بويون الذي حاصر أنطاكية من جهتها الشمالية الغربية[7].

اشتركت المدن الايطالية في حصار أنطاكية، حيث اتصل عدد من زعماء تلك المدن بالجيش القائم على الحصار، وانضم أكبر عدد منهم إلى الصليبيين، واقتسموا معهم متاعب

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص120؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص8؛ العيني: عقد الجمان، ص7؛ للمزيد، ينظر: الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص54_55.

(2) توديبود: تاريخ الرحلة، ص135. ذكر مجهول أن حصار مدينة أنطاكية بدأ في 21 ذو القعدة / 20 أكتوبر. يوميات، ص108. بينما ذكر المؤرخ ريموناجيل أنه كان في 23 ذو القعدة / 22 أكتوبر. تاريخ الفرنجة، ص120.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص280_281.

(4) روبرت كونت فلاندر: خلف روبرت الأول الفريزى على حكم فلاندر سنة 491هـ/1097م، وكان الأخير قد حج إلى القدس تكفيراً عن آثامه، وكان قد زار الكسيوس في رحلة عودته، ووعده بإرسال الجنود لمساعدته ضد الأتراك، وأتم وعده سنة 483هـ/1090م، وكان لابنه روبرت الثاني اهتمام تقليدي في الصراع ضد المسلمين، واسترداد الأرض المقدسة –حسب زعمه–. الأغا، حسام: الأوضاع الاجتماعية، ص37، هامش8.

(5) هيج أمير فرمندوا: هو شقيق ملك فرنسا فيليب الأول، صاحَب الحملة الصليبية الأولى، ثم عاد إلى موطنه بعد أن احتل الصليبيون مدينة أنطاكية. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص213.

(6) ستيفن (إيتن) أمير بلوا: هو أحد قادة الحملة الصليبية الأولى، لكنه لم يستمر مع الجيش الصليبي إذ عاد إلى موطنه أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص213.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص283.

الحصار وقسوته[1]، كما هاجموا ميناء اللاذقية[2] بقطعهم البحرية، وأخذوا منه جميع ما كان للتجار، ونهبوا المدينة ثم عادوا[3].

أما ياغي سيان فقد استنجد بجيرانه المسلمين، حيث "سيّر ولده إلى دمشق إلى الملك دقاق، وإلى جناح الدولة بحمص، وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، والبعث على الخفوف إلى الجهاد، وقصد تحصين أنطاكية"[4]، وقد استجاب لاستغاثته تلك الملك دقاق وطغتكين أتابك[5]، وغيرهم من الأمراء، وأعدوا جيشاً نزل قرب شيزر في محاولة لإنقاذ أنطاكية، وفك الحصار عنها، وعندما علموا بخروج قوة من الصليبيين بالقرب من حلب خرجوا لملاقاتهم، فدارت معركة بين الطرفين عند البارة[6] بتاريخ 23 محرم 491هـ/31 ديسمبر1097م[7] انتصر فيه المسلمون[8]، ويرجع خروج القوات الصليبية وافتراقها عن القوات المحاصرة لأنطاكية إلى اضطرارهم للبحث – حتى في الأماكن النائية البعيدة– عن الطعام، حيث أنهم "لم يجدوا خبزاً يبتاعونه، وبدأ الكثيرون يخططون للانسحاب من الحصار والفرار إما عن طريق البر أو البحر"[9]؛

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص316؛ هايد، ف: تاريخ التجارة، ص147.

(2) اللاذقية: هي مدينة في ساحل بلاد الشام، تعد من عمال حمص، ثم أصبحت تتبع مدينة حلب، وهي في الأصل مدينة رومية قديمة فيها أبنية قديمة مكينة، ولها مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مضرف على الربض، والبحر في غربها. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص5_6.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ص237.

(4) ابن القلانسي: ذيل، ص134؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص237.

(5) طغتكين: هو الأمير أبو منصور طغتكين، كان من رجال تاج الدولة تتش، وزوجه بأم ابنه دقاق، وكان مع تاج الدولة لما توجه إلى الري لمنازلة ابن أخيه بركياروق، فلما قتل تتش عاد طغتكين إلى دمشق، وكان شهماً شجاعاً شديداً على المفسدين، توفي سنة 522هـ/1128م، ودفن بدمشق. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص370؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص174، هامش4. أتابك: لقب يتكون من لفظين، أتا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير، أي الأمير الوالد الذي يعتبر مسئولاً عن تربية ابن الأمير، وتعليمه أصول الإدارة والحكم، وقد درج أمراء السلاجقة على تزويج الأتابك من إحدى مطلقاتهم، أو قيام الأتابك نفسه بالزواج من والدة الأمير الصغير عقب وفاة والده، ويتزوج الأمير بدوره من ابنة الأتابك، وأضحى للأتابك من السلطان والنفوذ ما جعله أكثر من قائد عسكري. الحريري: الإعلام والتبيين، هامش3، ص69؛ الغامدي، علي: بلاد الشام قبل الغزو الصليبي، ص289_ 290.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ص237_238. البارة: بليدة وكورة من نواحي حلب، وبها حصن وهي ذات بساتين، وتسمى زاوية البارة. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص320. قدّر ابن العديم أن الجيش الصليبي في تلك المعركة بلغ 30,000 مقاتل. زبدة الحلب، ص237.

(7) باركر، آرنست: الحروب الصليبية، ص34.

(8) ابن العديم: زبدة الحلب، ص237.

(9) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص55.

بسبب طول الحصار الذي استمر أكثر من سبعة شهور(22 ذو القعدة 490هـ_ 29 جمادى الثانية 491هـ/21 أكتوبر 1097م_3 يونيو 1098م)[1].

وبذلك يتضح أن السلاجقة لم يقفوا مكتوفي الأيدي عن مواجهة الصليبيين منذ اللحظة الأولى لدخولهم الأراضي الإسلامية في آسيا الصغرى، مروراً باحتلالهم للمدن الإسلامية، وحتى بدء الهجوم الصليبي على بلاد الشام، كما يتبين أن السلاجقة عملوا على الاتحاد مع إخوانهم في بلاد الشام، ما يدلل على جديتهم في مواجهة العدوان الصليبي.

وَجَد الصليبيون ضالتهم في الفاطميين الذين دخلوا بجدية في مشروع التحالف مع تلك القوات الصليبية التي اجتاحت آسيا الصغرى وشمال الشام ضد خصومهم من أهل السنة سواء كانت الخلافة العباسية في بغداد أم الأتراك السلاجقة في الشام[2]، حيث كان حاكم مصر– المستعلي بالله الفاطمي– ينظر بعين الريبة إلى كل توسع من جانب السلاجقة، "وأثلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية، وعدّ كل خسارة تصيب الأتراك مكسباً له، ورأى أن المصائب التي تلم بهم تعمل على استقرار أمنه وأمن رعاياه، وخاف أن تؤدي أهوال طول الحصار إلى قتل رجالنا (الصليبيين)" [3].

ويبدو أن الفاطميين كانوا يعلقون آمالاً كبيرة على مهاجمة الصليبيين للقوات السلجوقية، فإذا استطاع الصليبيون زحزحة السلاجقة عن مركزهم، وأضعفوا من شأنهم، فإن ذلك يُمكّن الفاطميين من إرجاع الأراضي التي أخذها منهم السلاجقة منذ زمن ليس بالبعيد.

بادر الفاطميون بإرسال سفارة للصليبيين المحاصِرين لأنطاكية، وهنا تذّكر الصليبيون نصائح الكسيوس السابقة، فقاموا على الفور بتنظيم فرسانهم، وتحاملوا على أنفسهم كي يظهروا بالمظهر اللائق أمام السفراء الفاطميين، ورحبوا أيما ترحيب بأولئك السفراء، وأكرموا وفادتهم لعدة أسابيع[4]، وعقدوا معهم عدة اجتماعات ليتيحوا لهم الفرصة لإبلاغ رسالتهم[5].

بذل الفاطميون جهوداً كبيرة في كسب ود القادة الصليبيين راجين وقوفهم إلى جانبهم ضد

---

(1) مجهول: يوميات، ص130؛ الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص65؛ ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص120؛ ذكر توديبود أن حصار أنطاكية استمر أكثر من 8 شهور. تاريخ الرحلة، ص260. بينما ذكر المؤرخون المسلمون أن حصارها استمر تسعة شهور. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص120؛ العيني: عقد الجمان، ص7.

(2) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص197.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص304_305.

(4) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص105؛ الكناني، مصطفي: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص127.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص305.

السلاجقة، ولما طلب الفاطميون المساعدة من الصليبيين "كانوا حريصين عليها كل الحرص، جادين كل الجد في طلبها"[1]، كما ذكر أعضاء السفارة الفاطمية لزعماء الصليبيين الأعمال الطيبة التي يقوم بها الأفضل لنصارى مصر[2].

لقد اتفق الفاطميون مع جودفري خلال تلك السفارة أن يقدموا له المساعدة بالجند والذخيرة ضد السلاجقة الذين كانوا آنذاك يسيطرون على أغلب بلاد الشام، وذلك مقابل أن يستمر الصليبيون بحصارهم لأنطاكية حتى انتزاعها من أيدي السلاجقة، كما اتفقوا على اقتسام بلاد الشام بحيث يكون شمالها للصليبيين وجنوبها للفاطميين، مع العلم بأن مثل ذلك التقسيم كان موجوداً من قبل أن يدخل السلاجقة الشام، حيث كان الجزء الشمالي منه تابعاً للدولة البيزنطية، والجزء الجنوبي تابعاً لمصر[3].

ومما لا شك فيه أن الدولة الفاطمية كانت على علم بأهداف الصليبيين وخطط سيرهم حتى قبل وصولهم إلى أراضي الدولة البيزنطية، فلقد بلغ الصليبيون أهدافهم وأمير جيوش الدولة الفاطمية خامل متردد حائر فرماه بعض المؤرخين بالخيانة، والبعض الآخر قال بأنه كان يعمل على معاونة الصليبيين وفي تيسير فتوحاتهم، والدليل على علم الفاطميين بقدوم الحملة الصليبية إلى بلاد المسلمين ما ذكرته المصادر الإسلامية بأن الفاطميين هم الذين استدعوا الصليبيين إلى بلاد الشام لاقتسامه بينهما عقب دخول السلاجقة لبلاد الشام وانتزاعه من الحكام الفاطميين، وقيام السلاجقة كذلك بمهاجمة مصر، ويعبر المؤرخون المسلمون عن ذلك بالقول بأن الفاطميين "لما رأوا قوة الدولة السلجوقية، وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم... خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين (السلاجقة)"!![4]، وكل ذلك يدحض آراء بعض الذين رجحوا بأن الأفضل الفاطمي اضطر إلى الاتفاق مع الصليبيين بسبب معاناة مصر من البؤس والفوضى والانقسام والتنازع على السلطة، عوضاً عن الأزمة الاقتصادية، والنزاع مع السلاجقة على بلاد الشام[5].

لقد كانت إجابة الصليبيين لتلك السفارة تنطوي على مرونة واضحة بغية إيهام الفاطميين

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص57.

(2) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص105.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص305؛ أوتو أسقف فريزينغ: المدينتان، ص329؛ توفيق، عمر: الدبلوماسية الإسلامية، ص60.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص119_120؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص8؛ للمزيد، ينظر: الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص143.

(5) عطا الله، خضر: علاقات الدولة الفاطمية، ص40.

بموافقتهم المبدئية على الاتفاقية، ريثما يتم لهم السيطرة على أنطاكية التي كانت تعد في نظرهم عقبة كأداء لا بد من توظيف جميع الظروف لتجاوزها[1]، كما أن الصليبيين لم يفصحوا عن حقيقة نواياهم حول القدس وبلاد الشام[2].

إن إرسال مصر الفاطمية لسفارتها إلى الصليبيين كان معناه الاعتراف بهم رسمياً كقوة جديدة على مسرح الأحداث، كما أن إنشاء علاقات سلمية معهم إنما كان بهدف كسبهم من أجل التفرغ لضرب السلاجقة السنيين[3]، وذلك يعد مكسب مهم للصليبيين مطلع هجومهم على بلاد الشام، حيث أنهم بذلك لا يواجهون جبهة إسلامية موحدة، بل يواجهون إمارات إسلامية متفرقة يسهل القضاء عليها، ما يجعل الصليبيين يتمكنون من الاستيلاء على مزيد من البلاد دون متاعب.

وبذلك يتبين أن الفاطميين عملوا على تقديم المعونات المادية والمعنوية للصليبيين أثناء اجتياحهم لبلاد الشام كما فعل البيزنطيون، وكان الهدف الذي يجمع أولئك الطرفين يتمثل في القضاء على السلاجقة السنيين الذين يشكلون خطراً على ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى، وكذلك على حكم الفاطميين في مصر.

تشجع الصليبيون على تشديد الحصار – الذي طال أمده– على أنطاكية في ظل وجود السفارة الفاطمية، حيث خاض الصليبيون معارك ضارية مع مدافعيها تخللها خسائر فادحة من الطرفين، وفي تلك الأثناء أرسل زعماء الصليبيين حمولة أربعة جياد من رؤوس قتلى المسلمين إلى مندوبي الفاطميين الذين كانوا يعسكرون بالقرب من القوات الصليبية المحاصرة لأنطاكية، فأبدى أفراد السفارة الفاطمية سرورهم البالغ[4]، ما يشير إلى عمق التعصب المذهبي الأعمى الذي أبداه ممثلو الفاطميين تجاه السلاجقة السنيين،[5] ويبدو أن إقامة الفاطميين قرب معسكر الصليبيين كان من أجل الاستمرار في تشجيع الصليبيين على عدم الانسحاب عن حصار المدينة، وعدم جعل أهلها في راحة تمكنهم من مواجهة الهجمات الصليبية التي تخللت ذلك الحصار.

أراد الصليبيون الاستفادة أكثر من سفارة الفاطميين فأرسلوا سفارة صليبية ترافق السفارة الفاطمية عند عودتها إلى القاهرة، مصطحبين معهم الهدايا النفيسة إلى خليفة مصر ووزيره الأفضل، وقد جاءت تلك السفارة استجابة لرجاء الرسل الفاطميين الذين أرسلهم خليفة مصر

---

(1) نبهان، عادل: عسقلان، ص139.

(2) الحسن، عيسى: تاريخ العرب، ص121.

(3) فوزي، فاروق ومحسن حسين: الوسيط في تاريخ فلسطين، ص138.

(4) توديبود: تاريخ الرحلة، ص167.

(5) السيد عبد العزيز سالم، سحر: تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص40.

الفاطمي أثناء الحصار الصليبي لمدينة أنطاكية[1]، وكانت تلك السفارة الصليبية برئاسة يوحنا الخادم[2] الذي صاحب السفارة الفاطمية أثناء عودتها إلى مصر عبر إحدى السفن الجنوية[3].

ويبدو أن السفارة الصليبية قد توجهت إلى مصر لإكمال التحالف الفاطمي الصليبي الذي تم عند أسوار أنطاكية، ويتضح أن الذي يدعم ذلك الاتفاق هم الفاطميون بدليل أن السفارة الصليبية توجهت إلى مصر بطلب من الفاطميين أنفسهم.

لا شك أن الصليبيين قد تعلموا من تلك السفارة الكثير من الدروس ومن أهمها، كيف يستفيدون من العداء المستحكم بين القوى الإسلامية، فكان الشرق الأدنى الإسلامي وقتها منقسماً على نفسه سياسياً ومذهبياً، فأرسلوا إلى رضوان – حاكم حلب–، وإلى دقاق – حاكم دمشق– يقولون لهما " بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا يطلب سواها؛ مكراً منهم وخديعة، حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية"[4]، حتى إذا ما فرغوا من أمرهم هم الآخرين استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام إمارة بعد أخرى، ومدينة تلو مدينة من الإمارات والمدن الإسلامية في الشام، إلا أن حكام دمشق وحلب رفضوا التعاون مع الصليبيين، بل نجدهم قد تمسكوا بمواجهة الصليبيين باعتبارهم أعداء للمسلمين حيث نهضوا لمؤازرة إخوانهم المحاصَرين في مدينة أنطاكية؛ فاستجاب رضوان– ملك حلب– لاستغاثة ابن ياغي سيان، وأسرع لإنقاذ أنطاكية من الوقوع في قبضة الصليبيين وصاحبه في حملته سقمان بن أرتق[5]، ولبّى تلك الاستغاثة أيضاً حكام شيزر وحماة وحمص ومنبج[6] وغيرهم من حكام المدن المجاورة[7]، في دليل على إجماع مسلمي الشام على مواجهة الغزاة خلافاً لسياسة الفاطميين تجاه الصليبيين.

لقد اجتمعت تلك القوات الإسلامية كلها في حارم[8]، ووضعوا خطة خلاصتها أن تهاجم

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص56.

(2) يوحنا الخادم: هو أحد رجال الدين الجنوية، وعلى اعتبار أن الجنوية تربطهم علاقات وطيدة بمصر اقتصادياً، ومن الممكن أن يثق فيه الفاطميون بحكم العلاقات الطيبة بين الفاطميين والجنوية، خاصة وأن كفارو هو المصدر الوحيد الذي ذكر اسم "يوحنا". الكناني، مصطفي: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص127، هامش3.

(3) الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص127_128.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص121.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ص238.

(6) منبج: وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة، كان عليها سور مبني بالحجارة، بينها وبين نهر الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص206.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص312.

(8) حارم: هو حصن حصين وكورة جليلة، وتعتبر من أعمال حلب. الحموي: معجم البلدان، ج2، 205.

تلك الجيوش أنطاكية فجأة في الوقت الذي تخرج فيه جيوش ياغي سيان من المدينة لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل، وبذلك يقع الصليبيون بين نارين[1]، إلا أن سكان المدينة النصارى اتصلوا سراً بالصليبيين، وأخبروهم بما عزمت على فعله جيوش المسلمين، فأعد بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف، وأبقى جنوداً مشاة على حصار أنطاكية، وخرج مع 700 فارس لصد المسلمين، وتمكنوا فعلاً من إلحاق الهزيمة بالمسلمين، وتمكن الصليبيون من الانتصار على القوات الإسلامية بمساعدة النصارى الأرمن بتاريخ 2 ربيع الأول 491هـ/7 فبراير 1098م[2].

شدد الصليبيون الحصار على أنطاكية، وأقاموا حصناً منيعاً لحماية جنودهم في حال مهاجمة السلاجقة لهم، وقد بُني ذلك الحصن مكان مسجد للمسلمين، وسمي الحصن باسم قلعة ريموند – لأنه صاحب الفكرة في تشييده– واكتمل بنائه في 12 ربيع الآخر491هـ/ 19 مارس 1098[3]، ثم أحكم الصليبيون حصارهم على أنطاكية ببنائهم قلعة جديدة في موضع دير قديم تقع بالقرب من أنطاكية، ومنذ ذلك الوقت لم يكن بوسع قوافل المؤن الوصول إلى المدينة، ولم يعد باستطاعة سكان المدينة أن يرسلوا قطعانهم إلى المراعي الواقعة خارج أسوار المدينة[4]، وبذلك جدّ الصليبيون في إسقاط المدينة، ويبدو أن كفتهم كانت راجحة بعد أن أتمّوا حصارهم لها بتأمين اتصالهم بالبحر من جهة، وبإمارة الرها من جهة أخرى[5].

لما رأى كربوغا – أتابك الموصل– ما حلّ بأنطاكية جمع جيشه وسار إلى الشام قاصداً أنطاكية، وأقام بمرج دابق[6]، واجتمع معه دقاق بن تتش، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة – صاحب حمص– وأرسلان تتش– صاحب سنجار[7]–، وسقمان بن أرتق، وغيرهم من الأمراء[8]، كما أن الإمارات الإسلامية الصغيرة في بلاد الشام قد أدركت ضآلة إمكانياتها وضعفها في مواجهة الصليبيين، فتهيأت للانضواء تحت راية كربوغا لمحاربة الصليبيين[9].

زحف كربوغا على رأس قواته إلى أنطاكية، ولكنه أدرك خطورة بقاء الرها في شمال العراق

---

(1) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص200.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص312_315.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص324؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص342.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص327_328.

(5) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص202.

(6) مرج دابق: قرية قرب حلب، بينها وبين حلب أربعة فراسخ. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص416.

(7) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة الفراتية، وقرب الموصل. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص262.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص121؛ ابن خلدون، تاريخ ،ج5، ص210.

(9) الشيخ، محمد: عصر الحروب الصليبية، ص145.

وراء ظهره، بما يعنيه ذلك من إمكان قطع طرق مواصلاته مع إمارته والوثوب على مؤخرة جيشه، ففضل حصارها لمحاولة الاستيلاء عليها ثم التوجه لأنطاكية؛ فقضى الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر جمادى الثانية 491هـ/ مايو 1098م أمام أسوارها، لكنه عجز عن اقتحامها لحصانتها من ناحية، وحماسة الصليبيين ومساعدة الأرمن لهم من ناحية أخرى[1].

وفي شهر جمادى الآخرة/ مايو من السنة ذاتها أدرك الصليبيون صعوبة الموقف فبعثوا وفداً إلى الإمبراطور الكسيوس يلتمسون منه النهوض لنجدتهم، إلا أن بوهيموند قلق من تلك الخطوة حيث كان يحرص على استخلاص أنطاكية لنفسه، فإذا وصل الإمبراطور قبل سقوط أنطاكية أو إذا لم يتيسر هزيمة كربوغا إلا بمساعدة الإمبراطور صار من المستحيل الإقناع عن رد أنطاكية إلى الإمبراطورية، إلا أن الظروف لم تتهيأ لمجيء الإمبراطور بنفسه لإكمال الحصار[2].

ويبدو أن أخبار مسير كربوغا نحو مدينة أنطاكية، وعدم مساعدة الإمبراطور البيزنطي للصليبين قد أثرا سلباً على معسكر الصليبيين حيث جعلت عدداً من القادة الصليبيين يتركون حصار أنطاكية، ويعودون إلى بلادهم، ومن بينهم القائد ستيفن كونت شارترز الذي تبعه حوالى 4000 رجل[3].

وعلى الجانب الآخر فإن أهل أنطاكية المسلمين قد أبدوا شجاعة منقطعة النظير، لا سيما وأن حاكمها ياغي سيان لم يهمل الدفاع عن المدينة، وظهرت شجاعته الفائقة، "وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره"[4]؛ إلا أن الخيانة كان لها دور كبير في إسقاط المدينة بيد الصليبيين حيث تآمر بوهيموند مع حراس أحد قلاع المدينة وهو رجل أرمني اسمه فيروز[5]– ويعرف بالزرّاد[6]–، وذلك بعد أن صادر ياغي سيان ماله وغلته، فكاتب فيروز بوهيموند على تسليم المدينة مقابل أن يُأمّنه ويبذل له الإقطاع[7].

تحت جنح الليل نفذ فيروز المؤامرة التي اتفق عليها مع بوهيموند، ومّكن الصليبيين من

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص340.

(2) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص345.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص56_57؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص331_332.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص120.

(5) مجهول: يوميات، ص126_127؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص182_183؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص335؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص145؛ . ذكر ابن الأثير أن الذي سلم المدينة زراد اسمه بروزبه. الكامل، ج7، ص120. بينما ذكر ابن القلانسي أن اسمه نيروز. ذيل، ص135.

(6) الزرّاد: هو صانع الزّرَد، والزّرَد هو سلاح الدروع. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص391.

(7) ابن الأثير: الكامل ج7، ص120؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص239.

الصعود إلى أحد أبراج المدينة ، فتمكنوا من دخولها في 1 رجب 491هـ/3 يونيو 1098م، وبطشوا بأهلها، "فقتُل منها وأُسر وسُبي من الرجال والنسوان والأطفال مالا يدركه حصر"[1]، و"امتلأت شعاب المدينة وطرقاتها بجثث القتلى حتى غدا من المستحيل السير فيها للرائحة النتنة المتصاعدة منها، ولم يتمكن واحد من السير في الطرقات إلا على جثث القتلى"[2]، وقد حاول ياغي سيان النجاة بنفسه مع عدد من فرسانه الأتراك، إلا أنه سقط عن فرسه، وقتله أرمني حطاب "وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية"[3].

لم يلبث أن وجد الصليبيون أنفسهم غداة احتلالهم لمدينة أنطاكية أمام مهام عاجلة وخطيرة، فأسرعوا إلى إعداد عدتهم للدفاع عن المدينة ضد هجوم كربوغا المنتظر، وفي الوقت نفسه كان عليهم أن ينظفوا المدينة على عجل من أثر المذبحة الرهيبة التي ارتكبوها في حق أهلها المسلمين، فعجلوا بدفن جثث القتلى ومواراتها في التراب حتى لا تكون سبباً في انتشار الوباء بين الجنود الصليبيين الذين يتأهبون لاحتلال مزيد من المناطق[4].

وصل الحلف الإسلامي بقيادة كربوغا إلى أنطاكية يوم 1 رجب491هـ/4 يونيو1098م، أي في اليوم التالي لسقوط المدينة في أيدي الصليبيين، وضربوا حصاراً حول المدينة[5] بعد أن عرفوا أن قلعتها كانت لا تزال باقية في أيدي المسلمين[6]، ثم حاول كربوغا الدخول بقواته إلى المدينة عبر القلعة، إلا أن الصليبيين حشدوا فرقهم العسكرية بقيادة بوهيموند، واستماتوا في منعه من النفاذ إلى المدينة، كما أقاموا تحصينات جديدة أمام القوات الإسلامية[7].

لقد كانت أوضاع الصليبيين داخل أنطاكية المحاصرة سيئة للغاية إذ "عظمت المصيبة عليهم، وخافوا لما هم فيه من الوهن، وقلة الأقوات عندهم"[8]، واضطروا لأكل ورق الشجر[9]،

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص135.

(2) مجهول: يوميات، ص130. قدرت بعض المراجع الصليبية عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون في أنطاكية بعشرة آلاف. ينظر: عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص205.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص58؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص121.

(4) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص205.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص59؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص371. ذكر ابن العديم أن كربوغا وصل إلى أنطاكية يوم الثلاثاء 6 رجب 491هـ/9 يونيو1098م. زبدة الحلب، ص240.

(6) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص121؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص240.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص372.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص121.

(9) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص146.

والميتات والدواب[1]، وزاد في بأسهم ما بلغهم من أن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الذي قيل أنه قادم لمساعدتهم قد قرر مرة ثانية العودة إلى عاصمته نتيجة ما زعمه له الفارون من الصليبيين من أن السلاجقة استردوا أنطاكية، وأنهم في طريقهم لمحاربته هو الآخر[2]، وهكذا وقع الصليبيون بين خطبين: السيف في الخارج، والفزع في الداخل[3].

لمّا انتاب الصليبيين اليأس، وأيقنوا بالهلاك، أرسلوا إلى كربوغا سفارة من رجلين – أحدهما بطرس الناسك – وعرضوا عليه الاستسلام مقابل تأمينهم للخروج من أنطاكية، إلا أن كربوغا رفض ذلك، وقال لهم:"لا تخرجون إلا بالسيف"[4]، فلم يبق أمام الصليبيين سوى الحرب.

وفي ذلك الوقت زعم رجل صليبي يدعى بطرس بارثلميون أن القديس أندراوس تراءى له في النوم، وأمره بالذهاب إلى ريموند الصنجيلي، ويخبره أن الحربة المقدسة التي طُعن بها المسيح مدفونة في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية، وأنهم متى استخرجوها أصبح النصر حليفهم[5]، فلما قام أحد المحاربين الصليبيين باستخراجها اشتدت حماسة الصليبيين[6]، كما ذكر أحد القساوسة الصليبيين لزعمائهم أنه تراءى له المسيح والسيدة العذراء – عليهما السلام–، وأن المسيح أخبره بالنصر إذا ندم رجال الجيش عن الآثام التي ارتكبوها[7].

أمر بوهيموند رجاله بالخروج من أنطاكية في 25 رجب/28 يونيو 1098م لمواجهة المسلمين[8] الذين كان بإمكانهم القضاء على الصليبيين عند خروجهم من أنطاكية على شكل

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص136؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص241.
Hillenbrand, Carole: Crusades, p57.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص394.
Smith, Jonathan Riley: The crusades A history, p32.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص375.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص122؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص341؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص210. ذكر وليم الصوري أن ما عرضه كربوغا على الصليبيين جاء بعد أن عرضت تلك الوفادة عليه أمرين: أن يرحل ويترك المدينة للصليبيين، وإما أن يستعد للقتال، ويكون السيف هو الحكم بين الفريقين. الحروب الصليبية، ج1، ص400_401. ويعتقد بأن ذلك العرض مبالغ فيه، لأن الجنود الصليبيين كانوا لا يجدون طعام، كما أنهم كانوا لا يأمنون على أنفسهم، وربما أرسلوا هذه السفارة لمعرفة أعداد وإمكانيات جيش المسلمين بقيادة كربوغا.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص396_397.

(6) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص58_59.

(7) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص131_132.

(8) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص404.

جماعات صغيرة، لكن "لم يعرج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم أيقنوا بالظفر بالفرنج"[1]، ولمّا اكتمل خروج الصليبيين من أنطاكية وحّدوا صفوفهم وأنزلوا الهزيمة بالمسلمين، ويروي ابن الأثير سبب هزيمة المسلمين بقوله: "لما عاملهم كربوغا أولاً من الاستهانة لهم، والإعراض عنهم، وثانية من منعهم عن قتل الفرنج"[2].

بعد هزيمة المسلمين بزعامة كربوغا من الصليبيين في معركة أنطاكية 491هـ/ 1098م، عاد سقمان بن أرتق – وكان قائد الأراتقة في تلك المعركة ضد الصليبيين– إلى القدس حيث كان أخوه إيلغاري بها، ولكن إمارتهم لم تدم طويلاً[3]، إذ استغل الفاطميون الاضطراب السياسي والاختلال العسكري الذي سببته هزيمة الحلف الإسلامي بقيادة كربوغا من القوات الصليبية بعد حصارها في أنطاكية وعملوا من جانبهم على تنفيذ اتفاق التحالف – ذلك الاتفاق الذي وقع عندما كان الصليبيون محاصرين لأنطاكية – بينهم وبين الصليبيين [4].

هاجم الفاطميون بقيادة وزيرهم الأفضل بن بدر الجمالي مدينة القدس مصطحباً معه سفراء الصليبيين الذين قدموا لمصر مع السفارة الفاطمية التي عادت إلى مصر بعد أن وقعوا اتفاق التحالف مع الصليبيين عند أسوار أنطاكية، وأعلن أنهم حلفاؤه[5]، مستغلاً الحروب الدائرة بين السلاجقة والصليبيين، ومستفيداً من ضعف الأراتقة الذين عادوا منهكي القوى بعد هزيمتهم من الصليبيين في أنطاكية[6].

وبذلك يتضح أن الفاطميين دبروا مع الصليبيين أن يقوم الفاطميون أنفسهم بمهاجمة القدس، والقضاء على حاميتها السلجوقية التي كانت نوعاً ما متماسكة، حتى إذا ما جاء الصليبيون وجدوا أنفسهم أمام جنوداً أمضّهم التقاتل فيستولون عليها بسهولة[7]، وعلى ما يبدو فإن الفاطميين كانوا يعتقدون أن سيطرتهم على بيت المقدس سيعيد جزءاً من نفوذهم ومذهبهم في بلاد الشام، معتمدين على ضغط الصليبيين على السلاجقة.

وهنا يمكن الإجابة على تساؤل ابن تغري بردي الذي قال: "ولم ينهض الأفضل بإخراج

---

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ص241.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص122؛ عاشور، سعيد: أوروبا في العصور الوسطى، ج1، ص209.

(3) فوزي، فاروق ومحسن حسين: الوسيط في تاريخ فلسطين، ص129.

(4) الشامي، أحمد: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص83_84.

(5) أوتو أسقف فريزينغ: المدينتان، ص 331.

(6) طقوش، محمد: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ص171.

(7) موسى، تيسير: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص83.

عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال"[1] بالرغم من خروج قادة الشام والعراق لإنقاذ أنطاكية من أيدي الصليبيين المحاصرين لها، بالقول: إن الفاطميين حافظوا على تحالفهم مع الصليبيين بعدم التعرض لهم، وعدم مواجهتهم، وترك السلاجقة يواجهون وحدهم الصليبيين، بل وقيام الفاطميين بمهاجمة السلاجقة لإرباكهم في جبهتين؛ الصليبيين في الشمال، والفاطميين في الجنوب.

صمد الأرتقة أمام الحصار الفاطمي لبيت المقدس، وأصر الفاطميون على فرض سيطرتهم عليها فقاموا بنصب المنجنيقات، وضرب المدينة حتى تهدمت مواضع من أسوارها، واستمر القتال بين الطرفين أكثر من أربعين يوماً اضطر بعدها سقمان وأخيه ايلغازي ابني أرتق أخيراً إلى الاتفاق مع الأفضل على إعطائهم الأمان والسماح لهم بمغادرة بيت المقدس، فتوجه سقمان نحو الرها، وذهب أخوه إلى العراق، وتولى أمر بيت المقدس والي فاطمي يعرف بافتخار الدولة [2] عينه الوزير الفاطمي الأفضل الذي توجه إلى عسقلان، ثم عاد بعساكره إلى مصر [3].

بعد أن سقطت أنطاكية بيد الصليبيين تحرك كلاً من دقاق ورضوان وغيرهما من الأمراء، وكتبوا إلى الخليفة المستظهر بالله العباسي[4] يستنصرونه، فكتب إلى السلطان بركياروق[5] بن السلطان ملكشاه يستنجده، "كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ للخروج"[6]، وبذلك أوفى الفاطميون تنفيذ عهدهم تجاه الصليبيين، ونفذوا الاتفاقية التي عقدت بينهما معتقدين أن الصليبيين سينفذون الاتفاق من جانبهم، وتكون بلاد الشام مناصفة بينهما بعد طرد السلاجقة.

تمكن الصليبيون– بعد هزيمتهم للسلاجقة– من احتلال أنطاكية، وتسلموا قلعتها من واليها أحمد بن مروان، وأطلق الصليبيون سراحه هو ومن معه "فخرج الأرمن، وأخذوا بعضهم، وقتلوا

---

(1) النجوم الزاهرة، ج5، ص146.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص126؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص342؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص16؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص24.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص135؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص141.

(4) المستظهر بالله العباسي: هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله بن القائم بأمر الله، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 487هـ/1094م، وكان عمره آنذاك ست عشرة سنة، وتوفي سنة 512هـ/1118م، وكان عمره 41 سنة وستة أشهر وستة أيام. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص90_91 ،296.

(5) بركياروق: هو ركن الدين بركياروق بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، ولد سنة 474هـ/1081م، وقد ولي المملكة بعد وفاة أبيه، وتوفي بركياروق سنة 498هـ/1105م. ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص419.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص147.

بعضهم، ولم يسلم منهم إلا القليل"[1] في إشارة واضحة لتعاون الأرمن النصارى مع الصليبيين في بلاد الشام.

بذلك النصر أصبح الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الصليبيين، إلا أنهم لم يسرعوا بالزحف نحو بيت المقدس بسبب النزاع بين قادة الصليبيين أنفسهم من جهة، وبينهم وبين الإمبراطور البيزنطي على مصير أنطاكية من جهة أخرى[2]، لكن بوهيموند حسم الخلاف مع الزعماء الصليبيين واستولى على المدينة – رغم معارضة ريموند الصنجيلي–، وطرد عساكر زملائه منها، وأحل بها حامية من رجاله لحراستها، ونال بوهيموند لقب "أمير أنطاكية"[3].

بالرغم من نجاح بوهيموند في فرض سيطرته على أنطاكية، وطرده لجند الأمراء الصليبيين الآخرين، إلا أن أمور أنطاكية لم تستقر بعد، فالإمبراطور البيزنطي يدّعي أحقيته في المدينة، حيث كانت تخضع له قبل أن يفتحها المسلمون سنة 477هـ/1085م[4]، إضافة إلى عقده معاهدة مع الصليبيين في القسطنطينية 490هـ/1097م، لتسليمه أملاك الإمبراطورية البيزنطية التي سيطر عليها المسلمون في آسيا الصغرى[5].

تنكر الصليبيون لمطالب الإمبراطور بسبب عدم تقديمه المساعدة لهم أثناء حصارهم لأنطاكية، ثم عدم حضوره لتسلم المدينة بنفسه ومشاركة الصليبيين على رأس حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس، وعدم إمدادهم بما يحتاجون إليه من مؤن ومساعدات لإنجاز مشروعهم الكبير، وطلب منهم الانتظار حتى 9 شعبان 492هـ/1 يوليو 1099م [6]، إلا أن القادة الصليبيين اجتمعوا وحددوا 29 شعبان 491هـ/1 نوفمبر1098م تاريخ الزحف نحو بيت المقدس[7].

في الوقت الذي أخذ فيه الإمبراطور يعد الصليبيين بالحضور لمساعدتهم على انتزاع بيت المقدس من المسلمين إذ به يعقد اتفاقاً سرياً مع الفاطميين في مصر ضد الصليبيين، ويؤيد ذلك ما ذكره ريموناجيل من أن الصليبيين عندما هزموا الفاطميين في موقعة عسقلان عثروا في خيمة

---

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ص241.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص17، 20_21.

(3) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص151؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ص421.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص25.

(5) للمزيد، ينظر: ص89.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص17، 58_59.

(7) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص163.

الأفضل على مجموعة الرسائل التي بعثها الكسيوس كومنين إلى الأفضل يخبره فيها بضعف الصليبيين، ويحرضه على قتالهم[1]، ويبدو أن الكسيوس أراد أن ينتقم من الصليبيين لأنهم غدروا به ورفضوا أن يعيدوا أنطاكية إلى الإمبراطورية البيزنطية، إلا أن الأفضل – على ما يبدو– لم يستمع لنصائح الكسيوس، رغبة في تطبيق نصوص الاتفاق الموقع بين الفاطميين والصليبيين.

يتبين مما سبق أن الإمبراطور البيزنطي لم يكن حريصاً على أن يقوم الصليبيون بتحقيق هدفهم باحتلال مدن بلاد الشام، والسيطرة على بيت المقدس بقدر ما كان حريصاً على أن يقوم باستعادة الأراضي التي سيطر عليها السلاجقة المسلمين، سواء كان ذلك بالتعاون مع الصليبيين أو الفاطميين.

تعرض الصليبيون أثناء وجودهم في أنطاكية لتفشي مرض الطاعون فمات الآلاف منهم، ومن بينهم الأسقف البابوي أدهيمار الذي كان له دور في توحيد الصليبيين نحو هدفهم الأسمى – حسب اعتقادهم – المتمثل في احتلال بيت المقدس[2]، وقد دفع ذلك الوضع الصليبيين إلى القيام بغزوات وجولات قريبة خارج أنطاكية ليبتعدوا عن منطقة الوباء[3]، وللحصول على المؤن والزاد من أملاك المسلمين[4].

وفي أواخر شوال491هـ/ سبتمبر1098 استولى الصليبيون على البارة[5]، وأفنوا مواطنيها عن بكرة أبيهم، وصادروا كل ما فيها[6] بعد أن أعطوا أهلها الأمان على أنفسهم[7].

---

(1) تاريخ الفرنجة، ص188.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص19.

(3) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص219.

(4) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص201.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص34.

(6) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص68.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ص244.

المبحث الثاني

الاحتلال الصليبي لبيت المقدس وأثره على العلاقات الفاطمية الصليبية

أولاً: موقف الفاطميين من زحف الصليبيين إلى بيت المقدس:

عقد الزعماء الصليبيون مجلساً للحرب في ذي الحجة 491هـ/ نوفمبر1098م بكنيسة القديس بطرس بأنطاكية، وأجمعوا على استئناف الزحف نحو بيت المقدس[1] ما عدا بلدوين الذي كان مشغولاً بتنظيم إمارته في الرها[2].

بدأ الصليبيون ومن معهم من الأرمن النصارى بالزحف نحو المدينة المقدسة، فبدأوا بمهاجمة معرة النعمان[3]؛ فاستغاث أهلها بأمراء حلب وحمص، "فلم ينجدهم أحد" [4]، إذ أن القوات الإسلامية ببلاد الشام كانت قد تعرضت لهزيمة كبيرة من الصليبيين أثناء حصار المسلمين للصليبيين بأنطاكية، وبالتالي فقدوا عدداً كبيراً من الجنود، علاوة على عدد الصليبيين الكبير المتجه نحو مدن بلاد الشام.

حاصر الصليبيون معرة النعمان مدة عشرين يوماً[5]، ولم يكن بوسع أهلها الصمود لقلة إمكانياتهم ومؤنهم فسلَّموا المدينة بعد أن أمّنهم الصليبيون[6]، وكان ذلك في 14 محرم 492هـ/ 11 ديسمبر 1098م[7]، إلا أن الصليبيين لم يحترموا الأمان مع المسلمين، "فغدروا بهم، ورفعوا الصلبان فوق البلد، وقطعوا على أهل البلد القطائع، ولم يفوا بشيء مما قرروه، ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به"[8]، وقتلوا أكثر من عشرين ألفاً من أهلها، وقاموا بإحراق

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص26؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص221.

(2) الشارتري: تاريخ الحملة، ص67؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص34.

(3) سبق أن هاجم الصليبيون المعرة في شعبان 491هـ/ يوليو 1098م، فتصدى لهم أهل حلب، والتقوا معهم في منطقة بين المعرة وتل منَّس، وقُتل من الصليبيين حينها أكثر من 1000 رجل، وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان. ابن العديم: زبدة الحلب، ص241. معرة النعمان: هي مدينة كبيرة قديمة من أعمال حمص، وتقع بين حلب وحماة، وماء سكانها من الآبار، وعندهم الزيتون الكثير والتين. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص156. تل منَّس: حصن يقع بالقرب من معرة النعمان بالشام. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص44.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ص244.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص68.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ص244.

(7) مجهول: يوميات، ص160؛ تودبود: تاريخ الرحلة، ص261.

(8) ابن القلانسي: ذيل، ص136.

مساجدها، وكسر منابرها، وهدم دورها[1]، ولم يكتف الصليبيون بذلك، بل قاموا "بتقطيع لحوم الموتى المسلمين إلى قطع صغيرة، وقاموا بطهيها والتهامها"[2].

وفي 19 صفر 492هـ/15 يناير1099م خرج ريموند من معرة النعمان على رأس جيش يقدر بـ 30 ألف جندي معلناً الزحف على بيت المقدس، بينما بقي بوهيموند بأنطاكية بعد أن اختار ذلك[3]، وبذلك تحرك الصليبيون نحو بيت المقدس بعد أن ظلوا أكثر من سنة في شمال بلاد الشام (22 ذو القعدة 491هـ/21 أكتوبر 1097 _19 صفر 492هـ/ 15 يناير 1099م).

تقدم ريموند من معرة النعمان، فسار إلى كفر طاب[4] التي تقع على مسافة 12 ميلاً إلى الجنوب منها، وانتظر بذلك الموضع حتى 20 صفر 492هـ/ 16 يناير 1099م، حيث أخذ يجمع المؤن اللازمة للعساكر، ولحقه كلاً من تنكرد وروبرت النورمندي[5]، وآنذاك أدرك الأمراء العرب في شيزر وحمص ومدن أخرى ضعف إمكاناتهم في مواجهة الصليبيين، وتقاعس القوى الإسلامية الكبرى عن مساعدتهم، فاضطروا إلى الاتفاق مع الصليبيين على تزويدهم بالحراس، إضافة إلى إعداد سوق لهم يتم فيه البيع والشراء، كما أعطوهم الكثير من الذهب والفضة، وزودوهم بالماشية والأغنام حتى لا تمتد أيدي الصليبيين إليهم بسوء[6].

اتفق الصليبيون على أن يسلكوا الطريق الداخلي لبلاد الشام نحو بيت المقدس بدلاً من الطريق الساحلي؛ وذلك ليتجنبوا المدن الساحلية الحصينة على أن يتجهوا نحو السواحل بين الحين والآخر للحصول على الإمدادات عن طريق البحر، واستأنف الصليبيون الزحف وفقاً لتلك الخطة فمروا بمصياف[7] في26 صفر 492هـ/ 22 يناير1099م، فعاهدهم أميرها، ثم توجهوا نحو

---

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ص244؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص217. ذكر بعض المؤرخين المسلمين أن من قتل بمعرة النعمان مائة ألف. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص123؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص7؛ العيني: عقد الجمان، ص9. بينما اكتفى فوشيه الشارتري بالقول بأن الصليبيين "قتلوا كل رجل من سكانها، وأكلوا جثث المسلمين بها" . تاريخ الحملة، ص68.

(2) توديبود: تاريخ الرحلة، ص263.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص41، 42؛ بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص96.

(4) كفر طاب: بلدة بين معرة النعمان ومدينة حلب، ليس لسكانها شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص470.

(5) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص399.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص43؛ الشيخ، محمد: عصر الحروب الصليبية، ص155.

(7) مصياف: هو حصن حصين مشهور بالساحل الشامي يقع بالقرب من مدينة طرابلس، وتسمى أيضاً مصياب. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص144.

بعرين[1]، ومنها إلى حصن الأكراد[2] الذي سيطر عليه الصليبيون في4 ربيع أول 492هـ/ 29 يناير 1099م بعد أن حاصروه مدة، ثم توجه الصليبيون نحو عرقة التي كانت تابعة لبني عمار في طرابلس، فأرسل أبو علي فخر الملك – صاحب طرابلس– الرسل إلى ريموند لعقد اتفاقية تعهد فيها الأمير العربي بدفع الأموال للصليبيين، لكن الصليبيين طمعوا في زيادة الضريبة فقرروا الضغط على أمير طرابلس فتوجهوا نحو عرقة[3]، وفرضوا الحصار عليها لكنهم عجزوا عن اقتحامها، فرفعوا حصارهم عنها في جمادى الآخرة 492هـ/مايو1099م بعد أربعة شهور من الحصار، واضطروا للانسحاب من أمامها بعد أن دبّت النزاعات بين زعماء الصليبيين المحاصِرين لعرقة حول التوجه نحو بيت المقدس[4].

وأثناء الحصار الصليبي لعِرقة استولت فرقة منهم على أنطرسوس[5]، وفي الوقت نفسه حاصر الصليبيون مدينة جبلة[6] التي كانت خاضعة للنفوذ الفاطمي في مصر، وقد جاء واليها من قبل الفاطميين بصحبة نائبه إلى جودفري يعرض عليه ستة آلاف قطعة من الذهب إلى جانب العديد من الهدايا لرفع الحصار عن المدينة[7]، وقد انتهى حصارها بعقد هدنة مع صاحبها الذي دفع المال والخيل للصليبيين، ثم عاد جودفري وغيره من زعماء الصليبيين إلى عِرقة لإكمال حصارها [8].

ويبدو أن المعاهدة التي تمت بين الفاطميين والصليبيين عندما كان الصليبيون يهمون باقتحام مدينة أنطاكية كان لها أثراً سلبياً، إذ جعلت ولاة الفاطميين في بلاد الشام يقتدوا بما فعله

---

(1) بعرين: بليد بين حمص والساحل، واسمه بارين، ولفظ بعرين اسم يطلقه عليها العامة. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص452.

(2) حصن الأكراد: هو حصن منيع حصين، يقابل حمص من جهة الغرب، ويقع بين بعلبك وحمص، وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين الصليبيين، وأجروا لهم أرزاقاً، ثم خافوا على أنفسهم فقاموا بتحصينه إلى أن صارت قلعة حصينة منعت الصليبيين عن كثير من غاراتهم. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص264.

(3) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص230.

(4) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص215.

(5) أنطرسوس: هي بلد من سواحل الشام، وتعد آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال حمص، ولها برجان حصينان كالقلعتين. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص270.

(6) مجهول: يوميات، ص164؛ الشارتري: تاريخ الحملة، ص68. جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام، وتعد من أعمال حلب، وتقع بالقرب من اللاذقية، الحموي: معجم البلدان، ج2، ص105.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص51.

(8) مجهول: يوميات، ص164.

أمرائهم الفاطميين بمصر، وعملوا على إمداد الصليبيين بما يحتاجونه من أموال وطعام وهدايا مثلما حدث في مدينة جبلة، وربما كان ذلك بعلم الخلافة الفاطمية بمصر، حيث لا يمكن لأي من المدن التابعة للخلافة الفاطمية في بلاد الشام التجرؤ على إمداد الصليبيين إلا بأمر من الخليفة.

أثناء انشغال الصليبيين بحصار عرقة وصل إلى معسكرهم أعضاء السفارة الصليبية قادمين من مصر، وبصحبتهم مبعوثين من قبل الخليفة الفاطمي المستعلي بالله، وكان الغرض من إرسال أولئك المبعوثين إبداء ترحيب الحكومة الفاطمية بزيارة الصليبيين لبيت المقدس، على أن يتم ذلك على شكل جماعات صغيرة تتراوح أعدادها ما بين مائتين إلى ثلاثمائة من الرجال غير المسلحين، ثم يعودون بسلام إلى بلادهم[1].

رفض زعماء الصليبيين اقتراحات الأفضل، واعتبروا ذلك إهانة لهم[2]، بل زادوا على ذلك بأن كشفوا عن أهدافهم الحقيقية التي جاءوا من أجلها، وذلك من خلال الشروط التي عرضوها على مبعوثي الأفضل وتتمثل في:

1_ أن يسلم الفاطميون بيت المقدس، وما يتبعه من المدن والقرى للصليبيين[3].

2_ أن يتعهد الصليبيون بأن يعيدوا جميع مدن الساحل التي يستولون عليها من السلاجقة للفاطميين، شريطة أن تكون تلك المدن تابعة للفاطميين قبل الغزو السلجوقي لبلاد الشام، مع مراعاة التعاون فيما بينهما لإخضاعها[4].

3_ أن يتعاون الطرفان مستقبلاً في القضاء كلياً على ما تبقى للسلاجقة من نفوذ في بلاد الشام، وأن يشاطر الصليبيون الفاطميين قسمة ما سيسيطروا عليه من مدن وقرى[5].

4_ إعادة الكنائس التي شيدها المسيحيون في بلاد الشام إلى الصليبيين[6].

ويبدو أن مبعوثي الأفضل رفضوا شروط الصليبيين، لذلك أرغمهم الصليبيون على العودة إلى مصر حاملين الرد بأن الصليبيين لم يوافقوا على زيارة بيت المقدس على شكل كتائب صغيرة كما يرغب الفاطميين، ولكنهم سيزحفون إلى بيت المقدس كجيش واحد وسيهددون ممتلكات الدولة

---

(1) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص187_188؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص56_57.
(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص57.
(3) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص187.
(4) المصدر نفسه، ص187.
(5) المصدر نفسه، ص187.
(6) الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص19.

الفاطمية [1]، وبذلك بدأت الحقيقة تتكشف، إذ أخذ الصليبيون بنشوة النصر على المسلمين في أنطاكية، وأخذوا يتنصلون من الاتفاق الذي حصل بينهم وبين الفاطميين، وقاموا بالزحف على المدن الإسلامية مدينة تلو الأخرى[2].

اجتمع بعد ذلك قادة الصليبيين، وقرروا التراجع عن قلعة عرقة لعدم قدرتهم على احتلالها من جانب، ولاستغلال موسم الحصاد أثناء مسيرهم إلى بيت المقدس من جانب آخر[3]، فواصلوا مسيرهم ووصلوا إلى طرابلس يوم الجمعة 19 جمادى الثانية 492هـ/13 مايو1099م[4] حيث لاطفهم أميرها ابن عمار، فأطلق من كان عنده من الأسرى الصليبيين، ومنحهم الأموال، وقدم لهم الخيل، وأمدهم بما يحتاجونه إليه من مؤن وزاد، وزودهم بالأدلّاء والمرشدين[5].

رحل الصليبيون عن طرابلس في 22 جمادى الثانية 492هـ/16 مايو1099م ووصلوا إلى حصن البترون[6]، ثم بلغوا مدينة جبيل[7]، وفي 25 جمادى الثانية/19 مايو من الشهر نفسه وصلوا إلى الحدود الفاطمية على نهر الكلب، ولم يكن للفاطميين عساكر في ممتلكاتهم الشمالية باستثناء بعض الحاميات بالمدن الساحلية، غير أنه كان بأيديهم أسطولاً[8] ضخماً بإمكانه التصدي للصليبيين الذين لم يكونوا يأملون في الاستيلاء على ما يصادفهم في طريقهم من الموانئ[9].

يبدو أن القوات الفاطمية في بلاد الشام قد تمركزت في جنوبه باعتباره أقرب المناطق إلى مركز خلافتهم في مصر، لا سيما بعد تمكنهم من إخضاع بيت المقدس تحت سيطرتهم بعد انتزاعه من أيدي الأراتقة، على أن ذلك أصبح عامل قوة للوجود الفاطمي في سواحل بلاد الشام.

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص57.

(2) الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص139.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص68.

(4) مجهول: يوميات، ص165؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص293.

(5) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص189؛ للمزيد، ينظر: مجهول: يوميات، ص165؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص293؛ عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص31. ذكر مجهول أن والي طرابلس اتفق مع الصليبيين على أن يدخل بدين النصرانية، ويتسلم أرضه منهم إن هم تمكنوا من هزيمة خليفة مصر في الحرب التي استعد لها ضدهم، وإذا استطاعوا أخذ القدس. مجهول: يوميات، ص165.

(6) البترون: مدينة تقع إلى الجنوب من مدينة طرابلس. توديبود: تاريخ الرحلة ، ص309، هامش 32.

(7) مجهول: يوميات، ص165؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص294.

(8) الأسطول: كلمة رومية، وهي اسم للمراكب الحربية المجتمعة، ويُستعمل للسفينة الواحدة أيضاً. مبارك: الخطط التوفيقية، ج14، ص82.

(9) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص187؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص410.

إن عدم تقديم الفاطميين المساعدات العسكرية للمدن الساحلية لبلاد الشام في بداية الحروب الصليبية جعل تلك المدن تحذو حذو طرابلس، فتحصل على مسالمة الصليبيين بأحسن الشروط الممكنة، ومن ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم عرضوا عليهم إمدادهم بالتموين، فضلاً عن تقديم مبلغ كبير من المال، كل ذلك مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للعرب[1].

توجه الصليبيون بعد ذلك إلى مدينة صيدا، فلم يرحب حاكمها بهم، وهاجمتهم حاميتها بضراوة شديدة، فضاق الصليبيون بهجماتهم، فسارعوا بالمسير إلى صور، ونصبوا بالقرب منها معسكرهم، ثم اتجهوا إلى عكا التي سارع حاكمها بتقديم الهدايا والمؤن والزاد للصليبيين، كما تعهد بالدخول في طاعتهم في حال سيطرتهم على بيت المقدس[2].

وعلى ما يبدو فإن الحاميات الفاطمية التي كانت توجد بمدن الساحل لم تستعد لمواجهة الصليبيين رغم أنهم على علم بقدومهم نحو تلك المدن، وكذلك فإن مصر الفاطمية كانت أقدر الدول التي توجد في المشرق الإسلامي على مواجهة الصليبيين لامتلاكهم أسطول قوي، عوضاً عن جيشهم البري القوي الذي تم من خلاله السيطرة على القدس بعد طرد الأراتقة منه.

مضى الصليبيون في تقدمهم فمروا بقيسارية[3] في 3 رجب 492هـ/ 26 مايو 1099م، ثم بأرسوف[4]، ولم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه إلى يافا أو غيرها من المدن الساحلية ذات الحصانة الشديدة، والتي تحتاج إلى وقت طويل لحصارها والسيطرة عليها[5]، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلي ويشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة، ومع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائماً على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر؛ لضمان وصول الإمدادات إليهم من أوروبا عبر أساطيل المدن الإيطالية[6].

يتبين مما سبق أن الصليبيين حرصوا على عدم التعرض لأية مدينة ساحلية حصينة؛ كي لا تُستنفذ قواهم نتيجة نشوب أي معارك بينهم وبين حاميات تلك المدن، ويتضح أنهم رغبوا في

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص63.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص63_65.

(3) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، وتعد من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، كثيرة الخير والأهل. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص421.

(4) أرسوف: مدينة على ساحل الشام تقع بين قيسارية ويافا. الحموي: معجم البلدان، ج1ص151.

(5) أنا كومنينا: الالكسياد، ص58؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص65.

(6) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص239.

الوصول إلى بيت المقدس بأقل خسائر ليتسنى للقوات المتبقية منهم احتلال المدينة المقدسة، وربما اعتقد الصليبيون أنهم سيواجهون مقاومة كبيرة من المناطق التي عزموا على احتلالها، لا سيما أنها كانت تخضع تحت سيطرة الدولة الفاطمية ذات الإمكانيات المادية والعسكرية الكبيرة.

لم يتعرض الفاطميون للقوات الصليبية خلال توجهها نحو بيت المقدس، باستثناء بعض المناوشات التي حدثت بين الطرفين، كما أن القوات الفاطمية لم تتلق مساعدات من قبل السكان المحليين لبلاد الشام، وقد أرجع بردج ذلك إلى عدم محبة سكان الشام للفاطميين، وبأنهم يرغبون في الخلاص منهم[1].

ثانياً: الاحتلال الصليبي لبيت المقدس وموقف الفاطميين منه:

وصل الصليبيون إلى مدينة الرملة في 11 رجب 492هـ/ 3 يونيو 1099م[2]، وتمكنوا من احتلالها بعد أن هجرها أهلها عقب سماعهم بنبأ قرب وصول الصليبيين[3]، وكان أهلها قد تركوا بها حامية صغيرة قليلة العدد، وبعيدة عن البحر، ما جعل مساعدة الأسطول الفاطمي لهم متعذرة؛ فخرجوا منها بعد أن دمروا كنيسة القديس جورج[4] الكبيرة التي تقع في مدينة اللُّد[5] القريبة من الرملة[6]، فلما دخلها الصليبيون رمموها، وأقاموا أسقفاً يقوم على حمايتها[7].

وبذلك اجتاز الصليبيون مدن الساحل الخاضعة للفاطميين دون وجود أية عوائق تعترضهم أثناء مرورهم بتلك المدن على الرغم من وجود قوات الدولة الفاطمية بجنوب الشام ومدن الساحل، لا سيما أنهم قبل أعوام قليلة سيطروا على تلك المناطق، وأقاموا بها حاميات عسكرية برية، عوضاً عن وجود الأسطول الفاطمي الذي كان من المفترض أن يكون له دور في تقديم المساعدة عن طريق البحر.

---

(1) بردج، انتوني: تاريخ الحروب الصليبية، ص98.

(2) الشارتري: تاريخ الحملة، ص70؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص66، 69.

(3) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص225؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص294؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص66. يذكر المؤرخون المسلمون أن احتلال الصليبيين للرملة كان "وقت إدراك الغلة" أي وقت حصاد الثمار. ابن القلانسي: ذيل، ص136؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149.

(4) القديس جورج: هو شخصية خيالية من المفروض أنه قتل في نيقوميديا حوالي سنة 300م، ونقلت عظامه إلى اللد، مسقط رأسه. توديبود: تاريخ الرحلة، ص312، هامش 40.

(5) اللُّد: هي قرية تقع بالقرب من مدينة بيت المقدس. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص15.

(6) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص412.

(7) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص70؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص294.

عقد الصليبيون أثناء وجودهم في الرملة مجلساً للحرب لمناقشة خطواتهم القادمة، في ظل وجود آراء لبعض الزعماء الصليبيين بضرورة مهاجمة مصر لتأمين حياتهم في بيت المقدس، إلا أن ذلك الرأي قوبل بالرفض من أغلب الزعماء الصليبيين[1].

بذلك يتضح أن الصليبيين قد أدركوا أهمية مصر، وخطورتها على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام، خاصة في حال احتلالهم لبيت المقدس، باعتبار أن مصر البوابة الجنوبية للشام، خاصة أن بيت المقدس تخضع للفاطميين الذين يتخذون من مصر مركزاً لهم.

شق الصليبيون طريقهم صوب المدينة المقدسة في 14 رجب 492هـ/6 يونيو 1099م، وتمكنوا من اجتياز قرية عِمَوَاس[2]، وأثناء ذلك جاءهم رسل نصارى من بيت لحم[3] يستحثون جودفري بويون على نجدتهم وحمايتهم من أيدي الفاطميين الذين كانوا يتوعدونهم [4]؛ فأسرع كلاً من تنكرد وبلدوين دي بورج (الثاني)، وتوجها مع طائفة من الفرسان لنجدة نصارى بيت لحم، فوصلوا إليها حيث استقبلهم أهلها النصارى استقبالاً حافلاً[5]، وبذلك يتبين أن نصارى جنوب الشام وقفوا إلى جانب الصليبيين كما فعل إخوانهم في شمال بلاد الشام.

وفي 15 رجب 492هـ/7 يونيو1099م تجمعت الفرق الصليبية كلها أمام مدينة بيت المقدس وفرضوا الحصار عليها [6]، وكان افتخار الدولة – حاكم المدينة من قبل الفاطميين– قد أمر ببناء ما تهدم من السور وقت استيلاء الأفضل بن بدر الجمالي على القدس[7]؛ فزاد ذلك في تحصين المدينة، كما تأكد من سلامة أسوارها، وإلى جانب ذلك قام الفاطميون أيضاً بتسميم الآبار، وقطع موارد الماء، وإخفاء المواشي، وطرد جميع من بالمدينة من النصارى، معتمداً في الدفاع عن

---

(1) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة: ص225_226؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص240؛ محمود، علي: الغزو الصليبي، ص87.

(2) عِمَوَاس: هي كورة من فلسطين، تبعد ستة أميال عن الرملة على طريق بيت المقدس. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص157.

(3) بيت لحم: هي بلدة بالقرب بيت المقدس، وهي عامرة وحافلة. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص521. تعني بيت لحم بيت الخبز. فورزبورغ: وصف الأرض المقدسة، ص90. ذكر سايولف أنها تقع على بعد ستة أميال إلى الجنوب من القدس. سايولف: وصف بيت المقدس، ص38. وذكر دانيال الراهب أنها تبعد مسافة ستة فرستات في الاتجاه نفسه. وصف الأرض المقدسة، ص73. والفرست: مقياس روسي لقياس الأطوال ويعادل 1050متر. دانيال الراهب: وصف الأرض المقدسة، ص41، هامش 2.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص70.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص70.

(6) المصدر نفسه، ص71؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص94.

(7) الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص23.

بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان[1]، ولم تتوقف الاستعدادات عند ذلك فحسب، بل استدعى سكان بيت المقدس والحامية الفاطمية بها سكان المدن المجاورة، وحشدوا الكثيرين من الرجال الأقوياء المسلحين أكمل تسليح[2]، كما حرص افتخار الدولة على أن يوفر لسكان المدينة والحامية من المؤن ما يكفيهم إذا طال أمد الحصار، كما أرسل إلى قادته في مصر يطلب منهم النجدة[3]، وذكر وليم الصوري أن خليفة مصر أراد أن يكسب ولاء سكان بيت المقدس، فصرف لهم أموالاً من خزانته الخاصة، وأن يسامَحوا نهائياً فيما عليهم من الضرائب والمكوس[4].

وفي تلك الأثناء وصلت إلى ساحل يافا سفن جنوية حاملة إلى الصليبيين ما يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التموين، فاستولى الجنوية والصليبيون على يافا بعد أن هجرها سكانها لضعف تحصيناتها[5]، ولما علم الفاطميون بنبأ ذلك الأسطول خرجوا من عسقلان في محاولة للتصدي للسفن الجنوية، وقاموا بمهاجمتهم بغتة، فاحتمى الجنويون في قلاع يافا، ثم عاد الفاطميون من حيث أتوا بعد أن ألحقوا خسائر بالأسطول الجنوي[6]، وبالرغم من ذلك فلم يتمكن الفاطميون من منع السفن الجنوية من تقديم المساعدات للقوات الصليبية المحاصِرة للقدس، على حين أن القوة الفاطمية في بيت المقدس قد حوصرت بها، وانقطع بهم الاتصال بالرغم من أن الصليبيين كان لا يزال يعوزهم السلاح وأدوات الحصار، ولم تكن لديهم القوات الكافية لإحكام حصارهم للمدينة ومنع هجمات الحامية الفاطمية[7].

لقد واجهت القوات الصليبية صعوبات جمّة أثناء حصارها لبيت المقدس؛ حيث أن حرارة جو الصيف مرتفعة، ذلك عوضاً عن قلة الماء بعد أن أفسد المسلمون مصادر المياه[8]، كما أن مؤنهم بدأ في النفاد[9]، ومكث الصليبيون "أثناء الحصار مدة عشرة أيام لا يجدوا الخبز

---

(1) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص237؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص93_94؛ حبشي، حسن: الحروب الصليبية الأولى، ص81_82.

Roscoe,Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p286.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص67.

(3) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص416_417.

(4) الحروب الصليبية، ج2، ص67.

(5) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ،ج1، ص78.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص106_107؛ هايد، ف: تاريخ التجارة، ج1، ص148.

(7) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ،ج1، ص78؛ الشيخ، محمد: عصر الحروب الصليبية، ص160.

Roscoe,Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p287.

(8) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص99_100.

(9) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص227.

يشترونه"[1]، كما قامت حامية المدينة بمهاجمة الصليبيين الذين يذهبون بجماعات صغيرة للحصول على المياه[2]، ذلك فضلاً عن تجدد النزاعات بين الأمراء الصليبيين حول مصير المدينة المقدسة بعد الاستيلاء عليها، علاوة عن ورود أخبار بقدوم جيش ضخم سار من مصر لنجدة الحامية الفاطمية بالقدس[3].

أدرك الأمراء الصليبيون ضرورة الاستيلاء على بيت المقدس بأقصى سرعة، وقبل مجيء أية إمدادات للحامية الفاطمية بها من مصر[4]؛ فشددوا حصارهم على المدينة، ونصبوا آلات الحرب والأبراج الخشبية حولها[5]، وأسندوا السلالم الخشبية على أسوار القدس لاقتحامها[6]، لكن المدافعون عن المدينة – لمّا رأوا ما أقامه الصليبيون من أدوات للحصار– زادوا في تحصين المدينة، وشددوا الحراسة على الأبراج والقلاع خاصة أثناء الليل[7].

بدأت المعركة الحاسمة في 22 شعبان 492هـ/ 14 يوليو 1099م، إذ اقتربت آلات الحرب الصليبية من أسوار المدينة، فأمطر المدافعون المسلمون المقاتلين الصليبيين "بالأحجار والسهام والخشب والقش المشتعلين..."[8]؛ فقُتل عدد كبير من الصليبيين، وجُرح عدد آخر بالمواد الملتهبة التي ألقيت من داخل المدينة ومن على الأسوار[9]؛ لذلك أقام الصليبيون برجين عاليين، وأطلوا منهما على السور، أحدهما بباب صهيون[10] والآخر بين باب العمود وباب الأسباط، وهو برج الزاوية، ثم أنشئوا برجاً ثالثاً، وكثيراً من الآلات الحربية الأخرى، فجاء المسلمون وأحرقوا البرج

---

(1) مجهول: يوميات، ص167.

(2) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ،ج1، ص77.

(3) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص421_422.

(4) بردج، أنتوني: تاريخ الحروب الصليبية، ص101؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص422.

(5) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة غزاة، ص244؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص317.

(6) مجهول: يوميات، ص167.

Roscoe,Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p289.

(7) مجهول: يوميات، ص168_169.

(8) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص245؛ للمزيد، ينظر: الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص74؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص114_115؛ روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ،ج1، ص79.

(9) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص118؛ العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، ج1، ص154.

(10) صهيون: هو جبل كبير مرتفع يقع إلى الجنوب من بيت المقدس، ويتسم بالانحدار الخفيف من جهة بيت المقدس. دانيال الراهب: وصف الأرض المقدسة، ص71. يقع عليه كنيسة خاصة بالنصارى. ثيوديريش، وصف الأماكن المقدسة، ص60؛ الحموي: معجم البلدان، ج3، ص436.

الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه[1]، "وأما(البرج) الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد فانهزم المسلمون"[2]، وتمكن الصليبيون بعد ذلك من السيطرة على جزء من سور المدينة، ما أتاح للصليبيين أن ينفذوا إلى داخل المدينة؛ لتسقط بيت المقدس في أيدي الصليبيين في يوم الجمعة 23 شعبان 492هـ/ 15 يوليو 1099م بعد أن حاصروها مدة 38 يوماً[3]، وعندئذ "ركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين"[4]، و"قُطعت فيه رؤوس بعض المسلمين... بينما عذب آخرون لوقت طويل... وأُحرقوا حتى الموت في اللهب المتأجج، وتكدست في الطرقات والبيوت الرؤوس والأيدي والأقدام"[5]، وشهدت أرجاء المدينة مذبحة فظيعة الشناعة، "وكان الدم المسفوك مخيفاً، حتى أن المنتصرين أنفسهم ساورهم الإحساس بالخوف وشعروا بالتقزز"[6].

كما أن الذين فروا بأنفسهم لم ينجوا من القتل، حيث تجمعوا بالمسجد واستسلموا للصليبيين الذين أعملوا فيهم القتل طوال اليوم "حتى فاض المعبد (المسجد) بدمائهم"[7] إلى أن وصلت الدماء إلى قوائم خيول الصليبيين[8]، وبلغ عدد من قتل بالمسجد الأقصى أكثر من سبعين ألفاً من المسلمين[9]، كما أن اليهود لم يسلموا من القتل؛ حيث أحرق الصليبيون حيّهم بما فيه الكنيس الذي تحصنوا فيه[10].

---

(1) توديبود: تاريخ الرحلة، ص316؛ العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، ج1، ص153.

(2) الحريري: الإعلام والتبيين، ص65.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص76؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص319؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص137؛ ذكر ابن الأثير بأن الصليبيين حاصروا بيت المقدس "نيفاً وأربعين يوماً" ثم استولوا عليه. الكامل، ج7، ص126.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص126_127؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص342.

(5) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص247.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص126.

(7) مجهول: يوميات، ص169، 171.

(8) أوتو أسقف فريزينغ: المدينتان، ص332.

(9) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص127؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص121؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص25. لم يذكر هذا الرقم المؤرخون المسلمون فحسب، بل ذكره المؤرخون المسيحيون، فذكر ابن العبري ما نصه "وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً". تاريخ مختصر الدول، ص197. كما أورد ميخائيل السوري أن عدد من قُتل بالمسجد الأقصى بلغ أكثر من 70,000 مسلم إضافة إلى 30,000 شخص خارج المسجد. رواياته، ص93؛ وأيده على ذلك الرأي ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص148؛ والحريري: الإعلام والتبيين، ص65.

(10) ابن القلانسي: ذيل، ص137؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص336؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص25.

وإلى جانب الوصف السابق للمذبحة التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس فقد قال المؤلف المجهول عنها بأنه "لم يسبق قط أن سمع أو رأى أحد مذبحة مثل هذه المذبحة التي ألمت بالشعب المسلم"[1]، كما أن المدينة نفسها لم تسلم من الصليبيين إذ أبيحت للسلب والنهب، ولم يفرقوا بين البيوت وأماكن العبادة، "فأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم... وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء"[2].

أما افتخار الدولة –حاكم المدينة الفاطمي– فقد احتمى مع طائفة من جنده بمحراب داوود –عليه السلام– وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح، وسلموا المحراب بعد أن أمنّهم الصليبيون[3] الذين سمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، وكان عددهم حوالي خمسمائة[4]، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي القدس التي نجت من المذبحة التي حدثت بالمدينة، وقُتل بها سبعين ألفاً من المسلمين "منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف"[5]، ولو كان بيت المقدس "بيد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين"[6] إذ تلقت الدولة الفاطمية تلك الأخبار في برود، وظلت تغط في سباتها العميق[7].

وبذلك يمكن القول بأن الحملة الصليبية الأولى أنهت مهمتها باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس التي قامت فيها ثالث وحدة سياسية للصليبيين بالشام إلى جانب الرها وأنطاكية؛ وبذلك بدأت تتشكل دولة صغيرة لهم، ثم أصبحت فيما بعد مملكة صليبية تدير شئون الصليبيين في بلاد الشام، وبذلك رأى البعض أن احتلال الصليبيين لبيت المقدس قد وضع نهاية لأية طموح للفاطميين في السيطرة بلاد الشام[8].

لقد كانت أولى المهمات التي واجهت الصليبيين بعد احتلالهم لبيت المقدس هي مواراة الجثث التي خلفتها المجزرة التي ارتكبوها في كل أنحاء المدينة؛ فأحرقوا بعضها ودفنوا البعض

---

(1) مجهول: يوميات، ص171.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص127؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص148؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص220؛ للمزيد، ينظر: توديبود: تاريخ الرحلة، ص318_319؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص47.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص127؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص425_426.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص77.

(5) ابن الأثير: الكامل، ص127؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص25.

(6) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص179.

(7) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص245.

(8) Hillenbrand, Carole: Crusades, p77.

الآخر[1]، ثم بدأت مناقشة مشكلة حكم المدينة المقدسة، إذ اجتمع الزعماء الصليبيون قساوسة وعلمانيين لكي يقرروا ما ينبغي عمله في هذا الصدد، كما أن البابا أوربان الثاني – الذي مات قبل أن يعرف بخبر الاستيلاء على القدس– لم يحدد للصليبيين نظام الحكم في المدينة المقدسة[2]. وعندئذٍ ظهر الانقسام في صفوف الجيش الصليبي؛ فالقساوسة والأساقفة يميلون إلى دولة بابوية، بينما كان كبار القادة يرفضون ذلك ويرون ضرورة تولي أحدهم الحكم[3].

لقد اتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين والقادة العسكريين لينظم أمور الصليبيين، فأجمعوا على اختيار جودفري أميراً عليهم، وقد تم انتخابه في 1 رمضان 492هـ/ 22 يوليو 1099م ليكون "حامي الضريح المقدس"[4]، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع الإسلامي الصليبي، صراع بدأه الصليبيون بإقامة إمارات لهم على الأراضي التابعة لأمراء المسلمين في بلاد الشام، والذين كانوا منقسمين على أنفسهم، إذ يرغب كل أمير من الأمراء المسلمين بتحقيق رغباته الشخصية في الزعامة والسلطة، وقد ظهر ذلك جلياً عندما راسل الفاطميون نظرائهم الصليبيين رغبة في اقتسام بلاد الشام، ولو على حساب السلاجقة المسلمين الذين تصدوا للعدوان الصليبي في آسيا الصغرى وبلاد الشام، وكان لذلك أثر كبير في تشجيع الصليبيين على مواصلة عدوانهم على أملاك المسلمين في الشام، عوضاً عن أن أمراء المدن الفاطمية في الشام اتبعوا النهج الذي اتبعه قادتهم بمصر في مسالمة الصليبيين وتقديم العون لهم.

ثالثاً: معركة عسقلان 492هـ/1099م وأثرها على العلاقات بين الفاطميين والصليبيين:

لم يكتف الصليبيون باحتلال مدن بيت المقدس وبيت لحم واللُّد والرملة ويافا إذ طمعوا في احتلال المزيد من المدن[5]؛ وذلك لتأمين وجودهم في مملكتهم الناشئة، وقد حانت الفرصة لهم عندما وردت جودفري أخبار بخلو مدينة نابلس من المدافعين عنها، وأن أهلها النصارى يرغبون في تسليمها للصليبيين، ولذلك توجه كلاً من يوستاس[6] وتنكرد – وهما من قادة جودفري– إلى نابلس،

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص136.

Roscoe,Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p298.

(2) قاسم، عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص129. توفي أوربان الثاني في22 رمضان 492هـ/ 12 أغسطس 1099م. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص83.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص143_144؛ بالار: الحملات الصليبية، ص91.

(4) مجهول: يوميات، ص171؛ الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص77.

(5) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص254.

(6) يوستاس: هو يوستاس الثالث، الشقيق الأكبر لجودفري، وقد عاد إلى دياره بعد الحملة الصليبية الأولى. الشارتري: تاريخ الحملة، ص95، هامش145.

فوصلا إليها بصحبة عدد من المقاتلين، فسارع سكانها بتسليمها إليهما، فمكثا بالمدينة، ثم أقاما بها حامية صليبية للدفاع عنها أمام الأخطار التي قد تحدق بها[1].

لقد أدرك الفاطميون نوايا الصليبيين التوسعية، فمنذ أن سمع الأفضل الفاطمي بزحف الصليبيين تجاه بيت المقدس أعد عدته وجمع رجاله ليحول دون استيلائهم عليها "فخرج بالعساكر وسار إلى عسقلان"[2]، إلا أنه وصلها في 14 رمضان 492هـ/4 أغسطس1099م بعد عشرين يوماً من احتلال الصليبيين لبيت المقدس "وقد فات الأمر"[3].

وبذلك أصيب الفاطميون بخيبة أمل كبيرة، حيث كانوا يرجون من الصليبيين أن ينفِّذوا الاتفاق الذي تم بين الطرفين أثناء الحصار الصليبي لأنطاكية، ويكون للصليبيين شمال بلاد الشام، وللفاطميين جنوبه، معتقدين أن الصليبيين سيقنعون بذلك.

لم يسع الأفضل عند وصوله إلى عسقلان سوى أن يرسل "إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم" فردوا عليه بأن "أعادوا الرسل بالجواب"[4]، واستمروا في تحقيق مشروعهم الاستعماري في الشرق الإسلامي.

بعد أن أيقن الوزير الفاطمي الأفضل أن الصليبيين قد نكثوا اتفاقهم معه حول تقسيم بلاد الشام رأى ضرورة التصدي لهم، واستعادة ما أخذه الصليبيون من أراضٍ كانت تابعة للدولة الفاطمية في مصر؛ فأعد قواته البرية في عسقلان وانتظر "وصول الأسطول في البحر"[5]، ولم يكن الأفضل موفقاً في حملته تلك؛ إذ سرعان ما وصل خبر وصوله عسقلان إلى الصليبيين الذين بادروا بالتجهيز لمواجهة الفاطميين "فتجمعوا على بكرة أبيهم: قادة وأساقفة ورجال دين وعامة"، وتوجه جودفري ومعه كونت فلاندرز إلى الرملة[6]، ثم بعث جودفري إلى تنكرد ويوستاس برسول يطلب منهما الإسراع بالقدوم إليه؛ لأنه سمع بأن الوزير الأفضل الفاطمي موجود في عسقلان يضع الخطط لاسترداد بيت المقدس[7].

---

(1) توديبود: تاريخ الرحلة، ص337؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص163، 182.

(2) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص44.

Roscoe,Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p302.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص137؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص129؛ للمزيد، ينظر: علي، سرور: جودفري دي بويون، ص254.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص137.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص162_163.

(7) توديبود: تاريخ الرحلة، ص337؛ علي، سرور: جودفري دي بويون، ص254.=

تجمعت القوات الصليبية في يُبْنَى[1] التي تعرف بالمراجع الصليبية باسم Ibeline (ابلين) ثم اتجهت جنوباً قاصدة عسقلان، ولم يكن لدى القوات الفاطمية علم بتحرك الصليبيين[2]، وقد تمكنت كتائب الاستطلاع الصليبية من اغتنام عدد كبير من الماشية والخيول والجمال، كما أسروا عدداً من الفاطميين، وعرفوا منهم خططهم[3]، ثم باغت الصليبيون القوات الفاطمية حيث "لم يكن عند المصريين (الفاطميين) من خبر وصولهم، ولا من حركتهم، ولم يكونوا على أهبة القتال"[4] في الوقت الذي نظم فيه جودفري جنوده المشاة والفرسان[5].

حلت الهزيمة بالفاطميين في معركة عسقلان التي دارت رحاها في 22 رمضان 492هـ/ 12 أغسطس1099م[6]، وتشتت شملهم، وقُتل من أهل عسقلان ألفان وسبعمائة، عوضاً عمّن قُتل من الجنود الفاطميين[7]، وغنم الصليبيون ما في معسكر الفاطميين من مال وسلاح[8].

أما الأفضل فقد هرب إلى عسقلان واحتمى بأسوارها، ثم غادرها مع جنده إلى مصر[9]، تاركاً سكان مدينة عسقلان دون حماية من الجيش الصليبي[10]، وكان فراره "متيحاً النصر للصليبيين من غير جهد يبذلونه أو مشقة يكابدونها"[11].

لقد كانت تلك الهزيمة بمثابة الإعلان عن خروج بلاد الشام – عدا بعض مدن الساحل– من يد الفاطميين، والقضاء على هيبتهم بفلسطين، وتأكد للصليبيين ضعف المقاومة الفاطمية، وتوطدت سيطرتهم الكاملة على مدينة بيت المقدس والمناطق المجاورة لها، كما أن ذلك النصر منح الصليبيين مزيداً من القوة والثقة بالنفس كانوا في حاجة شديدة إليهما في بداية تأسيس مملكتهم في الشرق الإسلامي، عوضاً عن أن المناطق الداخلية لبلاد الشام خاصة فلسطين مفتوحة أمامهم.

=Robert the Monk's: history of the first crusade, p207.

(1) يُبنى: هي بلدة تقع قرب مجينة الرملة بفلسطين، الحموي: معجم البلدان، ج5، ص428.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص164؛ حبشي، حسن : الحرب الصليبية الأولى، ص87.

(3) مجهول: يوميات، ص173؛ الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص78؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص337؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص164.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص129.

(5) Robert the Monk's: history of the first crusade ,p206.

(6) توديبود: تاريخ الرحلة، ص 342؛ سميل: فن الحرب عند الصليبيين، ص259.

(7) ابن القلانسي: ذيل، ص137؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149.

(8) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص79؛ ابن الأثير: الكامل، ج7 ، ص129.

(9) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص129.

(10) Roscoe,Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p303.

(11) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص166.

توجه بعد ذلك جودفري نحو عسقلان وقام بحصارها؛ فعرض أهلها الاستسلام للصليبيين دون مقاومة، ويبدو أن ذلك العرض قد جاء بعد يأسهم من مساعدة الفاطميين لهم، وخشية أن يصيبهم ما أصاب أهل بيت المقدس من ذبح وقتل، والتمسوا تسليم المدينة إلى ريموند الصنجيلي– نظير ما فعله مع افتخار الدولة ومن معه– إلا أن ذلك لم يتم بسبب الصراع بين جودفري وريموند، وأوعز ريموند إلى أهل عسقلان بالثبات والمقاومة[1]؛ فاضطر جودفري للانسحاب إلى القدس دون أن يتمكن من احتلال المدينة[2]، لتظل عسقلان شوكة في جنب الصليبيين الغزاة أكثر من خمسين سنة، ولتستمر في تهديد الصليبيين حتى سقوطها بأيديهم سنة 548هـ/1153م، وهذا دليل على أن الدولة الفاطمية كانت قوية وإلا لما استطاعت أن تصمد هذه الفترة الطويلة في عسقلان، وللأسف لم توجه تلك القوة ضد الصليبيين[3].

يتضح مما سبق أن أهالي عسقلان قد يئسوا من نجدة الفاطميين لهم براً وبحراً، لا سيما بعد هزيمة الأفضل أمام الصليبيين وهروبه إلى مصر؛ فاضطروا عندئذ إلى عرض تسليم المدينة للصليبيين، إلا أن الخلاف الذي تم بين جودفري وبين ريموند لم يمكّن الصليبيين من احتلالها.

بعد أن أوفى الصليبيون بقسمهم، واستردوا – حسب زعمهم– بيت المقدس من المسلمين، واستقرت أمورهم في بيت المقدس بعد تأمين المدينة من الفاطميين الذين هُزموا في عسقلان عاد عدد كبير منهم إلى أوروبا، وآخرون إلى المستعمرات الصليبية في شمال بلاد الشام[4]؛ لتواجه مملكة بيت المقدس حديثة النشأة مشكلة بالغة الخطورة متمثلة في نقص الرجال، واستمرار سيطرة المسلمين على سواحل بلاد الشام، ومعظم الأراضي الداخلية، ويذكر الصوري بأن القوات الصليبية التي تبقت في بيت المقدس يبلغ عددها 300 فارس، وألفين من المشاة فقط[5].

---

(1) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص257_ 258؛ الكناني، مصطفي: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص185_186؛ علي، سرور: جودفري دي بويون، ص256_257.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص137؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149. أضافت المصادر الإسلامية أن الصليبيين لم ينسحبوا عن حصار عسقلان إلا بعد أن بذل أهلها عشرين ألف دينار لزعماء الصليبيين. ابن القلانسي: ذيل، ص137؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149.

(3) الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص147.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص79؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص167.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص180.

المبحث الثالث

التوسع الصليبي في فلسطين وموقف الفاطميين منه:

أولاً: موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي للجليل وحيفا:

لقد أدرك الصليبيون أهمية امتلاك الثغور الإسلامية الساحلية في بلاد الشام، وقد كان السيطرة عليها مسألة حياة أو موت بالنسبة للصليبيين، حيث أن امتلاكها وحده يضمن لهم اتصالاتهم بالغرب حتى يصلهم منه المعونات البشرية والمادية الضرورية لبقائهم في الشرق[1]، ولتحقيق ذلك الهدف، ونظراً لضعف الفاطميين وهزيمتهم أمام الصليبيين في معركة عسقلان في رمضان 492هـ/أغسطس1099م انصرف جودفري نحو مدينة أرسوف، وفرض عليها الحصار من البر إلا أنه لم يتمكن من اقتحامها بسبب استبسال أهلها في الدفاع عنها، ووفرة العتاد والميرة[2]، عوضاً عن تمكن سكان المدينة من الخروج منها والدخول إليها نظراً لتعذر فرض الحصار الصليبي على المدينة من البحر لعدم وجود أسطول قوي لديهم، علاوة عن نقص المعدات اللازمة لاستمرار الحصار[3]، حيث شجعت تلك العوامل الحامية الإسلامية بالمدينة على مهاجمة آلات الصليبيين، وتدميرها وإحراقها بواسطة النار التي قذفت من داخل المدينة، فاضطر جودفري إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة إلى القدس بعد أن قُتل وجُرح عدد كبير من الصليبيين [4].

لم يبق من القادة الصليبيين إلى جانب جودفري سوى تنكرد، فعهد إليه بقيادة الجند، وأقطعه مقاطعة الجليل، وأمّره عليها إذ أوكل إليه فتحها، فخرج في شرذمة ضئيلة، ولم تَعِز تلك الناحية عليه، بل استسلمت له دون أن تُهرق نقطة من الدماء، واتخذ مدينة طبرية مركزاً له، ثم تقدم فاحتل بيسان[5] وحصّنها، وأرغم البدو على ترك هذه المنطقة؛ فأمنت القوافل من غاراتهم[6]،

---

(1) هايد، ف: تاريخ التجارة، ج1، ص149.

(2) الميرة: هي الطعام ونحوه. ابن منظور: لسان العرب، ص4306.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص181. ذكر المؤرخ سعيد عاشور نقلاً عن أحد المصادر الصليبية أن ريموند الصنجيلي هو من اتجه نحو أرسوف محاولاً الاستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها، ولكن جودفري ظل واقفاً له بالمرصاد، فلحق به وأصر على أن أرسوف هي الأخرى تتبع بيت المقدس، وللمرة الثانية انسحب ريموند نحو الشمال بعد أن حرض أهل أرسوف على عدم الاستسلام لجودفري. الحركة الصليبية، ج1، ص258.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص114؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص28.

(5) بيسان: هي مدينة صغيرة بلا سور، تقع على الجانب الغربي من الغور الشامي، وإلى الجنوب من طبرية، وهي كثيرة الخصب، وذات بساتين وأنهار وأعين. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص243.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص168_169.

وكان الدافع وراء اختيار الصليبيين بقيادة جودفري التوسع في إقليم الجليل[1] ما يمثله ذلك الإقليم من عمق استراتيجي للكيان الصليبي الناشئ في بيت المقدس، إضافة لما يتمتع به الإقليم من ثروة اقتصادية وموارد طبيعية، كذلك كان الصليبيون بأمسّ الحاجة لترسيخ ودعم كيانهم الناشئ، حيث يحتوي الإقليم على مسافات شاسعة من الأراضي الزراعية، وغابات متنوعة، إلى جانب الطموح الشخصي لتتكرد كعامل له أهمية في الاستيلاء على الجليل[2].

وبذلك أصبحت إمارة بيت المقدس الصليبية تضم بيت المقدس، وبيت لحم والخليل[3] والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية، وكانت تلك المدن قليلة العدد تقع وسط محيط كبير من حكام العرب المسلمين[4].

تمكن الصليبيون في ربيع الآخر 493هـ/ فبراير 1100م من الظفر ببعض أهالي أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمي في مزارعهم القريبة، فانتقم الصليبيون منهم وقتلوهم، ولمّا كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة؛ فاكتفى الأفضل بإرسال قوة صغيرة مكونة من ثلاثمائة جندي شجعت أهل أرسوف مؤقتاً، ثم عاود الصليبيون هجومهم على أرسوف؛ فاضطر أهلها إلى إرسال سفارة إلى جودفري في جمادى أولى 493هـ/ مارس 1100م تحمل إليه مفاتيح أبواب المدينة وقلاعها، وعرضت عليه الدخول في تبعيته ودفع ضريبة ماليه له[5].

ويبدو أن تقاعس الفاطميين في الدفاع عن المدينة وحمايتها وتزويدها بالمؤن والمواد اللازمة للصمود، قد أدى إلى اضطرار حاكمها الفاطمي إلى الاتفاق مع جودفري على الدخول في تبعيته مقابل تأمينهم على حياتهم، كعادة حكام الفاطميين الذين يقيمون في مدن بلاد الشام.

لم يمض وقت طويل على محاولة جودفري احتلال أرسوف حتى قرر أمراء عسقلان وقيسارية وعكا الخضوع لجودفري بدفع الضريبة له، ثم تبعهم العرب في شرقي الأردن؛ وذلك لاعتماد عيشهم على تجارتهم مع سكان مدن الساحل، ولحاجة الصليبيين إلى إقامة صداقة مع جيرانهم المسلمين، ورحب جودفري بالانفتاح العربي، وسمح لقوافل العرب بعبور مقاطعته، وشجع

---

(1) إقليم الجليل: هو إقليم جبلي يمتد من شمال فلسطين إلى حمص. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص157.

(2) علي، سرور: جودفري دي بويون، ص263_264.

(3) الخليل: هي بلدة تقع بالقرب من بيت المقدس وفيها حصن وعمارة وسوق. الحموي، معجم البلدان،ج2، ص387.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص180.

(5) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص362_363.

تجارهم على التعامل مع شعبه[1].

نتيجة لتشتت القوى الإسلامية، وضعفها، وعدم قدرتها على مواجهة الصليبيين توافر لصليبيي بيت المقدس قسط وافر من الاستقرار خلال تلك المرحلة ما جعلهم يفكرون في تدعيم وجودهم في مملكتهم الناشئة، وساعدهم على تحقيق ذلك مجيء قوات كبيرة قدرها المؤرخون الصليبيون بخمسة وعشرين ألفاً كانوا بصحبة الأسقف دايمبرت[2] الذي عين بطريركاً على بيت المقدس[3]، والذي جاء على رأس أسطول بيزي يقدر بـ 120 سفينة تمكنت من الوصول إلى بيت المقدس[4] بعد أن اجتمعت أثناء مسيرها مع بلدوين – أمير الرها– وبوهيموند – أمير أنطاكية– اللذان اصطحبا دايمبرت وقدِما معه إلى بيت المقدس للحج بها، وقد رحب بهم جودفري أصدق ترحيب لأنه كان بحاجة ماسة للرجال[5]، لكنهم لم يظلوا جميعاً في بيت المقدس حيث اختار بعضهم البقاء، بينما فضل البعض الآخر العودة إلى أوروبا أو التوجه لشمال بلاد الشام[6].

ازدادت أطماع البطريرك دايمبرت، فأصر على أخذ بيت المقدس ومدينة يافا والمناطق التابعة لها باعتباره أعلى سلطة دينية صليبية موجودة في الشرق، فسلمه جودفري جزءاً من بيت المقدس، وجزءاً من يافا على أن يستولي البطريرك على حكم المدينتين بعد وفاة جودفري أو أن يستولى جودفري على مدينة أو اثنتين من أيدي المسلمين[7].

ويبدو أن تلك الخلافات قد أوقفت – ولو بشكل مؤقت– أعمال الإغارة التي كان يقوم بها الصليبيون بين الحين والآخر، بل نجد أن الحاميات الإسلامية الموجودة في المدن الساحلية التي لم تخضع للصليبيين قد تشجعت على مهاجمة الممتلكات الصليبية في بيت المقدس وما جاورها من المدن، حيث نجد أن تلك الحاميات أغارت من أرسوف وعسقلان على المراكز الصليبية القريبة خاصة على مدينة الرملة التي لم تقو حاميتها على الصمود؛ لذلك طلب جودفري مساعدة البيازنة في دفع ذلك الخطر، وبدأ بتحصين يافا، كما استعان ببعض قوات أنطاكية الأمر الذي جعل سكان

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص185_186.

(2) دايمبرت: هو أسقف بيزا، وهو رجل عظيم النفوذ في مدينته وفي الأوساط البابوية، وصل إلى سواحل سوريا في رمضان 492هـ/ أغسطس 1099م في أسطول من بيزا، وبسبب المنافسة التجارية بين بيزا وبيزنطة فقد أعمل السلب والنهب بأملاك البيزنطيين وهو مبحر شرقاً. الشارتري: تاريخ الحملة، ص98، هامش 213.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص81؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص171.

(4) هايد، ف: تاريخ التجارة، ج1، ص149.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص170_171.

(6) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص83.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص173_174.

أمراء أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا يطلبون الصلح مقابل بعض الأموال[1].

يبدو أن الهدف من تلك الغارات التي شنتها الحاميات الفاطمية ضد الصليبيين ليس استرداد بيت المقدس أو غيرها من المدن التي وقعت بقبضة الصليبيين، إذ أن تلك الغارات كان يقوم بها أعداد قليلة من الجنود يخرجون من أبواب المدن، ثم يعودون يحتمون بأسوارها نجاة بأنفسهم، ولم يكن الهدف من تلك الهجمات سوى قض مضاجع الصليبيين والعمل على عدم استقرارهم في انتظار مجيء المدد من مصر، ثم حشد القوى لمهاجمة الصليبيين.

في شعبان 493هـ/ يونيو 1100م وصل إلى يافا أسطول بندقي يتكون من مائتي سفينة، وعرضوا على الصليبيين المساهمة في حرب المسلمين حتى 7 شوال/ 15 أغسطس من نفس السنة مقابل أن يكون لهم في كل مدينة كنيسة، وموقع مناسب لإقامة سوق، وأن يسيطروا على ثلث كل مدينة يساعدون في الاستيلاء عليها؛ لممارسة نشاطهم التجاري، وإذا نجحوا في الاستيلاء على طرابلس تكون المدينة بأكملها لهم، وأن يدفعوا عنها ضريبة سنوية، وأن يُعفوا من الضرائب في مدن مملكة بيت المقدس كلها[2].

وافق جودفري على عرض الأسطول البندقي، وبدأ البنادقة بحصار مدينة عكا من ناحية البحر، بينما تولى الصليبيون حصار المدينة براً، ولكن موت جودفري حوّل الحملة إلى حيفا[3]، حيث اقترحا كل من دايمبرت وتنكرد على البنادقة ترك عكا، وتوجيه الجهود إلى حيفا، إذ أنها أقرب إلى بيت المقدس، وكانت حيفا تابعة للدولة الفاطمية، وللفاطميين فيها حامية صغيرة[4].

لم تتمكن الحامية الفاطمية في حيفا من مواجهة القوات الصليبية، فسقطت المدينة بيد الصليبيين بالرغم من أن الفاطميين كانوا يملكون حافزاً قوياً يدفعهم للتعويض عن خسائرهم؛ لأن القدس وجنوبي فلسطين والمدن الساحلية حتى مدينة جبلة كانت ولاية تابعة للفاطميين قبل دخول الصليبيين بلاد الشام[5]، ويبين سقوط تلك المدينة بيد الصليبيين مدى تقاعس الفاطميين عن الدفاع

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص180_181؛ عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص34.

(2) باركر، آرنست: الحروب الصليبية، ص43_44؛ هايد، ف: تاريخ التجارة، ج1، ص150؛ علي، سرور: جودفري دي بويون، ص253.

(3) حيفا: حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص332.

(4) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص276. ذكر الشارتري أن الصليبيين كانوا قد سيطروا على حيفا أثناء توجههم للسيطرة على بيت المقدس. تاريخ الحملة، ص106، وفي موضع آخر ذكر أنهم لم يسيطروا على حيفا بل مروا بها أثناء توجههم نحو بيت المقدس. تاريخ الحملة، ص69. كما أن وليم الصوري لم يذكر أن الصليبيين قد سيطروا على تلك المدينة أثناء توجههم نحو بيت المقدس. الحروب الصليبية، ج2، ص66_67.

(5) سميل: فن الحرب عند الصليبيين، ص141.

عنها في ظل امتلاكهم أسطول كبير، إضافة إلى قوات برية كبيرة العدد بإمكانها منع أو على الأقل تأخير الاحتلال الصليبي لمدن الساحل الفلسطيني.

ثانياً: موقف الفاطميين من استيلاء بلدوين الأول على أرسوف وقيسارية:

احتدم النزاع بين زعماء الصليبيين بعد أن توفي جودفري بويون في 9 رمضان 493هـ/ 18 يوليو 1100م بعد إصابته بمرض الحمى، حيث أثيرت مشكلة اختيار خليفة له في بيت المقدس[1]، لكن سرعان ما تم حل تلك المشكلة عندما تمكن بلدوين الأول من اعتلاء عرش المملكة، حيث تم استدعائه من إمارة الرها من قبل أنصار أخيه جودفري ليتسلم مقاليد الحكم في المدينة المقدسة رغم أن البطريرك دايمبرت كان يسعى لإقامة حكم ديني يكون هو على رأسه[2].

خلا الجو لبلدوين عندما تلقى منافسه تنكرد رسالة من الصليبيين في أنطاكية يطلبون منه القدوم إليها للقيام بالوصاية على إمارتهم بعد أُسر حاكمها الصليبي بوهيموند على يد المسلمين؛ فتوجه إليها بعد أن تنازل لبلدوين عن إقطاعية طبرية التي منحها بلدوين إلى الأمير هيج دي سنت أومير[3].

عندما صار بلدوين ملكاً على بيت المقدس سنة 393هـ/1100م لم يكن هناك من القوة البشرية الصليبية ما يكفى لتثبيت أركان مملكة بيت المقدس الصليبية، إذ كان يملك "بضعة بلدان وأناس فقط"[4]، ويعلق الشارتري عن عودة عدد كبير من الصليبيين إلى بلدانهم الأصلية بالقول: "وقد بقيت أراضي القدس خالية من السكان لهذا السبب، ولم يتوافر فيها من الناس من يدافع عنها، لو أن الشرقيين (المسلمين) جرءوا على مهاجمتنا"[5]، ورغم ذلك لم يقم الفاطميون بأي عمل عسكري ولو بسيط، ولقد كان بإمكان الأفضل وزير الدولة الفاطمية – التي كانت من الدول القوية في العالم الإسلامي– انتزاع ما استولى عليه الصليبيون من مدن وقرى، أو على الأقل إحراجهم وضعضعة مركزهم في فلسطين، ولكنه لم يفعل[6].

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص186_187؛ روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ج1، ص104. أوردت بعض المصادر الإسلامية رواية مخالفة لذلك، وهي أن جودفري مات مقتولاً بسهم أثناء حصاره لمدينة عكا الساحلية. ابن القلانسي: ذيل، ص138؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص155.

(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص111.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص210.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص111.

(5) المصدر نفسه، ص112.

(6) الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص148.

بالرغم من قلة عدد الفرسان الصليبيين في بيت المقدس إلا أن بلدوين كان يتميز عن سلفه – جودفري– بأنه رجل حرب، وحكيم في إدارة شئون البلاد، كما كانت لديه رغبة بتوسيع حدود مملكته الصغيرة على حساب مدن المسلمين[1]، حيث بذل بلدوين جهوداً كبيرة في تنظيم أمور المملكة، وتوسيع رقعتها، وتصفية الجيوب الإسلامية التي تتخلل ممتلكات الصليبيين فيها، والاستيلاء على الموانئ الساحلية التي كانت لا تزال تحت حكم المسلمين لفتح منافذ جديدة على البحر، وربط المملكة الناشئة بالغرب الأوروبي لتلقّي المساعدات البحرية، وتسهيل قدوم الحجاج إلى الأراضي المقدسة[2]، كما أن إخضاع الصليبيين لمدن الساحل الشامي كان يعني استمرار تدفق الدعم البشري والمادي والمعنوي الأوروبي، فضلاً عن خنق القوى الإسلامية في بلاد الشام اقتصادياً، وجعلها قوى برية حبيسة تحتاج إلى الصليبيين لتصرف منتجاتها التجارية عبر المنافذ التجارية البرية والبحرية الخاضعة للصليبيين[3].

إن تحقيق تلك الأهداف التي يسعى إليها بلدوين كان يتطلب قوة بشرية وعسكرية، لذا كان لزاماً عليه أن يستعين بالقوى البحرية الإيطالية، وقد وافق ذلك وصول أسطول جنوي إلى حيفا في جمادى أولى 494هـ/ منتصف مارس1101م كان قد أبحر من اللاذقية، ومن هناك أبحروا إلى يافا، فوصلوها في جمادى الثانية_ رجب 494هـ/ابريل 1101م حيث استقبلهم بلدوين بحفاوة بالغة، وأخذهم إلى بيت المقدس للاحتفال هناك بعيد الفصح، وبعث إلى قادة الأسطول بالهدايا المغرية بغرض "بذل أنفسهم فترة من الوقت لخدمة الله بمد حدود المملكة"[4].

لما انتهت الاحتفالات بالعيد فاوض بلدوين قادة الأسطول الجنوي حول الثمن الذي يرتضونه مقابل تقديم المساعدة للصليبيين في إخضاع المدن الساحلية، ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يُسخِّر الجنوية إمكاناتهم البحرية في خدمة الصليبيين نظير حصولهم على ثلث الغنائم والأسلاب من الأسرى المسلمين والأموال والمنقولات، فضلاً عن شارع من شوارع السوق في كل مدينة يحتلونها ليتخذونه مركزاً لممارسة نشاطهم التجاري، عوضاً عن حصولهم على الثلث من كل مدينة أو قلعة أو موضع من المواضع الحصينة التي تؤخذ من المسلمين[5].

كانت مدينة أرسوف الهدف الأول لذلك الاتفاق، وتولى الأسطول الجنوي مهاجمة المدينة

---

(1) الفيتري، يعقوب: تاريخ بيت المقدس، ص31.

(2) الشيخ، محمد: عصر الحروب الصليبية، ص185.

(3) عوض، محمد مؤنس: الحروب الصليبية، ص25_26.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص217؛ الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص201_202.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص113.

من ناحية البحر، وبلدوين وجيشه من ناحية البر[1]، ومن الجدير ذكره أن جودفري قد حاول احتلالها في جمادى أولى _ جمادى ثاني 493هـ/مارس 1100م، وفشل في ذلك لقلة عدد السفن المساعدة له من البحر، واختلاف زعماء الصليبيين على مصير المدينة في حال احتلالهم لها[2].

كانت أرسوف تخضع للحكم الفاطمي، وقد استبسلت حاميتها في الدفاع عنها، وتمكن أهلها من مواجهة الصليبيين وقتلوا عدداً منهم[3]، ويبدو أن الحامية الفاطمية في المدينة كانت تنتظر دعماً يأتي لها من مصر عبر البحر، فقاومت مدة إلى أن دبّ اليأس في نفوس أفرادها لعدم وصول النجدات الفاطمية من مصر[4]؛ فشدد الصليبيون والجنوية الحصار، ونصبوا السلالم على الأسوار، وهيئوا أنفسهم للاستيلاء على الأبراج والحصون، فسارع سكانها إلى طلب الأمان من بلدوين، فوافق وسمح لهم بمغادرة المدينة إلى عسقلان، وتسلم المدينة وخصص لها حامية للدفاع عنها، وأعطى الجنوية ما وعدهم به من أموال وأسلاب[5].

بعد أن وضع بلدوين قوة تحرس أرسوف زحف نحو مدينة قيسارية، وضرب عليها الحصار براً وبحراً، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة عليها بسرعة لمناعة أسوارها[6]، إلا أن وصول الأسطول الجنوي إلى ساحل قيسارية شجع بلدوين على الاستمرار في حصارها، وبذل بحارة الأسطول الجنوي جهوداً كبيرة في مساعدة الصليبيين على احتلالها حيث نزلوا إلى البر، ودمروا المحاصيل في الأراضي القريبة للمدينة، وعادوا لإحكام الحصار حولها، وشيدوا آلات الحصار، وأقاموا الأبراج حولها، فهاجموا المدينة من غير عناء يلقونه أو ضيق ينزل بهم[7].

صمدت الحامية الفاطمية في وجه الصليبيين والجنويين على أمل وصول نجدات من قبل الأفضل الفاطمي، ولما طال الانتظار دون جدوى أرسل قائد الحامية الفاطمية مبعوثيه بعد الاتفاق مع كبير التجار بالمدينة إلى الصليبيين للتفاهم على أساس الانسحاب وحقن الدماء نظير مبلغ من المال، إلا أن الصليبيين رفضوا واشترطوا تسليم المدينة مقابل تأمين حياة الجميع[8].

رفضت الحامية الفاطمية وأهالي المدينة الاستسلام، واستمر القتال بين الطرفين مدة خمسة

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص218؛ عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص35.
(2) الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص203؛ للمزيد، ينظر: ص124.
(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص114؛
(4) الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص203.
(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص218_219.
(6) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص114.
(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص220؛
(8) الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص204.

عشر يوماً، دمر خلالها الصليبيون بعض مواقع الدفاع المرتفعة على سور المدينة[1]، وعلى إثر ذلك لم تستطع الحامية الصمود طويلاً بسبب ضعف عزيمة المدافعين، وربما يرجع ذلك إلى عدم وصول الإمدادات من مصر، فسيطر عليها الصليبيون بالسيف في 16 رجب 494هـ/17 مايو 1101م[2]، وارتكب الصليبيون مذبحة وحشية في مسجد المدينة، حيث هرب إليه السكان للأمان، لكن الصليبيين اقتحموا المسجد[3]، وقتلوا من آوى إليه، وفتكوا "بكبار رجال الأسُر، ونهبوا شتى الأدوات المنزلية، وامتدت أيديهم فسلبت كل ما رغبوا فيه حتى المساكن ذاتها، وحكّموا السيف في الأهل والحشم"[4]، ولم تكتف جرائمهم عند ذلك الحد بل نجد أنهم "جمعوا جثثهم (المسلمين) وأضرموا فيها النيران"[5]، ولم ينج من المدينة سوى حاكمها وقاضيها، وعدد قليل من رجالهما رغبة في الفدية وأخذ الأموال مقابل إطلاق سراحهم[6].

وهنا يمكن الإجابة على التساؤل الذي يطرح نفسه حول نجاة حاكم المدينة الفاطمي ومن معه من الجند دون أهلها – إذ أن ذلك قد حدث سابقاً بحيث لم ينج من سكان بيت المقدس عندما احتلها الصليبيون سوى حاكمها الفاطمي والحاشية التي ترافقه– بالقول أن الفاطميين ربما وقعوا اتفاقيات تضمن سلامتهم الشخصية نتيجة عدم قدرتهم على مواجهة القوات الصليبية في ظل تعسر وصول الإمدادات الفاطمية من مصر، كما نستشف بأن الذي كان يحارب الصليبيين هم سكان المدن الذين كانوا يبادون عن بكرة أبيهم، لا الحاميات الفاطمية التي كانت تقيم في تلك المدن.

عين الملك الصليبي بلدوين الأول رجلاً اسمه بلدوين ليكون رئيساً لأساقفة مدينة قيسارية، وكان بلدوين هذا ممن قدموا مع جودفري، ثم ترك ملك مملكة بيت المقدس حامية عسكرية تقوم بأعباء حماية المدينة ثم توجه بقواته إلى الرملة [7] متوقعاً أن يشن الفاطميون عليهم هجوماً خلال أقل من شهر، إلا أن الصليبيين أدركوا ضعف الفاطميين وسوء أحوالهم؛ فتوجهوا إلى مدينة يافا[8]، حيث أصبحت الفرصة متاحة أمامهم لتوسيع المملكة الصليبية دون أية مضايقة من قبل الفاطميين، حيث مكث الأفضل الفاطمي بمصر مدة سنتين دون أن يفكر في التصدي للفاطميين.

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص114.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص167؛ الكناني، مصطفى: العلاقات، ص207.

(3) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ج1، ص110.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص221.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص115.

(6) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ج1، ص110.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص223..

(8) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص116.

المبحث الرابع

المحاولات الفاطمية لاسترداد بيت المقدس

أولاً: الحملة الفاطمية الأولى على بلاد الشام سنة 494هـ/1101م:

لقد أدى ازدياد النفوذ الصليبي في مدن بلاد الشام وسواحله – لاسيما بعد سيطرة الصليبيين على أرسوف وقيسارية– إلى خشية الفاطميين من انحسار نفوذهم السياسي في مدن بلاد الشام التي بقيت في أيديهم؛ ولذلك عمد الوزير الفاطمي الأفضل إلى إعداد حملة كبيرة وجهها إلى فلسطين في محاولة لاستعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين، وجعل على رأس تلك الحملة قائده سعد الدولة القواسي[1] الذي عينه الفاطميون والياً على عسقلان[2] التي صارت بمثابة مركز انطلاق جميع الحملات التي خرجت من مصر ضد الصليبيين في تلك المرحلة[3].

دخل القواسي عسقلان في أوائل رمضان سنة 494هـ/ يوليو 1101م، ومكث فيها حوالي ثلاثة شهور لم يباغت خلالها القوات الصليبية[4]، وكان ذلك بمثابة فرصة كبيرة للصليبيين الذين قاموا خلال تلك المدة بالاستعداد وتجميع قواهم، حيث قام بلدوين بمغادرة قيسارية على جناح السرعة معتقداً أن الفاطميين سيقومون بمهاجمة بيت المقدس، وجمع قواته من بيت المقدس وطبرية وحيفا، كما أمر بتجنيد كل صليبي قادر على حمل السلاح، وأقام في الرملة ما يقارب الشهر، ثم عاد إلى يافا[5] حتى يرقب تحركات الفاطميين، ويظل على اتصال بالمواصلات البحرية[6].

وقد أرجع فوشيه الشارتري تقاعس سعد الدولة القواسي عن مهاجمة الصليبيين في ذلك الوقت إلى أنه كان يأمل من وراء الانتظار في عسقلان استدراج الصليبيين، وإغرائهم بالهجوم على قواته المتمركزة في عسقلان حتى يتمكن من إبادتهم[7]، وربما كان ذلك بسبب انتظار وصول

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص214. يعرف القواسي أيضاً بالطواشي. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص182؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص32. ذكر ابن الأثير أن القواسي كان قبل ذلك والياً على بيروت. الكامل، ج7، ص182.

(2) العظيمي: تاريخ حلب، ص360_361.

(3) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص294.

(4) ابن القلانسي: ذيل، ص140. ذكر فوشيه الشارتري أن القوات الفاطمية انتظرت في عسقلان مدة 70 يوماً. تاريخ الحملة، ص116.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص224.

(6) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص122.

(7) تاريخ الحملة، ص116.

إمدادات جديدة أو بهدف استطلاع أخبار العدو، واختيار الوقت المناسب لمباغتته، أو أنهم كانوا يخشون الدخول في معركة ضد الصليبيين[1].

ويبدو أن الفاطميين لم يكونوا على قدر من الفطنة والذكاء في مباغتة القوات الصليبية قليلة العدد – خاصة بعد عودة معظم أفرادها إلى الغرب الأوروبي–؛ خوفاً من مستقبل مجهول كان ينتظرهم في عسقلان التي كانت تحظى بتفاني سكانها بالدفاع عنها، فضلاً عن حرص قادة الفاطميين على استمرار نفوذهم عليها لكونها البوابة البرية والبحرية المؤدية إلى مصر[2].

بعد أن تلكأت القوات الفاطمية بقيادة سعد الدولة القواسي وتراخت ما يقرب من ثلاثة شهور في عسقلان عزموا على مواجهة الصليبيين؛ فأعدوا قواتهم، وعبئوا صفوفهم للقتال[3]، ثم اتجه سعد الدولة بقواته الكبيرة التي قدرتها بعض المصادر الصليبية بأكثر من ثلاثين ألف مقاتل (أحد عشر ألفاً من الفرسان، وعشرون ألفاً من المشاة)[4] لمواجهة الصليبيين بين الرملة ويافا[5].

وما أن وصل الخبر إلى بلدوين حتى أعد قواته، وقسمها إلى ستة فرق، وجعل أمامهم راهباً يشجعهم على مواجهة القوات الفاطمية[6]، وحمل بلدوين بنفسه خشبة الصليب المقدس[7]،

---

(1) عاشور، فايد: جهاد المسلمين، ص129.

(2) نبهان، عادل: عسقلان، ص166. قدر ابن القلانسي عدد القوات الصليبية بألف فارس، وعشرة آلاف راجل. ذيل، ص140. بينما ذكر المؤرخ الصليبي الشارتري أن عددها بلغ مائتين وستين فارساً، وتسعمائة رجل من المشاة. تاريخ الحملة، ص116؛ وأيده على ذلك المؤرخ يعقوب الفيتري. ينظر: تاريخ بيت المقدس، ص145. وهذه أعداد تتنافى مع حقيقة وواقع مملكة بيت المقدس آنذاك، حيث لا يعقل أن من بقي ببيت المقدس هذا العدد فقط من بين أكثر من نصف مليون صليبي شاركوا في الحملة الصليبية الأولى.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص224.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص116؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص224؛ روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، ج1، ص110. قدّر يعقوب الفيتري عدد القوات الفاطمية كان يزيد عن أربعين ألف مقاتل. تاريخ بيت المقدس، ص145. بينما اكتفت المصادر الإسلامية بالإشارة إلى أن من خرج من مصر مع سعد الدولة بأنه عسكر كثيف. ابن القلانسي: ذيل، ص140؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص151.

(5) ابن الأثير: الكامل ج7، ص182؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص87. ذكر المقريزي أن تلك المعركة وقعت في يُبنى. اتعاظ الحنفا، ج3، ص32. بينما ذكر الذهبي أنها وقعت بظاهر عسقلان. دول الإسلام، ج2، ص22.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص225.

(7) الصليب المقدس: يسميه الصليبيون بصليب الصلبوت، وهو قطعة من الخشب يزعم النصارى بأن المسيح – عليه السلام– صلب عليها، وكان صلاح الدين الأيوبي – رحمه الله– قد حرص في معركة حطين على السيطرة عليه بغية إدخال الوهن في نفوس الصليبيين، لأنه كان يدرك بأن السيطرة عليه يعد أعظم سلاح لإضعاف الروح المعنوية لهم. نبهان، عادل: عسقلان، ص167؛ هامش 1.

وأخذ يبث الحماسة في عساكره قائلاً "هيا يا جنود المسيح! لا تخشوا شيئاً، تصرفوا برجولة، وكونوا جبابرة في المعركة... وإذا أردتم الفرار فاذكروا أن فرنسا تبعد مسافة شاسعة عن هذا المكان""[1].

دارت المعركة بين الطرفين يوم السبت 11 ذي القعدة 494هـ/ 7 سبتمبر 1101م في السهل الواقع جنوب غرب مدينة الرملة[2]، "ووقف سعد الدولة في القلب، فقاتل قتالاً شديداً"[3]، وتمكنت قواته من صد وقهر الصفوف الأولى من الجيش الصليبي؛ مما أجبر بلدوين على تدعيم قواته الأمامية من الصفوف المقاتلة في مؤخرة الجيش، فأفقد ذلك توازن الجيش الصليبي، وعندئذ استغلت إحدى فرق الجيش الفاطمي – قدر الشارتري عددها بخمسمائة فارس– اضطراب جيش الصليبيين فشنت هجوماً على مؤخرة الجيش الصليبي، وأوقعت فيه قتلاً، ثم قضوا على أحد صفوف ميمنة الصليبيين معتقدين بأن ما أصاب مؤخرة الجيش الصليبي قد حل بمقدمته، ثم طاردوا فلول الصليبيين التي فرت باتجاه يافا حيث تحصنوا بأسوارها[4].

ما أن وصل خبر انتصار الفرقة الفاطمية على مؤخرة وميمنة الجيش الصليبي، حتى وصلت الرسل إلى الصليبيين في يافا لتبلغهم بأن الملك ورجاله قد أبيدوا عن بكرة أبيهم؛ فأسرعت زوجة بلدوين بمراسلة تتكرد أمير أنطاكية لتطلب منه المساعدة في مواجهة "أهل مصر وعسقلان"[5].

أما صفوف الجيش الصليبي الأمامية، فقد قامت بقيادة بلدوين الأول بشن هجوم على الجيش الفاطمي، وتمكن الصليبيون من أسر وقتل عدد كبير من الفاطميين[6]، وكان من بين

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص117.

(2) المصدر نفسه، ص119، الدويكات: طبريا، ص157. اختلف المؤرخون المسلمون على تاريخ هذه المعركة؛ فمنهم من وافق الشارتري على أنها وقعت في ذي القعدة 494هـ/سبتمبر 1101م العظيمي: تاريخ حلب ص361. ومنهم من اختلف في ذلك، فقد ذكر ابن القلانسي أنها وقعت في ذي الحجة/ أكتوبر من السنة نفسها. ذيل، ص140. وأيده على ذلك المقريزي، اتعاظ، ج3، ص26. أما الذهبي فقد أورد أنها وقعت سنة 393هـ/1100م. دول الإسلام، ج2، ص 22_23، وأيده على ذلك ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص151. بينما ذكر ابن خلدون تلك المعركة ضمن حوادث سنة 496هـ/ 1103م. تاريخ، ج5، ص214.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص151.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص118_ 120. ذكر ابن تغري بردي، أن فلول الصليبيين فرت باتجاه قيسارية. النجوم الزاهرة، ج5، ص151. يضيف المؤرخون المسلمون بأن هذه الحادثة قد وقعت بعد مقتل سعد الدولة القواسي. ابن القلانسي: ذيل، ص140؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص151.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص120_ 121.

(6) المصدر نفسه، ص118. ذكرت المصادر الصليبية بأن عدد قتلى الجيش الفاطمي بلغ خمسة آلاف، وأن عدد قتلى الصليبيين لما يتجاوز الثمانين فارساً وأكثر من ذلك من المشاة. الفيتري؛ تاريخ بيت المقدس، ص145؛=

القتلى القائد الفاطمي سعد الدولة القواسي الذي "طلب الثبات فعاجله القضاء، وكبا به جواده، وسقط عن الأرض، فاستشهد مكانه"[1]، وكان ذلك سبباً في اضطراب صفوف جيشه فانهزموا لا يلوون على شيء[2]، "وملك الفرنج خيم وجميع ما للمسلمين"[3]، ثم تعقبهم الصليبيون ولاحقوهم إلى أسوار عسقلان حيث تحصن بها فلول الجيش الفاطمي المنهزم، ولم يجرؤ الصليبيون على مهاجمتهم داخل المدينة[4]، وربما يرجع ذلك إلى خشية بلدوين من وقوع جيشه فريسة سهلة بين يدي فلول الجيش الفاطمي وأهالي عسقلان، عوضاً عن قلة عدد جيشه وعدّته مقابل الفاطميين.

في ذلك الوقت قامت الفرقة الفاطمية التي دحرت مؤخرة الجيش الصليبي حتى أسوار مدينة يافا بهاجمة المدينة، وبثت الرعب في قلوب حاميتها بعد أن جمعوا أسلحة الجند الصليبيين الذين قتلوا في المعركة ولوحوا بها لرجال المدينة الصليبيين صائحين أن الملك وكل رجاله قتلوا في المعركة، ولكن الفرقة الفاطمية لم تتمكن من اقتحام يافا بسبب عدم توفر آلات الهجوم الكافية لدك أسوارها؛ لذلك عادت أدراجها في اليوم التالي مصطحبين معهم ما اغتنموا من الصليبيين، وعندما اقتربت الفرقة الفاطمية من معسكر الفاطميين بالقرب من الرملة هاجمها الصليبيون فتخلوا عن غنائمهم، وعادوا مسرعين إلى عسقلان يجرون أذيال الخيبة[5].

وقد رأى المسحال أن الأسطول الفاطمي الذي أفرد أشرعته، وعاد إلى مصر يتحمل جزءاً من الهزيمة التي تعرض لها الجيش الفاطمي بقيادة القواسي، إذ أنه لم يتدخل لمّا رأى هزيمة الجيش الفاطمي ومصرع قائده، ويضاف إلى ذلك السبب ثقة قوات الأفضل الزائدة وتأكدهم من قلة جيش الصليبيين ووجود مدينة عسقلان الحصينة وإمكانية الاحتماء بها قد أثر في سير المعركة لصالح الصليبيين[6].

ويعلق ابن تغري بردي على هزيمة الفاطميين في تلك المعركة بالقول "ومن يومئذ بدأت الفرنج في أخذ السواحل حتى استولوا على الساحل الشامي بأجمعه إلى أن استولت الدولة الأيوبية

=الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص226؛ روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ج1، ص110. شككت المصادر الصليبية نفسها بهذه الأرقام بالقول: "غير أن هذه الأعداد ليست مؤكدة تماماً". روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ج1، ص110. و"أن الخسارة الحقيقية لم تعرف" الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص226.

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص140

(2) نبهان، عادل: عسقلان، ص168.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص182.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص119؛

(5) المصدر نفسه، ص119_ 120؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص226_ 227.

(6) المسحال، حسن: عسقلان، ص89.

والتركية واسترجعوها شيئاً بعد شيء"[1].

ثانياً: الحملة الفاطمية الثانية على بلاد الشام سنة 495هـ/1102م:

لما علم الأفضل بن بدر الجمالي بنبأ هزيمة جيشه في معركة الرملة الأولى خشي أن تتعرض عسقلان وغيرها ممن تبقى للفاطميين من مراكز على ساحل بلاد الشام لهجوم شامل من قبل الصليبيين[2]؛ لذلك السبب أخذ يجهز جيشاً جديداً للانتقام من الصليبيين لما حل بجيشه في السنة الماضية من هزيمة منكرة بالقرب من الرملة، وساعدته موارد مصر الاقتصادية والبشرية في تحقيق ذلك، وقد استغرق إعداد ذلك الجيش ما يقرب من ثمانية شهور بعد معركة الرملة الأولى، وقد بلغ تعداده – مع من انضم إليه من أهالي عسقلان– عشرين ألف جندي [3] كانوا جميعاً بقيادة شرف المعالي بن الوزير الأفضل[4] الذي تمكن من الوصول بجيشه إلى عسقلان في رجب 495هـ/ مايو1102م، حيث أقام بها مدة أعاد خلالها تنظيم جيشه مع من انضم إليه من أهالي عسقلان، ثم توجه إلى مدينة الرملة[5].

أما على الجانب الصليبي فقد كان بلدوين يعد العدة، ويجهز جنده في يافا، كما تأهبت حاميات الجليل لأن تبعث ما يطلب منها من قوات لمساندة مملكة بيت المقدس في مواجهة الخطر الفاطمي الجديد[6].

ويبدو أن الفاطميين في هذه المرة قد تداركوا خطر الانتظار في مدينة عسقلان دون مباغتة الصليبيين، فضربوا الحصار إلى مدينة الرملة، وقد واجهتهم الحامية الصليبية المكونة من خمسين فارساً– كان بلدوين قد عينهم في برج محصن في المدينة لحراستها–، كما أرسل شرف المعالي في الوقت نفسه فرقة عسكرية على مدينة اللُّد القريبة من الرملة، وحاولوا القبض على أسقف المدينة الذي كان يسكن في كنيستها، والذي تخوف من سقوطها بيد الفاطميين؛ فأرسل رسالة عاجلة إلى ملك مملكة بيت المقدس الصليبية الذي كان موجوداً آنذاك في مدينة يافا يطلب منه

---

(1) النجوم الزاهرة، ج5، ص151.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص141؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص168.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص229_230؛ المسحال، حسن: عسقلان، ص90. ذكر الشارتري أن عدد الجيش الفاطمي بلغ عشرين ألف فارس، وعشرة آلاف راجل. تاريخ الحملة، ص122. بينما اكتفت المصادر الإسلامية بالقول أن الجيش الفاطمي كان "في جمع كثير". ابن الأثير: الكامل، ج7، ص182.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص182؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص35. ذكر الذهبي أن الأمير الفاطمي نصير الدولة يُمن هو من قاد الجيش الفاطمي إلى عسقلان. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص44.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص229_ 230؛ ابن الأثير: الكامل ، ج7، ص170.

(6) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص125.

نجدة سريعة لإنقاذ المدينة من خطر السقوط بيد الجيش الفاطمي وحمايتها بشتى السبل[1]، فاستجاب بلدوين لاستغاثته، وتوجه مسرعاً على رأس مائتين من فرسانه لنجدة القوى الصليبية المحاصرة في مدينة اللُّد[2]، ولم يكن بلدوين على علم بأن الأفضل قد أرسل إمدادات أخرى للجيش الفاطمي لحقته قرب يازور[3]، وبذلك زاد حجم الجيش الفاطمي، وقويت عزائمهم[4].

ما أن وصلت القوات الصليبية بقيادة بلدوين السهل الممتد بين يازور والرملة[5] حتى وجدت نفسها أمام القوات الفاطمية التي تفوقها عدداً وعدة، ولم يكن بوسع بلدوين التراجع والانسحاب بعد أن قامت إحدى فرق الجيش الفاطمي بقطع طريق الارتداد على الصليبيين، وقد اعتقد الفاطميون بأن هذه الفئة القليلة من الصليبيين ليست إلا طليعة جيش صليبي كبير، ورأوا أن يباغتوهم قبل أن يلحق بهم الجيش الصليبي، فأطبق الجيش الفاطمي على جند الصليبيين[6]، وأنزلوا بهم هزيمة قاسية، وقتلوا معظم فرسانهم وقادتهم، ولم ينج منهم إلا القليل[7].

لم تستغل القوات الفاطمية ذلك الانتصار، فقد نجح بلدوين في الفرار من موت محتوم بعد أن أحاط به الجيش الفاطمي، حيث "بادر بالفرار إلى الجبال على فرس خفيفة الحركة"[8]، وأكدت ذلك الخبر المصادر الإسلامية التي ذكرت أن بلدوين قد انهزم في ثلاثة نفر، واختفى في أجمة قصب حين تُبع، وأُحرقت تلك الأجمة، ولحقت النار بعض جسده، ونجا منها متوجهاً إلى مدينة يافا[9] تاركاً ورائه الصليبيين في مدينة الرملة يواجهون مصيرهم المحتوم.

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص122.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص230؛ الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص125. أوردت المصادر الإسلامية أن بلدوين خرج على رأس سبعمائة فارس من جيشه. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص183؛ ابن القلانسي: ذيل، ص141. ولو افتُرض جدلاً أن صحة الأرقام التي أوردها فوشيه والصوري، فإنه من المعروف في نظام الفروسية الأوروبية أنه كان يتبع كل فارس عدد من الأتباع المشاة، يقل أو يزيد حسب مكانة الفارس، ومساحة إقطاعه. نبهان، عادل: عسقلان، ص169؛ هامش4.

(3) يازور: بليدة تقع بالقرب من مدينة الرملة بفلسطين. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص425.

(4) المسحال، حسن: عسقلان، ص90_ 91.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص182.

(6) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص126.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص231.

(8) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص126. يذكر الصوري أن أحد شيوخ العرب هو الذي ساعد بلدوين على الهرب مقابل معروف سابق كان بلدوين قد فعله إلى هذا الشيخ عندما أحسن إلى زوجته، وأطلق سراحها عندما كانت في حالة وضع.الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص232. ولم تشر المصادر الإسلامية إلى ذلك.

(9) ابن القلانسي: ذيل، ص141؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص170.

حاصر الفاطميون مدينة الرملة، ثم تمكنوا من اقتحامها بعد أن عجزت الحامية الصليبية عن صدهم، وقتلوا بها أربعمائة صليبي، وأسروا ثلاثمائة آخرين، وأرسلوهم مقيدين بالسلاسل إلى مصر[1]، ولما علم أسقف اللُّد بما جرى للصليبين الذين قُتلوا وأُسروا في الرملة غادر كنيسته، وهرب إلى يافا مؤكداً سوء مصير كل من لجأ إلى قلعة الرملة من الصليبيين[2].

ومخالفة لمجريات الأحداث السياسية والعسكرية السائدة في بلاد الشام بين الفاطميين والصليبيين، قام الفاطميون بإطلاق سراح الأسرى الصليبيين دون مقابل، وذلك استجابة لطلب الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومينين، الذي تأثر كثيراً بما حصل للصليبين، فأرسل مبعوثاً من قبله لمقابلة الأفضل الفاطمي في مصر، ومعه مبلغ من المال لفداء الأسرى الصليبيين [3].

لقد كان من الممكن القضاء على الدولة الصليبية الناشئة لو استغل الجيش الفاطمي انتصاره في معركة الرملة الثانية، وقتله عدداً كبيراً من فرسان الصليبيين، وأسره عدداً آخراً؛ إلا أن سياسة المهادنة التي اتبعها الفاطميون بإطلاق سراح الأسرى الصليبيين تحقيقاً لرغبات الإمبراطور البيزنطي– على ما يبدو – قد شجعت الصليبيين على تجميع قواتهم مرة أخرى، وتوحيدها لمواجهة الفاطميين، كما أن الخلاف الذي دبّ بين قادة جيش شرف المعالي حول الخطوة التالية التي يجب اتخاذها في تلك المرحلة أفشل مشروعهم في الاستمرار في مواجهة الصليبيين حيث قال بعضهم: "نقصد بيت المقدس ونتملكه، وقال قوم: نقصد يافا ونملكها"[4]، حتى أنهم "كادوا يقتتلون"[5].

ويرى بعض المؤرخين أن سبب ذلك الخلاف يرجع إلى ضعف شخصية شرف المعالي، إذ كان من الأجدر بالفاطميين أن يرسلوا فرقة عسكرية لاستعادة بيت المقدس، بينما تتوجه بقية عساكر الفاطميين لمهاجمة يافا[6].

أخيراً رجحت كفة الرأي الذي يؤيد المسير إلى مدينة يافا، حيث أقاموا معسكرهم قربها، ودأبوا على تجهيز المعدات العسكرية والآلات اللازمة لاقتحام المدينة وتخليصها من أيدي الصليبيين[7].

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص183؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص55.
(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص126؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص234_ 235.
(3) أنا كومينينا: الالكسياد، ص59.
(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص183؛ المقريزي: اتعاظ المنفا، ج3، ص32.
(5) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص216.
(6) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص131؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص171.
(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص236.

تمكن بلدوين من الوصول إلى يافا بعد أن هرب إلى مدينة أرسوف قبل ذلك، حيث أخذ يستعد لمواجهة الفاطميين بعد أن وصلته الإمدادات العسكرية من طبرية وبيت المقدس وغيرها من المناطق الخاضعة للصليبين[1]، وعلاوة على ذلك فقد استنجد بلدوين بالأمير تنكرد في أنطاكية، والأمير بلدوين دي بورج أمير الرها، وفي الوقت ذاته وصل إلى ميناء يافا ما يقرب من مائتي سفينة معظمها من السفن الانجليزية، وهي محملة بالعساكر والحجاج، حيث تمكنت من اختراق حصار الأسطول الفاطمي، وتمكنوا من إمداد الصليبيين بما يلزمهم من معدات لمهاجمة الفاطميين والتصدي لهم[2].

في 7 شعبان 495هـ/ 27 مايو 1102م خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة[3]، وتمكن من إنزال هزيمة قاسية بهم، أجبرتهم على الفرار إلى مدينة عسقلان المحصنة تاركين ورائهم معسكرهم الذي وقع غنيمة بيد الصليبيين الذين "جمعوا أعداداً كبيرة من الحمير والجمال والخيم... إلى جانب ما حملوه من شتى صنوف الطعام ومواد المعيشة"[4].

يتضح مما سبق أن من أبرز أسباب هزيمة الفاطميين ضعف شرف المعالي، وعدم حزمه للصراع الذي دار بين قادته قبل التوجه نحو يافا، بالإضافة إلى عدم قدرة الأسطول الفاطمي على إعاقة السفن الانجليزية التي تمكنت من الوصول إلى مدينة يافا الصليبية وأمدت الصليبيين بالمعدات الحربية، عوضاً عن توحيد الصليبيين لجهودهم في مواجهة الفاطميين.

لقد أدرك بلدوين خطورة بقاء عسقلان بيد الفاطميين بالرغم من هزيمتهم منه أكثر من مرة، ورأى ضرورة إخضاعها تحت سيطرته؛ لذلك استغل قدوم جموع كبيرة من الغرب الأوروبي لزيارة بيت المقدس فطلب منهم أن يسخروا إمكاناتهم في البشرية في محاربة سكان عسقلان وحاميتها[5]، فأجابوه إلى ذلك وتوجه بهم إلى عسقلان، وكان بها شرف المعالي، فلم يجرؤ على الخروج لقتالهم والتصدي لهم، وتحصن داخل أسوار المدينة، فحاصرها الصليبيون براً وبحراً، فلما رأى "الفرنج البحرية حصانة عسقلان، وخافوا البيات، رحلوا إلى يافا"[6].

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص128.

(2) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص131.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص128؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص298.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص237.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص87.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص183.

عندما أمن شرف المعالي خطر الصليبيين غادر عسقلان متوجهاً إلى القاهرة، وشرح لوالده حقيقة أطماع الصليبيين في عسقلان وغيرها من المدن الساحلية التي كانت بيد الفاطميين[1]، فأدرك الأفضل ذلك، وعين رجلاً يدعى تاج العجم والياً على عسقلان، وأرسل معه أربعة آلاف فارس؛ لتعزيز الحامية الفاطمية الموجودة في عسقلان، كما سير الأفضل أسطولاً بقيادة رجل يقال له: القاضي ابن قادوس، فهاجم ابن قادوس مدينة يافا، وكان تاج العجم في عسقلان، فأرسل ابن قادوس إلى تاج العجم يطلب منه القدوم "ليتفقا على حرب الفرنج، فقال تاج العجم: ما يمكنني أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل، ولم يحضر عنده، ولا أعانه؛ فأرسل القادوسي إلى قاضي عسقلان وشهودها، وأعيانها، وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً، واستدعى تاج العجم، فلم يأته، ولا أرسل رجلاً"[2]، ولما علم الأفضل بتقصير تاج العجم عن نصرة ابن قادوس، والوقوف إلى جانبه أرسل من قبض عليه، وعين والياً جديداً على عسقلان يقال له جمال الملك[3].

لم تشر المصادر الصليبية إلى حصار الفاطميين ليافا خلال تلك المرحلة، وعلى ما يبدو فإن ذلك يرجع إلى عدم تحقيق الأسطول لأية إنجازات، ولربما كان ذلك الحصار بعيداً عن شواطئ المدينة، ويبين ذلك أن الفاطميين يفتقدون إلى الخطط العسكرية اللازمة لمواجهة الصليبيين في ظل توفر الرجال في البر، والأسطول في البحر.

لقد كان من الممكن للفاطميين إذا أرادوا الجهاد الحقيقي أن يكون للموانئ التي تخضع تحت سيطرتهم في بلاد الشام وهي (عكا وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعسقلان) أثرها في إلحاق الضرر بالوجود الصليبي في المنطقة، ولكنهم لم يستغلوا تلك الوسائل وأهملوها[4]، إذ أن الأسطول الفاطمي ترك سواحل الشام تلقى مصيرها، وعاد إلى مصر، بعد أن دعّم الوجود الفاطمي في مدينتي طرابلس وعسقلان[5]، وذلك بسبب الخلاف الذي وقع بين قادة جيش الأفضل في بلاد الشام[6].

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص32؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص172.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص183.

(3) العيني: عقد الجمان، ص22. ذكر المقريزي أن الأفضل عين رجلاً يدعى تاج الملك رضوان والياً على عسقلان. اتعاظ الحنفا، ج3، ص138. وقد رجح نبهان بأن جمال الملك هو الذي ولي عسقلان، استناداً إلى أن ابن الأثير أقدم من المقريزي، وكذلك إشارته إلى ذكر الشارتري أن والي عسقلان كان يُدعى جمال الملك. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص138؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص172.

(4) عاشور، فايد: جهاد المسلمين، ص132.

(5) العظيمي: تاريخ حلب، ص362.

(6) الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص32.

استغل بلدوين الأول عودة الأسطول الفاطمي إلى مصر، وشرع في ربيع سنة 496هـ/1103م في حصار مدينة عكا بعد أن استدعى جميع قوات مملكته[1]، "وضيق عليها، ونصب عليها المنجنيقات والأبراج، وكان له في البحر ست عشرة قطعة"[2]، إلا أنه لم يستطع الاستيلاء عليها في ذلك الوقت "بسبب مناعة أسوارها وحصانة مواقعها المقدمة، لاسيما وأن الشرقيين (المسلمين) داخلها دافعوا عن أنفسهم ببسالة فائقة"[3] في ظل افتقاد الصليبيين لأسطول قوي يدعم الحصار البري للمدينة[4]، كما أن وجود بعض قطع الأسطول الفاطمي في البحر، وتقديمه المعونات لأهالي عكا كان له دور في التصدي للقوات الصليبية المحاصرة للمدينة حيث اجتمع "المسلمون من سائر السواحل، وأتوا إلى منجنيقاتهم، وأبراجهم، فأحرقوها، وأحرقوا سفنهم أيضاً، وكان ذلك نصراً عجيباً أذل الله به الكفار"[5]؛ فأدرك الملك بلدوين أن الاستيلاء على عكا ليس سهلاً نظراً لحصانتها، فاضطر إلى رفع الحصار عنها بعد أن دمر حصاد أشجارها وبساتينها، وسلب مواشيها التي ترعى خارجها، وقفل راجعاً إلى مدينة يافا[6].

من الملاحظ في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائماً تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر، وإلى تأمين اتصالها بالشاطئ تأميناً ثابتاً؛ لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئة التي تتنفس بها تلك المملكة، والذي عن طريقه تتزود بما تحتاج إليه من إمدادات بشرية ومادية؛ لذلك لم تقنع مملكة بيت المقدس بالموانئ المحدودة التي استولت عليها من المسلمين حتى ذلك الوقت، وهي يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا، وظلت تطمع في الاستيلاء على بقية موانئ الشام مثل: عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت، وكلها كانت تابعة للفاطميين[7].

تلك الأسباب دفعت بلدوين للتفكير مرة أخرى في احتلال مدينة عكا، وقد أتيحت له الفرصة في أوائل سنة 496هـ/ مارس 1103م عندما وصل إلى اللاذقية أسطول جنوي تألف من عدد كبير من السفن[8]، وكان ريموند الصنجيلي قد استعان بذلك الأسطول في محاولة فاشلة للاستيلاء على طرابلس، حيث رحل عنها بعد أن حاربه أهلها، فتوجه مصطحباً الأسطول الجنوي

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص242_ 243.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص169.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص130.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص243.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص169.

(6) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص130؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص243.

(7) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص301.

(8) هايد، ف: تاريخ التجارة، ج1، ص151.

صوب مدينة جبيل "فحاصروها وقاتلوا عليها قتالاً شديداً؛ فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أماناً وسلّموا البلد إليهم؛ فلم تَفِ الفرنج لهم بالأمان، وأخذوا أموالهم، واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب"[1] حتى "أفحشوا في استباحتها"[2].

ما أن فرغ الأسطول الجنوي المكون من سبعين سفينة من إخضاع مدينة جبيل حتى استعان بهم بلدوين الأول في مهاجمة عكا مرة أخرى في شعبان 497هـ/ مايو 1104م [3]، ومقابل ذلك يحصل الجنويون على ثلث المكاسب التي يحققونها في المدينة، إضافة إلى منحهم كنيسة بالمدينة، وأن تكون لهم السيطرة التامة على أحد شوارع المدينة، وكان ذلك الاتفاق كفيلاً بفرض الحصار الصليبي براً على عكا، ويسانده الأسطول الجنوي بفرض الحصار بحراً [4].

دافع أهل عكا عن مدينتهم بكل قوة وشراسة، لكنهم لم يصمدوا أمام هجمات الصليبيين من البر والبحر، إذ بعد عشرين يوماً من الصمود[5] اضطر حاكم عكا الفاطمي واسمه بَنَا، ويُعرف بزهر الدولة الجيوشي – نسبة إلى أمير الجيوش الأفضل– [6] إلى "طلب الأمان له وللمسلمين فلم يعطوه لما علموا (الصليبيين) من أهل مصر أنهم لم ينجدوه"[7]، فدخلها الصليبيون عنوة في 28 شعبان 497هـ/ 26 مايو 1104م، وقتلوا كثيراً من أهلها، وسلبوا جميع ممتلكاتهم[8]، وعندئذ هرب واليها الفاطمي زهر الدولة إلى دمشق، ثم مضى إلى مصر[9]، "واعتذر إلى الأفضل فقبل عذره"[10]، وبذلك حُرمت القوات الفاطمية من إحدى المدن الحصينة على الساحل الشامي، وأصبح للصليبين سيادة على أغلب شواطئ فلسطين، وقد أظهر المؤرخون المسلمون أسفهم الكبير على دور الفاطميين في حماية سواحل بلاد الشام من الوقوع في أيدي الصليبيين، حيث يقول ابن تغري بردي عن الخليفة الفاطمي الآمر بأنه "كان يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد.. وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه.. فإنه

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص188.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص215.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص131؛ ابن القلانسي: ذيل، ص143_144.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص245_ 246.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص131؛ روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ج1، ص114.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص188؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص35.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص185.

(8) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص131. ذكر المؤرخ رنسيمان أن البحارة الايطاليين هم من قاموا بأعمال السلب والنهب في المدينة بعد أن سيطر الصليبيون عليها. تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص143.

(9) العيني: عقد الجمان، ص17؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص35.

(10) ابن الأثير: الكامل ج7، ص188؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص58.

لم ينهض لقتال الفرنج البتة، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكراً فهو كلاً شيء"[1]، كما أن ذلك لا يعفي الوزير الأفضل من المسئولية لانشغاله بأحوال مصر الداخلية "عن السواحل الشامية حتى استولت الفرنج على غالبها، وندم على ذلك حيث لا ينفع الندم"[2].

ثالثاً: الحملة الفاطمية الثالثة على بلاد الشام سنة 498هـ/1105م:

لم يقنع الأفضل بضعف قواته، وسوء تنظيمها، وعدم جديتها في مواجهة الصليبيين في بلاد الشام بالرغم من الهزائم المتلاحقة التي تعرض لها الفاطميون، حيث قام الأفضل سنة 498هـ/1105م بإعداد قوة كبيرة مؤلفة من حوالي خمسة آلاف جندي أسند قيادتها إلى ابنه سناء الملك حسين "في جماعة من الأمراء منهم جمال الملك النائب بعسقلان للمصريين"[3]، ودعم القوات البرية بأسطول بحري أرسى سفنه على ساحل عسقلان[4].

وفي الوقت ذاته أدرك الأفضل ضرورة الاستعانة بحكام دمشق السنيين في مواجهة الصليبيين، فأرسل إلى طغتكين أتابك دمشق يطلب منه المساعدة في مواجهة الصليبيين، فاستجاب طغتكين لطلبه، و"أرسل إليهم أصبهبذ[5] صباوة، ومعه ألف وثلاثمائة فارس"[6] كانوا "رماة سهام من الطراز الأول"[7].

ما أن اكتملت القوات الفاطمية في عسقلان حتى أمر سناء الملك حسين قواته بالتحرك، فتوجه الأسطول نحو يافا لحصارها من ناحية البحر، وتوجه جزء من قواته البرية نحو يافا لحصارها براً، أما الجزء الآخر فكان طريقه نحو الرملة لإشغال بلدوين وقواته عن تقديم أية مساعدة للقوات الصليبية المحاصرة في يافا[8].

---

(1) النجوم الزاهرة، ج5، ص176.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص151_152.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص202؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص87. قدرت بعض المصادر الصليبية بأن عدد الجيش الفاطمي قارب الخمسة عشر ألف مقاتل عدا رجال الأسطول. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص263؛ الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص138. وقدرهم الفيتري بخمسة وعشرين ألف مقاتل، تاريخ بيت المقدس، ص145.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص262؛ المسحال، حسن: عسقلان، ص95.

(5) أصبهبذ: اسم خاص بملوك طبرستان، ويلفظ بالسين أيضاً بدل الصاد. الحموي: معجم البلدان،ج1، ص172.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص202؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص87.

(7) الشارتري: تاريخ الحملة، ص135.

(8) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص263.

لما علم بلدوين بالخطوات التي اتخذها سناء الملك لحصار يافا، وتوجهه نحو الرملة جمع كل رجاله، وأمر بتجنيد كل من يقدر على حمل السلاح من الصليبيين لمواجهة الجيش الفاطمي[1]، كما "أصدر مرسوماً واجب النفاذ يأمر فيه قوات كل مدينة بالتجمع في يافا دون تلكؤ"[2]، حتى وصل عددهم إلى ألف وثلاثمائة فارس، وثمانية آلاف راجل[3].

زحف بلدوين بجيشه لمواجهة الفاطميين بين يافا وعسقلان حيث دارت معركة كبيرة بين الطرفين، إلا أنه "لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى، فقُتل من المسلمين ألف ومائتين ومن الفرنج مثلهم، وقُتل جمال الملك أمير عسقلان"[4]، وأسر الصليبيون والي عكا السابق زهر الدولة الجيوشي[5]، ثم أُطلق سراحه بعد أن دفع فدية كبيرة[6]، وترك بقية الجيش الفاطمي معسكره، وعاد إلى عسقلان، بينما عاد صباوة إلى دمشق[7].

تراجع بلدوين إلى يافا لاقتسام الغنائم، لكنه وجد الأسطول الفاطمي ما زال قابعاً على سواحلها، فأمر أحد بحاريته، بإلقاء رأس والي عسقلان جمال الملك على ظهر إحدى سفن الفاطميين الأمر الذي فتَّ في عضد الفاطميين، وأدركوا هزيمة قواتهم البرية، فتركوا حصار يافا، وأبحروا بأسطولهم نحو ميناءي صور وصيدا[8]، وأثناء عودة هذا الأسطول إلى مصر تعرض لعاصفة هوجاء قذفت خمساً وعشرين من سفنه إلى موانئ الصليبيين فاغتنموها، وأسروا رجالها[9].

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص136.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص262.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص202. ذكرت المصادر الصليبية أن الجيش الصليبي لم يكن يتجاوز خمسمائة فارس، وألفين من المشاة. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص137_ 138؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص263؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص145.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص35؛ العيني: عقد الجمان، ص22. قدرت المصادر الصليبية أن عدد قتلى الجيش الفاطمي بلغ أربعة آلاف شخص، بينما بلغت خسائر الصليبيين كانت 60 قتيلاً. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص139؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص264. وتلك الأرقام لا تتوافق مع ما ذكرته المصادر الإسلامية فضلاً عن أن ذلك لا يتوافق مع طبيعة المعركة وأعداد الجيشين الإسلامي والصليبي، ويعني ذلك أن المصادر الصليبية بالغت في أعداد قتلى المسلمين، وقللت من أعداد نظرائهم الصليبيين، ويرجع ذلك إلى رغبة المصادر الصليبية بتعظيم الانتصارات التي حققها الصليبيون في الشرق الإسلامي.

(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص35.

(6) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص138.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص202.

(8) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص139.

(9) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص264.

يتضح مما سبق أن الخسائر التي تكبدها الفاطميون لم تكن قليلة في تلك المعركة، لا سيما وأن من بين قتلى الجيش الفاطمي أمير عسقلان نفسه، وتؤكد تلك المعركة استمرار تفوق الصليبيين على الفاطميين الذين لم يستفيدوا من كثرة معاركهم مع الصليبيين، ولم يعالجوا نقاط الضعف التي تمثل لهم عائقاً أمام تحقيق النصر على الصليبيين رغم امتلاكهم أسطول قوي قادر على أن يقض مضاجع الصليبيين في مدن بلاد الشام الساحلية التي بيد الصليبيين، عوضاً عن وقوف سكان المدن الساحلية الحصينة في الشام إلى جانب الفاطميين خاصة مدينة عسقلان.

لقد كانت معركة الرملة الثالثة آخر المحاولات الكبرى التي قام بها الفاطميون ضد الصليبيين في تلك المرحلة، محاولات كان الهدف منها استرداد بيت المقدس، وغيرها من مدن الشام التي احتلها الصليبيون، وفشلت تلك الحملة – كالحملتين السابقتين– في تحقيق أهدافها.

ويرى المسحال أن هذا الفشل يرجع إلى ضعف القيادة الفاطمية، وسوء تخطيطها، وعدم وجود التعبئة الروحية للقوات الفاطمية، وعدم استغلالها موارد مصر الكبيرة في محاربة الصليبيين، إضافة إلى كثرة الخلافات بين قادة الفاطميين، وذلك كله إلى جانب ضعف الأسطول الفاطمي، وعدم قيامه بالدور المنوط به من منع وصول الإمدادات للصليبيين[1].

(1) عسقلان، ص98_ 100.

الفصل الثالث

الاحتلال الصليبي لمدن ساحل بلاد الشام وموقف الفاطميين منه

المبحث الأول: موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي لمدن شمال ساحل بلاد الشام

المبحث الثاني: عسقلان ودورها في العلاقات الفاطمية الصليبية من سنة 499هـ/ 1106م حتى سقوطها بيد الصليبيين سنة 548هـ/1153م

المبحث الثالث: سقوط عسقلان بيد الصليبيين سنة 548هـ/1153م وأثره على العلاقات الفاطمية الصليبية

المبحث الأول

موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي لمدن شمال ساحل بلاد الشام

أولاً: إقامة إمارة طرابلس الصليبية وموقف الفاطميين منها:

لقد شكلت المدن الساحلية لبلاد الشام أهمية كبيرة بالنسبة لمملكة بيت المقدس الصليبية، إذ أن احتلال الصليبيين لها يمثل بقاء مملكة بيت المقدس قوية ومتماسكة، عوضاً عن الفوائد الأخرى المتمثلة في اتساع المملكة الصليبية الناشئة في الشرق، وضمان تواصلها مع الغرب الأوروبي، وعلاوة على ذلك فإن السيطرة عليها ينهي الوجود الإسلامي بها، حيث تصبح مملكة بيت المقدس في مأمن من الهجمات التي كانت تشنها الحاميات الإسلامية على المدن التي احتلها الصليبيون وأقاموا بها، ولأن تلك المدن كانت تحت السيطرة الفاطمية قبل مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام فإن الفاطميين كانوا يرقبون تحركات القوات الصليبية عن كثب، لا سيما بعد أن هُزم الفاطميين أمام الصليبيين في أكثر من معركة، كما أن الاحتلال الصليبي لمدن الساحل الشامي يعني فقدان الدولة الفاطمية لأملاكها، ونفوذها السياسي، ودعوتها الدينية الشيعية في بلاد الشام.

قبل أن يبدأ الصليبيون باحتلال مدن الساحل الشامي المهمة والحصينة، كان أولئك الغزاة قد تمكنوا حينها من تأسيس إمارتين ومملكة لهم في الشرق الإسلامي؛ أولها: إمارة الرها، وثانيها: إمارة أنطاكية في الشمال، وثالثها: مملكة بيت المقدس في الجنوب، وقد اصطدم الصليبيون بالقوى الإسلامية التي كانت تسيطر آنذاك على تلك المناطق، وحقق الصليبيون النصر في أكثر من معركة، ثم راحوا يشنون الغارات المتلاحقة على المدن التي لم تقع بأيديهم بغية توسيع رقعة تلك الإمارات والمحافظة عليها، وضمان الاتصال بالغرب الأوروبي؛ لكي يضمنوا لأنفسهم البقاء في الشرق[1].

وفي الوقت ذاته ظهرت أطماع القادة الصليبيين، واستئثارهم بالمدن التي يسيطرون عليها ليقيموا لأنفسهم إمارات خاصة، مثلما فعل بوهيموند في أنطاكية التي جعلها لنفسه رافضاً أي وجود لقوات ريموند الصنجيلي [2]، ويبين ذلك أن من بين الأسباب التي دفعت أولئك القادة للمشاركة في الحروب الصليبية هو طمعهم في تحقيق أطماعهم الشخصية في إقامة إمارات لهم في الشرق على حساب القوى الإسلامية، تلك الأطماع التي ربما لم يتمكن البعض من تحقيقها في الغرب الأوروبي؛ فجاؤوا لتحقيقها في الشرق الإسلامي متذرعين بحماية الحجاج المسيحيين الذين يأتون

(1) برجاوي، سعيد: الحروب الصليبية، ص202.

(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص68.

إلى بيت المقدس لتأدية شعائرهم الدينية.

وما يؤيد ذلك أيضاً أن الأمير الصليبي ريموند الصنجيلي قد حاول أن يقيم لنفسه إمارة صليبية في الشرق عندما هاجم الصليبيون شمال بلاد الشام – حول البارة ومعرة النعمان–، لكنه فشل في تحقيق هدفه ذلك بسبب منافسة الأمير بوهيموند له[1]، ثم فكّر في تأسيس إمارة على شاطئ بلاد الشام عندما سيطر على أنطرسوس وهاجم عرقة[2]، كما حاول جاهداً إقامة إمارة له من خلال الاستيلاء على الثغور الإسلامية الساحلية في فلسطين – مثل أرسوف– محاولاً الاستقلال عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام إلا أنه لم يتمكن من تحقيق ذلك بسبب عداء جودفري بويون له[3].

اضطر عندئذ ريموند الصنجيلي للرحيل إلى شمال بلاد الشام تاركاً الجنوب، لكي يكون على مقربة من حلفائه البيزنطيين حيث تمكن من احتلال مدينة اللاذقية، وسلمها بدوره إلى الإمبراطور البيزنطي الكسيوس ليؤكد بذلك إخلاصه وولائه للإمبراطور[4]، ويبين ذلك مدى الشقاق الذي حدث بين الزعماء الصليبيين أنفسهم، خاصة أنهم لا يؤيدون تدخل الإمبراطور البيزنطي بينهم كي لا يحقق رغباته في شمال بلاد الشام على حسابهم.

تمكن ريموند بعد مدة قصيرة من وجوده بالشام من احتلال مدينة طرطوس[5]، وكان ذلك في ربيع الآخر 495هـ/ فبراير 1102م عندما لجأ إلى أنطاكية بعد هزيمته على يد السلاجقة في آسيا الصغرى معتمداً على مساعدات قدمها له الأسطول الجنوي[6].

اتخذ ريموند من مدينة طرطوس قاعدة لانطلاق قواته على مدينة طرابلس الساحلية الحصينة، فتوجه في السنة التي احتل فيه طرطوس إليها، وفرض الحصار عليها بمساعدة النصارى القريبين منها، ولما علم حاكمها أبو علي فخر الملك بن عمار بذلك استنجد بملك دمشق – دقاق بن تتش–، وأمير حمص –جناح الدولة–؛ فأدركا خطورة الموقف، وأرسلا قواتهما إليه لمساعدته في التصدي للخطر الصليبي على طرابلس، كما أن أهل طرابلس أنفسهم استماتوا في

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص38.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص46_48؛ عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص243.

(3) للمزيد، ينظر: ص124، هامش 3.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص79؛ عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص40.

(5) طرطوس: بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص30. المرقب: قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام (المتوسط). الحموي: معجم البلدان، ج5، ص108.

(6) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص123_ 124؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص228؛ الشامي، أحمد: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص114.

الدفاع عن مدينتهم بمساندة قوات دمشق وحمص، إلا أنه قُتل منهم سبعة آلاف بعد أن وضع ريموند خطة محكمة لمواجهتهم[1].

شدد ريموند هجومه على طرابلس إلا أنه لم يتمكن من احتلالها حيث أنها كانت محصنة تحصيناً طبيعياً يجعل من الصعب عليه انتزاعها، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة داخلة في البحر، ممّا مكّن صاحبها ابن عمار من الحصول على ما يحتاج إليه من مؤن عن طريق البحر أثناء حصار المدينة براً[2]؛ فاضطر عندئذ ريموند إلى قبول ما عرضه عليه فخر الملك بن عمار من دفع ضريبة من المال، وعدد من الخيل، فترك حصار طرابلس بعد أن قُتل من جيشه ثلاثمائة مقاتل، وتوجه إلى مدينة جبيل لاحتلالها باعتبار أنها أقل تحصيناً، وتمكن ريموند من احتلالها سنة 497هـ/1104م مستغلاً قدوم أسطول جنوي إلى اللاذقية[3].

ومن ذلك يتضح أن حصانة مدينة طرابلس، وإحاطة البحر لها من ثلاث جهات قد ساهم في مساعدة أهلها في الدفاع عنها، والاستماتة في مواجهة الصليبيين؛ ذلك عوضاً عن المساعدات التي كانت تتلقاها المدينة من البحر في ظل افتقاد الصليبيين لأسطول قوي يمكنهم من فرض حصار محكم على المدينة.

لقد مثّل الاحتلال الصليبي لمدينة جبيل خطوة مهمة للصليبيين في الشرق الإسلامي، إذ تشجع بعد ذلك ريموند الصنجيلي على احتلال طرابلس القريبة منها، فقام بمنازلتها مرة أخرى في السنة التي احتل فيها جبيل، وفي هذه المرة أقام حصناً أمامها وسماه بتلة الحجاج[4]، و"شحنه بالرجال والسلاح"[5]؛ وذلك من أجل إحكام الرقابة عليها، وقطع اتصالها بالمدن الأخرى؛ حتى لا ترسل لها النجدات[6].

واجه أهالي طرابلس وحاميتها الحصار الصليبي لمدينتهم، وقاموا بالدفاع عنها بكل الوسائل التي يمتلكونها، وألحقوا خسائر فادحة بالجيش الصليبي المحاصِر للمدينة، إذ في 19 ذي الحجة 497هـ/12 سبتمبر 1104م قامت حامية طرابلس الإسلامية بشن هجوم مفاجئ على قلعة (تلة الحجاج)، فقتلوا من بها، وقاموا بنهبها وإحراقها وتخريبها بعد أن أخذوا ما بقي بها من أسلحة

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص168_ 169.

(2) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص260.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص143؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص169.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص244.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص61؛ العيني: عقد الجمان، ص17.

(6) الشامي، أحمد: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص116.

للصليبيين[1]، وإلى جانب ذلك كان فخر الملك بن عمار يقوم بمهاجمة المناطق المجاورة لطرابلس وعمل على إفساد المزارع القريبة من المدينة لتقل مؤن القوات الصليبية المحاصرة لها، كما كان "يرسل أصحابه في المراكب، يغيرون على البلاد التي بيد الفرنج، ويقتلون من وجدوا"[2].

لقد حققت الضربات التي وجهها فخر الملك للقوات الصليبية المحاصرة لطرابلس أهدافها، إذ اضطر ريموند تحت وطأة تلك الضربات إلى توقيع اتفاق ينص على انسحاب الصليبيين من أمام طرابلس مقابل ضريبة سنوية تؤدى لهم[3]، وبذلك أُجبر الصليبيين على وقف هجماتهم تجاه المدينة ولو بشكل مؤقت.

لم يمهل الأجل ريموند الصنجيلي ليرى احتلال الصليبيين لمدينة طرابلس، فمات بتاريخ 11 جمادى الآخرة 498هـ /28 فبراير 1105م في قلعته التي شيدها لاحتلال المدينة، وقد خلفه ابن أخيه وليم جوردان الذي تابع حصار طرابلس بعد وفاة عمه[4].

شدد وليم حصاره للمدينة وكثّف هجماته عليها، ولذلك اشتدت المحنة على سكان طرابلس "فعُدمت الأقوات بها، وخاف أهلها على نفوسهم وأولادهم وحرمهم، فجلا الفقراء، وافتقر الأغنياء"[5]، واضطر أهلها إلى أكل الجيف[6]؛ فلجأ عندئذ فخر الملك بن عمار إلى الحجر على ممن بقي معه أموال من الأغنياء، ثم قام بتوزيعها على الفقراء[7] في محاولة لإيجاد تكاتف بين أهالي المدينة لمواجهة الحصار، إذ أن فخر الملك – على ما يبدو– أدرك أن الصليبيين قد عزموا في هذه المرة على احتلال المدينة بعد أن فشلوا مرات عدة.

أيقن فخر الملك عدم قدرة قواته على مواجهة القوات الصليبية المحاصِرة للمدينة، ورأى أنه

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص146؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص61؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص186؛ العيني: عقد الجمان، ص17.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص183.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص244. أشار ابن القلانسي إلى تلك الاتفاقية بالقول "على أن يكون ظاهر طرابلس لصنجيل، بحيث لا يقطع الميرة عنها، ولا يمنع المسافرين منها". ذيل، ص147.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص259_ 260. أشارت المصادر الإسلامية إلى أن وفاة ريموند كانت نتيجة جروح أصيب بها عندما هاجم المسلمون قلعته أمام طرابلس، وقاموا بإحراقها وتخريبها. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص213؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص73. ذكر ابن القلانسي أن وفاته كانت في 4 جمادى الأولى 498هـ/ 22 يناير 1105م. ذيل، ص147. ولربما هذا التاريخ هو تاريخ إصابته التي توفي على أثرها.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص213.

(6) الحريري: الإعلام والتبيين، ص69.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص213.

لا بد من وجود قوى إسلامية أخرى من خارج طرابلس تسانده في مواجهة الحصار، وتوفير أسباب الصمود لحامية المدينة وسكانها ، لذلك استغاث بالسلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه السلجوقي يصف له "ما ارتكبه الفرنج... ومضايقة ثغر طرابلس"، ويحثه على "تدارك الناس بالمعونة"[1].

لما طال انتظار فخر الملك ولم تصله الإمدادات عزم على أن يخرج بنفسه إلى بغداد لطلب النجدة من سلطان السلاجقة، "فاستناب عنه بطرابلس ابن عمه ذا المناقب، وأمره بالمقام بها، ورتب معه الأجناد براً وبحراً... وجعل كل موضع إلى من يقوم بحفظه، بحيث إن ابن عمه لا يحتاج إلى فعل شيء من ذلك"[2].

ما كاد فخر الملك يصل إلى بغداد سنة 501هـ/ 1107م حتى بلغه خروج ابن عمه عليه ومناداته لشعار الدولة الفاطمية؛ فكتب فخر الملك إلى أصحابه بالمدينة يأمرهم بالقبض على ذي المناقب، وحمله إلى أحد الحصون القريبة من طرابلس، ففعلوا ما أمرهم، وتولى الأمر بطرابلس أصحاب فخر الملك بن عمار[3]، ولكن أهل طرابلس كاتبوا الأفضل يلتمسون منه أن يعين والياً بالمدينة، ويطلبون منه المدد، "فبعث إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب بالمدد والأقوات والسلاح وعدة الحصار"[4].

يتبين مما سبق مدى حرص الدولة الفاطمية على نفوذها السياسي، ودعوتها الدينية الشيعية في ما تبقى بأيديهم من بلاد الشام، بغض النظر عن مواجهة الصليبيين مواجهة حقيقية، وكان من الأفضل أن تقوم الخلافة الفاطمية في مصر بإمداد فخر الملك بن عمار بالمال والسلاح والرجال في التصدي لمحاولات الصليبيين لاحتلال مدينة طرابلس، على أنها مدينة إسلامية يجب الدفاع عنها، بل على العكس من ذلك نجد أن الفاطميين قد أرسلوا بالمدد والأقوات والسلاح لا لإمداد حاميتها في مواجهة القوات الصليبية، بل لانتزاع المدينة من فخر الملك بن عمار وأصحابه – مع

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص156. ذكرت المصادر الإسلامية أن سبب مقاومة أهل طرابلس للصليبين أنهم ظفروا في سنة 500هـ/1107م بمركب صليبي من البحر يحمل مؤناً "فاشتدت قلوبهم، وقووا على حفظ البلد بعد أن كانوا استسلموا". ابن الأثير: الكامل، ج7، ص239؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص217.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص239.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص160_ 161؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص239.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص217. رجح مسفر الغامدي أن مكاتبة أهل طرابلس إلى الأفضل لا يخرج عن كونه استنكار لبعض شخصيات طرابلس الشيعية على ذهاب فخر الملك بن عمار إلى بغداد مركز أهل السنة لطلب المساعدة ضد الصليبيين، ورأوا في شخصية أبي المناقب ما يحقق رغباتهم في الإطاحة بفخر الملك بن عمار، والمناداة بشعار الفاطميين في مصر. الجهاد ضد الصليبيين، ص89.

أنهم أقدر على الدفاع عن المدينة – وإعادتها تحت سيطرة الدولة الفاطمية، مستغلة لجوء فخر الملك إلى بغداد، ويشير ذلك أيضاً إلى عدم اعتماده على الفاطميين، وربما يرجع ذلك إلى علمه بأطماعهم ورغباتهم في السيطرة على طرابلس وانتزاعها من يده.

ما أن وصل الوالي الفاطمي إلى طرابلس حتى استولى على أموال ابن عمار وذخائره، وقبض على جماعة من أهله، وصادر أموالهم، "وحمل الجميع في البحر إلى مصر"[1]، وبذلك انتقلت طرابلس تحت سيادة الفاطميين، الذين لم يتمكنوا من حمايتها من السقوط بيد الصليبيين، ولم تتوفر لهم المهارة السياسية والعسكرية في استغلال الشقاق الذي دب بين برترام (برتراند) – الابن الأكبر لريموند الصنجيلي–، وبين وليم جوردان على مصير طرابلس بعد احتلالها[2]، إذ سرعان ما توصلت القيادة الصليبية إلى حل ارتضاه الجانبان؛ حل يقضي بأن يتسلم وليم جوردان عرقة وطرطوس، وملحقاتهما، وأن يكون لبرترام طرابلس – بعد احتلالها– وجبيل وتل الحجاج بكل ملحقاتهما[3]، لكن لم يلبث أن قُتل وليم جوردان بعد أن أُصيب بسهم لتستقر الأمور لبرترام[4].

في أوائل شعبان 502هـ/ مارس1109م وصل إلى ميناء طرابلس أسطول حربي كبير شدد الحصار البحري على المدينة، وفي نفس الوقت هاجمها بلدوين وبرترام من البحر، وألصقوا أبراجهم بسورها، "فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم وذلت نفوسهم، وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول المصري (الفاطمي) عنهم بالميرة والنجدة"[5]، ولو اتخذت الحكومة الفاطمية إجراءات سريعة لتموين طرابلس، وتزويدها بالرجال والمال والسلاح لأمكن المدينة من مواجهة الحصار الصليبي، كما حدث مع فخر الملك بن عمار، ولكن الأسطول الفاطمي الذي أعدته الحكومة الفاطمية لنجدة طرابلس ظل منتظراً على شواطئ مصر لحين صدور أوامر بالتوجه نحو بلاد الشام، ثم لمّا عزموا على الخروج إلى الساحل الشامي واجهته رياح عرقلت سيره[6]، لتصبح الفرصة متاحة أمام الصليبيين لاحتلال طرابلس، وبالفعل لم يتوان الصليبيون في تحقيق ذلك، فدخلوا المدينة عنوة يوم الاثنين 11 ذي الحجة 502هـ/ 12 يوليو 1109م[7]، "ونهبوا ما فيها، وأسروا

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص240؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص217.

(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص144؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص275.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص276.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص145.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص163.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص255.

(7) اختلف المؤرخون الصليبيون على تحديد احتلال المدينة من قبل الصليبيين فقد ذكر الشارتري أن ذلك كان بتاريخ 20 ذي القعدة 502هـ/ 21 يونيو 1109م. تاريخ الحملة، ص175 هامش 192. بينما أورد وليم الصوري أنه بتاريخ 9 ذي القعدة 502هـ/ 10 يونيو1109م. الحروب الصليبية، ج2، ص280.

الرجال، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة مالا يعد ولا يحصي"[1].

لم يسلم من أذى الصليبيين من سكان المدينة سوى حاكمها الفاطمي الذي كان بها، وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل أن يحتلها الصليبيون بينما "عوقب أهلها، واستصفيت أموالهم، واستثيرت ذخائرهم من مكانها، ونزل بهم أشد البلاء، ومؤلم العذاب"[2].

وما أن احتل الصليبيون طرابلس حتى أعلن برترام طاعته لملك مملكة بيت المقدس الصليبية – بلدوين الأول– وأصبح تابعاً له[3].

لقد أظهرت تلك الأحداث أن سيطرة الفاطميين على طرابلس سنة 501هـ/ 1107م كان له دور في تسهيل احتلال الصليبيين لها، ويبدو أن بقاء طرابلس بيد ابن عمار كان أفضل للمسلمين، إذ كان بمقدوره الدفاع عنها بمن معه من الجند، ومنعها من السقوط بيد الصليبيين، أو على الأقل تأخير سقوطها فترة من الزمن، إذ أن فخر الملك كان من المرونة وحسن التعامل مع القوى الإسلامية في بلاد الشام، وخصوصاً السلاجقة ما يجعل ذلك كفيلاً بأن يمدوا له يد العون ضد الصليبيين بعكس الفاطميين الذين كانوا على عداء مع السلاجقة، ويتحرجون من الاستعانة بهم، كما أن انهيار القوة البحرية للفاطميين – بعد أن سيطر الصليبيون على عدد من المدن الساحلية التي كانت مركزاً حيوياً للأسطول البحري الفاطمي–[4]، كما أن تلكؤ الفاطميين في إرسال أسطول بحري من مصر كان له أثر سلبي في نفوس المدافعين عن المدينة وسكانها، إذ أن الأسطول تمكن من الوصول بعد ثمانية أيام من سقوط طرابلس "وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها"[5]، وتمسك أهالي صيدا وصور وبيروت بذلك الأسطول، وألحوا على قادته بالبقاء لحمايتهم والذب عنهم، ولكن القادة لم يبالوا بذلك، ولم يستجيبوا إلى مطلبهم فأقلعوا به عائدين إلى مصر[6] تاركين المدن الشامية الساحلية التي بقيت بأيدي القوى الإسلامية تواجه مملكة الصليبيين المتنامية في مساحتها الجغرافية، والمتزايدة في قواتها البشرية، وإمكانياتها العسكرية، لا سيما بعد مجيء حجاج

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص163؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص178,177. ذكرت المصادر الصليبية إلى أن من قام بأعمال القتل والسلب والنهب هم البحارة الجنويون، وليسوا المقاتلون الصليبيون. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص145؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص279.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص163.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص280.

(4) الغامدي، مسفر: الجهاد ضد الصليبيين، ص91.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص256.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص164.

نصارى من الغرب الأوروبي بين الحين والآخر، ومساندة المدن الإيطالية للصليبيين في ساحل بلاد الشام، وقد كان في إمكان ذلك الأسطول إنقاذ بيروت وصيدا من الحصار الصليبي الوشيك، وبعودته دون أداء هذه المهمة تكون السلطات الفاطمية قد أسهمت في ضياع مدن الساحل السوري كله[1].

ويشير المؤرخ ابن تغري بردي إلى عدم اكتراث الدولة الفاطمية بمحاربة الصليبيين أثناء حصارهم لطرابلس واحتلالهم لها، وقد ذكر أن مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن المدينة ثلاثة أمور أولها: "تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة، والثاني: لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال، والثالث: لم لا خرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية... هذا مع قوتهم في العساكر والأموال والأسلحة"[2].

ثانياً: موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي لمدينة بيروت:

لم تنته أطماع الصليبيين في بلاد الشام باحتلالهم لمدينة طرابلس، وإقامة إمارة صليبية لهم بها – إضافة إلى إمارتي أنطاكية والرها ومملكة بيت المقدس–، إذ شرع الملك الصليبي بلدوين الأول في رجب 503هـ/ فبراير 1110م في حصار مدينة بيروت الساحلية لإخضاعها لمملكته، حيث استغل فرصة مجيء بعض السفن الأوروبية لزيارة مملكة بيت المقدس "فجمع من كل رحاب مملكته عسكراً بقدر ما استطاع الصليبيون تقديمه"[3]، كما انضم إليه لحصار بيروت برترام بن ريموند الصنجيلي – كونت طرابلس–[4]، كما سار جوسلين[5] – صاحب تل باشر– إلى ثغر بيروت لتقديم المساعدة لبلدوين لإحكام حصار المدينة، بالإضافة إلى بعض قطع البحرية الصليبية الخاصة بالمدن الإيطالية لا سيما البيازنة والجنوية[6].

يتبين مما سبق أن برترام أراد أن يرد الجميل لبلدوين الذي ساعده في احتلال طرابلس من قبل وإقراره نائباً له بها، علاوة على أن توحيد قوى الصليبيين في بلاد الشام يمكنهم من احتلال

---

(1) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ مدينة صيدا، ص97.

(2) النجوم الزاهرة، ج5، ص177_ 178.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص287.

(4) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص146.

(5) جوسلين: هو جوسلين دي كورتناي، من الزعماء الصليبيين الكبار، كان يتصف بالشجاعة والحكمة. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص240.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص167_168؛ عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص42.

أكبر قدر من المدن التي يحكمها المسلمون، كما أن مساندة برترام لبلدوين في احتلال بيروت يجعل برترام يأمن هجوم حامية بيروت الإسلامية على مدينة طرابلس التي سيطر عليها قبل مدة يسيرة، ويتضح أيضاً أن جوسلين قد أقدم على تقديم المساعدة لبلدوني بغية توطيد نفوذ الصليبيين في بلاد الشام، حيث ان تحقيق ذلك الهدف يساهم في بقاءه على سدة الحكم في تل باشر، كما أن المدن الإيطالية كانت من وراء ذلك ترغب في تحقيق أطماعها التجارية في بلاد الشام.

ما أن بدأ الحصار الصليبي على المدينة حتى شرع الصليبيون في صناعة سلالم التسلق والأبراج وآلات الرمي، وكل أنواع الآلات الحربية معتمدين على غابة من أشجار الصنوبر قريبة من المدينة[1]، ظانين أنه بإمكانهم اقتحام المدينة بعد أن فرضوا الحصار عليها.

تصدى سكان بيروت وحاميتها للحصار الصليبي لمدينتهم بما يمتلكونه من معدات دفاعية، وتمكنوا من تدمير أحد أبراج الصليبيين الحربية التي قاموا ببنائها بغرض اقتحام المدينة[2]، وعلاوة على ذلك فقد أقبلت البحرية الفاطمية في تسعة عشر سفينة حربية لتقديم المساعدة إلى سكان المدينة، واشتبكت تلك السفن مع الأسطول الصليبي المحاصِر للمدينة وانتصرت عليه، ونجح الأسطول الفاطمي في الدخول إلى مدينة بيروت بالمؤن "فقويت بها نفوس من فيها من الرعية"، وعندئذ أدرك بلدوين صعوبة احتلال المدينة بمفرده ، فأرسل يطلب النجدة من إمارة أنطاكية التي أرسلت بدورها حوالي أربعين سفينة مشحونة بالمقاتلة[3]؛ ليشتد الحصار الصليبي براً وبحراً على المدينة التي صمد أهلها في الدفاع عنها ظانين أن الأسطول الفاطمي سوف يجرؤ على تقديم الدعم وتوفير أسباب الصمود لهم، إلا أن الأسطول الفاطمي لم يجرؤ على الاقتراب من سفن الصليبيين حتى عجزت مقاومة الأهالي عن مواجهة الصليبيين[4]، فاضطروا لمواجهة مصيرهم بعد خمسة وسبعين يوماً من الصمود[5].

تمكن الصليبيون من احتلال بيروت يوم الجمعة 21 شوال 503هـ/ 13 مايو 1110م[6]،

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص288.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص167_ 168.

(3) المصدر نفسه، ص168؛ عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص42. ذكر وليم الصوري أن الأسطول الفاطمي قدم من مدينتي صور وصيدا، وأضاف بأنه لم يحدث أي اشتباك بحري بين الفاطميين والصليبيين، وأنه ما أن شاهد الفاطميون الأسطول الصليبي حتى عادوا إلى موانئهم مرة أخرى. الحروب الصليبية، ج2، ص288.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص288.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص146.

(6) المصدر نفسه، ص146؛ ابن القلانسي: ذيل، ص168. ذكر وليم الصوري أن سقوط المدينة كان بتاريخ 5 شوال 503هـ/27 إبريل 1110م. الحروب الصليبية، ج2، ص290.

وارتكبوا بها "مجزرة لا تعرف الرحمة"[1]، كما يروي ابن القلانسي أن والي بيروت وقع في أيدي الصليبيين فقتلوه هو ومن معه وغنموا "ما كان استصحبه من المال، ونُهب البلد، وسُبي من كان فيه وأُسر، واستُصفيت أموالهم وذخائرهم"[2].

عقب سقوط المدينة بيد الصليبيين أرسل الفاطميون من مصر ثلاثمائة فارس نجدة لها، وعندما علم الصليبيون بقرب وصولهم تصدوا لهم بالقرب من الأردن، فقُتل عدد منهم، وفر الباقي إلى الجبال[3]، وهنا يمكن أن نتساءل عن ماهية إرسال الفاطميين هذا العدد القليل من الجنود عبر طريق طويلة وصعبة وخاضعة للمدن الصليبية في الشرق في ظل إمكانيات مصر الكبيرة، خاصة أنه كان بإمكان البحرية الفاطمية الاستمرار في مناورة الأسطول الصليبي المحاصِر لبيروت.

ويمكن القول بأن حكام مصر الفاطميين قد أهملوا وبشكل كبير الدفاع عن المدن التي كانت تحت حكمهم في بلاد الشام غير مبالين بتزويدها بما يلزمها من أسباب الصمود، وبذلك نستنتج أن من كان يقوم بمهمة الدفاع بشكل أساسي عن المدن الشامية من السقوط بيد الصليبيين هم سكانها الأصليين معتمدين على تحصينات المدن إلى جانب ما بأيديهم من أسلحة وعتاد، عوضاً عن المساعدات التي كان يقدمها لهم حكام مصر الفاطميين الذين كانت لهم أهداف سياسية– تتمثل في استمرار نفوذهم السياسي بمدن الشام– تختلف عن أهداف سكان المدن الشامية الذين كانوا يهدفون للتصدي للعدوان الصليبي على مدنهم.

ثالثاً: الاحتلال الصليبي لمدينة صيدا وموقف الفاطميين منه:

تطلع بلدوين الأول إلى السيطرة على مزيد من المدن الساحلية الشامية بغية تأمين الوجود الصليبي في بلاد الشام، والتصدي للأخطار الخارجية التي قد تواجه مملكته، وفي ذلك الوقت كانت مدن عسقلان وصور وصيدا وبيروت لا زالت في أيدي الفاطميين، وكانت مدينتي عسقلان وصور من المدن الحصينة جداً والمنيعة على المهاجمين، ويتطلب إسقاطها استعدادات كبيرة لم تكن متوفرة للصليبيين في ذلك الوقت؛ لذلك تطلع بلدوين إلى إسقاط مدينة صيدا باعتبارها أقل تحصيناً من المدن المذكورة[4].

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص290.

(2) ذيل، ص169. ذكر بعض المؤرخين أن من قُتل هو مقدم الأسطول الفاطمي، وأن حاكم المدينة الفاطمي فر ليلاً إلى قبرص فزاد ذلك بأس الحامية؛ للمزيد، ينظر: الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص238؛ عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص43.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص168.

(4) عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص43.

والواقع أن سقوط صيدا مر بثلاثة مراحل، أولها كان في 499هـ/1106م، حيث وصل إلى مدينة يافا أسطول يحمل عدداً كبيراً من الحجاج الأوروبيين قُدر عددهم ما بين 7000 _ 9000 حاج، فعمد بلدوين إلى انتهاز تلك الفرصة المواتية ليستخدمهم في حصار صيدا، وذلك بعد أن ينتهوا من أداء الحج[1].

لما علم حاكم صيدا بما عزم عليه بلدوين من التوجه للمدينة التي يحكمها بادر بإرسال مبلغ خمسة عشر ألف دينار لبلدوين، وكانت الأنباء قد جاءته بوفاة حاكم طبرية الصليبي، فلم يسعه إلا قبول ما عرضه عليه حاكم صيدا لحاجته إلى المال، وبادر بترك صيدا والسير إلى طبرية، وبذلك بقيت صيدا تنعم بالسلام مدة سنتين[2].

خرج بلدوين في ذي الحجة 501هـ /أغسطس 1108م إلى مدينة صيدا للمرة الثانية، وفرض عليها الحصار من ناحية البر، ونصب على أسوارها الأبراج في محاولة لاقتحامها[3]، وكان يسانده من البحر أسطول سيره ملاحون مغامرون من مدن ايطالية عدة[4]، فاستنجد والي صيدا الفاطمي بالسلاجقة في دمشق، وعرض عليهم أن يبذل لهم مبلغاً قدره ثلاثين ألف دينار مقابل مساعدتهم له، وفي الوقت ذاته وصل الأسطول الفاطمي البالغ عدد قطعه أكثر من خمسين إلى صيدا للدفاع عنها أمام الصليبيين، وتمكن الأسطول الفاطمي من التغلب على سفن الجنوية في معركة بحرية، فأصبح لزاماً على بلدوين أن يرفع الحصار عن المدينة خاصة بعد أن بلغه بأن صاحب دمشق سير عسكراً من التركمان إلى صيدا لحمايتها والدفاع عنها، فاضطر بلدوين إلى رفع الحصار عنها بعد أن أحرق آلاته، ثم عاد إلى عكا[5].

يتضح مما سبق أن توحيد جهود المسلمين في بلاد الشام ومصر– أثناء حصار الصليبيين لصيدا– ضد الوجود الصليبي لم يمكِّن القوات الصليبية الغازية من احتلالها في تلك المرحلة من الصراع بين المسلمين والصليبيين، لكن عدم وحدة الشام ومصر فترة الحروب الصليبية – عدا بعض الأوقات– إلى جانب الأطماع السياسية التي كانت تسعى إليها كل دولة بما يتوافق مع

---

(1) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص148؛ الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص239.

(2) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص149؛ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ مدينة صيدا، ص95.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص162؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص241.

(4) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص149؛ الكناني، مصطفى: العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص240.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص162؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص241؛ عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص43_ 44؛ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ مدينة صيدا، ص96.

مصالحها، قد جعل مهمة الصليبيين أكثر سهولة مما يتوقعون.

بعد أن احتل الصليبيون مدينتي طرابلس وبيروت توجه بلدوين الأول لمنازلة صيدا للمرة الثالثة سنة 503هـ/1110م، فحاصرها من ناحية البر، وأرسل أسطوله إليها ففرض عليها الحصار بحراً، وبذلك ازدادت وطأة الحصار على المدينة، ثم أرسل الملك الصليبي إلى أهالي صيدا يطلب منهم تسليم المدينة إليه؛ فاستمهلوه مدة عينوها بأنفسهم، ثم عاد إلى بيت المقدس بعد أن فرض عليهم ستة آلاف دينار، وكان قبل ذلك يصل منهم إليه ألفي دينار[1].

ويبدو أن ضعف الحصار الصليبي لصيدا خاصة من ناحية البحر هي من أجبرت بلدوين على ترك حصار صيدا والعودة إلى بيت المقدس، إذ أنه لم يلبث أن وصل إلى مدينة يافا في أوائل 504هـ/ صيف 1110م، أسطول كبير يضم خمساً وخمسين سفينة[2]، بقيادة الملك النرويجي سيجورد[3]، فاستقبله بلدوين بكل مظاهر التشريف، وصحبه بنفسه إلى بيت المقدس[4]، وهناك اتفق الطرفان الصليبي والنرويجي على مهاجمة صيدا – بعد أن كان هناك ميل للزحف على عسقلان في البداية–؛ فحرك بلدوين جيشه من مدينة عكا لحصار صيدا من البر، وتقدم سيجورد وبحارته من يافا لإطباق حصار صيدا بحراً[5].

يتضح مما سبق أن زعماء الصليبيين قد أدركوا أهمية عسقلان في مواجهة مشاريعهم الاستعمارية في تلك المرحلة من الصراع الإسلامي الصليبي، إذ كانت هي الشوكة في حلق الصليبيين في بلاد الشام، ويبدو أن حصانة عسقلان، وقربها من مركز الخلافة الفاطمية بالقاهرة قد جعل الصليبيين يتوجهون نحو صيدا، خاصة أنهم حاولوا احتلالها أكثر من مرة إلا أنهم فشلوا في تحقيق ذلك، لكن في تلك الهجمة كان يؤازرهم أسطول نرويجي كبير قاده ملك النرويج بنفسه.

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص168.

(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص147. ذكر ابن القلانسي أن عدد سفن الأسطول النرويجي بلغت نيفاً وستين مركباً. ذيل، ص171. بينما ذكر ابن الأثير أن عددها بلغ ستين سفينة. الكامل، ج7، ص258. بينما ذكر الحريري أنها كانت مائتي مركب تضم عشرة آلاف مقاتل. الأخبار السنية، ص34.

(3) سيجورد: هو سيجورد جورسا لافاري (496_524هـ/1103_1130م)، اشترك في مُلك النرويج مع أخويه ايستين (496_516هـ/1103م _1122م)، وآولاف الذي مات يافعاً، وعندما توفي والدهم الملك ماجنوس بيروت عام 496هـ/1103م بدأ الشقيقان الكبيران ايستين وسيجورد، بالتحضير لحملة صليبية، وعندما تمت التحضيرات عام 500هـ/1107م، اختير سيجورد لقيادتها. واستمرت الحملة 3 أعوام حتى وصلت إلى سواحل فلسطين في 504هـ/ أغسطس 1110م. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص176، هامش 201.

(4) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص150.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص147_ 148.

في 3 ربيع الثاني 504هـ/ 19 أكتوبر 1110م نزل الملكان – بلدوين الأول وسيجورد– بقواتهما البرية والبحرية على ثغر صيدا، واشترك معهما برترام الصنجيلي، وبدأ الصليبيون والبحارة النرويجيين بحصار المدينة براً وبحراً حتى لا تتمكن قوات طغتكين أتابك من الوصول إليها من البر، ولا السفن الفاطمية من الوصول إليها عبر الساحل[1] رغم أن الأسطول الفاطمي كان مقيماً على ساحل صور[2]، حيث أنه لم يجرؤ على مساعدة سكان صيدا بعد وصول أسطول بندقي لمساعدة بلدوين في هجومه عليها[3].

أما من ناحية البر فقد صنع الصليبيون أبراجاً خشبية كبيرة، وغطوها بالبسط وجلود البقر؛ وذلك لحماية من فيها من الحجارة والنفط التي يتم قذفها من قبل حامية المدينة وسكانها، وزود الصليبيون تلك الأبراج بالماء والخل لإطفاء النار إذا ما اشتعلت فيها[4].

ويشير وليم الصوري إلى أن والي صيدا[5] قد أعد خطة لاغتيال بلدوين عن طريق مسلم مرتد أصبح يقوم على خدمة بلدوين الخاصة، وقد وافق على اغتياله مقابل مبلغ كبير من المال إلى جانب أملاك شاسعة داخل صيدا في حال نجاح مهمته؛ ولكن نصارى صيدا كتبوا إلى بلدوين رسالة يحذرونه فيها منه، ووضعوها في رأس سهم صوبوه إلى معسكر الصليبيين، فاتخذ الملك حذره من خادمه، وأمر بشنقه[6].

لقد بذلت حامية المدينة وسكانها جهوداً كبيرة في مواجهة الهجمات الصليبية، إلا أن اليأس دب في نفوسهم لتأخر وصول النجدات من مصر؛ فخشي أهل صيدا وقاضيها وشيوخها أن يصيبهم ما أصاب أهل بيروت، وأنه لا أمل في النجاة إلا بالتسليم؛ فطلبوا الأمان من بلدوين فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وسمح للوالي ومعه عدد كبير بالخروج إلى دمشق في 20 جمادى الأولى 504هـ/4 ديسمبر 1110م[7] بعد حصار دام 47 يوماً، وأقام بالبلد خلق كثير تحت

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص291؛

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص171؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص258.

(3) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص150_151.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص258.

(5) كان يتولى صيدا وقتئذ الأمير مجد الدولة محمد بن عدي. سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ مدينة صيدا، ص102، هامش3.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص292_293.

(7) ذكر الشارتري أن استيلاء الصليبيين على المدينة كان بتاريخ 21 جمادى الأولى 504هـ/5 ديسمبر 1110م. تاريخ الحملة، ص148؛ بينما ذكر الصوري أن ذلك كان بتاريخ 5 جمادى الآخرة 504هـ/ 19 ديسمبر 1110م. الحروب الصليبية، ج2، ص293.

الأمان، إلا أن بلدوين استنزف أموالهم حيث أخذ منهم ضريبة بلغت عشرين ألف دينار[1]، ويبدو أن ذلك كان بغية افقار سكان المدينة المسلمين، وإجبارهم على ترك أملاكهم في المدينة والخروج منها، وتركها للصليبيين لينعموا بها.

بعد أن حقق بلدوين الأول هدفه في احتلال صيدا عاد النرويجيون إلى بلادهم محملين بالغنائم، وكافأ بلدوين البنادقة بمنحهم امتيازات كبيرة في مدينة عكا[2]، وأضحت مدينة صيدا بارونية صليبية تولاها يوستاس جارنييه الذي كان حاكماً وقتذاك على قيسارية، والذي لم يلبث أن وطد مركزه بزواجه النفعي من إيما ابنة أخت أرنولف بطريرك بيت المقدس[3].

رابعاً: موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي لمدينة صور:

تطلع الصليبيون منذ إقامتهم لمملكة بيت المقدس الصليبية إلى السيطرة على مدن ساحل بلاد الشام؛ وذلك لضمان استمرار تدفق الإمدادات من أوروبا لهم عبر البحر، عوضاً عن تأمين مملكة بيت المقدس الصليبية الناشئة من خطر الحاميات الإسلامية المتمركزة في تلك المدن، والتي كانت تشكل خطراً على مملكة بيت المقدس من البر والبحر على حدٍ سواء، ومن أجل تحقيق ذلك الهدف – وتوافقاً مع قدراتهم البشرية والمادية المحدودة مطلع احتلالهم لبيت المقدس– بدأ الصليبيون باحتلال المدن الأقل تحصيناً، وتمكنوا من احتلال عدة مدن عقب احتلال بيت المقدس مثل: يافا، وحيفا، وقيسارية، وعكا، ثم احتلوا مدن طرابلس وصيدا وبيروت – كما رأينا سابقاً–، ولم يتبق من مدن الساحل الشامي سوى مدينتي صور وعسقلان الحصينتين اللتان بقيتا بيد الفاطميين.

ولا يعني ذلك أن الصليبيين لم يوجّهوا أية حملات ضد تلك المدينتين إذ كثيراً ما كان يقوم الصليبيون بمهاجمة عسقلان، كما أن حاكم مدينة طبرية الصليبي (هيج دي سنت أومير) بالإغارة على صور بقصد تكبيدها أكبر قدر من الخسائر بهدف تسهيل احتلال المدينة، وفي الوقت نفسه كان المهاجمون أنفسهم يتعرضون للخطر لعدم وجود أي قلاع أو أماكن حصينة يلجئون إليها في حال تعقبهم من قبل حامية المدينة[4].

ويبدو أن موقع صور وحصانتها قد مكناها من الصمود لفترة طويلة في وجه الصليبيين، حيث أنها مدينة حصينة، يُحيط بها البحر من ثلاث جهات، ولا يُدخل إليها إلا من باب واحد يقع

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص171؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص46.

(2) هايد، ف: تاريخ التجارة، ص145.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص294.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص268.

على جانبها الشرقي[1]، وإلى جانب حصانتها فإنه يوجد بها أعداد كبيرة من السكان الذين فروا من قيسارية وعكا وصيدا وطرابلس وغيرها من المدن التي وقعت بيد الصليبيين[2].

هاجم بلدوين الأول مدينة صور سنة 501هـ/1108م، وحاصرها لمدة شهر أنشأ خلاله حصناً على تل يسمى بتل المعشوقة[3] فهادنه واليها على سبعة آلاف دينار أخذها بلدوين ورحل عن المدينة[4]، وقد فشل بلدوين في احتلال صور آنذاك، ويبدو أن ذلك يرجع إلى صمود أهلها في الدفاع عنها، عوضاً عن أن الحصار كان من ناحية البر فقط، إذ لم تذكر المصادر التاريخية أن بلدوين فرض عليها حصاراً بحرياً في ذلك الوقت، وبذلك يتبين أن الصليبيين كانوا لا يمتلكون أسطولاً قوياً يفرضون من خلاله الحصار على إحدى المدينتين الحصينتين على الساحل الشامي.

أُتيح لبلدوين الأول العودة إلى صور سنة 505هـ/ 1111م بعد أن غنم ثروة كبيرة، وأمتعة ثمينة كان قد أرسلها حاكم صور[5] إلى طغتكين بدمشق لحفظها، ولتحفيزه على إنفاذ كتيبة مؤلفة من خمسمائة من الرماة إلى صور لحمايتها وحفظها من الوقوع بيد الصليبيين[6]، وفي تلك المرّة حشد بلدوين جيشه البري[7]، كما جمع السفن التي توفرت له في السواحل الخاضعة للصليبين، وأحاط بالمدينة من جميع جهاتها[8]، واشترك معه في هذه الحملة الأمير الصليبي يوستاس جارنييه

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص208_ 211؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص26؛ الحموي: معجم البلدان، ج3، ص433.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص27.

(3) بُني حصن تل المعشوقة على مكان يسمى تبنين، وأطلق عليه أيضاً اسم تورون، ويقع هذا الحصن على مسافة متساوية بين صور وبانياس. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص268. تبنين: بلدة تطل على بانياس، وتقع بين دمشق وصور. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص14.

(4) ابن القلانسي: ذيل، ص159.

(5) ذكر ابن القلانسي أن حاكم صور في ذلك الوقت هو عز الملك أنوشتكين الأفضلي. ذيل، ص178. أورد ابن الأثير أن اسمه عز الملك الأعز. الكامل، ج7، ص264؛ وأيده على ذلك العيني في كتابه عقد الجمان، ص39. ويُعتقد بأن اسمه أنوشتكين، وأن عز الملك لقب تلقب به كغيره من الحكام الذين يتلقبون بمثل تلك الألقاب.

(6) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص152.

(7) أورد ابن الأثير أن عدد الجيش الصليبي المحاصر للمدينة من ناحية البر يزيد عن ثلاثة آلاف، إذ ذكر أن الصليبيين بنوا ثلاثة أبراج، في كل برج ألف رجل، عدا عن غيرهم من الجنود الذين تكون لهم مهمات أخرى. الكامل، ج7، ص264.

(8) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص296_297. ذكر رنسيمان بأنه لم يتوافر لدى بلدوين في هذه المرة من حصار صور أسطول يقدم له المساعدة سوى اثنتي عشر سفينة تخضع لسلطان السفير البيزنطي بوتوميتس، ولم يكن البيزنطيون مستعدون لأن يقوموا بعمل عدواني ضد الفاطميين ما لم ينالوا تعويضاً مجزياً،=

سيد صيدا وقيسارية[1].

بدأ الحصار الصليبي لمدينة صور من البر والبحر في 25 جمادى الأولى 505هـ/ 29 نوفمبر 1111م، ومن أجل تسهيل اقتحام المدينة صنع الصليبيون ثلاثة أبراج من الخشب ، في كل برج ألف رجل، وألصقوا أحد تلك الأبراج بسور المدينة، وذلك بعد أن أخلوه من المقاتلين، وعلاوة على ذلك فقد نصبوا على المدينة المنجنيقات من أجل ضربها بالنيران، إلا أن أهالي المدينة وحاميتها قد بذلوا جهوداً كبيرة، ومنقطعة النظير للذود عن مدينتهم، ويروي ابن الأثير مدى شدة بأسهم في ذلك، فبعد أن يئسوا من مساعدة الفاطميين لهم عبر أسطولهم البحري، أحضر الوالي سكان المدينة، واستشارهم في حيلة يواجهون بها الأبراج التي وضعها الصليبيون على أسوارها، "فقام شيخ من أهل طرابلس، وضمن على نفسه إحراقها، وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل منهم حُزمة حطب، فقاتلوا الفرنج إلى أن وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة؛ فألقى الحطب من جهاته وألقى فيه النار... فتمكنت النار منه، فهلك كل من به إلا القليل... وأحرق البرجين الآخرين... ثم إن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها من الفرنج إذا زحفوا إليهم..."[2].

وفي الوقت ذاته أرسل والي صور عز الملك إلى طغتكين أتابك – حاكم دمشق– يستصرخه ويستنجده، ويبذل له تسليم صور "قبل مجيء الفرنج لأنهم أيسوا من نصرة أهل مصر"[3]؛ فبادر طغتكين بإنفاذ مئتي فارس تمكنوا من دخول صور للدفاع عنها، ثم مضى طغتكين بنفسه إلى صور، وأثناء سيره كان يقوم بالإغارة على القرى والحصون الصليبية القريبة، واستولى على عدد من حصونهم[4]، ثم توجه إلى مدينة صيدا بحراً للإغارة عليها– بعد أن علم أن بلدوين يعتمد في تموين جيشه على صيدا– "وقتل جماعة من الفرنج وغرّق مراكبهم، وأوصل مكاتبته إلى أهل صور، فقوّى قلوبهم"[5] وبذلك تمكن من قطع الإمدادات التي كانت تأتي عبر البحر للجيش الصليبي الذي يحاصر المدينة؛ فزاد ذلك في صمود أهالي صور الذين قاتلوا

=فطلبوا من بلدوين مساعدته أن يساندهم في استعادة ما استولى عليه أمراء أنطاكية من المدن؛ فرفض بلدوين ذلك؛ فاكتفى البيزنطيون بإمداد جيش الصليبيين بالمؤن. تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص152.

(1) سالم، السيد عبد العزيز : تاريخ مدينة صيدا، ص107.

(2) الكامل، ج7، ص264؛ للمزيد، ينظر: الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص150؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص298؛ ابن القلانسي: ذيل، ص179_180؛ العيني: عقد الجمان، ص38_39.

(3) العيني: عقد الجمان، ص42_43.

(4) ابن القلانسي: ذيل، ص178؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص265؛ العيني: عقد الجمان، ص42_43.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص179. ذكر ابن الأثير أن طغتكين تمكن من إحراق نحو عشرين مركباً على الساحل. الكامل، ج7، ص265.

الصليبيين "قتال من أَيِس من الحياة"[1] رغم أنه "لم تأت نجدة المصريين (الفاطميين)" لهم[2].

يتضح مما سبق أن الخلافة الفاطمية في مصر لم تقدم شيئاً لحامية المدينة وأهلها، ولم تبذل جهداً في الدفاع عن مدينة صور وحفظها من الوقوع في أيدي الصليبيين، وبالرغم من ذلك فإن حاميتها وأهلها تمكنوا من الدفاع عنها بمساعدة طغتكين أتابك، وقد أرجع الغامدي أن سبب عدم تقديم الفاطميين المساعدة والنصرة لأهل صور، إلى ما كانت تمر به مصر من أزمة اقتصادية نتيجة تفشي الوباء بها في ذلك الوقت[3]، على أن ذلك لا يعفي مسؤولية الدولة الفاطمية من الدفاع عن المدن الساحلية التي كانت بيدها من الوقوع في أيدي الصليبيين، باعتبار أن الفاطميين هم الأقرب جغرافياً، والأقوى من الناحية العسكرية، وذلك لامتلاكهم جيشاً برياً قوياً، وأسطولاً بحرياً بإمكانه الوصول إلى مدن الساحل الشامي بوقت قصير، عوضاً عن أن تلك المدن كانت تخضع لهم قبيل احتلالها من قبل الصليبيين.

يئس بلدوين من احتلال مدينة صور بعد حصارها مدة أربعة شهور ونصف؛ فرحل هو وقواته عنها بعد أن أحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها، والمراكب التي كانت لديهم بالساحل، وتوجه إلى عكا في 10 شوال 505هـ/ 10 ابريل 1112م[4].

خضعت صور منذ ذلك الوقت لطغتكين أتابك بطلب من أهلها، وذلك بعد أن أحسوا بعجز الفاطميين عن مساعدتهم في الدفاع عنها في مواجهة الصليبيين، وعيّن طغتكين الأمير سيف الدولة مسعود والياً عليها، وقد استمر سيف الدولة "في إقامة الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر، ولم يغير لها رسم...[في انتظار قيام الفاطميين بإرسال] من يتولى أمرها ويذب عنها ويحميها.... وإنفاذ الأسطول بالغلة إليها والتقوية لها"[5]، ولم تذكر المصادر أن الفاطميين

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص265؛ للمزيد، ينظر:
Gabrieli, Francesco: Arab historians of the Crusades, vol1, p31_32.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص180.

(3) الجهاد ضد الصليبيين، ص128.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص265؛ للمزيد، ينظر: الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص149_150؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص298.
Gabrieli, Francesco: Arab historians of the Crusades, vol1 ,p34.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص182؛ للمزيد، ينظر: العيني: عقد الجمان، ص44. يُعتقد أن سيف الدولة مسعود استمر في دعوته للفاطميين في مدينة صور – رغم أنه يتبع لطغتكين أتابك– إلى أنه كان بحاجة إلى المؤن والذخائر التي كان يرسلها الفاطميون بين الفينة والأخرى إلى المدينة للدفاع عنها أمام الصليبيين، لتعذر وصول الإمدادات من دمشق.

حينها قد أرسلوا والياً عليها من قبلهم، أو دعّموا الوجود الإسلامي بها في مواجهة أي خطر صليبي قد يحدث، بل تركوها في أيدي الدماشقة الذين استمروا في الدفاع عنها غير معتمدين على أي نجدات تأتي من مصر.

لم تنته التهديدات الصليبية باحتلال صور عند ذلك الحد، إذ في سنة 510هـ/1117م توجه بلدوين الأول لمنازلة صور مرة أخرى، واكتفى في هذه المرة بفرض حصار من ناحية البر فقط، وشيد قلعة تسمى سكاندليون "لتكون شوكة في جنب أهل صور، تقض مضاجعهم وتصلح أن تشن الغارات منها عليهم" ووضع فيها حامية لذلك[1]، وبذلك أتم بلدوين حصار المدينة براً من جميع جهاتها؛ حيث أن صيدا الخاضعة للصليبيين تسيطر على المنافذ المؤدية إلى صور من جهة الشمال، بينما تشرف قلعة تل المعشوقة (تبنين) على الطرق المؤدية إليها من جهة الشرق[2].

يتضح مما سبق أن الملك الصليبي كان مدركاً آنذاك عدم تجرؤ الفاطميين على إرسال أسطول عبر البحر يقوم بمساندة أهالي صور وحاميتها في مواجهة الحصار الصليبي للمدينة فاكتفى بفرض الحصار من ناحية البر فقط، كما أن ذلك يدلل على ضعف أسطول الصليبيين البحري الذي كان دائم الاعتماد على مساعدة الحجاج الأوروبيين الذين كانوا يأتون للحج إلى بيت المقدس بين الحين والآخر، ومساندة المدن الايطالية التي كانت دوماً تقف إلى جانب الصليبيين ليس تأييداً لمشروعهم الاستعماري في الشرق الإسلامي، ولكن تحقيقاً لمصالحهم الاقتصادية في حوض البحر المتوسط.

لم يتمكن بلدوين من احتلال المدينة في ذلك الوقت بالرغم من حصاره البري لها، ويبدو أن فشله في احتلالها يرجع إلى شدة بأس أهلها في الدفاع عنها، علاوة على عدم امتلاك بلدوين أسطول قوي لفرض الحصار عليها بحراً، كما أن بلدوين الأول لم يلبث أن توفي سنة 511هـ/ 1118م بعد توجهه على رأس عسكرية حملة تجاه مصر، وقيامه بمهاجمة مدينتي الفرما وتنيس، ونقل جثمانه إلى القدس ودفن بها، ثم أجمع الزعماء الصليبيين على أن يتولى بلدوين الثاني عرش مملكة بيت المقدس خلفاً له، حيث تم تتويجه ملكاً في 8 ذي الحجة 511هـ/ 2 ابريل 1118م[3].

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص161؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص328.

(2) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص161.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص162_163؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص328_330، 342؛ للمزيد، ينظر، ص178. تم التتويج الحقيقي لبلدوين الثاني في 20 رمضان 513هـ/ 25 كانون أول 1119م، إذ اتضح أن شقيقه الأكبر يوستاس الثالث من بولون لن يحضر للمطالبة بميراثه. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص243، هامش1؛ للمزيد، ينظر: الصوري وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص340.

بالرغم من وفاة الملك الصليبي بلدوين الأول إلا أن الصراع الإسلامي الصليبي على مدن الشام وسواحله لم يتوقف، وتمكنت آنذاك القوات الإسلامية بقيادة القائد بَلْك بن بَهرام بن أُرتُق صاحب خَرْتَبِرْت[1] من أسر الملك الصليبي بلدوين الثاني في صفر517هـ/ ابريل 1123م، فنصّب الصليبيون يوستاس جارنييه – صاحب صيدا وقيسارية– زعيماً للصليبين في الشرق[2].

إن تغيب بلدوين الثاني في الأسر لم يكن له أثر سيء على مملكة بيت المقدس سوى أنه أغرى الفاطميين بالإغارة على مدينة يافا الصليبية، وقاموا بحصارها براً وبحراً، فبادر يوستاس جارنييه بقيادة جيش بيت المقدس لملاقاتهم، وحقق الانتصار عليهم ليعود الاستقرار سريعاً إلى مملكة بيت المقدس[3]، إذ لم يكن لتلك الغارة الفاطمية أثر كبير على الصليبيين حيث لم تتمكن من تحقيق أهدافها في إلحاق خسائر كبيرة في أملاك الصليبيين في بلاد الشام، عوضاً عن أن الهدف من تلك الحملة لم يكن استعادة مدينة يافا أو غيرها من المدن الشامية من يد الصليبيين.

أما على الجانب الآخر فبالرغم من تعيين طغتكين والياً من قِبله على صور، إلا أنها استمرت تابعة للدولة الفاطمية، وظل الوفاق سائداً بين طغتكين وبين الوزير الفاطمي الأفضل لمدة عشر سنوات؛ وقد أرجع رنسيمان ذلك إلى رغبتهما وحاجتهما إلى بعضهما البعض لمواجهة الصليبيين[4].

لم يستمر التحالف بين الفاطميين وطغتكين، إذ لم يلبث أن قُتل الوزير الفاطمي الأفضل في 23 رمضان 515هـ/ 5 ديسمبر1121م[5]، فتطلع الخليفة الآمر بأحكام الله[6](495هـ_524هـ/ 1101_1130م) الفاطمي إلى استعادة سلطانه على مصر ومدن الشام

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص209؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص352_353. خَرْتَبِرْت: اسم أرمني للحصن المعروف بحصن زياد الذي يقع في أقصى ديار بكر من بلاد الروم. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص355.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص263. كان بلك بن بهرام أيضاً قد أسر جوسلين كونت الرها سنة 516هـ/ 1122م بعد أن خاض معركة قُتل فيها أغلب المقاتلين الصليبيين. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص193؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص338.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص195_196؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص264_ 265.

(4) تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص269.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص335. ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي هو من أمر بقتل الوزير الأفضل. ابن القلانسي: ذيل، ص203؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص336؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص79؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص299؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص89.

(6) الخليفة الآمر: هو أبو علي المنصور بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي، ولد سنة 490هـ/1097م بالقاهرة، وتولى الخلافة بعد وفاة والده المستعلي سنة 495هـ/1102م، وكان عمره آنذاك خمس=

التي كانت بيد الفاطميين، فأراد استعادة صور من طغتكين، ولذلك أرسل أسطولاً سنة 516هـ/ 1122م إليها مستغلاً شكوى أهل صور على والي المدينة، فلما خرج الوالي سيف الدولة مسعود للترحيب بالأسطول الفاطمي وقائده تم اعتقاله، وحمله إلى مصر، ثم أُرسل إلى دمشق، وعادت سيطرة الفاطميين الفعلية على مدينة صور، لتتكشف بذلك سياسة الخليفة الآمر في مسالمة الصليبيين[1]، ويعلق ابن تغري بردي على ذلك بالقول:"فكان حال المصريين (الفاطميين) في أول الأمر تقاعدوا عن نصرة المسلمين، والآن بأخذهم سيف الدولة من صور صاروا نجدة للفرنج"[2].

إن استيلاء الفاطميين على مدينة صور، وأخذها من طغتكين بالمكر والحيلة يُبيّن أن الفاطميين لم ينظروا إلاّ إلى مصالحهم الخاصة في العمل على استعادة نفوذهم السياسي على مدن بلاد الشام، وإعادة نشر مذهبهم الشيعي الذي بدأ ينمحي من تلك المدن دون التطلع إلى مصالح المسلمين العامة في توحيد جهود المسلمين في مصر والشام في مواجهة الأخطار الصليبية المتزايدة، لا سيما بعد أن احتل الصليبيون العديد من المدن الإسلامية الواقعة على الساحل الشامي، وكان الأجدر بالفاطميين أن يوحدوا جهودهم – إلى جانب جهود مدن بلاد الشام الخاضعة للسلاجقة السنيين– في التصدي للصليبيين، واستعادة المدن التي احتلها الصليبيون في بلاد الشام آنذاك.

في الوقت الذي كان فيه بلدوين الثاني أسيراً لدى المسلمين وصل إلى سواحل الشام أسطول بندقي يتألف من أكثر من 120 سفينة، وكان بلدوين نفسه قد طلب ذلك الأسطول لمعونته للتصدي للأراتقة في الشمال، والفاطميين في الجنوب، وذلك قبل أن يقع أسيراً في قبضة المسلمين[3].

وما أن بلغ دوق البندقية دومينيكو ميكائيل – الذي كان قائداً لذلك الأسطول– ساحل عكا في سنة 517هـ/1123م، حتى سمع أن أسطولاً مصرياً عائداً من شواطئ يافا إلى عسقلان بعد أن أنهى مهمة قام بها على الساحل الفلسطيني؛ فأبحر البنادقة جنوباً لملاقاتهم، وأرغموا الأسطول الفاطمي على مواجهتهم وفق خطة حربية محكمة وضعها دوق البندقية بنفسه، فسارت أمامه سفن الأسطول البندقي الصغيرة، وخفيفة التسليح، فاشتبك معها الأسطول الفاطمي معتقدين أنهم أمام

=سنين، وتوفي سنة 524هـ/1130م، وكان جائر السيرة، مستهتراً، متظاهراً باللعب واللهو. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1،ص180؛ ج5، ص299_301؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص168_171.

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص207؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص358؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص303؛ خرابشة، سليمان: المأمون البطائحي، ص1293_1294.

(2) النجوم الزاهرة، ج5، ص181.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص194.

نصر سهل؛ إلا أنهم أضحوا بين أسطولين كبيرين للبنادقة الذين حققوا النصر في تلك المعركة، ودمروا جميع قطع الأسطول الفاطمي، ثم أرسوا بساحل عكا بعد أن هددوا سواحل مصر[1].

وتُظهر تلك المعركة أن الصليبيين كانوا يعتمدون بشكل كبير في صراعهم البحري مع القوى الإسلامية لا سيما في حصار مدن ساحل بلاد الشام على قوى أوروبية، وليس على قدراتهم وإمكانياتهم المتوفرة لديهم في مملكة بيت المقدس، وتمثل استعانة الصليبيين بالمدن الإيطالية في مواجهة القوى الإسلامية عقبة كبيرة أمام المسلمين الذين لا يمتلكون أسطول قوي يجابه الأساطيل الإيطالية التي تسعى لفرض هيمنتها على حوض البحر المتوسط بشتى السبل، ووجدوا أن وجود الصليبيين في بلاد الشام خير عون على تحقيق تلك المصالح.

توجه بعد ذلك دوق البندقية مع كبار قادته إلى بيت المقدس[2] حيث جرت مناقشة بين القادة الصليبيين وبين دوق البندقية حول استخدام الأسطول البندقي للاستيلاء على آخر المعاقل الإسلامية على ساحل البحر، عسقلان أو صور؛ فأيدت مدن جنوب الساحل مهاجمة مدينة عسقلان، بينما أصر صليبيو مدن شمال المملكة على مهاجمة مدينة صور لعظمها وشدة حصانتها[3]، كما أنه كان الميناء الذي ترد إليه خيرات دمشق؛ ويضاف إلى ذلك أنه يفوق في أهمية مركزه التجاري عسقلان بما له من مجرى مائي مفتوح تجتازه السفن إلى الشاطئ، وبضآلة ما يقع خلفه من أراضي[4]، عوضاً عن بُعد مدينة صور الساحلية عن الدولة الفاطمية والتي كانت تقوم بين الحين والآخر بتوفير أسباب الصمود لسكان المدن الساحلية، كما أن الصليبيين أنفسهم لمّا عرفوا "انصراف مسعود (والي المدينة من قبل طغتكين أتابك) عن ولاية صور تحرك طمعهم فيها، وحدّثوا نفوسهم بتملكها، وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها، والمضايقة لها"[5].

لم يلبث أن اتفق زعماء الصليبيين مع قادة الأسطول البندقي على توحيد جهودهم في مهاجمة صور، ومقابل ذلك يحصل البنادقة في كل مدينة من مدن مملكة بيت المقدس على شارع وكنيسة ومرافق أخرى، وأن يتم إعفائهم من الضرائب والرسوم الجمركية في سائر أنحاء المملكة،

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص206؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص373_375؛ خرابشة، سليمان: المأمون البطائحي، ص1294_1295. رجح مسفر الغامدي أن حملة الأسطول الفاطمي تلك قد جاءت نتيجة شعور الخليفة الفاطمي الآمر بنوع من الحرج تجاه رعاياه الذين اعتادوا أن يسمعوا بأن الوزير الأفضل كان دائماً يقوم بإرسال الحملات لمهاجمة قواعد الصليبيين في بلاد الشام. الجهاد ضد الصليبيين، ص131.

(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص206.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص377.

(4) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص267.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص211.

وعلاوة على ذلك يحصل أيضاً البنادقة على دُور في مدينة عكا، وعلى ثلث مدينتي صور وعسقلان مقابل المساعدة في الاستيلاء عليهما إلى جانب امتيازات أخرى، وقد تم مباركة تلك الاتفاقية من قبل دوق البندقية نفسه، وكذلك من قبل أساقفة وزعماء مدن مملكة بيت المقدس[1].

ما أن تم إبرام تلك المعاهدة حتى سار جيش الصليبيين البري تجاه صور، بينما أبحر أسطول البنادقة موازياً له على الساحل، وبدأ الحصار البري الصليبي، والبحري البندقي لمدينة صور في 28 ذي الحجة 517هـ/16 فبراير 1124م[2]، وقد تم تشديد الحصار الصليبي على صور بقيامهم بالسيطرة على مياه الشرب التي تصل إلى المدينة بهدف الضغط على سكان المدينة لتسليمها، وفي الوقت ذاته شدد البنادقة الحصار البحري لمنع وصول أية إمدادات إليها[3].

هاجم الصليبيون والبنادقة أسوار المدينة، وبنوا الأبراج، ونصبوها في أماكن إستراتيجية، وقذفوا المدينة بالحجارة، وفي المقابل فإن أهالي صور وحاميتها استبسلوا في الدفاع عنها، ورموا المهاجمين بالحجارة وكبدوهم خسائر كبيرة[4] "بالرغم من عدم المنجد لهم من مصر"[5].

لما أيقن حاكم المدينة الفاطمي أنه لا طاقة له على دفع المهاجمين لقلة جنده ومؤنه؛ أرسل إلى الخليفة الفاطمي الآمر يطلب منه المعونة، فرأى الآمر أن يرد ولاية صور إلى طغتكين، فرتب طغتكين من يدافع عنها، ونزل إلى مدينة بانياس ليشغل الصليبيين عن صور، كما أرسل إلى الفاطميين بمصر، فلم ينجدوه رغم امتلاكهم أسطول بحري، وبذلك ازدادت الصعوبات الملقاة على كاهل المدافعين عن المدينة[6].

يتضح مما سبق أن المدة التي كانت تخضع فيها صور بين سنتي (505_516هـ/ 1111_1122م) لحاكم دمشق لم يتمكن الصليبيون خلالها من احتلال المدينة رغم المحاولات العديدة التي قاموا بها، ويبدو أن ذلك يرجع إلى تفاني أهلها في الدفاع عنها بمساندة القوات الإسلامية الدمشقية، ولمّا خضعت مرة أخرى للفاطميين نجد أنهم لم يكونوا على القدر الكافي من الدفاع عن صور، بل ردوها إلى حاكم دمشق للدفاع عنها عندما قام الصليبيون بمهاجمتها سنة 517هـ/1124م، عوضاً عن عدم تقديم الخلافة الفاطمية بمصر أية إمدادات لسكان المدينة

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص379_384.

(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص207.

(3) عمران، محمود: الحروب الصليبية، ص53.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص28.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص180.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص358؛ للمزيد، ينظر: خرابشة، سليمان: المأمون البطائحي، ص1295.

وحاميتها للدفاع عنها، فأصبحت فريسة سهلة في أيدي الصليبيين، ويتبين بذلك أن هدف الفاطميين هو أن تستمر المدينة في التبعية الدينية والسياسية لمركز خلافتهم في مصر.

بالرغم من عدم إرسال الفاطميين جيشاً للدفاع عن صور إلا أن حامية عسقلان حاولت أن تصرف الصليبيين عن صور، فقامت بمهاجمة بيت المقدس، وقتلت عدداً من الصليبيين المتواجدين خارج المدينة، ولم تستكمل الحامية العسقلانية مسيرها إذ واجهت عدداً من الصليبيين الذين بادروا بالدفاع عن مملكتهم فعادت أدراجها[1]، ثم انطلق جيش آخر من عسقلان وقام بمهاجمة بلدة البيرة – التي تسمى في المصادر الصليبية باسم بيلين– التي تقع إلى الشمال من مدينة القدس، فاستولوا عليها قسراً وقتلوا سكانها الصليبيين، ثم قفلوا عائدين إلى عسقلان دون أن يشكلوا أي خطر على الجيش الصليبي الذي استمر على حصاره ومضايقته لمدينة صور[2] دون توقف إلى أن "خفت الأقوات فيها وعدمت الميرة... وأرسل أهلها المكاتبات إلى مصر تطلب المعونة والمساعدة في مواجهة الحصار، وتمادت الأيام على أهل صور" [3]، إلاّ أن تلك الاستغاثات كانت دون فائدة إذ في منتصف جمادى الأولى 518هـ/ آخر يونيو 1124م أخذت المؤونة والمياه في النفاد، وهلك عدد كبير من رجال الحامية[4]، إلى أن ضعفت نفوس من بقي بها، وأشرفوا على الهلاك بعد أن "يئسوا من نصرة مصر"[5].

خشي طغتكين على حياة سكان صور مدركاً عجزهم عن مواجهة حصار الصليبيين والبنادقة لمدينتهم، في ظل عدم تقديم الفاطمين أي مساعدات تمكّن سكانها من الصمود لفترة أطول؛ فقام طغتكين بمراسلة الصليبيين، وعرض عليهم تسليم المدينة على أن يتم تأمين كل من أراد الخروج منها، ومن أراد منهم البقاء فلهم ما أرادوا على أن تعود إليهم دورهم وممتلكاتهم[6].

تم قبول العرض من قبل زعماء الصليبيين والبنادقة، وفي 22 جمادى الأولى 518هـ/ 7 يوليو 1124م فتحت المدينة أبوابها للصليبيين الذين رفعوا راياتهم على أسوار وأبراج المدينة، وخرج المسلمون منها بأمان[7]، ولم يبق سوى عسقلان خارج حوزة الصليبيين.

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص207.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص39.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص211.

(4) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص272.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص180.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص40؛ ابن القلانسي: ذيل، ص211.

(7) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص215. ذكر المؤرخون المسلمون أن الصليبيين دخلوا صور في 23 جمادى الأولى 518هـ/8 يوليو 1124م. ابن القلانسي: ذيل، ص211؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص359.

وما يثير التساؤل هنا هو مدى تقصير وإهمال الخليفة الفاطمي الآمر، في الدفاع عن صور، حيث لم يقدم لها المساعدة بالرغم من توفر الإمكانيات المادية والبشرية لديه لتسيير الجيوش والأساطيل، حيث امتلك عقب وفاة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ثروة كبيرة، فقد "نقل من أمواله ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وبقي الخليفة في داره نحو أربعين يوماً، والكُتّاب بين يديه، والدواب تحمل ليلاً ونهاراً، ووجد له من الأعلاق النفيسة، والأشياء الغريبة القليلة الوجود مالا يوجد مثله لغيره"[1].

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص336.

المبحث الثاني

عسقلان ودورها في العلاقات الفاطمية الصليبية من سنة 499هـ/1106م حتى سقوطها بيد الصليبيين سنة 548هـ/1153م

أولاً: موقف الفاطميين من الصليبيين بعد فشلهم في استرداد بيت المقدس ودور عسقلان في ذلك:

أدرك الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي عدم جدوى تكرار المحاولات العسكرية ضد الصليبيين لإزالة وجودهم من بلاد الشام عامة وبيت المقدس خاصة، لا سيما بعد فشل الحملات الصليبية الثلاث على بلاد الشام أعوام (494هـ/1101م- 495هـ/1102م – 498هـ/ 1105م)؛ ولذلك عمد الأفضل على انتهاج سياسة جديدة قامت على تركيز جهوده في دعم أهل عسقلان مادياً ومعنوياً، وحثهم على شن غارات متواصلة ضد الصليبيين في مدن الساحل الشامي، وذلك بتطبيق أسلوب الكر والفر، ونصب الكمائن – ما يعرف اليوم بحرب العصابات–[1]، ففي صفر سنة 500هـ/ أكتوبر 1106م انتهزت القوات الفاطمية في مدينة عسقلان إنشغال بلدوين الأول بأمور الجليل فقاموا بالإغارة على طريق يافا– بيت المقدس، مستغلين الدعم الذي قدمته مدن صور وصيدا وبيروت لهم، وقاموا بقتل خمسمائة صليبي بين مدينتي أرسوف ويافا[2]، ثم توجهوا نحو مدينة الرملة التي كان بها حامية صغيرة، وهزموا حاكم يافا الذي جاء بقواته محاولاً الدفاع عن الرملة، واضطر للفرار إلى مدينة يافا تاركاً أربعين رجلاً من المشاة يلقون حتفهم على يد القوات الفاطمية التي توجهت بعد ذلك نحو بيت المقدس وسيطروا على قلعة صغيرة تسمى أرنولف لم يكن بلدوين قد انتهى من تشييدها بعد، وكان الغرض من إنشائها حماية الطريق المؤدي إلى بيت المقدس[3]، وسرعان ما وصلت القوات الفاطمية أمام مدينة بيت المقدس، ولكنها عدلت عن حصارها، واكتفت بتخريب الحقول المحيطة بها، بعد أن علموا بتوجه بلدوين على رأس قواته نحو الجنوب[4].

وفي ربيع الآخر 501هـ/ نوفمبر1107م خرجت قوة من حامية عسقلان تقدر بخمسمائة فارس وألف رجل من المشاة إلى الطريق الذي يربط مدينة يافا ببيت المقدس بعد أن علموا بمغادرة

---

(1) نبهان، عادل: عسقلان، ص176.

(2) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج1، ص307.

(3) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص147.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص148؛ المسحال، حسن: عسقلان، ص100.

جموع كبيرة من الصليبيين من يافا لزيارة بيت المقدس[1]، وقد اعتادت الحامية الفاطمية بعسقلان على نصب الكمائن للصليبين على هذا الطريق، حيث يختبئون في الجبال والكهوف الصخرية، وينتظرون مرور الصليبيين لمهاجمتهم، وقد أشار الرحالة الصليبي سايولف إلى الأعداد الكبيرة من جثث الصليبيين على طول الطريق بين يافا وبيت المقدس، دون أن يتجرأ أحد على دفنها إذ أنه "لو فعل ذلك فإنه سيكون مستعداً لعمل قبر لنفسه، بدلاً من قبر لرفيقه" حيث لا يأمن أحد ذلك الطريق[2].

ما أن وصل الصليبيون موقع الكمين حتى هاجمتهم الحامية العسقلانية؛ فلم يجد الصليبيون بداً من المواجهة، ودارت بين الطرفين معركة شرسة تمكن خلالها العسقلانيون من أخذ بعض الغنائم وارتدوا بها إلى عسقلان ليذهب من تبقى من الصليبيين إلى بيت المقدس بعد أن فقدوا عدداً من رجالهم[3].

لم تتوقف غارات الحاميات الفاطمية على الممتلكات الصليبية في بلاد الشام، ففي سنة 503هـ/1110م تمكن الفاطميون من التوغل في أملاك الصليبيين حتى بلغوا أسوار بيت المقدس، ولم يلبثوا أن انسحبوا بعد أن دمروا الضياع المحيطة بالقدس[4].

يتضح أن تلك الحملات التي كان يرسلها الفاطميون بين الحين والآخر تهدف إلى قض مضاجع الصليبيين في مملكة بيت المقدس، والعمل على تخفيف وطأة الحصار الذي كان يفرضه الصليبيون على مدن الساحل الشامي – بين الحين والآخر– بهدف احتلالها وضمها إلى مملكتهم، ولم يكن الهدف من تلك الحملات العمل على استرداد بيت المقدس أو غيرها من مدن الساحل، إذ أن أعداد المشاركين في تلك الحملات كانت قليلة لا يمكنها أن تحقق ذلك الهدف.

لقد أدرك الفاطميون – متأخرين– ضرورة مواجهة الانتصارات المتلاحقة للصليبيين عليهم في مدن الساحل الشامي، حيث قام الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله – بعد مقتل والي عسقلان جمال الملك سنة 498هـ/1104م– بتوحيد جهود مدينتي صور وعسقلان اللتان بقيتا بأيديهم، وذلك

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص142؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص267.

(2) وصف بيت المقدس، ص23.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص267. ذكر فوشيه الشارتري أن الصليبيين لم يفقدوا في هذه المعركة سوى ثلاثة رجال فقط؛ وهذا عدد قليل إذا ما علمنا أن عدد المقاتلين الصليبيين في المعركة كان 65 رجل في مقابل الحامية الفاطمية التي قدرتها المصادر نفسها بأنها بلغت خمسمائة فارس وألف من المشاة. تاريخ الحملة، ص142.

(4) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص148.

بتعيين والياً جديداً على عسقلان يسمى بشمس الخلافة[1]، وضم إليه ولاية صور، وذلك بغية تهديد مملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال والجنوب، لاسيما وأن عسقلان تعتبر قاعدة متقدمة للقوات البرية والبحرية الفاطمية، في حين تعد صور تعد قاعدة بحرية قوية في الشمال، وبذلك يمكن تنسيق العمليات العسكرية الفاطمية ضد مدن ساحل الشام التي دخلت تحت السيادة الصليبية[2]، إلا أن بلدوين الأول توجه إلى عسقلان، وقام بشن الغارات عليها – بعد أن رتب أمور صيدا– فسارع واليها شمس الخلافة إلى بلدوين "وهادنه وأهدى إليه مالاً وعروضاً"[3]، والتزم بدفع ضريبة سنوية مقدارها سبعة آلاف دينار عن مدينة صور تحمل إليه في مدة سنة وثلاثة شهور[4].

ويرجح نبهان أن شمس الخلافة هادن بلدوين الأول بعد أن فشل الفاطميون في استرداد فلسطين من أيدي الصليبيين، وأنه قد فُرضت عليه اتباع سياسة مرنة مع الصليبيين في ظل سوء أوضاع عسقلان، وصعوبة الدفاع عنها أمام هجمات الصليبيين المستمرة عليها [5]، إلا أن صمود أهالي عسقلان وحاميتها لمدة طويلة في مواجهة الصليبيين قد أظهر عكس ذلك، ويبدو أن شمس الخلافة قد هادن بلدوين "ليمتنع به من الخليفة بمصر"[6]، وليحقق أطماعه بها بعيداً عن الآمر بأحكام الله الفاطمي، ويُعتقد أن الذي دفع شمس الخلافة إلى التفكير بالاستقلال بعسقلان عن الفاطميين، والدخول في مفاوضات مع مملكة بيت المقدس الصليبية هو عدم اهتمام الفاطميين أنفسهم بالمدينة، وبغيرها من مدن الساحل الشامي في مواجهة الأطماع الصليبية المتزايدة بها، وربما شعر شمس الخلافة عدم قدرته على مواجهة الصليبيين في ظل عدم توفر الإمدادات من مصر، خاصة أن عسقلان وصور هما المدينتان الساحليتان ببلاد الشام اللتان كانتا بيد الفاطميين آنذاك، غير أنه لا يوجد مبرر لشمس الخلافة بالتفاوض مع الصليبيين إذا كان هدفه هو تسليم المدينة للصليبيين.

بالرغم من حرص شمس الخلافة على سرية مراسلاته مع بلدوين[7]، إلا أنها وصلت إلى الوزير الفاطمي الأفضل عن طريق أعوانه في عسقلان؛ فعزم على التخلص من شمس الخلافة، فجهز فرقة عسكرية لذلك، وعين عليها رجلاً يدعى عز الملك الأعز، وأمره بالقبض على شمس

---

(1) ذكر المقريزي أن اسم شمس الخلافة أسد. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص50.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص221؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص179.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص258.

(4) ابن القلانسي: ذيل، ص172؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص46.

(5) عسقلان، ص181.

(6) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص88؛ ج5، ص221.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص258.

الخلافة، وأن يحل محله في حكم عسقلان[1]، إلا أن شمس الخلافة أدرك نوايا الأفضل؛ فرفض السماح لعز الملك بدخول عسقلان[2]، كما أخرج شمس الخلافة من كان عنده من عسكر مصر لخشيته من ولائهم للأفضل واتخذ جنداً من الأرمن[3]، ولتعويض قلة الجند التابعين له طلب العون من الصليبيين[4]؛ فرحب بلدوين بذلك، وأرسل إليه ثلاثمائة جندي أنزلهم شمس الخلافة في قلعة عسقلان[5]، وبذلك أصبح الصليبيون هم الطرف المستفيد من نزاع الفاطميين الداخلي بين مركز الخلافة الفاطمية بالقاهرة وبين الوالي الفاطمي بعسقلان، ذلك أنهم كانوا ينتظرون أية فرصة من شأنها إضعاف عسقلان؛ ليتمكنوا من فرض سيطرتهم عليها كسائر مدن الساحل الشامي، خاصة أن عسقلان مثّلت نقطة انطلاق الجيوش الإسلامية البرية والبحرية لمهاجمة مدن مملكة بيت المقدس، عوضاً عن أنها تعد من أكثر مدن الشام التي استعصت على الصليبيين مدة طويلة.

هكذا أصبحت عسقلان على وشك الوقوع في قبضة الصليبيين؛ إلا أن الأفضل اقتنع بعدم محاربة شمس الخلافة خشية أن يقوم شمس الخلافة بتسليم عسقلان للصليبين، فراسله الأفضل وتظاهر بالرضا عنه، وأقره على عسقلان، وأعاد إليه أملاكه بمصر، والتي تم مصادرتها أثناء تمرده على الفاطميين ومهادنته للصليبيين[6].

في الوقت ذاته أراد الأفضل أن يسترد عسقلان من شمس الخلافة دون قتال، فحرّض الأفضل أعيان عسقلان وسكانها على شمس الخلافة، فاستنكروا تحالفه مع الصليبيين، وثاروا عليه، وقتلوه سنة 504هـ/1111م، "ونهبوا داره وجميع ما فيها"[7]، وحاول بلدوين إنقاذ حاميته بالمدينة، إلا أنه وصل أسوار المدينة بعد فوات الأوان، حيث جرت مذبحة في المدينة راح ضحيتها الحامية الصليبية[8]، أما على الجانب الآخر فقد سارع الأفضل بإرسال حامية إلى عسقلان وجعل عليها والياً جديداً وهو مؤيد الدولة خطلخ المعروف بزريق[9].

بعد أن عادت عسقلان تحت السيطرة الفاطمية المباشرة واصلت حاميتها في ظل وزارة

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص46.
(2) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص221؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص50.
(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص259؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص88.
(4) ابن القلانسي: ذيل، ص172.
(5) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص154.
(6) ابن القلانسي: ذيل، ص172؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص46_47.
(7) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص259.
(8) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص154.
(9) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص51.

الأفضل شن هجماتها على الصليبيين، فاستغلوا انشغال بلدوين الأول بمحاربة السلاجقة، وقاموا بشن غارات مفاجئة على بيت المقدس سنة 506هـ/1113م، وتمكنوا من الوصول إلى أسوار القدس، ثم عادوا إلى عسقلان بعد أن أشعلوا النيران في المحاصيل[1].

إن المتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية في تلك المرحلة يلمس فتوراً ملحوظاً في مواجهة الصليبيين ومقاتلتهم، إذ كان هناك اتجاه قوي في المعسكر الفاطمي يميل إلى مهادنة الصليبيين، وعدم الجد في محاولة طردهم من مواقعهم في جنوب بلاد الشام، وظهر ذلك الاتجاه قوياً بين المتطرفين من شيعة البيت الفاطمي، وهم الذين رأوا في بقاء الصليبيين ضماناً لحماية أملاك الفاطميين من أطماع السلاجقة، وزادت سلبية الدولة الفاطمية في تلك المرحلة بمقتل الوزير الفاطمي الأفضل في 23 رمضان سنة 515هـ/5 ديسمبر 1121م، وقيل أن سبب مقتله سماحه لطغتكين – أتابك دمشق السني– بإرسال قوة للمشاركة في الدفاع عن صور، الأمر الذي أثار غلاة الشيعة في مصر، ما أدى إلى مقتل الوزير الأفضل بيد بعض الباطنية الذين كانوا يكرهون الأفضل لأسباب أخرى منها "تضييقه على إمامهم، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها ترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم، والنهي عن معارضتهم"[2].

لكن الخليفة الفاطمي الآمر لم يستطع أن يكشف عن سياسته تجاه الصليبيين بعد مقتل الوزير الأفضل مباشرة حرصاً منه على مكانته في العالم الإسلامي؛ لذلك رأى أن يسترضي الرأي العام ، فأنفذ في السنة الذي قُتل فيها الأفضل حملة كبيرة من عسقلان لحصار يافا مستغلاً انشغال الصليبيين بمحاربة السلاجقة في شمال بلاد الشام، وقامت الحملة الفاطمية بفرض الحصار على يافا من البر والبحر، ثم قاموا بشن هجوم شديد على المدينة، إلا أن الحامية الصليبية صمدت في مواجهة الحصار فاضطر الجيش البري للعودة إلى عسقلان، وأبحر الأسطول الفاطمي إلى صور[3]، ويذكر المؤرخ الصليبي فوشيه الشارتري أن الحامية الفاطمية خرجت من عسقلان بعد عشرة أيام من الحملة السابقة وهاجمت يافا إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها بسبب تصدي الحامية الصليبية لها[4].

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص152_153؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص302_303.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص335_336؛ الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص151_152.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص155_156؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص311؛ الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص152.

(4) تاريخ الحملة، ص156.

ثانياً: حملة بلدوين الأول على مصر سنة 512هـ/1118م وموقف الدولة الفاطمية منها:

تطلع بلدوين الأول – إزاء خطر الفاطميين في الجنوب– إلى ضرورة الاهتمام بتأمين الجبهة الجنوبية للمملكة بعد أن أدرك الأهمية الإستراتيجية للمنطقة، باعتبارها حلقة الوصل بين مصر والشام؛ لذلك استمر الملك الصليبي في جهوده لتحصين المملكة من تلك الجهة لتأمين الحدود من جهة مصر، وقطع الاتصال بين مصر ومدن بلاد الشام الإسلامية، والعمل على إفساح المجال للصليبيين للاتصال بالبحر الأحمر للسيطرة على طرق القوافل التجارية، ومواجهة الحملات العسكرية الموجهة تجاه مدن مملكتهم [1]، وكذلك لتثبيت أقدام الصليبيين في البر بعد أن أخضعوا أغلب مدن الشريط الساحلي الخصيب[2]، وقد وجد بلدوين في موقف الدولة الفاطمية الضعيف والغير قادر على صد هجماتهم خير مشجع ومعين له في تحقيق ذلك[3].

ولتحقيق تلك الأهداف توجه بلدوين على رأس حملة عسكرية إلى شرق الأردن سنة 509هـ/1115م، وشيد قلعة الشوبك[4] "مونتر يال " وشحنها بالرجال والأسلحة[5]، وقد شكلت تلك القلعة خطراً على الجبهة الجنوبية لفلسطين، وبخاصة على عسقلان التي كانت لا تزال تحت السيطرة الفاطمية، إذ أصبحت مركزاً متقدماً لمهاجمتها، وقطع الإمدادات القادمة إليها من الديار المصرية[6].

وفي السنة التالية سار بلدوين على رأس جيشه وزار حصن الشوبك، ثم مضى في طريقه صوب الجنوب حتى وصل إلى أيلة[7] التي تقع على رأس خليج العقبة في منطقة إستراتيجية تتحكم بطرق القوافل التجارية والمواصلات بين مصر وبلاد الشام[8]؛ فخاف سكان المدينة وهربوا عبر السفن، وقام بلدوين بتشييد قلعة في أيلة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام،

---

(1) سلامة، جلال: الاستيطان الصليبي، ص147.

(2) مولر: القلاع زمن الحروب الصليبية، ص14.

(3) الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص178.

(4) الشوبك: هي قلعة حصينة تقع في أطراف بلاد الشام بين عَمّان وأيلة والقُلزم، وتقع قرب الكرك، وقد أدى إنشاء هذا الحصن إلى إبطال السفر من مصر إلى الشام عن طريق البر. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص370.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص157_158؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص326.
Archer,T.A: The Crusades ,p139.

(6) سلامة، جلال: الاستيطان الصليبي، ص148.

(7) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص158؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص160.
Archer,T.A: The Crusades ,p139.

(8) شاهين، رياض: قلعة جزيرة فرعون، ص550.

ولتأمين حدود مملكته الجنوبية[1].

واصل بلدوين تقدمه داخل البحر الأحمر، وبنى قلعة على جزيرة فرعون[2]، وأقام بها حامية عسكرية لمنع وصول الإمدادات من مصر إلى عسقلان[3]، وقد نجح بلدوين في سياسته تلك، إذ تمكن من أخذ قافلة مصرية ضخمة كانت متجهة إلى بلاد الشام، فاضطر الأفضل إلى مهادنته لعدم القدرة على مواجهته[4].

تجرأ بلدوين بعد ذلك على مهاجمة مصر نفسها بغرض الانتقام من المصريين نتيجة استمرار دعمهم لحامية عسقلان في مواجهة أراضي مملكة بيت المقدس، فسار إلى مصر "على رأس جيش كبير"[5]، "قاصداً ملكها والتغلب عليها"[6]، وقد رجح عاشور أن بلدوين استهدف من مهاجمة الفاطميين بمصر أن يضطرهم إلى الاستعانة بحاميتي صور وعسقلان، فيستولى على هاتين المدينتين في غير عناء لاسيما أن تلك المدينتان هما من أكثر المدن الشامية التي استعصت على الصليبيين مدة من الزمن[7].

يتبين مما سبق أن بلدوين كان مدركاً أهمية مصر في مواجهة مشروعه الاستعماري في الشرق الإسلامي؛ لذلك كان عازفاً في بداية توليه مملكة بيت المقدس عن توجيه أية حملة تجاهها خشية تصدي الفاطميين له، خاصة في ظل إمكانياتهم البشرية والمادية الهائلة، والتي تفوق أية قوة إسلامية أخرى كانت موجودة في ذلك الوقت، سواء الخلافة العباسية في بغداد أو السلاجقة في بلاد الشام، فلمّا أيقن بلدوين الأول ضعف الفاطميين وعجزهم عن مواجهة المشروع الصليبي في بلاد الشام،- لا سيما عندما تقلصت إمدادات الفاطميين لمدن الساحل الشامي- وجه إمكانيات مملكته نحو مصر، لاسيما أن مملكة بيت المقدس أصبحت أكثر قوة من ذي قبل خاصة بعد

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص158؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص160

(2) جزيرة فرعون: تقع جزيرة فرعون في الجنوب الغربي من أيلة، على بعد اثني عشر كيلو متراً من خليج العقبة، وإلى الجنوب من طابا بمسافة ثمانية كيلو متر، وعلى بعد 250م من ساحل شبه جزيرة سيناء. شاهين، رياض: قلعة جزيرة فرعون، ص550.

(3) شاهين، رياض: قلعة جزيرة فرعون، ص554.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص36؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص205.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص328. ذكر رنسيمان أن الجيش الذي قاده بلدوين إلى مصر بلغ حوالي مائتي فارس وأربعمائة راجل. تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص161. إلا أن ذلك لايتفق مع رواية المؤرخ الصليبي وليم الصوري المذكورة في المتن، وما يدعم ذلك أن الشارتري ذكر أن المائتي فارس شاركوا مع بلدوين في حملته على العقبة قبل عامين، وليس في توجهه إلى مصر. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص158.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص301.

(7) الحركة الصليبية، ج1، ص328_329.

امتلاكها أغلب مدن الساحل الشامي، وتأمين مملكتهم من ناحية الجنوب ببناء الحصون والقلاع الحربية.

تمكن بلدوين من عبور الصحراء داخل الحدود المصرية حتى بلغ مدينة الفرما[1]، فأحرقها عن بكرة أبيها بعد أن وجدها خالية من السكان، وأحرق جامعها وسائر مساجدها[2]، ثم سار غرباً حتى وصل مدينة تنيس الواقعة على المصب الشرقي لنهر النيل[3].

وما أن علم الأفضل بذلك أمر والي الشرقية بالتصدي لبلدوين[4]، وفي الوقت ذاته كان بلدوين قد عزم على العودة إلى مملكة بيت المقدس بعد أن أصابه مرضاً قاتلاً، ولم يلبث أن توفي بلدوين أثناء عودته إلى مملكته قرب مدينة العريش[5] بمكان سُمي سبخة بردويل نسبة إليه[6]، ونُقل جثمانه إلى بيت المقدس ودُفن بها[7]، بعد أن شق أصحابه بطنه وأخرجوا أحشائه قبل نقله[8].

وبذلك حقاً كان بلدوين الأول أعظم ملوك الصليبيين في الشرق، إذ ترك خلفه مملكة صليبية مترامية الأطراف ووطيدة الأركان شملت فلسطين – باستثناء صور وعسقلان– والمناطق الواقعة بين بيروت شمالاً إلى بئر السبع جنوباً، وشرق الأردن شرقاً حتى المتوسط غرباً، إضافة إلى تشييده العديد من الحصون الواقعة في الجنوب الشرقي من مملكته، والتي تتحكم في الطرق الواصلة بين الشام ومصر[9].

---

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص162؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص328؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص480.

(2) ابن المأمون: أخبار مصر، ص13؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص169.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص329؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص301.

(4) ابن المأمون: أخبار مصر، ص13.

(5) العريش: مدينة جليلة، وآخر مدينة تتصل بالشام من أعمال مصر، بها سوق كبير، وفنادق جامعة كبيرة، ونخل كثير. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص114.

(6) سبخة بردويل: يقال لها بحيرة البردويل، وهي واقعة على شاطئ البحر المتوسط شرقي بورسعيد، وعلى بعد 90 كيلومتراً منها، وهي لم تزل موجودة إلى اليوم، وينسب هذا الاسم إلى الملك الصليبي بلدوين الأول. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص169، هامش7.

(7) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص162؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص329؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص301. ذكرت المصادر الصليبية أن وفاته كانت بسبب سمك أكله من النيل إلى جانب جرح قديم عاوده ألمه. الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص162؛ الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص329. بينما ذكر ابن الأثير أن سبب وفاته أنه سبح في النيل عند تنيس، "فانتقض جرح كان به". الكامل، ج7، ص301.

(8) ابن المأمون: أخبار مصر، ص13؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص169.

(9) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص162.

ثالثاً: سياسة بلدوين الثاني وفولك الأنجوي تجاه عسقلان وموقف الفاطميين منها:

رغم وفاة الملك الصليبي بلدوين الأول إلا أن الصراع في جنوب بلاد الشام استمر بين الصليبيين والقوى الإسلامية، ففي صيف 512هـ/ 1118م حشد الفاطميون جيشاً يقدر بسبعة آلاف فارس[1]، وتوجهوا إلى عسقلان، وفي الوقت ذاته تقدم طغتكين لمساندة الجيش الفاطمي براً[2]، وعلاوة على ذلك فقد أبحر أسطول فاطمي إلى صور[3].

ومن تلك الخطوات يتبين لنا أن طغتكين كان مدركاً لخطورة الصراع بين المسلمين والصليبيين، إذ رأى ضرورة الوقوف إلى جانب الفاطميين رغم اختلافه معهم في المذهب، ويمثل ذلك التوافق بين السلاجقة السنيين والفاطميين الشيعة تأكيداً على أن الفاطميين أدركوا مدى الضعف الذي وصلوا إليه، وعدم قدرتهم على مواجهة الصليبيين لوحدهم.

خشي الملك الجديد – بلدوين الثاني– (512_525هـ/1118_1131م) على ممتلكاته، فطلب عقد هدنة مع طغتكين، فاقترح طغتكين أن يتنازل بلدوين عن كل المناطق الواقعة وراء نهر الأردن، فرفض بلدوين ذلك، فاستمر طغتكين في السير حتى اجتمع مع القوات الفاطمية في عسقلان، وتولى طغتكين القيادة[4].

ورداً على ذلك قام بلدوين الثاني بحشد قواته، واستدعى قوات إضافية من إمارتي أنطاكية وطرابلس، وتمركز في اسدود انتظاراً للمعركة الفاصلة، إلا أن الجيشين الفاطمي والصليبي خشيا من مواجهة بعضهما البعض في ذلك الوقت، فتجمد بينهما الموقف على ذلك الحال مدة قاربت الثلاثة شهور دون أن يجرؤ أحدهما على مهاجمة الطرف الآخر خشية خوض معركة غير محمودة العواقب[5]، فعاد طغتكين إلى دمشق في ظل توجه القائد الفاطمي ضرورة الرجوع إلى مصر دون مواجهة مع الصليبيين، ثم عاد الصليبيون إلى ديارهم[6].

لم تنته الغارات العسكرية بين الطرفين إذ في سنة 513هـ/1119م أغار أمير تل باشر الصليبي (جوسلين كورتناي) على مدينة عسقلان بعد أن جمع جيشاً من طرابلس، إلا أنه هُزم أمام

---

(1) ذكر الشارتري أن الجيش الذي أرسله الفاطميون يقدر بخمسة عشر ألف فارس وعشرين ألف راجل. تاريخ الحملة، ص185.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص302؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص226؛

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص185.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص302.

(5) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص185.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص244.

حامية المدينة[1].

بعد أن أُسر بلدوين الثاني سنة 517هـ/ 1123م على يد بَلْك بن بَهرام شن الفاطميون هجوماً عنيفاً على مدينة يافا، حيث حاصروها براً وبحراً، وضيقوا عليها، ودكوها بآلاتهم العسكرية، ودمروا أجزاء من أسوارها[2]؛ فأرسل الصليبيون مبعوثين إلى الأسطول البندقي يطلب منهم العون[3]، وأعد الصليبيون قواتهم البالغة سبعة آلاف مقاتل وأرسلوهم إلى يافا، وحدثت معركة بين الطرفين اضطر على أثرها الفاطميون إلى رفع الحصار عن يافا، والعودة إلى عسقلان[4]، وعند عودة الأسطول الفاطمي إلى عسقلان وصل الأسطول البندقي الذي خاض معركة حربية ضد أسطول مصر "وكان الظفر للبنادقة"[5]، الذين دمّروا عدداً كبيراً من قطع الأسطول الفاطمي[6]، فسهل ذلك مهمة احتلال الصليبيين لمدينة صور فيما بعد.

ويعلق فوشيه الشارتري على رفع الفاطميين حصارهم عن المدينة بالقول " ولو تجرءوا على إطالة مكوثهم هناك لأخذوا المدينة بلا ريب" بسب قلة مدافعيها، وعدم وجود أسطول بحري لديهم، عوضاً عن أن الفاطميين قد حفروا خندقاً حول المدينة، علاوة عن امتلاكهم أسطول يتكون من ثمانين سفينة[7].

أدرك عندئذ بلدوين الثاني الذي أُطلق سراحه في رجب 518هـ/ أغسطس 1124هـ[8] دَور عسقلان في مواجهة مشروعه الاستعماري؛ فأعد حملة عسكرية سريعة توجهت إلى عسقلان، إلا أن حامية المدينة علمت بنبأ قدوم بلدوين؛ فأعدوا أنفسهم، وواجهوا القوات الصليبية التي قُسمت إلى فرقتين؛ بهدف مباغتة العسقلانيين الذي قُتل منهم أربعين رجلاً، ثم عاد بلدوين إلى بيت المقدس، وكان ذلك في سنة 519هـ/1125م[9].

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص227.

(2) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص195_196. ذكرت المصادر الصليبية أن عدد الجيش الفاطمي الذي جاء لحصار يافا يقدر بستة عشر ألف فارس. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص371.

(3) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص195.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص371. أضاف الصوري أن عدد من قُتل من الفاطميين في هذه المعركة سبعة آلاف فارس. المصدر نفسه، ج2، ص372.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص356.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج2، ص375.

(7) تاريخ الحملة، ص196.

(8) الشارتري: تاريخ الحملة، ص219.

(9) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص49_51.

وفي السنة التالية أبحر الأسطول الفاطمي نحو سواحل الشام بهدف مباغتة الحاميات الصليبية بها، وما أن نضبت مياه الأسطول الفاطمي حتى اضطروا إلى النزول على مقربة من أحد الأنهار للتزود بالمياه، فرآهم رجال الحامية الصليبية فطاردوهم وقتلوا عدداً منهم، فقفل الأسطول الفاطمي عائداً إلى مصر دون تحقيق أي شيء[1].

وعندما توفي الملك الصليبي بلدوين الثاني (525هـ/1131م)، خلفه على عرش مملكة بيت المقدس زوج ابنته فولك الأنجوي (525_537هـ/1131_1142م)[2] الذي دخل في علاقات جديدة مع الفاطميين في مصر، ذلك أن الفاطميين بادروا بإرسال سفارة محملة بالهدايا إلى فولك الأنجوي – ملك مملكة بيت المقدس الصليبية– لإرساء قواعد للعلاقة بين الطرفين في ظل سوء الأحوال الداخلية للدولة الفاطمية في مصر، وعدم قدرتهم على مواجهة الصليبيين، إلا أن الملك الصليبي الجديد اشترط تسليم مدينة عسقلان لعقد الهدنة بين الطرفين، إلا أن الفاطميين رفضوا ذلك[3].

بعد فشل توقيع تلك الهدنة استغلت الحامية الفاطمية في عسقلان فرصة نشوب خلاف بين الملك فولك الأنجوي، وهيو حاكم يافا الصليبي الذي خشي من بطش فولك به، فتوجه هيو إلى عسقلان وتحالف مع حاميتها الإسلامية ضد الصليبيين، وسلم العسقلانيين عدداً من الرهائن كضمان لتنفيذ تحالفه معهم، ثم عاد إلى يافا مرة أخرى؛ وعندئذ أغارت الحامية العسقلانية على الأراضي الخاضعة للصليبين حتى وصلوا إلى أرسوف، ثم عادوا إلى مدينتهم محملين بالغنائم سنة 527هـ/1132م[4]، ورداً على ذلك قام الملك فولك بمهاجمة عسقلان، غير أن حاميتها صمدت في التصدي لهم، ونجح العسقلانيون في قتل عدد من المحاربين الصليبيين بينما فر الباقون تجاه بيت المقدس[5].

أدرك فولك ضرورة القضاء على التحالف الذي كان بين حامية عسقلان وهيو حاكم يافا، فقام فولك بفرض الحصار على مدينة يافا التي كانت تعد المعقل الرئيسي للأمير الصليبي هيو، ونتيجة لذلك الحصار اضطر هيو إلى الخضوع لشروط فولك بترك مدينة يافا وتسليمها للملك، ونفيه خارج المملكة[6]، ويبدو أن هيو قد أدرك أنه غير قادر على تحقيق أطماعه في مملكة بيت

(1) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، ص236_237.
(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص92.
(3) علي، سرور: جودفري دي بويون، ص234_236.
(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص120_121.
(5) علي، سرور: جودفري دي بويون، ص237.
(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص122_123.

المقدس معتمداً على الفاطميين، كما أن الأخيرين لم يستغلوا فرصة الشقاق تلك، ولو أحسنوا استغلالها في إضعاف الصليبيين لتمكنوا من ذلك، حيث أن هيو كان له أتباع وأنصار في مملكة بيت المقدس اللاتينية.

سار فولك الأنجوي على نهج أسلافه في العمل على الحد من غارات حامية عسقلان على ممتلكات الصليبيين فشيد قلعة حصينة بالقرب من بيت نوبة[1] سُميت بقلعة أرنولد، وذلك سنة 528هـ/1133م، وبذلك أمّن فولك الطريق الواصل بين بيت المقدس ويافا[2].

وفي سنة 529هـ/1135م عين الوزير الفاطمي بهرام الأرمني[3] قائده رضوان بن ولخشي[4] والياً على عسقلان، فأخذ رضوان يشن الهجمات على أملاك الصليبيين في الشام انطلاقاً من عسقلان حيث كان يأتيه المدد كل ثلاثة شهور من مصر[5]، وعلى النقيض نجد أن الوزير بهرام الأرمني قام في السنة نفسها بإطلاق سراح أحد زعماء الصليبيين دون مقابل رغم معارضة وإنكار من عامة الناس بمصر[6]، ويبدو أن أصل ملة بهرام الأرمني النصرانية قد دفعته إلى الإحسان للصليبيين، وذلك كله يرجع إلى سوء سياسة الخلفاء الفاطميين في اختيار الوزراء الذين كانوا يمتلكون سلطات أوسع من سلطات الخليفة نفسه.

تحت وطأة هجمات الحامية العسقلانية أمر الملك فولك ببناء قلعة بيت جبرين[7] الواقعة على تقاطع الطرق المؤدية إلى بيت المقدس والخليل وغزة وعسقلان، وقد استقر الصليبيون في منطقة بيت جبرين منذ مجيئهم إلى بلاد الشام، وأصبحت القلعة تابعة لمنطقة الخليل، وكانت تعتبر

---

(1) بيت نوبة: هي بليدة من نواحي فلسطين. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص523. من خلال المتن يبدو أنها تقع في وسط فلسطين ذلك أن من نتائج إنشائها تأمين الطريق الواصل بين القدس ويافا.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص102.

(3) بهرام الأرمني: هو تاج الدولة بهرام الأرمني النصراني، كان والياً على الغربية بمصر، ثم تولى الوزارة للحافظ الفاطمي في جمادى الآخرة سنة 529هـ/ابريل 1135م، ونُعت بسيف الإسلام تاج الخلافة. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص155_156.

(4) رضوان بن ولخشي: ولاه بهرام الأرمني عسقلان سنة 530هـ/ 1136م، ثم أعاده إلى القاهرة، وبعد ذلك ولّاه الغربية إبعاداً له لعدم إحسانه للأرمن، تولى الوزارة للحافظ الفاطمي في جمادى الأولى سنة 531هـ/1137م بعد أن دخل القاهرة منتصراً على الوزير بهرام الأرمني، ونُعت بالسيد الأجل الملك الأفضل، وهو أول وزير تلقب بلقب ملك. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص158_161.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص130_131؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص201.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص156.

(7) بيت جبرين: هي بلدة تقع بين بيت المقدس وغزة، قام صلاح الدين بتخريب قلعتها عندما حرر بيت المقدس من الصليبيين سنة 583هـ/1187م. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص519.

أيضاً مركزاً لمنطقة بئر السبع، وقد منح فولك القلعة للإسبتارية[1]، وكان الهدف الأصلي من إنشاء تلك القلعة هو الدفاع عن حدود مملكة بيت المقدس من جهة عسقلان[2]، تلك المدينة التي كانت تعد رأس حربة الدولة الفاطمية في مواجهة أطماع الصليبيين في مدن بلاد الشام، وقد شكلت عسقلان الخطر الأكبر على الوجود الصليبي، لاسيما وأن الحملات البرية والبحرية الإسلامية كثيراً ما كانت تنطلق من عسقلان لتهديد مملكة بيت المقدس الصليبية، خاصة وأن الحامية العسقلانية تمكنت من الوصول أكثر من مرة إلى أسوار بيت المقدس وتهديدها.

ما أن وصل خبر بناء قلعة بيت جبرين إلى الوزير الفاطمي رضوان بن ولخشي حتى "استجد ديوان الجهاد[3]، واهتم بتقوية الثغور، واستعد لتعمير عسقلان بالعُدد والآلات، وأشاع الخروج إلى الشام لغزو الفرنج، وأظهر من الاعتناء بذلك مالا يوصف"[4] إلا أنه على أرض الواقع نجد أن الدولة الفاطمية لم تقم بأعمال حقيقية ضد الصليبيين في بلاد الشام سوى قيامهم ببعض الغارات على مملكة بيت المقدس الصليبية، فهاجموا اللُّد سنة 513هـ/1137م، وقتلوا بعض الصليبيين، وأسروا عدداً آخر بينهم الأسقف رينيه – رئيس دير القديس جورج–[5]، ورغم تحقيق الفاطميين لذلك النصر إلا أنهم لم يواصلوا هجومهم تجاه ممتلكات الصليبيين، مع أنه كان من المفترض أن يكون لذلك النصر أثر قوي في مواصلة هجماتهم من أجل استرداد أكبر قدر من المدن التي احتلها الصليبيين أو على الأقل تكبيد الصليبيين أكبر قدر من الخسائر في الأرواح والأملاك، انتظاراً لمواجهات جديدة يكون فيها الصليبيون أضعف من ذي قبل.

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص131_132؛ مقامي، نبيلة: فرق الرهبان الفرسان، ص77_78. الإسبتارية: هي طائفة من الفرسان الصليبيين نشأت منذ فجر الحروب الصليبية، وبدأت نشاطها في أول الأمر على هيئة جمعية خيرية هدفها العناية بمرضى الصليبيين، وإيواء حجاجهم، ثم تطورت واكتسبت صفة عسكرية، فأصبح أعضاؤها يرتدون زي الرهبان، ويقاتلون كالفرسان، ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين منذ سنة 531هـ/1137م، وكانوا من الدعائم الرئيسية التي أسهمت في حماية الوجود الصليبي في بلاد الشام لمدة أكثر من قرن من الزمان. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص391_392؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص202؛ هامش 2.

(2) مقامي، نبيلة: فرق الرهبان الفرسان، ص78.

(3) ديوان الجهاد: يقال له ديوان العمائر ويشرف على دار الصناعة بمصر، ويشرف على إنشاء مراكب الأسطول وتسهيل النقل البحري، ومنه ينفق على رؤساء الأسطول ورجاله، وإذا لم يَفِ بواجباته أُخذ له من بيت المال ما يكفيه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص496.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص163_164.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص140. القديس جورج: هو جورج الشهيد عاش بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين، واعتبر القديس الخاص لانجلترا، ويعد أحد أكبر الشهداء المسيحيين شهرة في عهد المسيحية المبكر، ولا زال صيته قائماً على نحو خاص في الشرق. علي، سرور: جودفري دي بويون، ص240، هامش3.

لم ينجم عدم استقرار الصليبيين في جنوب الشام عن هجمات الفاطميين بل نجد أن الأتراك قد ساهموا في قضّ مضاجع الصليبيين آنذاك، حيث قام بعض الأتراك سنة 534هـ/ 1139م بشن هجوم مفاجئ على مملكة بيت المقدس بعد عبورهم نهر الأردن ومرورهم بمدينة أريحا[1]، وقاموا بأعمال النهب والسلب في العديد من المدن والقرى التابعة للصليبين في منطقة البحر الميت مستغلين توجه الجيش الصليبي إلى الأردن، ثم تمكن الأتراك من الدخول إلى مدينة عسقلان محملين بالغنائم بعد أن حاول من بقي من الصليبيين بالمملكة من التصدي لهم[2]، ورداً على ذلك قام الصليبيون في رمضان 535هـ/ ابريل 1141م بشن هجوم على ضواحي عسقلان، ولمّا علمت الحامية الفاطمية بها بقرب وصولهم خرجوا لقتالهم، وقتلوا أعداداً كبيرة منهم[3]، وعندئذ أيقن الملك الصليبي فولك الأنجوي أنه لا بد من اتخاذ إجراءات حقيقية للتصدي لهجمات حامية عسقلان وأهلها، وكذلك لمهاجمة عسقلان نفسها، فعمد سنة 536هـ/1141م إلى إنشاء قلعة جديدة في مكان يُعرف بتل الصافية[4] التي تبعد عن عسقلان ثمانية أميال، وزودها فولك بالمقاتلين الأشداء والأطعمة والذخيرة[5]؛ لتصبح تلك القلعة وغيرها من القلاع قواعد هجومية ترتكز عليها القوات الصليبية التي تحاصر عسقلان، وكذلك خطوط انطلاق لأية حملة جديدة يقوم بها الصليبيون داخل الأراضي العربية[6].

وفي المقابل فإن بناء تلك القلاع كان له مردوده السيّء على نفوس أهل عسقلان الذين أدركوا خطورة ذلك على مدينتهم؛ ولذلك عمدوا إلى إرسال سفارة من قبلهم لمقابلة الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (524_544هـ/1130_1149م) حذرته من مغبة ذلك، والتمست منه اتخاذ إجراءات لحماية مدينتهم التي كانت تشكل خط الدفاع الأساسي عن أملاكه في مصر، لاسيما أنه لم يعد له ممتلكات بالشام سواها[7]، لكنه لم يستجب لطلبهم حيث أنه لم يكن متحمساً لحرب الصليبيين بسبب الأحوال الاقتصادية السيئة في مصر[8]، واكتفى بتزويدهم بالعساكر كل ستة شهور تقوية لهم في مواجهة الأخطار الصليبية[9].

---

(1) أريحا: مدينة تقع في غور بلاد الشام، وهي قريبة من بيت المقدس. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص165.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص172_174.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص273؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص460؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص231.

(4) تل الصافية: هو حصن بفلسطين، يقع بالقرب من بلدة بيت جبرين. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص42.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص209_211.

(6) مولر: القلاع زمن الحروب الصليبية، ص16.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص212؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص206.

(8) ابن القلانسي: ذيل، ص276.

(9) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص190.

المبحث الثالث

سقوط عسقلان بيد الصليبيين سنة 548هـ/1153م وأثره على العلاقات الفاطمية الصليبية

أولاً: موقف الفاطميين من حصار عسقلان وسقوطها بيد الصليبيين سنة548هـ/1153م:

استغل بلدوين الثالث[1] فشل الحملة الصليبية الثانية في احتلال دمشق سنة 543هـ/1148م[2]، وطلب من زعمائها مشاركته في احتلال عسقلان، حيث أن الاستيلاء عليها من شأنه أن يرفع روحهم المعنوية، وأن يعوض فشلهم في احتلال دمشق، كما أن قرب عسقلان من مملكة بيت المقدس والخطر التي تمثله على المملكة دعى بلدوين إلى طلب تلك المساعدة من زعماء الحملة الصليبية الثانية الذين رفضوا ذلك، الطرح وقفلوا عائدين إلى أوروبا[3].

إن بلدوين الثالث عزم على احتلال عسقلان، ومهد لذلك ببناء قلعة في مدينة غزة "حتى يتم تطويق عسقلان من الجنوب" مثلما تم ذلك بالقلاع التي شيدت في الشمال والشرق؛ فاضطر عندئذ الجيش الفاطمي لمحاولة تقديم العون لعسقلان عن طريق البحر خشية الكمائن التي يعدها لهم الصليبيون بغزة[4].

أما بالنسبة للوزير الفاطمي العادل بن السلار[5] فقد أدرك عدم قدرة الجيش الفاطمي على القيام بعمل حربي كبير ضد الصليبيين في ظل سيطرتهم على سواحل الشام وإحاطتهم بعسقلان

---

(1) بلدوين الثالث: تولى الحكم بعد وفاة والده فولك الأنجوي سنة 537هـ/1142م، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر سنة. الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص230.

(2) عن حصار الصليبيين لدمشق، ينظر: الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص310_319؛ ابن القلانسي: ذيل، ص298_299؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص496_497.

(3) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص320.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص329_331.

(5) العادل بن السلار: هو أبو الحسن وقيل أبو منصور علي بن السلار، الملقب بالملك العادل سيف الدين، تربى بالقصر بالقاهرة، ثم تدرج في ولايات الصعيد إلى أن أصبح وزيراً للخليفة الفاطمي الظافر سنة 544هـ/1149م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص416. ذكر المقريزي أنه قبل توليه الوزارة كان والياً على الإسكندرية والبحيرة. اتعاظ الحنفا، ج3، ص196. الظافر: هو أبو المنصور إسماعيل الملقب الظافر بن الحافظ محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز الفاطمي، ولد بالقاهرة سنة 527هـ/1133م، وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه، وقُتل الظافر على يد ابن وزيره نصر بن عباس سنة 549هـ/1154م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص237.

من ناحية البر[1]؛ فعمد منذ توليه الوزارة إلى الاهتمام بالجيش، وزيادة أرزاق جنده، وتفقد خزائن السلاح، وإضافة إلى حبه للجهاد فإنه كان سنيّاً شافعيّاً، يشد من عضد مذهب أهل السنة، وظهر ذلك جلياً عندما قدم عليه الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي[2]، فأكرمه وبنى له مدرسة للشافعية بمدينة الإسكندرية[3].

ويبدو أن مذهبه السني قد جعله يتخذ منحىً آخر يختلف عن توجهات من سبقه من الوزراء، فنجد أنه قد اتخذ إجراءات كثيرة للدفاع عن عسقلان "وسد خللها وحمل إليها من الغلال والأسلحة شيئاً كثيراً"[4]، وما يؤيد إجراءاته تلك إرسال أسامة بن منقذ الكناني[5] للقيام بعقد تحالف مع نور الدين محمود ليقنعه بأن ينازل طبرية لإتاحة الفرصة لعساكر ابن السلار لتدمير قلعة غزة[6] إلا أن نور الدين لم يتمكن من ذلك لانشغاله بمحاربة دمشق من جهة، والصليبيين من جهة أخرى، ورغم ذلك سيّر نور الدين مع ابن منقذ ثلاثين فارساً لقصد عسقلان[7]، فتوجه إليها ومعه مئات الفرسان، وأغار من عسقلان على القوات الصليبية الذين حاولوا منازلتها، ثم هاجم بيت جبرين ويُبْنَى، وقام بقتل عدد من الصليبيين[8].

وفي سنة 546هـ/1151م جهز الوزير العادل بن السلار أسطولاً بحرياً يتألف من سبعين مركباً مشحوناً بالرجال "ولم يخرج مثله في السنين الخالية"، وقد بلغ جملة ما أنفق عليه ثلاثمائة ألف دينار؛ وذلك لمهاجمة الصليبيين في سواحل الشام، وبالفعل نجح في الإغارة على يافا وعكا وصيدا وبيروت وطرابلس، وحقق انتصارات رائعة على الصليبيين، واستولى المهاجمون على عدد

---

(1) نبهان، عادل: عسقلان، ص209.

(2) الحافظ السِّلَفي: هو أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سِلَفة الأصفهاني، وكانت ولادته سنة 472 هـ/1079م تقريباً، وتوفي سنة 576هـ/1180م بالإسكندرية، ونسبته إلى جده إبراهيم سِلَفة، وسِلَفة: لفظ أعجمي، معناه بالعربي ثلاث شفاه، لأن شفته الواحدة كانت مشقوفة، فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص106_107؛ الذهبي: سير، ج21، ص5_6.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص417؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص198.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص199.

(5) أسامة بن منقذ: هو أبو المظفر أسامة بن مُرشد بن علي بن مُقَلَّد بن نصر بن مُنقِذ الكناني الكلبي الشيزري الملقب مؤيد الدولة مجد الدين، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم، وله تصانيف عديدة في الأدب، ولد سنة 488هـ/ 1095م بشيزر، وتوفي سنة 584هـ/1188م بدمشق. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص195_199؛ الذهبي: سير، ج21، ص165_166.

(6) ابن منقذ: الاعتبار، ص10.

(7) المصدر نفسه، ص14_15.

(8) المصدر نفسه، ص16_17.

من مراكبهم الحربية، وقتلوا وأسروا من ظفروا به من الصليبيين، وأرسلوا ما أمكن من الغنائم إلى مصر[1].

لم يكتف ابن السلار بالانتصارات التي حققها على الصليبيين في سواحل بلاد الشام، إذ في سنة 548هـ/1153م أرسل جيشاً "لحفظ البلاد من الإفرنج"، وسيره إلى بلاد الشام لتدعيم الحامية في عسقلان ولمواجهة الأخطار الصليبية[2]، إلا أن الخليفة الظافر الفاطمي استغل خروج الجيش واقترابه من بلبيس فدبر مؤامرة قُتل فيها الوزير العادل بن السلار، وأدى ذلك إلى فشل "مسير العساكر إلى عسقلان، فسر الفرنج ما جرى"[3]، حيث كان مقتله بمثابة توقف الإمدادات العسكرية – من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال– عن مدينة عسقلان التي كانت تعتمد على الدعم البحري الذي كان يقدمه ابن السلار، حيث أهمل الوزير الجديد – عباس الصنهاجي[4]– أمر عسقلان وتركها بلا حامية تتولى الدفاع عنها[5].

يتضح مما سبق أن الخلفاء الفاطميين ووزراءهم الذين على مذهبهم قد أهملوا الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام رغم قدرتهم على ذلك في ظل إمكانيات مصر البشرية والمادية الكبيرة، وأن الذي أخذ على عاتقه محاربة الصليبيين بشكل جدّي هو الوزير السنّي العادل بن السلار الذي لم يألُ جهداً في تقديم أسباب الدفاع وعوامل الصمود لعسقلان، بل ويوجه جيشه للإغارة على مدن الساحل الشامي القابعة تحت حكم الصليبيين، إلا أن جهوده تلك لم تكلل بالنجاح إذ تآمر عليه الفاطميون، وقاموا بقتله ليصبح الطريق مفتوحاً أمام الصليبيين في احتلال مدينة عسقلان، وفي توطيد حكمهم في بلاد الشام.

أصبح الملك الصليبي بلدوين الثالث يتطلع للسيطرة على مدينة عسقلان[6]، وذلك في ظل ازدياد اضطراب أحوال مصر السياسية بسبب العداء المستحكم بين الخلفاء والوزراء من ناحية، والتنافس المرير بين رجال الدولة الفاطمية من ناحية أخرى، ذلك التنافس الذي تحول في معظم الأحيان إلى قتال دموي عنيف[7]، حتى عبر ابن الأثير عن حال خلفاء الفاطميين في ذلك الوقت

---

(1) ابن القلانسي: ذيل، ص315؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص31.

(2) ابن منقذ: الاعتبار، ص18.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص320؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص306.

(4) عباس الصنهاجي: هو أبو الفضل عباس بن أبي الفتوح بن يحي بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، أصله من إفريقية. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص417.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص538؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص224.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص331_333؛ ميخائيل السوري: تاريخه، ص223.

(7) نبهان، عادل: عسقلان، ص215.

بالقول:" وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد، والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته"[1]، لاسيما بعد مقتل العادل بن السلار، حيث ثارت الفتن والاضطرابات من قبل الكتائب العسكرية التي كانت مواليه له[2]، عدا عن أهل السنة الذين لم يرضوا بمقتله؛ إلا أنهم لم يتمكنوا من إعلان عدم رضاهم خوفاً من بطش الخليفة وعباس الصنهاجي[3].

بعد أن تُوج بلدوين الثالث ملكاً للصليبيين في الشرق، وأمسك زمام أمور المملكة لا سيما أنه أصبح الوصي على إمارتي أنطاكية وطرابلس تشجع على مهاجمة عسقلان في ظل عدم تقديم الفاطميين أية إمدادات للحامية بها، وإمكانية اكتمال فرض حصار كامل على عسقلان ببناء قلعة غزة وغيرها من القلاع كما ورد آنفاً[4].

قبل أن يهاجم بلدوين الثالث عسقلان أوعز إلى فرقة من جيشه بتدمير الأشجار القريبة من المدينة، بغرض الضغط على سكانها وإلحاق الضرر بهم قدر المستطاع، ونجح الصليبيون في تحقيق ذلك، لاسيما أن الحامية الفاطمية في المدينة لم تتجرأ على الخروج لقتالهم، واكتفوا بالتحصُّن داخل أسوار المدينة، وفي الوقت ذاته توجه بلدوين مصطحباً قادته وقواته التي جمعها من كل أرجاء مملكة بيت المقدس الصليبية وتوجه إلى عسقلان، فوصل أسوارها، وضرب عليها الحصار في 27 شوال 547هـ/25 يناير 1153م، كما أوعز إلى حاكم صيدا بالإبحار إلى ساحل عسقلان وحصارها من البحر لمنع وصول الإمدادات من مصر إليها، فخرج حاكم صيدا بنفسه يقود أسطولاً يتكون من خمسة عشر سفينة لإطباق الحصار[5].

لم يلبث بلدوين أن شدد الحصار على المدينة، وذلك عقب قدوم جموع كبيرة من الحجاج الأوروبيين لزيارة بيت المقدس بعد أربعة شهور من الحصار، حيث أمر بلدوين بمنع الحجاج من العودة إلى بلادهم دون المشاركة في حصار عسقلان، فاستجابوا له وشاركوا في حصارها، وعلاوة على ذلك قام الملك الصليبي بإنفاق مبالغ طائلة من الأموال في شراء سفن جديدة، واستدعى الصناع والعمال، وأمرهم ببناء برج من الخشب، وغطوه بالجلد من الداخل والخارج لحمايته من خطر الحرق، وتوفير الحماية لمن بداخله من المقاتلين؛ فاشتد الموقف على أهالي عسقلان وحاميتها، وأرسلوا إلى خليفة مصر "المرة تلو المرة يلتمسون منه إسعافهم بالنجدة على أسرع

---

(1) الكامل، ج7، ص538.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص320؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص205.

(3) خليل، محمد: الاغتيالات السياسية، ص141.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص336_340.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص349_350، 354. قدر المؤرخ النصراني ميخائيل السوري أن عدد المدافعين عن عسقلان يبلغ عشرين ألف مقاتل. تاريخه، ص223.

وجه"[1]، كما أرسلوا يستغيثون بكل من نور الدين محمود – حاكم حلب–، ومجير الدين آبق[2] – حاكم دمشق– اللذان اجتمعا واتفقا معاً على حرب الصليبيين، وتقديم العون لسكان عسقلان، فهاجما مع جندهما عدداً من حصون الصليبيين، وقتلوا عدداً كبيراً من حامياتهم، ثم قفلوا عائدين كلٌّ إلى مدينته[3]. وقد أرجع مؤرخ معاصر ذلك إلى النزاع الذي دبّ بينهما على مدينة بانياس قبل وقوعها بأيديهما[4].

بعد خمسة شهور متتالية من الحصار ضعفت نفوس المدافعين، وكادوا يسلّمون المدينة للصليبيين؛ إلا أن أسطولاً مصرياً يزيد عن سبعين سفينة تمكن في ربيع أول 548هـ/يونيو 1153م، من اجتياز سفن الأسطول الصليبي المقيم على ثغر عسقلان[5] بعد أن ألحقوا أضراراً به وظفروا بعدة مراكب منه، ونزل رجال الأسطول الفاطمي على ساحل عسقلان، واستقبلهم أهلها فقويت نفوسهم بعد أن أمدهم رجال الأسطول بالجنود والمال والذخيرة[6].

ضاعف الصليبيون جهودهم في ضرب أسوار المدينة وأبراجها ودورها، ودكوها بالحجارة دون توقف، فدمروا عدداً كبيراً من دورها، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، وأطلق الصليبيون من برجهم المتحرك السهام على المدافعين وقتلوا عدداً منهم؛ فصمم المدافعون على تدمير ذلك البرج، فخرجوا من المدينة على حين غرة، وتسللوا إلى معسكر الصليبيين وأضرموا النيران في ذلك البرج، وألحقوا به أضراراً كبيرة[7].

تمكن الصليبيون من إحداث ثغرة في سور المدينة، فحاول عدد من فرسان الصليبيين دخول عسقلان من تلك الثغرة، فوقفت لهم الحامية العسقلانية بالمرصاد، وقتلوا منهم أربعمائة

---

(1) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص355_356.

(2) مجير الدين آبق: هو أبو سعيد مجير الدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين، تولى دمشق عقب وفاة والده في شعبان سنة 534هـ/1140م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص296_297؛ ثم أخذها منه نور الدين محمود وعوضه عنها بحمص، ثم أخذها منه وعوضه عنها ببَالس، ثم قصد آبق بغداد، إلى أن توفي بها سنة 564هـ/1169م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص184، 188. بالس: هي بلدة ببلاد الشام، تقع بين حلب والرقة، وعلى الضفة الغربية لنهر الفرات. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص328.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص320_321؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص43.

(4) نبهان، عادل: عسقلان، ص222. ذكر الذهبي أن نور الدين وآبق عادا بعد أن بلغهم أخذ عسقلان وتخاذل أهلها واختلافاتهم. تاريخ الإسلام، ج37، ص43_44.

(5) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص358.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص321؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص276.

(7) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص361_362.

رجل[1]، ثم قام المدافعون بسد الثغرة التي حدثت في السور بأعمدة خشبية ضخمة – كان الأسطول الفاطمي في ميناء عسقلان قد وفرها–، ودعموا الأبراج المجاورة من السور الذي تهدم جزء منه[2].

صمدت الحامية الفاطمية – يشد عضدها أهل عسقلان– داخل المدينة، وألحقوا الضرر بالصليبيين، كما تمكنوا من مباغتة القوات الصليبية خارج المدينة، وشنوا هجمات عليهم "وردوا الفرنج إلى خيامهم مقهورين"[3].

عندئذ عقد الملك بلدوين الثالث اجتماعاً مع كبار قادته العسكريين والدينيين ، وتشاور معهم بخصوص جدوى استمرار حصار عسقلان، وقد انقسم الصليبيون في ذلك الشأن إلى فريقين: أحدهما أخذته الريبة في مقدرة الصليبيين على اقتحام المدينة، وفضلوا الانسحاب عنها بعد أن قُتل عدد من رجالهم وأُسر عدد آخر، عوضاً عن نفاد مواردهم التي كانت بحوزتهم، ويؤيد هذا الرأي الملك الصليبي وكبار قادة المملكة الدينيين؛ أما الفريق الآخر فكان يرى ضرورة استمرار فرض الحصار على المدينة رغم ما لاقوه من متاعب[4].

وبينما بدأ الملك الصليبي يَهُم برفع الحصار عن عسقلان والعودة عنها وصل إلى مسمعه أخبار تفيد بوقوع الفتن بين سكان مدينة عسقلان، ووقع بينهم قتلى، "وكان سبب هذا الاختلاف أنهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين، ادعت كل طائفة منهم أن النصرة من جهتهم كانت، وأنهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين فعظم الخصام بينهم إلى أن قتل من إحدى الطائفتين قتيل، واشتد الخطب حينئذٍ، وتفاقم الشر، ووقعت الحرب بينهم، فقتل بينهم قتلى"[5]؛ فتشجع الملك الصليبي بلدوين على إعادة فرض الحصار على عسقلان، وعزم هو وجنده على احتلالها في هذه المرة، فشنوا هجوماً عنيفاً على المدينة، وقتلوا عدداً كبيراً من حاميتها[6].

لمّا عاين رجال الأسطول الفاطمي – الراسي على الساحل – ما يحدث لعسقلان من قِبل الصليبيين حتى أصابهم الرعب والخوف وبادروا بركوب سفنهم وقفلوا عائدين إلى مصر، تاركين

---

(1) ميخائيل السوري: رواياته، ص223. ذكر وليم الصوري أن عدد من قُتل من الصليبيين في تلك الحادثة أربعين مقاتل فقط. الحروب الصليبية، ج3، ص363.

(2) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص364.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص538.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص365_366؛ ميخائيل السوري: تاريخه، ص223؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص227.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص538.

(6) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص366؛ ميخائيل السوري: تاريخه، ص223.

أهل عسقلان يواجهون مصيرهم أمام جحافل الصليبيين[1]؛ ليفتحوا المجال للصليبيين على مصراعيه باحتلال المدينة التي صمدت أمام هجماتهم المتوالية مدة خمسين سنة كان الدور الأكبر لسكانها في الدفاع عنها.

ويبدو أن عودتهم إلى مصر كانت بتعليمات من القيادة الفاطمية في القاهرة، حيث أشار المؤرخ ابن أيبك إلى تقصير الفاطميين في تقديم الدعم لأهالي عسقلان الذين كانوا "في أشد الأحوال منتظرين النجدة تأتيهم من مصر"[2]، وأضاف المؤرخ نفسه أن الوزير الفاطمي عباس الصنهاجي، ونائبه تميم المعروف بالأمين قد دخلا في مفاوضات مع الصليبيين، تعهد خلالها الفاطميون بتسليم عسقلان للصليبين مقابل السماح لهم بنقل الرأس المزعوم للحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهما– من عسقلان إلى القاهرة، فوافق الصليبيون على ذلك العرض المغري، وسمحوا بخروج والي عسقلان سيف المملكة وقاضيها، وبصحبتهما الرأس المزعوم وجميع الستائر والأمتعة الموجودة في مشهد رأس الحسين بعسقلان، ووفروا لهما جميع أسباب الحماية والرعاية حتى وصلوا إلى القاهرة[3].

عندئذ يئس رجال عسقلان من نجدة الفاطميين، فقرروا تسليم مدينتهم للصليبين، وعقد أعيان المدينة مؤتمراً شعبياً حضره جميع سكان المدينة ذكروا فيه الأوضاع الصعبة التي وصلت إليها مدينتهم نتيجة حصار الصليبيين وهجماتهم، وعرضوا على أهالي المدينة التسليم، فوافق المجتمعون على ذلك، وأرسلوا وفداً لبلدوين الثالث وعرضوا عليه تسليم المدينة مقابل السماح لهم بمغادرتها بأمان، فوافق بلدوين على ذلك، ودخل بقواته إلى المدينة، وسمح لسكانها بمغادرتها عن طريق البر، وتكفل بحمايتهم وزودهم بالأدِلاّء والمرشدين حتى مدينة العريش[4].

ويعزي نبهان قبول تسليم المدينة بأمان وحماية العسقلانيين إلى أن بلدوين أراد أن يجنب قواته خسائر كبيرة حتماً كانت ستتكبدها لو اقتحمت المدينة بالقوة، إضافة إلى أن الملك الصليبي أراد عدم إثارة الفاطميين وتعكير صفو التقارب بينهما[5].

وهكذا تمكن الصليبيون من إخضاع مدينة عسقلان بعد أكثر من خمسين سنة من سقوط بيت المقدس، ويمكن الإشارة هنا إلى أن سقوط المدينة يرجع بالدرجة الأولى إلى اختلاف أهواء

---

(1) ميخائيل السوري: تاريخه، ص223؛ نبهان، عادل: عسقلان، ص228.

(2) ابن أيبك: الدرة المضية، ص562_563.

(3) المصدر نفسه، ص549؛ للمزيد، ينظر: نبهان، عادل: عسقلان، ص228.

(4) الصوري، وليم: الحروب الصليبية، ج3، ص367_371.

(5) نبهان، عادل: عسقلان، ص230.

الفاطميين أنفسهم – الخلفاء والوزراء–، وقيامهم بقتل الوزير السنّي العادل بن السلار، حيث لو لم يُقتل لما تجرأ الصليبيون على حصار عسقلان والسيطرة عليها، ذلك أنه أعد حملة قادها بنفسه إلى عسقلان، لكنه لم يصل إليها بسبب تآمر الفاطميين عليه وقتله، ذلك عوضاً عن عدم تقديم الخلافة الفاطمية لسكان عسقلان أسباب الصمود من رجال وأسلحة وميرة بالشكل الذي يسهم في الدفاع عنها مدة طويلة، عوضاً عن عودة الأسطول الفاطمي إلى مصر بأمر من قيادة الفاطميين بمصر الذين سلّموا عسقلان للصليبيين دون مقابل، ذلك أنهم طلبوا نقل الرأس المزعوم للحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– من عسقلان إلى مصر مقابل تسليم المدينة للصليبيين الذين قبلوا ذلك العرض دون تفكير.

تلك المدينة التي كانت نقطة انطلاق الجيوش الإسلامية لمحاربة الصليبيين، وقض مضاجعهم لفترة طويلة، ومهاجمة مدنهم وحصونهم وقلاعهم التي احتلوها أو أنشئوها في بلاد الشام، وتهديد مدينة بيت المقدس الصليبية، ولا غرو أنه خلال خمسين سنة من صمود عسقلان وهجماتها المتكررة على مملكة بيت المقدس الصليبية قد تكبّد الصليبيون الخسائر البشرية والمادية، والمتاعب الجمة والكثيرة، وذلك منذ احتلالهم بيت المقدس، وحتى تسلّمهم عسقلان من الفاطميين.

ثانياً:موقف الفاطميين من الصليبيين عقب سقوط عسقلان وعلاقتهما بنور الدين محمود:

في الوقت الذي فيه احتل الصليبيون مدينة عسقلان كانت الخلافات في مصر على أشدها إذ قُتل الخليفة الفاطمي الظافر بمؤامرة دُبرت من وزيره عباس وابنه نصر، وبإشارة من أسامة بن منقذ الكناني، ولم يقف الوزير عباس عند ذلك الحد بل أقدم على قتل اثنين من إخوة الخليفة، وهما: يوسف وجبريل متهماً إياهما بقتل الخليفة الظافر، ثم أحضر عباس ابناً للظافر صغير السن له من العمر خمس سنوات اسمه عيسى، فقلده الخلافة ولقبه الفائز بنصر الله[1].

أساء الوزير عباس إلى أهل القصر الفاطمي، وأخذ أموالهم وجواهرهم النفيسة؛ وبذلك "اختلفت عليه الكلمة بمصر"[2]، فثار أهل القصر عليه مستندين إلى الجند السودانيين، كما استنجدوا بالصالح طلائع بن رزيك[3]، وأرسلوا شعورهم طي الكتب، وكان طلائع في مُنْية بني

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص540_541؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص239.

(2) أبو الفداء: المختصر، ج2، ص99.

(3) ذكر المقريزي أن عمة الفائز هي من أرسلت بالكتب إلى طلائع بن رزيك. اتعاظ الحنفا، ج3، ص215. طلائع بن رزيك: هو أبو الغارات طلائع بن رزيك ويلقب بالملك الصالح، تولى الوزارة بمصر للفائز بنصر الله الفاطمي في 19 ربيع الأول سنة 549هـ/ 3 يونيو 1154م، وقُتل في 19 رمضان سنة 556هـ/ 11 سبتمبر 1161م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص526_528.

خصيب[1]، والياً عليها وعلى أعمالها[2].

استغل طلائع بن رزيك نداء أهل القصر فجمع أنصاره، وتوجه بهم نحو القاهرة قاصداً الوزير عباس، فلما سمع عباس بقدوم طلائع هرب من مصر إلى الشام مصطحباً الأموال التي جمعها من قصور الفاطميين، وأثناء مسيره واجهه الصليبيون وقاموا بقتله، وأخذوا ما كان معه، وأسروا ابنه نصراً[3]، وبذلك أصبح الطريق ممهداً لدخول طلائع بن رزيك إلى القاهرة، وظهوره كقوة جديدة مؤثرة في السياسة الفاطمية بمصر في ذلك الوقت في ظل ضعف الخلفاء الفاطميين، وغياب دورهم في مباشرة الأمور.

تمكن طلائع من دخول القاهرة، وعندئذ خَلَع عليه الخليفة الفاطمي الفائز خِلَع الوزارة، واستقر طلائع في الأمر، وراسل الصليبيين، وبذل لهم مالاً مقابل إرسال نصر بن عباس للتخلص من معارضيه، ورحب الصليبيون بذلك فأرسلوا نصراً فقُتل وصُلب في القاهرة، كما قتل طلائع عدداً من أعيان مصر، وصادر أموالهم خشية أن يثوروا عليه وينازعوه في الوزارة، وبذلك استتبت أمور الوزارة بمصر لطلائع بن رزيك[4].

إن اختلال أحوال مصر وعدم استقرارها، وكثرة الصراعات بين الوزراء وقادة الجيش جعل القوى الخارجية تتطلع إليها إذ أن العباسيين كانوا يأملون في إعادتها إلى الخلافة العباسية ببغداد، واعتبروها البوابة الحقيقية لطرد الصليبيين من بلاد الشام، ولذلك كتب المقتفي لأمر الله العباسي[5] عهداً لنور الدين محمود – صاحب دمشق– بولاية مصر والساحل، وبعث إليه بمراكب، وأمره

---

(1) مُنْية بني خصيب: هي مدينة حسنة كبيرة، كثيرة الأهل والسكن، تقع على شاطئ النيل في الصعيد الأدنى. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص218. ذكر المقريزي أن طلائع كان والياً على الأشمونين والبهنسا. اتعاظ الحنفا، ج3، ص215. الأشمونين: هي مدينة قديمة عامرة، وتعتبر من كور الصعيد الأدنى بمصر، تقع غربي نهر النيل، وهي ذات بساتين ونخل كثير. معجم البلدان، ج1، ص200. البهنسا: هي مدينة تقع بالصعيد الأدنى غربي نهر النيل، كما أنها كورة كبيرة وعامرة. معجم البلدان، ج1، ص517.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص541.

(3) أبو الفداء: المختصر، ج2، ص99؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص52؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص217_218. ذكر بعض المؤرخين أن أخت الظافر كاتبت الصليبيين الذين بعسقلان، وشرطت لهم مالاً جزيلاً إذا قبضوا على الوزير عباس، فاستجابوا لذلك وخرجوا لغايتهم، وقُتل عباس على أيديهم، وأخذ الصليبيون أمواله، وأرسلوا نصر بن عباس إلى مصر في قفص حديد. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص220؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص297.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص542؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص298_299.

(5) المقتفي لأمر الله: هو أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ولد سنة 489هـ/1096م من أم حبشية، وبويع له بالخلافة سنة 530هـ/1136م، وتوفي سنة 555هـ/1160م. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص343، 346.

بالسير إليها لما بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده[1].

لم تقتصر الأطماع الخارجية بمصر على العباسيين فحسب، بل نجد أن الصليبيين تطلعوا إلى بسط نفوذهم عليها مستغلين حالة الضعف التي كانت تعاني منها الخلافة الفاطمية، والصراع المرير بين الوزراء على السلطة، وقد دعم ذلك التوجه سيطرة الصليبيين على عسقلان سنة 548هـ/1153م، وسقوط دمشق بيد نور الدين محمود سنة 549هـ/1154م، إذ أن ذلك أدى إلى صعوبة توجه أنظار الصليبيين نحو شمال الشام وشرقه في ظل وجود قوة جديدة[2].

ولتحقيق ذلك الهدف عمد الصليبيون إلى إرسال حملة عسكرية كبيرة سنة 549هـ/1154م، مؤلفة من خمسين مركباً سارت من جزيرة صقلية إلى مدينة تنيس حيث قامت بمهاجمتها، وقتلت وأسرت ونهبت ما قدرت عليه، وعادت بالغنائم والأموال التي لا تحصى بعد ثلاثة أيام من الهجوم على المدينة[3].

وأمام ذلك الخطر الصليبي، وفي ظل عدم استقرار مصر عزم طلائع بن رزيك على مصالحة الصليبيين بمال يحمل إليهم من الخزانة ومن أموال الأمراء المقطعين، إلا أن الأمراء المقطعين رفضوا الاستجابة لعرض طلائع بن رزيك، وعزموا على عزله واستبداله بأمير آخر يرتضون به[4]، ما يوحي بإنفراد طلائع بن رزيك بأمور الدولة الفاطمية بمصر بغض النظر عن الخليفة أو أمراء الأقاليم الذين كانوا لا ينظرون إلاّ ما يتوافق مع مصالحهم دون مراعاة أوضاع مصر السياسية والاقتصادية، إذ أنهم تصدوا لطلائع عندما طلب منهم المال لإعطائه للصليبيين لمصالحتهم رغبة في الحفاظ على أملاكهم ومكانتهم، وليس لأن المال سيُعطى للصليبيين.

عندئذ اضطر طلائع إلى التراجع عن عقد الهدنة مع الصليبيين مستغلاً سيطرة نور الدين على مدينة دمشق سنة 549هـ/1154م، وبدأ يشن هجماته على الصليبيين، وكانت أولى حملاته تلك عندما سير الأسطول الفاطمي بحراً في حملة استطلاعية سنة 550هـ/1155م، وعين عليها "مقدماً من البحرية شديد البأس بصيراً بأشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج... وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن والمسالك"[5]، ثم قام الأسطول بمهاجمة

---

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص49؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص223.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص327؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص543. أخذ نور الدين محمود دمشق من صاحبها مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص243.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص331؛ ابن أيبك: الدرة المضية، ص563؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص207.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص52.

(5) ابن القلانسي: ذيل، ص332.

ميناء صور، واستولى على ما فيه من المراكب والأموال، وقتلوا عدداً من الصليبيين، ثم عادوا إلى مصر بعد أن أقاموا في صور، واستولوا على مراكب للحجاج النصارى[1].

وفي ربيع أول 552هـ/ ابريل 1157م حدث تقارب بين الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك في القاهرة وبين نور الدين زنكي في دمشق، حيث قدم الأمير زين الحجاج رسولاً من نور الدين – وفي صحبته الرسول الذي أرسله ابن رزيك من قبل لنور الدين– إلى القاهرة، وحمل معه مطالعات إلى طلائع بن رزيك والخليفة الفاطمي الفائز بأمر الله[2]، ويبدو أن ذلك التقارب الذي تم بين الطرفين كان هدفه مواجهة الخطر الصليبي في بلاد الشام، إذ استجاب طلائع بن رزيك لطلب نور الدين في مواجهة الصليبيين فشرع في تجهيز حملة فاطمية كبيرة مؤلفة من العساكر وعربان البلاد للإغارة على مملكة بيت المقدس الصليبية[3].

أرسل طلائع بن رزيك سرية عسكرية لمهاجمة الصليبيين في 17 جمادي الأولى 552هـ/ 27 يونيو1157م، وأتبعها بأخرى في 14 جمادى الآخرة/ 24 يوليو من السنة نفسها، فوصلت الأولى إلى غزة[4]، ونهبت أطرافها، ثم سارت إلى مدينة عسقلان فأسرت وغنمت، ثم عادت إلى مصر محملة بالغنائم، وفي الوقت ذاته سعى طلائع إلى تأمين طرق المواصلات بين مصر والشام في ظل التقارب بينه وبين نور الدين محمود، فجرد سرية ثالثة إلى بلاد الأردن، فاصطدمت بقوات الصليبيين بالقرب من نهر الأردن، ثم عادت إلى القاهرة بعد أن أبلت بلاءً حسناً، واستمر طلائع على سياسته الرامية إلى مهاجمة أملاك الصليبيين في بلاد الشام إذ في شهر رجب/أغسطس من السنة ذاتها أرسل حملة عسكرية إلى الشوبك فعاثوا فيها وغاروا ورجعوا بالغنائم ومعهم كثير من الأسرى، كما سير طلائع أسطوله البحري حيث قام بمهاجمة مدينة بيروت الساحلية، وهزم عساكر الصليبيين بها، وغنم وأسر عدداً منهم، ثم أرسل أسطوله للمرة الثانية إلى سواحل الشام حتى وصل إلى عكا وهاجمها، وقاتل حاميتها الصليبية وأسر منهم حوالي سبعمائة نفس، وعاد الأسطول في رمضان سنة 552هـ/ أكتوبر1157م منتصراً، ثم أرسل سرية أخرى أغارت على أملاك الصليبيين في الشام، وعادت محملة بالغنائم، وأرسل سرية جديدة في أول ذي القعدة/ ديسمبر من السنة نفسها وأردفها بأخرى بعد خمسة أيام، ووصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق وعادوا محملين بالغنائم[5].

---

(1) أبو شامة: عيون الروضتين، ق1، ص238؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص224.

(2) ابن القلانسي: ذيل، ص338.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص230.

(4) ذكر الذهبي أن الفاطميين تمكنوا من استعادة غزة من يد الصليبيين خلال تلك السرية. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج38، ص15؛ دول الإسلام، ج2، ص68.

(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص230.

كثّف طلائع بن رزيك سنة 553هـ/1158م نشاطه العسكري ضد الصليبيين، إذ أرسل في المحرم/ فبراير من تلك السنة جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل بقيادة شمس الخلافة أبو الأشبال ضرغام[1] للإغارة على مملكة بيت المقدس، وتمكنت القوات الفاطمية من مهاجمة أملاك الصليبيين حتى وصلوا إلى منطقة تل العجول القريبة من غزة، وفي منتصف صفر/ مارس جرت معركة بين الطرفين هُزم فيها الصليبيين[2]، "وقُتل وأُسر منهم العدد الكثير، والجم الغفير، وحاز [الجيش الفاطمي] من أموالهم وعددهم وأثاثهم مالا يكاد يُحصى"[3].

وفي جمادى الأولى 553هـ/ يونيو 1158م أرسل طلائع جيشاً هاجم أعمال مدن وقرى مملكة بيت المقدس وعاد محملاً بالغنائم، كما حدثت معركة أخرى بين الطرفين قرب طبرية هُزم فيها الصليبيون أيضاً، ولاستكمال أعمال الإغارة على أملاك الصليبيين أنفق طلائع على إعداد جيشه مائة ألف دينار، فلما تكامل تجهيز جيشه أرسل خمس سفن في 5 شعبان 553هـ/1 سبتمبر 1158م إلى مدن الساحل الشامي الخاضعة للصليبيين، وظفر الأسطول الفاطمي بعدة مراكب للصليبيين، ثم عاد محملاً بالغنائم، وعندئذ لم يتمكن حاكم العريش الصليبي من مواجهة الفاطميين، بل نجد أن الصليبيين وتحت وقع تلك الهجمات اضطروا إلى طلب الصلح مع الفاطميين[4].

رفض الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك الصلح الذي طلبه الصليبيون، ويبدو أن ذلك الرفض قد جاء في ظل التعاون بينه وبين نور الدين، إذ كثيراً ما كان يطلب طلائع من نور الدين العمل على مهاجمة مملكة بيت المقدس الصليبية[5]، وما يدلل على التعاون النوري الفاطمي في تلك الآونة عودة الرسول النوري الحاجب محمود المسترشدي من مصر مصطحباً معه أحد مقدمي الأمراء الفاطميين، ويحمل جواباً على المراسلات التي تمت مع الوزير طلائع بن رزيك "، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة الملكية النورية، وأنواع الأثواب المصرية والجياد العربية"[6].

---

(1) ضرغام: هو أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوّار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص440، 442.

(2) أبو شامة: عيون الروضتين، ق1، ص247_248؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج38، ص21. ذكر ابن القلانسي أن تلك المعركة كانت في شهر ربيع أول 553هـ/ 1158م. ذيل، ص351.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص351.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص233_234.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص326.

(6) ابن القلانسي: ذيل، ص353؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص338. ذكر المقريزي أن الأمير محمود المسترشدي قد عاد من مصر، وهو محمل بالهدايا التي تبلغ قيمتها ثلاثين ألف دينار نقداً، وسبعون ألف دينار عيناً، تقوية لنور الدين على مهاجمة الصليبيين. اتعاظ الحنفا، ج3، ص234.

في ظل تبادل السفارات بين نور الدين محمود والوزير طلائع بن رزيك تشجع الأخير على مهاجمة أملاك الصليبيين إذ أرسل سرية قامت بالإغارة على حاميتهم عند بلدة العريش في رمضان 553هـ/ أكتوبر 1158م، وتمكنت تلك السرية من إلحاق الهزيمة بالصليبيين وغنمت منهم الكثير من الأموال والخيول[1]، ثم أرسل سرية أخرى وصلت إلى بيت جبرين، وتمكنت من الانتصار على الصليبيين، وعادت محملة بالغنائم، ثم سير طلائع الأسطول الفاطمي إلى تنيس حيث أقلع منها، وقام بهجوم على أملاك الصليبيين، ثم عاد محملاً بالغنائم، وفي السنة ذاتها هاجم الفاطميون بيت المقدس، ووصلوا إلى وادي موسى[2]، ثم أغاروا على الشوبك، ثم عاد العسكر إلى مصر[3].

لم تتوقف هجمات الفاطميين على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام إذ في السنة نفسها سارت العساكر الفاطمية في البر والبحر لمهاجمة معاقل الصليبيين ونجحت في إلحاق الهزيمة بهم، وعادوا إلى مصر محملين بالأسرى، وكان بينهم أخو حاكم جزيرة قبرص الذي استقبله طلائع بن رزيك بالحفاوة والتكريم، ثم أرسله إلى ملك القسطنطينية[4].

نتيجة لكثرة الغارات التي وجهها طلائع بن رزيك على الصليبيين في الشام اضطر الصليبيون إلى مراسلة طلائع بن رزيك مرة أخرى، حيث بعثوا إليه رسولاً في شهر ربيع أول 554هـ/1159م ومعه هدية لطلب الهدنة، إلا أن الوزير الفاطمي رفض ذلك، واستمر في سياسته المؤيدة لنور الدين محمود والمناوئة للصليبيين، وفي الوقت نفسه عاد محمود المسترشدي وبصحبته الأمير عز الدين أبو الفضل غسان بن محمد بن جلب راغب الآمري إلى مصر، موفديْن من قِبل نور الدين لتوحيد الجهود في مواجهة الأخطار الصليبية في البر والبحر، حيث نقلا إلى الوزير الفاطمي طلب نور الدين المتمثل في إرسال سرية فاطمية لمهاجمة الصليبيين في غزة ليشغل القوات الصليبية، ومن ثم يقوم نور الدين بمهاجمة أملاكهم في شمال بلاد الشام فاستجاب طلائع لذلك، وأرسل ما طُلب منه، وعاد جيشه منتصراً[5].

لقد تمكن الفاطميون في عهد الوزير طلائع بن رزيك من تكبيد الصليبيين خسائر كبيرة، ويبدو أن الهجمات التي قام بها الجيش الفاطمي في البر، والأسطول في البحر كانت عبارة عن حرب استنزاف كان الغرض منها قض مضاجع الصليبيين في بلاد الشام، وعدم إعطائهم أي

---

(1) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص338؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص233.

(2) وادي موسى: هو وادي يقع بين بيت المقدس وأرض الحجاز، وينسب إلى سيدنا موسى –عليه السلام–. الحموي: معجم البلدان، ج5، 346.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص233.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص234.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص236.

فرصة لالتقاط أنفاسهم للإغارة على مصر، لا سيما وأن الفاطميين بسقوط عسقلان فقدوا جميع ممتلكاتهم في الشام، ولم تكن تلك الغارات حرباً كبيرة وموجهة تهدف إلى استرداد أملاكهم في بلاد الشام، إذ أن عدم استقرار أحوال مصر الداخلية لم تؤهلها لتحقيق ذلك الهدف الكبير.

تطلع طلائع بن رزيك إلى تحقيق نتائج ملموسة من وراء هجماته على أملاك الصليبيين في بلاد الشام، وفي هذه المرة خرج طلائع إلى مهاجمتهم بنفسه سنة 554هـ/1159م، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة بلغت حوالي مائتي ألف دينار، وتمكن من الوصول إلى مدينة بلبيس، إلا أنه عاد إلى القاهرة بسبب حدوث اضطرابات داخلية[1] اضطر على أثرها إلى عقد صلح مع الصليبيين تكفل بمقتضاه طلائع بن رزيك إلى دفع ثلاثة وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم في كل سنة[2].

يتضح أن التعاون بين نور الدين محمود والوزير الفاطمي طلائع بن رزيك كان له دور في تحقيق الانتصارات المتتالية على الصليبيين في شمال الشام وجنوبه، فإلى جانب الغارات التي شنها الفاطميون كان آنذاك نور الدين يشن الغارات المتوالية على أملاك الصليبيين في الشام، لاسيما المناطق القريبة من أملاكه[3]، إلا أن المعضلة الكبيرة التي كثيراً ما كانت تواجه طموح الوزير الفاطمي تتمثل في عدم استقرار مصر، واستمرار الاضطرابات فيها، نتيجة الصراعات الدائرة بين الوزير وأمراء الأقاليم في ظل ضعف الخليفة الفاطمي.

ظل طلائع بن رزيك مستبداً بأمور مصر وخليفتها الذي "ليس معه أمر ولا نهي، ولا تعد كلمة"[4]، كما استمر على احتقاره لأفراد القصر الفاطمي خاصة والشعب المصري عامة، وما يدلل على ذلك قوله: "وما علموا أنني كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم"، وذلك عندما سمع ضجة الناس وفرحهم بتولية العاضد[5] الخلافة بعد وفاة الفائز سنة 555هـ/1160م[6]، وبذلك "استقر العاضد اسماً والصالح معنى"[7]، بل نجد أن طلائع بن رزيك قد أحكم قبضته على الخليفة الجديد، فزوجه من ابنته فأصبح وزيره وصهره[8]، وقصد طلائع بزواجه ابنته من العاضد الفاطمي

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص439_440.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص259.

(3) ابن القلانسي: ذيل، ص340_341؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج38، ص16_17.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص239.

(5) العاضد: هو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، ولد سنة 546هـ/1151م، وتوفي سنة 567هـ/1171م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص109_111؛

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص597.

(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص244.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص596.

أن يُرزق منه ولداً فيجتمع لبني رزيك الخلافة مع الملك[1]، إلاّ أن هدفه ذلك لم يُحقق، إذ أن سياسته في اضطهاد أفراد البيت الفاطمي جعلتهم يضجرون منه، ويدبرون المكائد له حتى تمكنوا من قتله في رمضان 556هـ/ سبتمبر 1161م[2]، وكانت آخر كلماته عند وفاته أسفه وندمه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الصليبيين، وعدم قضائه على الدعوة الفاطمية بمصر، وإقامة الدعوة للخلافة العباسية، وكذلك تحذيره لابنه من شاور[3] حاكم الصعيد، وألا يتعرض له بإساءة لأنه لن يأمن عصيانه والخروج عليه[4].

وبذلك يتبين أن طلائع بن رزيك كان بعيد النظر، بصيراً بالسياسة؛ إذ كان مدركاً أن وجود الفاطميين في مصر، وبقائهم على سدة الحكم بها كان له أسوأ الأثر على مصر، ورأى ضرورة عودة مصر إلى الخلافة العباسية مرة أخرى؛ لأن ذلك هو السبيل الأفضل لتحرير بلاد الشام من أيدي الصليبيين الغزاة.

تولى الوزارة بعد مقتل الصالح طلائع ابنه رُزِّيك [5] بعد أن أوصى أبوه بذلك، وسار رُزِّيك على نهج أبيه في حربه للصليبين إذ تصدى لهم حينما أغاروا على أعمال الحوف[6].

عمل رُزِّيك داخلياً على إصلاح سياسة والده، "وسامح الناس بما عليهم من البواقي الثابتة في الدواوين، وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة، وقام عن الحاج بما يستأديه منهم أمير الحرمين... وظفر بقتلة أبيه"[7]، ويبدو أن رُزِّيك كان يهدف من وراء ذلك إلى كسب عطف رجال

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص246.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص595؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج38، ص34. ذكر بعض المؤرخين أن من دبّر قتل طلائع هي عمة العاضد الفاطمي. أبو شامة: الروضتين، ص345؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص246.

(3) شاور: هو أمير الجيوش أبو شجاع شاور بن مُجير بن نزار من قبيلة ربيعة العربية، ولاه الصالح بن رزيك الصعيد الأعلى، ثم ندم على توليته، تولى شاور الوزارة في شهر صفر سنة 558هـ/ يناير 1163م بعد أن قُتل العادل بن الصالح بن رزيك، وقُتل شاور في ربيع الأول سنة 564هـ/ ديسمبر 1168م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص439، 443.

(4) ابن أيبك: الدر المطلوب، ص19.

(5) رُزِّيك: هو محي الدين رزيك بن طلائع بن رزيك، ويكنى بأبي شجاع، تولى الوزارة في اليوم التالي لمقتل أبيه، ولُقب بالعادل الناصر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص528.

(6) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص54_55. الحوف: هي منطقة تقع شرق مصر، وتقسم إلى حوفين: الحوف الشرقي والحوف الغربي، وهما متصلان، أول الحوف الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط، ويشتملان على بُلدان وقرى كثيرة. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص322.

(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص253.

القصر خاصة والمصريين عامة، إذ أن سياسة والده تجاههم قد جعلتهم يستاؤون منه، ويتآمرون عليه حتى تمكنوا من قتله.

حاول المقربون من الوزير العادل رُزِّيك أن يُحسِّنوا إليه صرف شاور عن ولاية قوص[1] ليتم الأمر له بلا منافسة، فاستجاب العادل لذلك، فأقصاه عن منصبه أواخر سنة 557هـ/1162م – بالرغم من وصية والده بعدم عزله –، وعين بدلاً منه الأمير نصر الدين شيخ الدولة ابن الرفعة والياً على قوص[2] معتقداً بذلك أن أمور مصر كلها سوف تكون بيده.

(1) قوص: هي مدينة كبيرة، عظيمة واسعة، وتعد قصبة صعيد مصر، وهي محط التجار القادمين من عدن، وأكثرهم من هذه المدينة، وهي شديدة الحر لقربها من البلاد الجنوبية. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص413.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص254. ذكر ابن الأثير أن أهل العادل هم الذين أشاروا عليه بعزل شاور "وخوفوه منه إن أقرّوه على عمله". الكامل، ج7، ص608.

الفصل الرابع

الصراع الزنكي الصليبي على مصر وأثره في سقوط الدولة الفاطمية

المبحث الأول: حملات شيركوه على مصر وأثرها على الصراع الإسلامي الصليبي

المبحث الثاني: وزارة صلاح الدين على مصر وإنهاء الخلافة الفاطمية

المبحث الثالث: التآمر الفاطمي الصليبي ضد صلاح الدين الأيوبي

المبحث الأول

حملات شيركوه على مصر وأثرها على الصراع الإسلامي الصليبي

أولاً: حملة شيركوه الأولى سنة 559هـ/1164م:

لم تدم وزارة العادل رزيك طويلاً إذ في شهر محرم 558هـ/ ديسمبر 1162م ثار شاور بن مجير السعدي على رزيك – بعد أن أمر الأخير بعزله–، وسار من الصعيد بجموع كثيرة، فعبر واحات[1]، واخترق من تلك البراري إلى أن وصل تروجة[2]، وتوجه منها إلى القاهرة[3]؛ فاضطر عندئذ العادل رزيك إلى الفرار من القاهرة، ومعه جماعة من غلمانه، وعدة بغال موقرة من المال والجواهر والثياب الخاص، ونزل بظاهر إطفيح[4] عند مقدم العرب سليمان بن الفيض، فأخذه وصادر كل ما معه، ثم سلمه إلى شاور فقتله[5]؛ لتدخل مصر حلقة جديدة من حلقات الصراع الدموي العنيف بين الوزراء وقادة الأقاليم بمصر على منصب الوزير، الذي كانت بيده السلطات الحقيقية، وقد علق عمارة اليمني والمقريزي على مقتل رزيك بن طلائع بالقول: "وإنما زالت دولة مصر بزوالهم"[6].

أصبح شاور وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد في 22 محرم 558هـ/31 ديسمبر 1162م[7]، ولقب نفسه بأمير الجيوش، واستصفى أموال بني رزيك[8]، وقتل كل من يشك في ولائه له[9]، وأساء شاور وأبناؤه السيرة[10]، إلا أنه لم يكد يمضي على توليه الوزارة تسعة شهور حتى نافسه

---

(1) واحات: هي ثلاث كور غربي مصر تمتد جنوباً من غرب الصعيد إلى غرب القاهرة شمالاً. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص324.

(2) تروجة: قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص27.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص444؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص25؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ص55؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص18؛ الزيبق، إبراهيم: شاور بن مجير السعدي، ص112.

(4) إطفيح: مدينة تقع على شاطئ النيل الشرقي بصعيد مصر الأدنى. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص218.

(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص258. ذكر الأصفهاني أن رزيك قد فر من القاهرة مع عمه فارس المسلمين وسيف الدين حسين فردهما، واستجار برجل من العرب يعرف بابن البيض. البستان الجامع، ص362.

(6) النكت العصرية، ص68؛ اتعاظ الحنفا، ج3، ص259.

(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص259.

(8) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص68؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص608؛ الروحي: بلغة الظرفاء، ص166؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص259؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص18.

(9) ابن أيبك: الدر المطلوب، ص25.

(10) العيني: عقد الجمان، ص95.

عليها القائد أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار المنذري مقدم الأمراء البرقية[1]، وصاحب (نائب) الباب[2]، الذي تمكن من تحقيق النصر على شاور بعد قتال بين الطرفين انتهى بمقتل الأمير طي بن شاور يوم الجمعة 28 رمضان 558هـ/ 30 أغسطس 1163م وأخيه سليمان، وأُسر أخيه الثالث علي الملقب بالكامل[3]، وخلع الخليفة الفاطمي العاضد خِلَعَ الوزارة على ضرغام، ولقبه بـ "الملك المنصور"[4].

لمّا تمكن ضرغام من الوزارة قتل عدداً من الأمراء الفاطميين لتخلو له البلاد من منازع؛ "فاختلت الدولة بقتل رجالها، وذهاب فرسانها"[5]، وكانت تلك الصراعات بمثابة فرصة سانحة لكي يتدخل الملك الصليبي عموري الأول – الذي تولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية عقب وفاة أخيه بلدوين الثالث سنة 557هـ/1162م– في شئون مصر بحجة عدم دفع الضريبة فتوجه بجيشه جنوباً إلى مصر، ووصلوا إلى السدير[6]، ثم نزلوا فاقوس[7]؛ فأرسل إليهم ضرغام أخاه ناصر المسلمين هماماً، فالتقى معهم وحاربهم، إلا أنه هُزم منهم، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الصليبيين فساروا إلى بلبيس، وسيطروا على جزء من حصنها، وتمكنوا من هزيمة الجيش الفاطمي، ثم عاد الصليبيون إلى ساحل الشام بعد أن أسروا عدداً كبيراً من الأمراء الفاطميين[8]، حيث وجدوا صعوبة في مواصلة زحفهم في الأراضي المصرية بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقاً رهيباً

---

(1) البرقية: هي فرقة من أمراء الجيش، أنشاها الصالح بن رُزِّيك، وجعل ضرغام بن عامر بن سوار الملقب بأبي الأشبال فارس المسلمين مقدمهم، ثم صار صاحب الباب. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص260.

(2) صاحب (نائب) الباب: هي وظيفة تلي رتبة الوزارة، وكان يقال لها الوزارة الصغرى، وصاحبها ينظر في المظالم إذا لم يكن وزير صاحب سيف، وإن كان الوزير صاحب سيف كان هو الذي يجلس للمظالم بنفسه، وصاحب الباب من جملة من يقف في خدمته. القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص483.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص259_261؛ الخطط المقريزية، ج2، ص391؛ للمزيد، ينظر: عمارة اليمني: النكت العصرية، ص68_69؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص608؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج2، ص444. ذكر ابن خلدون أن ثورة ضرغام كانت بعد سبعة شهور من وزارة شاور. تاريخ، ج5، ص289.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص137؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ص25؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج7، ص261؛ الخطط المقريزية، ج2، ص392؛ الزيبق، إبراهيم: شاور بن مجير السعدي، ص112.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص608؛ ابن خلكان: وفيات، ج2، ص444؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص264؛ الخطط المقريزية، ج2،ص392.

(6) السدير: تقع شرق مصر، وهي أول مدينة يلقاها القاصد من الشام إلى مصر. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص202.

(7) فاقوس: مدينة في حوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الحوف الأقصى. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص232.

(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص262؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص18.

جعل الصليبيين يتقهقرون إلى الساحل الشامي[1]، وكانت تلك الحملة فرصة للصليبين في الاطلاع على أحوال مصر الداخلية.

في ظل استيلاء ضرغام على الوزارة بمصر اضطر شاور إلى الفرار منها قاصداً بلاد الشام في رمضان 558هـ/أغسطس _ سبتمبر 1163م مستنجداً بالسلطان نور الدين محمود – حاكم دمشق– حيث وصل إلى دمشق في 6 ربيع أول 559هـ/2 فبراير 1164م[2]، وتعهد شاور لنور الدين إن ساعده في إعادته إلى منصبه والقضاء على منافسه ضرغام أن يدفع له ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر، ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر، وأن يتصرف شاور بأوامر نور الدين في مصر[3]، إلا أن نور الدين كان " يُقَدِّم في ذلك رِجلاً، ويؤخر أخرى، تارة تحمله رعاية قصد شاور، وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق وكَون الفرنج فيه، إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً"[4]، فضلاً عن أن نور الدين لم يكن يثق كثيراً في شاور أو يطمئن إلى أنه سيفي بوعده حين يستقر له الأمر في مصر، في ظل مسئوليته هو وغيره من وزراء مصر عن سوء أوضاعها[5]، وفي الوقت الذي استقبل فيه نور الدين محمود شاور، أرسل منافسه ضرغام إلى نور الدين يطلب منه تأييده على منصبه الجديد، وبأن يقبض على شاور، إلا أن ذلك الطلب لم يلق اهتماماً من قبل نور الدين[6].

استجاب نور الدين إلى مطلب شاور بعد تردُّد حيث "قَوّى عزمه على إرسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها، وإزاحة عللها، وكان هوى أسد الدين (شيركوه) في ذلك، وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يُبالى بمخافة"[7]، فاستدعاه نور الدين من حلب[8] – حيث كان ينوب بها عنه– إلى دمشق، وأمره بالمسير إلى مصر مع العساكر بصحبة شاور[9]، والعمل على إعادته إلى منصب

---

(1) قاسم، عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص143.

(2) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص356.

(3) ابن الأثير: الباهر، ص119؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص344؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص444؛ العمري: مسالك الأبصار، ص33؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص327؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص264؛ الخطط المقريزية، ج1، ص932؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص330؛ السيد عبد العزيز سالم، سحر: تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص52.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص614؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص356.

(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص444؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص265.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص262_263؛ الزيبق، إبراهيم: شاور بن مجير السعدي، ص113.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص614؛ الباهر، ص121؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص356.

(8) ذكر ابن خلدون أن أسد الدين شيركوه كان بحمص عندما استدعاه نور الدين محمود. تاريخ، ج5، ص290.

(9) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص265.

الوزارة بمصر،"والانتقام ممن نازعه في الوزارة"[1]، إلا أن الهدف الحقيقي لنور الدين محمود هو"مراقبة بلاد مصر والتطلع على أحوالها"[2]، و"ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية"[3]، وبالتالي يتم إعادة مصر إلى المذهب السني، وإتمام تطويق مملكة بيت المقدس[4].

يبدو أن نور الدين قد أدرك أهمية استغاثة شاور به، إذ أن ذلك يفتح المجال له للاطلاع على مصر أكثر من ذي قبل، بل وتسهيل الدخول إليها وتوحيدها مع بلاد الشام للوقوف في وجه الصليبيين ومحاصرة مملكتهم، عوضاً عن أن مصر مشهورة بخيراتها الوفيرة التي لا تنضب، والتي لا غنى عنها لمواصلة الجهاد ضد العدوان الصليبي في بلاد الشام[5]، كما أن نور الدين ربما كان يخشى من استيلاء الصليبيين على مصر في ظل سوء أوضاعها الداخلية.

خرج شيركوه من دمشق وبصحبته شاور يوم الاثنين 15 جمادى الأولى 559هـ/10 ابريل 1164م، وفي الوقت ذاته خرج نور الدين إلى أراضي الصليبيين القريبة من دمشق ليمنعهم من التعرض لأسد الدين، "فكان قصارى أمر الفرنج أن يمتنعوا من نور الدين ويحفظوا بلادهم"[6]، وقد اصطحب أسد الدين شيركوه معه في مسيره ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب على كراهية منه، "وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه"[7].

توجه شيركوه في سيره إلى مصر من المناطق الواقعة شرقي الشوبك حتى نزل أيلة، وسار منها إلى السويس، ولم يكن الوزير الفاطمي ضرغام على علم بذلك، إذ في الوقت نفسه وصل رسل الصليبيين إلى القاهرة لطلب مال الهدنة المقرر لهم في كل سنة على أهل مصر، وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار، فماطلهم ضرغام وعادوا[8].

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص614؛ الباهر، ص121؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص345؛ ابن خلكان: وفيات، ج2، ص444؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص138؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص266؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص18.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص145؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص75؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص356؛ حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج4، ص179.

(3) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص354.

(4) باركر، آرنست: الحروب الصليبية، ص79.

(5) الغامدي، عبد الله: استرداد بيت المقدس، ص33.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص614؛ الباهر، ص121؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص345؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص357؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص266.

(7) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص76؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص334.

(8) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص138.

لما علم ضرغام بقدوم أسد الدين وبصحبته شاور، أدرك أنه ضائع لا محالة، إذ لم تكن عنده ثقة بقواته، وعندئذ وجه نداءً جديداً إلى الصليبيين، وعرض على عموري – إذا استطاع أن يقطع الطريق على شيركوه– عقد تحالف معه يجعل مصر في حالة انتصار الصليبيين مقطعة لمملكة بيت المقدس بدلاً من أن تكون تابعة لنور الدين، وقد قبل عموري ذلك العرض واستعد للتدخل، ولكنه لم يكن يمتلك قواتاً كافية، فقد نجح نور الدين في تحويل أنظار الصليبيين إلى ناحية بانياس ليحمي تقدم قوات شيركوه، وجعلهم مضطرين إلى استبقاء بعض القوات هناك(1).

وصلت قوات نور الدين بقيادة أسد الدين إلى بلبيس، فخرج إليهم أخو ضرغام الأمير ناصر المسلمين هُمام في 1 جمادى الآخرة 559هـ/26 ابريل 1164م بستة آلاف فارس من الفاطميين "وانهزموا بأجمعهم، وغنم العسكر الشامي جميع ما كان معهم، فقووا به، وتبعوهم وأسروا منهم جماعة الأمراء"(2)، وعاد الأمير ناصر الدين إلى القاهرة مهزوماً(3).

اضطر ضرغام إلى مكاتبة أمراء الأقاليم والأعمال المصرية، فوصلوا إليه لخوفهم من أسد الدين ومن معه، فضمهم ضرغام إلى جيشه، وتمركزوا معاً داخل القاهرة، ووقعت عدة معارك بين ضرغام ومن معه من الأمراء الفاطميين، وبين شاور وقوات نور الدين بزعامة أسد الدين شيركوه، وبعد قتال مرير بين الطرفين تخلى الخليفة الفاطمي العاضد عن نصرة ضرغام بعد أن رأى ضعفه، وقلة حيلته في مواجهة شاور وشيركوه، فأمر المقاتلين بالكف عن القتال، وانضم رجال ضرغام إلى شاور، ففترت همة أهل القاهرة، وحاولوا الخروج منها آمنين(4).

يتبين مما سبق أن الخليفة الفاطمي العاضد ووزيره ضرغام قد خشيا على مكانتيهما في مصر؛ فاستعانا بالصليبيين ضد شاور وقوات نور الدين محمود، ويوضح ذلك مدى ميل قادة مصر – خلفاء وأمراء– إلى الزعامة والرئاسة بغض النظر عن مصلحة المسلمين العامة، كما يمثل تخلي العاضد وغيره من قادة الأعمال عن ضرغام عند ضعفه على خشيتهم، وحرصهم الشديد على مكانتهم ومناصبهم في حال زوال الوزير ضرغام، لذلك فضلوا الوقوف إلى جانب شاور وأسد الدين شيركوه.

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص276؛ سيد، أيمن: الدولة الفاطمية، ص290؛ الشيخ عيد، يوسف: أثر الحركات الباطنية، ص157.

(2) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص47؛ للمزيد، ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص444؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص139.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص614؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص345؛ الروحي: بلغة الظرفاء، ص166؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص444؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص139.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص268_269؛ الخطط المقريزية، ج2، ص392_393.

وصل أسد الدين وبصحبته شاور القاهرة في أواخر جمادى الآخرة 559هـ/ مايو1164م، وقتلوا ضرغام وأخاه ناصر الدين[1]، وفور القضاء على ضرغام أصدر الخليفة الفاطمي العاضد سجلاً بتولية شاور الوزارة للمرة الثانية[2]، وكان ذلك في 4 رجب 559هـ/28 مايو 1164م[3]، ويعلق على ذلك المؤرخ أبو شامة بالقول: "ولم يُغلب وزير لهم وعاد غير شاور"[4].

ما أن عاد شاور إلى الوزارة وأحكم قبضته عليها حتى تناسى وعوده لنور الدين محمود "وعاد عمّا كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية"، وأرسل إلى أسد الدين شيركوه – الذي كان مقيماً آنذاك بظاهر القاهرة– "يأمره بالعود إلى الشام"[5]، بعد أن دفع له شاور ثلاثين ألف دينار نظير الخدمات التي قدمها له في مساندته في القضاء على ضرغام، وإعادته إلى منصب الوزارة مرة أخرى[6]، إلا أن أسد الدين رفض العودة إلى الشام، وأرسل إلى شاور قائلاً: "أن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده؛ ويكون لك ثلث مُغَل البلاد؛ والثلث الآخر لشاور، والثلث الأخير لصاحب القصر يصرفه في مصالحه؛ فأنكر شاور ذلك، [وأرسل إلى أسد الدين رسالة يقول فيها] إنما طلبت نجدة، وإذا انقضى شغلي عادوا، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا، وأنا أُرضي نور الدين، فقال شيركوه: لا يمكنني مخالفة نور الدين، ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره... فأخذ شاور عند ذلك لمحاربة شيركوه، واستعد أيضاً شيركوه"[7].

أمر شاور بإغلاق القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحرب، وعندئذ أشار صلاح الدين يوسف

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص614_615؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص345؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص444؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص368؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص139؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص334؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص290؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص393؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص330. ذكر أبو شامة أن مقتل ضرغام كان يوم الجمعة 28 جمادى الآخرة 559هـ/23 مايو 1164م. الروضتين، ج1، ص358.

(2) عن تولية شاور الوزارة للمرة الثانية، والسجل الذي أصدره العاضد، ينظر: صبح الأعشى، ج10، ص310_318.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص273؛ للمزيد، ينظر: ابن الأثير: الكامل، ج7، ص615؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص445؛ ج7، ص145؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص139؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص334؛ الشيال، جمال الدين: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص171؛ عن تولية شاور الوزارة للمرة الثانية، والسجل الذي أصدره العاضد، ينظر: صبح الأعشى، ج10، ص310_318.

(4) الروضتين، ج1، ص358.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص615؛ الباهر، ص121؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص345؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص358_359؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص139.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص273.

(7) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص61؛ العيني: عقد الجمان، ص97_98.

بن أيوب على عمه أسد الدين بالتأخر إلى بلبيس، وكان أسد الدين لا يقطع أمراً دون صلاح الدين[1]، ويبدو أن شيركوه قد اقتنع بفكرة ابن أخيه، فسيّر جزءاً من جيشه بقيادة صلاح الدين إلى بلبيس لجمع الغلال والأتبان[2] والأحطاب "ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة"[3]، وتمكن صلاح الدين من تسلم المدينة "وحكم على البلاد الشرقية"[4]، فرحب أهالي تلك المناطق بصلاح الدين وجيشه، والدليل على ذلك عدم إشارة المصادر التاريخية إلى قيامهم بثورة أو انتفاضة على صلاح الدين عندما دخل تلك المناطق.

وفي الوقت ذاته أخذ شيركوه في قتال شاور، والتقوا في 23 شعبان 559هـ/16 يوليو 1164م في كوم الريش[5]، فهُزم شاور، ونُهبت خيمه، وأُسر عدد من قادة جيشه، وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة بعد أن انضم إليه عدد كبير من عسكر المصريين، إلا أن العاضد أمر بالتصدي له، فأسرع الجيش الفاطمي بسد الثغرة التي أحدثها شيركوه وجنده في سور القاهرة[6].

لما تحقق شاور أنه لا قبل له بشيركوه كتب إلى الملك الصليبي عموري الأول "يستنجده، ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين من مصر، ويقول له متى استقروا في البلاد قلعوك كما يريدون أن يفعلوا"[7]، كما تعهد شاور بإعطاء عموري ألف دينار عن كل مرحلة[8] يرحلها إلى مصر[9].

بذلك يتبين أنه إذا كان لجوء شاور لطلب نجدة نور الدين يعد خيانة، لأنه قصد أميراً سنياً موالياً لبغداد، ومخالفاً لعقيدة الدولة التي يمثلها، فإن لجوءه في هذه المرة إلى ملك مملكة بيت المقدس الصليبية يعد خيانة كاملة الأركان، إذ أنه لم يطلب في هذه المرة مساعدة حاكم مسلم، بل

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، 330؛ مصطفى، شاكر: صلاح الدين، ص66.

(2) الأتبان: جمع تبن، وهو عصيفة (ما تهشم) من سيقان البُر (القمح) ونحوه. ابن منظور: لسان العرب، ص419.

(3) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص61؛ العيني: عقد الجمان، ص98.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص615؛ الباهر، ص121؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص345؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص395؛ العمري: مسالك الأبصار، ص34.

(5) كوم الريش: هي بلدة يمر النيل بغربيها، وكانت من أجمل متنزهات القاهرة، يرغب أعيان الناس في سكناها للتنزه بها، وفي سنة 806هـ/1404م، زاد النيل، وخرب جزءاً منها، وتوالت المحن وخربتها. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص274، هامش4.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص274_276.

(7) المصدر نفسه، ج3، ص276.

(8) المرحلة: هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم بالسير المعتاد على الدابة وتقدر بـ 24 ميلاً. نحو. محمد، علي جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، ص56.

(9) العيني: عقد الجمان، ص98؛ شاندور: صلاح الدين الأيوبي، ص76.

لجأ إلى أعداء المسلمين يطلعهم على نقاط ضعف بلاده ويطمعهم فيها[1].

رحب الصليبيون باستغاثة شاور بهم أملاً في الاستيلاء على مصر، "ورأوا أنه فرج لم يحتسبوه؛ فسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته، وطمعوا في ملك الديار المصرية"[2]، حيث أن الصليبيين كانوا يعتقدون أن استيلاء نور الدين على مصر، سيكون بمثابة تقليص مملكتهم، وهلاك دولتهم في بلاد الشام.

أعد عموري جيشه وخرج من عسقلان[3] مستعيناً بجمع كبير من الحجاج الصليبيين الذين جاءوا من الغرب الأوروبي بقصد زيارة بيت المقدس، وسار إلى مصر، ولمّا علم نور الدين بتوجه عموري إلى مصر "سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير، فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر في مقامهم، إذ ملك أسد الدين مصر أشد، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس (عموري) في الباقين إلى مصر"[4]، لأنه أدرك أهمية مصر في مستقبل الصراع الصليبي الإسلامي، إذ تعد البوابة الحقيقية لبلاد الشام من ناحية الجنوب، وتوفر الأمان بها يعني استقرار مملكة بيت المقدس الصليبية.

لمّا وصل عموري إلى فاقوس قبض من شاور سبعة وعشرون ألف دينار مقابل سبع وعشرين مرحلة سار بها من عسقلان إلى فاقوس[5]، ولما بلغ أسد الدين شيركوه ذلك ارتحل عن القاهرة مع من انضم إليه من أهل مصر ومقاتليها، وتوجه إلى بلبيس، حيث سبقه إليها ابن أخيه صلاح الدين، وأعد بها الغلال وغيرها من أسباب الصمود في مواجهة الفاطميين والصليبيين، وخرج شاور في عساكر مصر، واجتمع بجيش الصليبيين بقيادة عموري، وحاصروا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس مدة ثلاثة شهور[6] عمل خلالها الصليبيون برجاً عظيماً لإطباق الحصار

---

(1) سيد، أيمن: الدولة الفاطمية، ص291.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص615؛ الباهر، ص121؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص359؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص139؛ العيني: عقد الجمان، ص98.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص277.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص615؛ الباهر، ص121؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص345؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص359؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص290؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص258.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص61؛ العيني: عقد الجمان، ص98.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص615؛ الباهر، ص121_122؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص345؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص359_360؛ ج2، ص61_62؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص368_369؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص139_140؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج38، ص40؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص277؛ الخطط المقريزية، ج2، ص47؛ ابن قاضي شهبة، ص258. العمري: مسالك الأبصار، ص34؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص18. كان الحصار قد بدأ في مستهل رمضان/آخر يوليو واستمر حتى شهر=

على المدينة[1].

وعندما بلغ ذلك الخبر إلى نور الدين محمود، لجأ إلى تشديد هجماته على أملاك الصليبيين في بلاد الشام، فقام في رمضان 559هـ/أغسطس 1164م بمهاجمة قلعة حارم، وتمكن من استردادها من الصليبيين بعد مقتل أكثر من عشرة آلاف منهم، وأسر عدد آخر من بينهم عدد من قادتهم[2]، ثم توجه إلى بانياس، وفرض عليها حصاراً بعد أن "أظهر أنه يريد طبرية"[3].

ويبدو أن نور الدين كان يهدف من وراء ذلك إلى تفريق وتشتيت قوى الصليبيين والضغط عليهم بغية تخفيف وطأتهم ومساندتهم لشاور ضد قائده أسد الدين شيركوه.

بعد أن حقق نور الدين انتصارات على الصليبيين في بلاد الشام قام بإرسال ما استولى عليه من أعلام الصليبيين إلى شيركوه في بلبيس، فوضعها شيركوه على أسوار المدينة، فعرف الصليبيون ما حل بممتلكاتهم ببلاد الشام، الأمر الذي أقلق عموري ومن معه من الصليبيين وهم على حصار بلبيس[4]، كما أن أسد الدين أرسل رسالة إلى عموري أثناء حصار الأخير لبلبيس فيها من الترغيب والتهديد له[5].

في النهاية اضطر عموري إلى طلب الصلح من شيركوه، على أن يعود شيركوه إلى الشام، وأن يُسلّم شيركوه ما بيده إلى الفاطميين، فاستجاب أسد الدين لذلك نظراً لقلة الأقوات عنده، ومقتل عدد من أصحابه أثناء دفاعهم عن بلبيس، عوضاً عن عدم مجيء نجدة من نور الدين محمود

=ذي الحجة سنة 559هـ/أكتوبر 1164م. أبو شامة: الروضتين، ج1، ص360. بينما ذكر ابن تغري بردي أنه استمر مدة شهرين. النجوم الزاهرة، ج5، ص331. أما الأصفهاني فقد انفرد بالقول بأن مدة الحاصر كانت 6 شهور. البستان الجامع، ص363. وقد أبدى المؤرخون المسلمون إعجابهم بصمود أسد الدين شيركوه وجنده في مدينة بلبيس بالرغم من قصر سورها، وعدم وجود خندق لها، وقلة جندها. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص615؛ الباهر، ص122؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص139؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج38، ص40؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص358. ذكر ابن العديم أن سور بلبيس كان مبنياً من طين. زبدة الحلب، ص345. ويُعتقد أن سبب صمود شيركوه وصلاح الدين مع جندهما لفترة طويلة، وقوف أهالي مصر إلى جانبهم؛ بسبب سياسة شاور، وبطشه بهم، إلى جانب رفضهم لسياسة كل من يتعاون مع الصليبيين أو يسالمهم، عوضاً عن بسالة المقاتلين الشاميين وتفانيهم في قتال الفاطميين والصليبيين.

(1) الروحي: بلغة الظرفاء ص167؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص27.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص616_618؛ الزيبق، إبراهيم: شاور بن مجير السعدي، ص115؛ للمزيد، ينظر: الحريري: الإعلام والتبيين، ص78.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص618.

(4) العيني: عقد الجمان، ص98؛ الشيخ، محمد: عصر الحروب الصليبية، ص306.

(5) ابن أيبك: الدر المطلوب، ص27.

لانشغاله بمحاربة الصليبيين في بلاد الشام، وخرج شيركوه من بلبيس في ذي الحجة 559هـ/ أكتوبر 1164م بعد أن تسلم من شاور ثلاثين ألف دينار[1].

والحقيقة أن كل أطراف النزاع كانت راغبة في الصلح؛ فإن أسد الدين لم يكن قادراً على الصمود إلى مالا نهاية، وكان على الصليبيين أن يسارعوا إلى حماية جبهاتهم الضعيفة أمام هجمات نور الدين، وكان شاور يأمل في التخلص من شيركوه وعموري جميعاً لينعم بحكم مصر وحده، وحقاً كان هو المستفيد الأوحد من تلك الحملة، إذ عاد إلى السلطة، ولكن ثمن تلك العودة هو ظهور مصر بغاية الضعف، وأنها غنيمة سهلة لابد وأن تقع بيد نور الدين أو الصليبيين، وهكذا تحدد مسار الصراع بين القوتين[2].

حاول الصليبيون الإيقاع بشيركوه أثناء عودته من مصر إلى دمشق، إلا أنه أحس بذلك وسلك طريقاً آخر[3]، وتمكن من الوصول إلى دمشق يوم الأربعاء 23 ذي الحجة 559هـ/11 نوفمبر 1164م[4]، "واجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال، وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها، وشوقه إلى ملكها"[5].

وقد وصف ابن شداد انطباع شيركوه عن مصر بالقول: "وعرف أحوالها، وعاد منها وقد غُرس في قلبه الطمع في البلاد، وعلم أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص615؛ الباهر، ص122؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص76؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص361. فسّر ابن الأثير أن سبب خروج شيركوه من بلبيس، وتسليمها للفاطميين، وعودته إلى دمشق يرجع إلى عدم علمه بما حصل بالصليبيين في بلاد الشام من هزائم على يد نور الدين محمود. الكامل، ج7، ص615. نقل المؤرخ نفسه خروج شيركوه من مصر عن شاهد عيان قوله: "أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم، وبيده لِتّ من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه، قال: فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر، فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريين والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك، ولا يبقي لكم بقية؟ فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ما ترى ما أفعله؛ كنت والله أضع السيف، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجالاً، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين، وقد ضعفوا وفني شجعانهم، فنملك بلادهم، ويهلك من بقي منهم، والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم، ولكنهم امتنعوا، فصلب على وجهه، وقال: كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم، ثم رجع عنه". الكامل، ج7، ص615_616؛ الباهر، ص122. اللِّت: لفظ فارسي الأصل، معناه: الفأس الكبيرة أو القدوم، وكانت من آلات الحرب في تلك الفترة. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص277، هامش3.

(2) الزيبق، إبراهيم: شاور بن مجير السعدي، ص115.

(3) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص63؛ العيني: عقد الجمان، ص99.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص278.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص63.

والمحال"[1].

أما عن الصليبيين فقد تركوا بلبيس"ولم ينالوا منها غرضاً"[2]، وعادوا إلى بلاد الشام بعد أن حصلوا على أموال كثيرة من شاور، حيث كانوا يأخذون ألف دينار عن كل يوم نظير الوقوف إلى جانب شاور ضد شيركوه[3].

أما شاور فبعد رحيل أسد الدين والصليبيين إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، وتتبع من كان يكاتب شيركوه أو يوادّه، كما تشدد في طلب أصحاب ضرغام[4]، وبذلك كان شاور هو الفائز الحقيقي في ذلك الصراع، فبعد أن أعادته جيوش شيركوه إلى منصب الوزارة نجح – بفضل تدخل نور الدين ضد جيوش عموري في فلسطين– في التخلص من الطرفين على السواء، وأصبح طوال السنتين التاليتين ابتداء من المحرم سنة 560هـ/ نوفمبر1164م هو صاحب الأمر والنهي، والمتحكم في مقادير مصر، وتخلص من أنصار ضرغام، وفرض على الخليفة وصايته الكاملة[5].

ثانياً: حملة شيركوه الثانية سنة 562هـ/1167م:

بعد أن عاد أسد الدين شيركوه بقواته من مصر إلى دمشق ظلّ "بعد عَوْدِه منها لا يزال يتحدث بها وبقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير"[6]، وكان أسد الدين قد غادر مصر "وهو في غاية القهر" على حد قول ابن تغري بردي[7]، فضلاً عن أنه لم ينس غدر شاور به، وعدم وفائه بما وعد به نور الدين محمود[8]، وسماحه بوجود جماعة كبيرة من الصليبيين تمكنوا من التصرف في بعض مناطق مصر، بمساعدة الفاطميين أنفسهم[9]، عوضاً عن ان أسد الدين قد اطلع على خيرات مصر، وعلى ضعف من بها من حكام بسبب كثرة الصراعات التي تنشب بين قادة مصر وزعمائها العسكريين، وفي الوقت ذاته ازداد تعسف شاور وظلمه واستبداده بعد مغادرة كل من أسد الدين شيركوه وعموري مصر سنة 559هـ/ 1164م، حيث "لم يبق للعاضد معه أمر

---

(1) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص76.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص140.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص278.

(4) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص63؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص279؛ العيني: عقد الجمان، ص99.

(5) سيد، أيمن: الدولة الفاطمية، ص291_292.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص12؛ للمزيد، ينظر: أبو شامة: الروضتين، ج2، ص7.

(7) النجوم الزاهرة، ج5، ص331.

(8) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص7؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص148؛ العيني: عقد الجمان، ص261.

(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص421.

ولا نهي"[1].

إن نور الدين لم يكن يرغب في إرسال أسد الدين إلى مصر، حيث كان يخشى على قواته، ولا يريد تقسيمها في جبهتين – مصر والشام–، خصوصاً أن الوضع في بلاد الشام يتطلب مزيداً من الحذر واليقظة، ولكنه في الوقت نفسه كان يتخوف من وقوع مصر في قبضة الصليبيين، فتزيد قوتهم بها، ويضعف المسلمين، ومن الأفضل أن تكون مصر في يد نور الدين ليقوى بها على الصليبيين، ويحصرهم بين مصر والشام[2].

وقد واتته الفرصة عندما كاتب شاور الصليبيين "وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه تمكيناً كلياً"[3]، حيث أمر نور الدين قائده أسد الدين بالتوجه إلى مصر، وأرسل معه "جماعة من الأمراء، فبلغت عدتهم ألفي فارس، وكان (نور الدين) كارهاً لذلك، ولكن لمّا رأى جدّ أسد الدين في المسير لم يمكنه إلّا أن يُسَيِّر معه جمعاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام"[4]، وكان رحيل أسد الدين عن دمشق يوم الجمعة 20 ربيع أول 562هـ/14 يناير 1167م[5]، واصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف على كراهة منه[6]، وتوجه نور الدين بجيشه إلى أطراف بلاد الشام، خشية تعرض الصليبيين لأسد الدين[7].

ما أن وصلت أخبار تلك الحملة إلى عموري حتى بعث إلى شاور يخبره بمسير شيركوه "فأجابه (شاور) يلتمس من نجدته"، ووعده بإرسال المال الذي من المقرر أن يصل إلى عموري كل سنة[8]، حيث أيقن شاور من استقراء الأحداث أنه إذا قدم شيركوه إلى مصر في هذه المرة فسيكون بنية البقاء فيها وعدم مغادرتها[9].

رحب الصليبيون باستغاثة شاور، و"أتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها، وخوفاً من أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين، فالرجاء يقودهم والخوف

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص331.

(2) عاشور، فايد: جهاد المسلمين، ص235.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص77؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص147.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص12.

(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص282.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص10؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص331_332؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص421.

(7) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص148؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص282.

(8) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص63؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص282؛ العيني: عقد الجمان، ص99.

(9) سيد، أيمن: الدولة الفاطمية، ص293.

يسومهم"[1]، وتعهد شاور بدفع ألفي دينار عن كل مرحلة يسيرها الصليبيون إلى مصر[2].

يتبين مما سبق أن الملك الصليبي عموري قد خشي من أن تصبح مملكته محاصرة بين بلاد الشام وبين مصر في حال تمكن نور الدين محمود من ضم مصر تحت ملكه، ووصل عموري إلى نتيجة حتمية بأنه إن حصل ذلك فإن الصليبيين "لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام"[3].

سار شيركوه إلى مصر عبر البر، وترك أملاك الصليبيين على يمينه، وتمكن من الوصول إلى إطفيح، وتمكن من عبور النيل، فوصل إلى جانبه الغربي ونزل بالجيزة[4] المقابلة للقاهرة، "وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها وأقام نيفاً وخمسين يوماً"[5] انضم خلالها عدد من أشراف مصر وأهلها إلى أسد الدين بعد أن أساء إليهم شاور[6]، وعلى إثر ذلك حدثت بعض الاشتباكات بين جيش أسد الدين من جهة وجيش شاور من جهة أخرى[7].

ومن أجل تحقيق الوحدة بين القوى الإسلامية وعدم اندثارها في مواجهة أعدائها أرسل شيركوه إلى شاور رسالة يدعوه فيها إلى الوحدة ضد الصليبيين، ويحلف له بالقول :"أني لا أُقيم ببلاد مصر، ولا يُؤذيك أحد من أصحابي، وأكون أنا وأنت على الفرنج، وننتهز فيهم فرصة قد أمكنت، وما أظن أن يتفق للإسلام مثلها كثيراً"[8]، إلا أن شاور رفض نداء شيركوه، وأكد ولائه للصليبيين بقتل رسول شيركوه، وقال :"ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفرج"[9].

لمّا وصل عموري بقواته إلى مصر قام شاور باستقباله والترحيب به، ومنح شاورُ القادة الصليبيين الأموال وأقطعهم الإقطاعات، وأنزلهم دور، القاهرة وبنى لهم أسواقاً تخصهم[10]، وقام كل من شاور وعموري بتوحيد جيشيهما في مواجهة أسد الدين، وتمكنا بجيشيهما من العبور إلى

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص12.

(2) الأصفهاني: البستان الجامع، ص364.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص149.

(4) الجيزة: بليدة تقع غرب مدينة الفسطاط، ولها كورة كبيرة واسعة. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص200.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص12؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص7؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص148_149؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص119؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص290.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص64؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص283.

(7) الأصفهاني: البستان الجامع، ص365.

(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص283؛ العيني: عقد الجمان، ص99_100.

(9) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص64.

(10) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص332.

الجانب الغربي للنيل[1]، وشحنوا المراكب والرجال لتلتف على جيش أسد الدين شيركوه[2].

خشي شيركوه من مواجهة القوات الفاطمية والصليبية كثيرة العدد، فاضطر إلى مراسلة أهل الإسكندرية يستنجد بهم على شاور بسبب استعانته بالصليبيين، ومساعدته لهم في دخولهم إلى مصر، وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم؛ فاستجابوا له، وأمّروا عليهم رجلاً يعرف بنجم الدين بن مصال[3]، ووعدوا شيركوه بأن يمدوه بالأسلحة والعتاد، وجهزوا إليه خزانة من السلاح على عجل[4].

وكان أسد الدين قد سار بجيشه إلى صعيد مصر، فبلغوا مكاناً يعرف بالبابين، وسارت الجيوش الفاطمية والصليبية خلفه فأدركوه بها في 25 جمادى الآخرة سنة 562هـ/ 18 ابريل 1167م، فعلم شيركوه بقربهم وكثرة عددهم وعزم على قتالهم "إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام .. لقلة عددهم وبعدهم عن أوطانهم وبلادهم، وخطر الطريق"، فاستشار من معه من الأمراء فأشاروا عليه بالرجوع إلى الشام إلا أميراً واحداً يقال له شرف الدين بزغش[5]، وأيده على ذلك أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين، واجتمعت كلمتهم على قتال الفاطميين والصليبيين[6].

وضع أسد الدين شيركوه خطة لمواجهة الجيشين الفاطمي والصليبي، وتقضي تلك الخطة بوضع صلاح الدين في القلب لجعل الصليبيين يعتقدون أن أسد الدين هو من يتولى قيادة قلب الجيش، فلا يقاتل صلاح الدين في بداية المعركة الفاطميين والصليبيين بشراسة على أن يحافظوا

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص12؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص149.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3،ص283؛ العيني: عقد الجمان، ص99.

(3) نجم الدين بن مصال: هو ليس الوزير الفاطمي الذي كان وزيراً للخليفة الفاطمي الظافر، ورجحت المصادر أنه أحد أبناء ذلك الوزير. الروضتين، ج2، ص64_65؛ اتعاظ الحنفا، ج3، ص283. الوزير نجم الدين بن مصال هو: سليم بن محمد بن مصال من أهل لُكَّ، وهي بليدة عند برقة بإفريقية، تولى وزارة الظافر الفاطمي نحو خمسين يوماً، ثم قُتل سنة 544هـ/1149م بعد أن دخل ابن السلار القاهرة وتولى الوزارة. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج15، ص210_211. رجح الباحث إبراهيم شمس الدين أن ابن مصال المذكور في المتن هو الذي كان والياً للإسكندرية في ذلك الوقت. الروضتين، ج2، ص64، هامش 2.

(4) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص64_65؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص283.

(5) شرف الدين بزغش: هو شرف الدين بزغش النوري، أحد قادة صلاح الدين، استشهد بتاريخ 28 رجب سنة 579هـ/16 نوفمبر1183م عندما كان يحارب الصليبيين قرب حصن الكرك. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص110.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص12_13؛ للمزيد، ينظر: أبو شامة: الروضتين، ج2، ص8؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص150؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص262.

على أنفسهم، ثم يظهرون الفرار على أن يدخل المعركة أسد الدين مع شجعان العساكر الذين اختارهم، ووقف بهم في الميمنة، "فلمّا تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره، فقاتلهم من به يسيراً، وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنج، فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخالف عن الذين حملوا من المسلمين والفرنج، الفارس والراجل فهزمهم، ووضع السيف بهم، فأثخن وأكثر القتل والأسر"، ويعلق ابن الأثير على تلك المعركة بالقول :"وكان من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل"[1].

دارت معركة البابين لمدة ثلاثة أيام متواصلة[2] قُتل خلالها من الفاطميين والصليبيين "عالماً كثيراً لا يحصى عدده، وغرق أكثر من ذلك، وأُسر ما لا يُحصى"[3]، وكاد أسد الدين أن يأسر الملك الصليبي عموري بعد أن وقع في قبضته سبعين أسيراً من الصليبيين[4]، وعلى إثر تلك الهزيمة اضطر كل من شاور وعموري للفرار إلى القاهرة بعد أن هُزموا من جيش أسد الدين شيركوه في معركة البابين، ولو " ساق أسد الدين خلفهم في الحال ملك القاهرة"[5]، إلا أنه فضّل التوجه إلى الإسكندرية، ولمّا وصلها "تسلمها بمساعدة من أهلها"[6]؛ وذلك لميلهم إلى المذهب السني، وكرههم للفاطميين ولمذهبهم الشيعي[7]، واستناب أسد الدين عنه بالإسكندرية ابن أخيه صلاح الدين، وعاد إلى الصعيد حيث أخضعه تحت سيطرته، وجبى أمواله[8].

نستدل من ذلك أن أهل الإسكندرية – كغيرهم من المصريين– لم يوافقوا الفاطميين في موقفهم المؤيد للوجود الصليبي في مصر في مواجهة القوات الإسلامية الشامية، تلك القوات التي جاءت لتوحيد مصر والشام من أجل مواجهة الصليبيين، والعمل على طردهم من بلاد الشام.

بعد أن هُزم الفاطميون والصليبيون من جيش أسد الدين شيركوه في موقعة البابين عادوا

---

(1) الباهر، ص133؛ للمزيد، ينظر: ابن العديم: زبدة الحلب، ص348–349؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص8–9؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص9؛ ابن خلدون، ج5، ص240؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص284؛ ابن قاضي شهبة، ص262_263.

(2) ابن أيبك: الدر المطلوب، ص28.

(3) الأصفهاني: البستان الجامع، ص365.

(4) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص12؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص284. ذكر ابن تغري بردي أن عدد قتلى معركة البابين بلغ ألوفاً، والأسرى مائة وسبعين فارساً. النجوم الزاهرة، ج5، ص332.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص332.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص13.

(7) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص151.

(8) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص12؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص151؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص9؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص422؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص48.

إلى القاهرة، وأعدوا عساكرهم بها ثم توجهوا إلى الإسكندرية، وحاصروا صلاح الدين بها، "واشتد حصارهم لها، وقل الطعام على سكانها إلا أنهم صبروا على ذلك"[1]، وقاتلوا مع صلاح الدين أشد قتال[2].

ويبدو أن أهل الإسكندرية قد رضوا الجوع والحرب مع صلاح الدين، وأيدوه على عدم تسليم المدينة إلى شاور وعموري بالرغم من أنهما قد شددا الحصار عليها "وقطعوا كرومها ونخيلها"[3] في محاولة لإجبار سكان الإسكندرية للضغط على صلاح الدين من أجل التسليم إلى شاور وعموري، إلا أنهما فشلا في تحقيق هدفهما في ظل وقوف أهل الإسكندرية خلف صلاح الدين في مواجهة القوات الفاطمية والصليبية، وما يدلل على ذلك أن والي الإسكندرية وأشرافها قد تشاوروا وأحضروا جميع القبائل واتفقوا على عدم تسليم أي نزيل للفاطميين والصليبيين، وتعاهدوا على نصرة صلاح الدين، وأخرجوا له ولجيشه السلاح والعدة، وقدموا لهم الأموال، وحملتهم الحمية والدين، فرفضوا طلب شاور بفتح أبواب المدينة وتسليم صلاح الدين ومن معه إليهم مقابل منحهم الأموال والإقطاعات، وأرسلوا لشاور وعموري قائلين :"معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية، هذا ما لا يكون أبداً"[4].

بعد أن اشتد الحال بصلاح الدين وجيشه، وبأهل الإسكندرية لمدة ثلاثة شهور من الحصار، قام أسد الدين بالخروج من الصعيد، ونزل على القاهرة بتاريخ 8 شوال 562هـ/28 يوليو1167م، فلمّا بلغ شاور ذلك رحل هو وعموري عن الإسكندرية، وعاد إلى القاهرة للدفاع عنها[5]، وفي الوقت نفسه قام نور الدين محمود بالهجوم على أملاك الصليبيين في بلاد الشام بهدف إشغال الصليبيين عن أسد الدين شيركوه وقائده صلاح الدين، وتمكن من استرداد المنيطرة[6] من أيديهم[7].

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص13؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص151.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص9؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص332.

(3) الروحي: بلغة الظرفاء، ص75.

(4) الأصفهاني: البستان الجامع، ص365.

(5) ابن أيبك: الدر المطلوب، ص29؛ العمري: مسالك الأبصار، ص36؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص422؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص284_285. ذكر بعض المؤرخين أن مدة الحصار امتدت أربعة شهور. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص13؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ج39؛ ص9؛ العبر، ج3، ص37؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص263؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص348.

(6) المنيطرة: حصن يقع في بلاد الشام بالقرب من مدينة طرابلس. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص217.

(7) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص10.

وفي النهاية أُجبر كلاً من شاور وعموري على طلب الصلح من أسد الدين شيركوه الذي قَبل الصلح معهما بسبب تعب قواته "وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال"[1]، وتم توقيع اتفاق بين الطرفين على البنود التالية:

- أن يأخذ شيركوه خمسين ألف دينار، عدا ما أخذه من البلاد من مال وميرة[2].
- أن يدفع شاور إلى شيركوه جميع ما أنفق في هذه الجولة من الصراع[3].
- أن لا يقيم الصليبيون بمصر وألا يتملكوا منها قرية واحدة[4].
- يأخذ الصليبيون ثلاثين ألف دينار تعويضاً عن خسائرهم في تلك المعارك[5].
- يقوم شيركوه بإطلاق سراح الأسرى الصليبيين[6].

على ذلك الاتفاق خرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن أخذ المواثيق على شاور بألا يتعرض لأهلها بسوء، ولكن شاور حنث بأيمانه، وقبض على من أعانوا صلاح الدين وضيق عليهم، وتتبع أهل الإسكندرية الذين قاتلوه، فلمّا علم صلاح الدين بذلك اجتمع بعموري وأبلغه بذلك، فراسل عموري شاور، وألزمه حفظ العهد والأيمان، لكن الكثيرين من أهل الإسكندرية لم يطمئنوا لشاور، فرحلوا بأموالهم وجموعهم إلى بلاد الشام، ولحق بهم شاور، وحلف لهم الأيمان، فعاد بعضهم ورحل الباقون[7].

عاد أسد الدين شيركوه بقواته إلى دمشق فوصلها في 18 ذي القعدة 562هـ/5 سبتمبر 1167م[8]، فأقام بها وهو يتطلع للعودة إلى مصر مرة أخرى، وذلك بسبب "شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها، وعرفوها من الوجه الذي عرفها، فأقام بالشام على مضض، وقلبه مقلقل"[9].

---

(1) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص10.
(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ص349؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص10.
(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص285.
(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ص349؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص240.
(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص285.
(6) الروحي: بلغة الظرفاء، ص167؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص29.
(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص286.
(8) ابن العديم: زبدة الحلب، ص349؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص10؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص422؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص263.
(9) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص10.

منذ ذلك الحين أيقن عموري بأهمية إبعاد مصر عن أيدي نور الدين، ورأى ضرورة إبقاء مصر تحت أعينهم، لذلك عقد مع شاور معاهدة من أهم شروطها أن يكون لهم بالقاهرة شحنة[1]، وتكون أبوابها بيد فرسانهم[2]، على أن لا يتم المساس بهم[3]، وكل ذلك يتم دون علم الخليفة العاضد الذي " ليس له من الأمر شيء، ولا يعلم بشيء من ذلك، قد حكم عليه شاور، وحجبه عن الأمور كلها"[4]، وبذلك وضع شاور مصر تحت حماية مملكة بيت المقدس الصليبية بدلاً من أن يسعى لتوحيد جهوده مع قوات نور الدين محمود في مواجهة الصليبيين.

لقد كان الهدف من وضع تلك الشحنة في القاهرة منع نور الدين من إنفاذ عسكر إلى مصر، عوضاً عن تسلم أموال الضريبة المقررة على الفاطميين والتي تبلغ قيمتها مائة ألف دينار مقابل حماية مصر من نور الدين محمود[5].

ثالثاً: حملة شيركوه الثالثة سنة 564هـ/1168م:

نتج عن توقيع الاتفاق بين شاور وعموري – عقب عودة أسد الدين إلى بلاد الشام سنة 562هـ/1167م– قيام القوة العسكرية الصليبية التي وضُعت بالقاهرة بموجب ذلك الاتفاق إلى المغالاة في التسلط على زمام الأمور بمصر حتى "تحكموا تحكماً كثيراً، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً، فنال المسلمين منهم أذى شديد، وجور عظيم، وقهر زائد"[6]، وفي الوقت ذاته "فحُش أمر شاور، وساءت سيرته، وكثر تجرِّيه على الدماء، وإتلافه للأموال"[7].

إن انتهاء الدور الثاني من الصراع النوري الصليبي على مصر الفاطمية، والذي تكلل بعقد

---

(1) شحنة: هي من يكون بالمدينة من أولياء السلطان لضبطها. ابن منظور: لسان العرب، ص2209. ويقصد بها هنا مفرزة من الفرسان للسهر على حسن تطبيق معاهدة التحالف التي عقدت بين الصليبيين والفاطميين، ومن أبرز مهماتها مراقبة أبواب المدينة، وحماية الموظفين الصليبيين المكلفين بجباية الضريبة السنوية التي وعد شاور بدفعها إلى مملكة بيت المقدس الصليبية. معلوف، أمين: الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص213.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص14؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص9؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص10؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص422؛ ابن خلدون، ج5، ص240.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص333.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص14؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص9.

(5) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص152؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص119؛ الذهبي: العبر، ج3، ص37؛ العمري: مسالك الأبصار، ص36؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص422؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص329؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص18_19.

(6) ابن الأثير: الباهر، ص137.

(7) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص48؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص19.

هدنة بين الطرفين الفاطمي والصليبي لم يلق رضاً من كبار قادة شاور – عدا عن عامة الناس–، وذلك بسبب ولائه ووفائه للصليبيين، وسماحه بوضع حامية عسكرية صليبية في مدينة القاهرة، عوضاً عن تعهده بدفع ضريبة سنوية كبيرة للصليبيين، ومن أبرز الغاضبين على التعاون بين شاور وعموري، الكامل بن شاور الذي قام بمراسلة نور الدين محمود، ينهي إليه محبته وولاءه، ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه ذلك، وعلى أن يقوم بجمع الكلمة على طاعة نور الدين، وإلى جانب ذلك بذل إليه مالاً يُحمل إليه كل سنة، فوافقه نور الدين على ذلك الرأي " وحمل [الكامل بن شاور] إلى نور الدين مالاً جزيلاً"[1]، لا سيما وأن الكامل بن شاور كان بمثابة نائب أبيه في الوزارة[2].

ويدلل ذلك على معارضة زعماء الفاطميين خاصة، والمصريين عامة لسياسة شاور التي انتهجها في مصالحة الصليبيين، والسماح بوجود عساكر لهم في القاهرة، لا سيما أن المراسلة التي أرسلت إلى نور الدين محمود كانت من ابن شاور نفسه.

ويبدو أن الكامل بن شاور قد أدرك الباعث الديني الذي يرى ضرورة الاحتماء بمظلة العقيدة الإسلامية التي تجمع أهل مصر بنور الدين، وتجعل من الجميع صفاً واحداً في مواجهة الأعداء الصليبيين[3]، إلا أن ذلك لم يحن بعد، وذلك لعدم توحد المسلمين على المذهب السنّي الذي كان لمؤيديه الدور الأبرز في مواجهة الصليبيين في بلاد الشام، وفي بعض الأوقات في مصر عندما كان يتولى الوزارة للخلفاء الفاطميين وزيراً من أهل السنة كما هو الحال مع الوزير العادل بن السلار.

لمّا رأى الصليبيون الذين كانوا بمصر ضعف الخلافة الفاطمية، وسوء أحوال البلاد، "وأنه ليس بها راد، ولا عن أخذها صاد"[4]؛ أرسلوا إلى ملكهم عموري "يستدعونه ليملك البلاد، وأعلموه خلوها من مانع عنها، وسهلوا أمرها عليه"[5]، إلا أنه رفض في بادئ الأمر، ولكنه عاد إلى إجابة طلبهم بعد أن أصروا عليه، وتشجع على ذلك أيضاً عندما قام أعيان الدولة الفاطمية الناقمين على

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص14؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص287.

(2) عن التفويض الذي مُنح للكامل بن شاور بالنيابة عن أبيه بالوزارة. ينظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج10، ص315_318.

(3) أبو سعيد، حامد: الجبهة الإسلامية، ج1، ص223.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص155.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص21؛ الباهر، ص137؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص32؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص156. بينما ذكر المقريزي أن عموري هو من عزم على التوجه لاحتلال مصر، وأنه هو الذي شاور قادته في ذلك، فوافقوه الرأي. اتعاظ الحنفا، ج3، ص291.

شاور بطلب المساعدة من الصليبيين، ووعدوهم بتسهيل دخولهم إلى مصر[1].

ويبدو أن فساد شاور، وسوء سياسته تجاه الفاطميين أنفسهم قد جعل بعض زعماءهم يراسل عموري، ويعدوه بتسهيل احتلاله لمصر، وتحقيق النصر على شاور، معتقدين أن ذلك نجاة لهم من بطش شاور، واسترداداً لحقوقهم التي سلبها منهم، ويُظهر ذلك الاختلاف الكبير بين الأمراء الفاطميين، ومدى تشتتهم وتفرقهم رغم أنهم على مذهب واحد، مع أن ذلك من المفترض أن يكون مدعاة للوحدة في سبيل مواجهة الخطر الصليبي.

حاول عموري الدخول في حلف مع الإمبراطور البيزنطي سنة 564هـ/1168م للقيام بعمل عسكري مشترك ضد مصر، وقبل مجيء رد الإمبراطور البيزنطي الذي لم يكن متشجع لتلك الخطوة[2] سار عموري مكرهاً تحت رغبات قيادته العسكرية بعد أن أظهر – تعمية لنور الدين– أنه يريد التوجه إلى حمص، فأمر نور الدين عندئذ بتجهيز عساكره للتصدي للصليبيين على جبهة بلاد الشام[3].

جمع عموري جيشه في مدينة عسقلان ثم انطلق منها نحو مصر[4] في النصف من محرم سنة 564/20 أكتوبر 1168م[5]، وعند وصوله إلى الداروم[6] أرسل إليه شاور أميراً يعرف ببدران لمعرفة نوايا عموري، فلما اجتمع بدران بعموري أطمعه الأخير، ووعده بعدة قرى من قرى مصر مقابل إخفاء أمره، وإظهار الأمر لشاور بأن عموري قصد مصر لخدمة شاور، فلم يطمئن شاور لذلك، وأرسل قائده شمس الخلافة محمد بن مختار، فأخبره عموري بأنه جاء لأخذ المال المقرر على مصر، فرد عليه شمس الخلافة قائلاً: "مكانكم حتى أصل إلى شاور، وأبلغه مقامكم، وأعود بالجواب"[7]، إلا أن عموري أصرّ على استكمال مسيره، فوصل بلبيس مستهل شهر صفر 564هـ/4 نوفمبر 1168م، وقام بحصارها، وفي تلك الجولة من الصراع الإسلامي الصليبي على

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص21؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص39؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص32، 69؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص446؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص292.

(2) أبو سعيد، حامد: الجبهة الإسلامية، ج1، ص224؛ الشامي، أحمد: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص146؛ موسى، تيسير: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص168.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص21؛ الباهر، ص138؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص156.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص12؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص266.

(5) البنداري: سنا البرق الشامي، ص39؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص291.

(6) الداروم: هي قلعة تقع على الطريق بين غزة ومصر، بينها وبين البحر مقدار فرسخ. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص424.

(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص292؛ العيني: عقد الجمان، ص102.

مصر كشف الصليبيون عن حقيقتهم، وأظهروا نواياهم تجاه المسلمين فاحتلوا بلبيس، " وقتلوا منها خلقاً كثيراً، وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم، وجعلوها موئلاً ومعقلاً"[1] في ظل ضعف شاور عن مواجهتهم عند قيامهم بأعمال القتل والتدمير في المناطق التي احتلوها خاصة مدينة بلبيس.

لمّا سيطر عموري على بلبيس أرسل الفاطميون إليه رسالة يقولون له فيها :"أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها؟" فأرسل إليهم عموري قائلاً :"نعم هي جبنة، والقاهرة زبدة"[2]، ليتبين بذلك مدى إدراك عموري لأهمية سيطرة الصليبيين على مصر في تلك المرحلة، وعدم رغبته في الاكتفاء باحتلال بلبيس، لا سيما وأن مصر تعتبر البوابة الجنوبية لبلاد الشام التي أقام الصليبيون مملكتهم بها في ذلك الوقت، إذ أن إبعاد مصر عن أيدي نور الدين محمود وقادته هو السبيل الذي لا يمكن من خلاله تحقيق الوحدة بين مصر والشام، وبالتالي ضمان تحقيق استقرار مملكة بيت المقدس الصليبية، وقد استند عموري في تحقيق مشروعه الاستعماري الكبير بمصر في تلك الحملة إلى وقوف عدد من زعماء الفاطميين إلى جانبه تحقيقاً لرغباتهم الشخصية، ومصالحهم الخاصة دون النظر إلى مصلحة المسلمين العامة.

لما سمع شاور ما حدث في بلبيس استغل ذلك وقام بنهب مصر لنفسه، وجمع الكثير من الأموال، وأساء إلى أهلها وقتل عدداً منهم [3]، ثم شرع في بناء سور على مدينة الفسطاط "واستعمل فيه الناس، فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه، وحفر من ورائه خندقاً"[4]، ثم أمر في 9 صفر564هـ/12 نوفمبر1168م – أي قبل نزول الصليبيين على القاهرة بيوم واحد– بإحراق الفسطاط بعد أن أمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، فقام الجنود بنهب المدينة، ثم أشعلوا فيها النيران التي بقيت تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً[5].

يبدو أن شاور قد لجأ إلى إحراق الفسطاط حتى لا يتخذها الصليبيون قاعدة ينطلقون منها

---

(1) العيني: عقد الجمان، ص53؛ للمزيد، ينظر: ابن الأثير: الكامل، ج8، ص21؛ الباهر، ص138؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص157؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص934. ذكر ابن أيبك أن عموري أمر بقتل جميع الرجال وسبي النساء والأطفال في بلبيس، وأنه "أبدع كل الإبداع". الدر المطلوب، ص29.

(2) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص69؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص293.

(3) ابن أيبك: الدر المطلوب، ص29؛ مبارك: الخطط المقريزية: ج1، ص19.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص296.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص21؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص70؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص157؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، 296؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص267؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص4.

إلى القاهرة، مثلما انطلقوا سابقاً من بلبيس إلى الفسطاط، كما أن أهل القاهرة بعد ما سمعوا بما حلّ بأهالي بلبيس قاموا بحمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، وطردوا الحامية الصليبية التي كان شاور قد أدخلها إلى القاهرة[1].

وصل الصليبيون أسوار مدينة القاهرة في 10 صفر 564هـ/13 نوفمبر 1168م، وفرضوا الحصار عليها، فدافع أهلها عنها؛ لخشيتهم من أن يلقوا نفس المصير الذي واجهه أهالي بلبيس على يد الصليبيين، ويعلق ابن الأثير على ذلك بالقول :"ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة"[2].

لما أدرك شاور عجزه وعدم قدرته على مواجهة الصليبيين الذين ضيقوا حصارهم على القاهرة لجأ مرة أخرى إلى مراسلة عموري، وتذكيره بالمودة التي بينهما، ويخوفه من نور الدين محمود، وبأن المسلمين لن يوافقوه على تسليم مصر للصليبيين، وطلب شاور من عموري الصلح على أن يحمل إليه ألف ألف دينار، وأن يدفع منها أربعمائة ألف دينار معجّلة، فقبل عموري ذلك واشترط موافقة الخليفة الفاطمي العاضد[3].

يتضح مما سبق أن شاور كان يرى أن تسليم مصر للصليبيين أهون عليه من الاستنجاد بنور الدين محمود في مواجهتهم، كما يتبين أنه كان يخشى على منصبه في وزارة مصر، وعلى مكانته وممتلكاته بها، وتأكيداً لذلك أنه بذل الأموال للصليبيين كي لا يدخلوا القاهرة ويقضوا على حكم شاور، إلا أنهم اشترطوا موافقة الخليفة العاضد؛ لتأخذ الاتفاقية الصبغة الرسمية، إذ أن عموري لم يكن يثق بشاور بالرغم من أن شاور شرع بجمع المال له، وأرسل إليه مائة ألف دينار، وطلب من عموري الرحيل عن مصر ليقوم بجمع المبلغ المتبقي بعد ذلك للصليبيين، حيث حاول أن يجمع المبلغ المتبقي عليه – تسعمائة ألف دينار – من أهل مصر إلا أنه لم "يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار"[4] بسبب سوء أوضاع المصريين، واحتراق دورهم وما فيها، ونهب ما بقي من أقواتهم، عوضاً عن أن أهل مصر أنفسهم – كما يبدو– لم يكونوا يثقوا بشاور، فلم يدفعوا الأموال له لإعطائها للصليبيين، عوضاً عن أن عدداً من زعماء الفاطميين ساندوا الصليبيين

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص333؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج4، ص182؛ شاندور: صلاح الدين الأيوبي، ص78.

(2) الكامل، ج8، ص21.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص446؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص157؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص12؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص19.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص22؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص447؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص298.

في مشروعهم الاستعماري بمصر.

عندما رأى الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار ما بين شاور والصليبيين من مهادنة، اجتمع بالكامل بن شاور، وطلب منه أن لا يُحدّث أباه بما بينهما، فلما حلف الكامل له على ذلك قال شمس الخلافة :"إن أباك قد وطّن نفسه على المصابرة، وآخر أمره يسلّم البلاد إلى الفرنج، ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد، وأَلْزِمه أن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره" فصعد الكامل إلى العاضد، وكتبا الكتاب، وأرسلاه إلى نور الدين دون علم شاور[1].

وكان ذلك الكتاب بمثابة استغاثة من العاضد بنور الدين على الصليبيين حيث "أرسل في الكتب شعور النساء، وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج"[2]؛ فأرسل نور الدين رسالة سرية إلى العاضد "وأمره أن يستحلفه على أشياء عيّنها، وأن يكتم ذلك من شاور"[3].

يبدو أن كلاً من نور الدين محمود والخليفة العاضد كانا متخوفيْن من السياسة التي يتبعها شاور؛ فالعاضد يخشى على عرشه في منصب الخلافة في مصر خاصة في ظل اضطراب أحوالها السياسية والعسكرية، وعلى الجانب الآخر كان نور الدين محمود يخشى من سيطرة الصليبيين على مصر، ووقوف شاور إلى جانبهم، إذ أن ذلك يمثل ضربة قوية تجاه الانجازات التي حققها نور الدين محمود في بلاد الشام، وتجاه أهدافه في توحيد مصر مع الشام، وإعادتها إلى الخلافة العباسية مرة أخرى، ثم الانقضاض على أملاك الصليبيين في بلاد الشام.

خشي العاضد على زوال ملكه في ظل استمرار الخطر الصليبي على مصر، وسيطرة

---

(1) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص70؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص293. ذكر ابن واصل أن شاور هو الذي راسل نور الدين محمود يطلب منه إنقاذ مصر من الصليبيين ويقول له "إن لم تبادر ذهبت البلاد". مفرج الكروب، ج1، ص158. ولو افترضنا جدلاً أن ذلك صحيحاً فإنه يُعتقد بأن سبب ذلك هو ضرب قوات نور الدين بالصليبيين ليكون هو المستفيد من وراء ذلك، ولو هو الذي أرسل الرسالة وكان صادقاً فيها لأرسلها منذ بدء الهجوم الصليبي على مصر، إلا أنه يرجح أن تكون الرواية المذكورة في المتن هي الأصح والأدق، وذلك لأنها منقولة عن شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار ابن صاحب الواقعة نفسها؛ للمزيد، ينظر: أبو شامة: الروضتين، ج2، ص70؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص19؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص293.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص22؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص350؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص33؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص281؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص934؛ العيني: عقد الجمان، ص53؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص267؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص4.

(3) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص70.

شاور على زمام الأمور بمصر، فقام بمراسلة نور الدين مرة أخرى يخبره بما فعله الصليبيون بمصر، ويطلب منه المجيء لإنقاذه مصر من خطر الوقوع بأيدي الصليبيين، وفي هذه المرة عرض العاضد على نور الدين ثلث خراج مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عنده بقواته العسكرية، وإقطاعهم على العاضد بخلاف ثلث نور الدين[1].

لقد كانت استجابة نور الدين محمود للعاضد الفاطمي سريعة، إذ أنه أدرك أهمية مصر في مواجهة الصليبيين في بلاد الشام؛ فأرسل إلى أسد الدين شيركوه، فجاءه من حمص إلى حلب في يوم واحد[2]، "وأمره بالتجهيز إلى مصر، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وحكّمه في العسكر والخزائن واختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع ستة آلاف فارس"، وأعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً مصرية، وأضاف إليه مجموعة من مقدمي الأمراء[3]، كما ندب صلاح الدين الأيوبي الذي كان كارهاً المسير إلى مصر، وقال حينها :"والله لو أُعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً"[4]، ليحق قول الله سبحانه وتعالى:{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[5]، ويعلق ابن الأثير على ذلك بالقول" وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته وملكه"[6].

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يستحثون شاور وأهل القاهرة على دفع المال المتفق عليه، وصلت مقدمات جيش شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر؛ لنصرة المصريين، ومواجهة الصليبيين، فلمّا علم عموري بذلك اضطر إلى مغادرتها في 3 ربيع الآخر564هـ/4 يناير

---

(1) ابن الأثير: الباهر، ص138_139؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص33؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص447؛ العيني: عقد الجمان، ص53_54؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص267. ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل بأن من راسل نور الدين محمود في هذه المرة هم قادة مصر وغلمانهم، وذلك بعد أن تعذر عليهم جمع الأموال المقررة عليهم للصليبين. ج8، ص22.

(2) البنداري: سنا البرق الشامي، ص39؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص267.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص447؛ العمري: مسالك الأبصار، ص37؛ ابن كثير، ج16، ص429؛ ابن خلدون، ج5، ص242. ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص268.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص25؛ الباهر، ص141؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص158؛ العمري: مسالك الأبصار، ص40.

(5) سورة البقرة، آية 216.

(6) الكامل، ج8، ص23؛ الباهر، ص139.

1169م مصطحباً معه اثني عشر ألف أسير ما بين رجل وصبي وامرأة[1]، وبذلك عاد الصليبيون إلى مملكتهم في بلاد الشام "بخفي حنين خائبين مما أمّلوا"[2].

ويشير المقريزي إلى أن اتفاق عُقد بين شاور وعموري قبيل انسحاب الأخير من القاهرة، يتم بمقتضاه عقد هدنة بين الطرفين، وأن يقوم عموري بمنح شاور مبلغاً كبيراً من المال، وأن يطلق سراح ابن طي بن شاور وجميع الأسرى[3]، ويبدو أن ذلك الاتفاق كان مدبراً بين شاور وعموري ضد أسد الدين وقواته، إذ منذ أن وصل شيركوه إلى القاهرة أشار شاور عليه باتباع الصليبيين ومحاربتهم، إلا أن شيركوه اعتذر عن ذلك، وبالتالي فشلت خطة شاور بالتخلص من أسد الدين قبل أن يقيم بالقاهرة[4].

وصل أسد الدين القاهرة في 7 ربيع الآخر 564هـ/8 يناير 1169م بعد أن غادرها عموري بأيام قليلة، فخرج إليه العاضد وتلقاه[5]، "وخلع عليه، وعاد (شيركوه) إلى خيامه بالخِلعة العاضدية، وفرح به أهل مصر"[6].

لم يتمكن شاور من مواجهة أسد الدين شيركوه لقوة جنده، وأخفى شاور ما في نفسه على أسد الدين وأصبح يماطله "في تقرير ما كان بُذل لنور الدين من المال، وإقطاع الجند، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين"[7]، كما كان يُظهر الود للصليبيين ويقول:"الفرنج ولا أسد الدين شيركوه"[8]، ولم يقف تحديه لأسد الدين عند ذلك الحد، بل قام بمكاتبة الصليبيين يقول لهم "يكون مجيئكم إلى دمياط في البر والبحر"، وذلك لمساعدته في مواجهة أسد الدين وقواته، وكان للتصرف الذي أقدم عليه شاور أثره السيء في نفوس أعيان مصر فاجتمعوا بشيركوه، وقالوا له:"شاور فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج، وهو يكون سبب هلاك الإسلام"[9]، وبذلك أدرك عدد من قادة الفاطميين بمصر ضرورة الوقوف إلى جانب أسد الدين، ومواجهة طموح شاور الرامية إلى الاستعانة بالصليبيين من أجل الحفاظ على منصبه في وزارة مصر، ومكانته التي يتمتع بها.

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص299؛ العيني: عقد الجمان، ص58.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص23؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص447.

(3) اتعاظ الحنفا، ج3، ص299_300.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص300.

(5) ابن الأثير: الباهر، ص139؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص429؛ العيني: عقد الجمان، ص58.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص38؛ العمري: مسالك الأبصار: ص38.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص23؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص161.

(8) ابن أيبك: الدر المطلوب، ص32.

(9) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص334؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص268.

لمّا تأخر مجيء الصليبيين لمساندة شاور ضد شيركوه عزم شاور على دعوة أسد الدين والأمراء الذين برفقته ليقبض عليهم ويتخلص منهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له :"والله لئن عزمت على هذا لأعرّفن شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال: صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج... فترك (شاور) ما كان عزم عليه"[1].

ويبدو أن مماطلة شاور، وعدم وفائه بما التزم به لأسد الدين قد جعل قادة شيركوه يفكرون في قتله والتخلص منه، وقد سنحت الفرصة لهم عندما جاء شاور إلى معسكر أسد الدين، وهناك قام صلاح الدين وقادة آخرين بالقبض عليه وسجنه إلى أن طلب العاضد من أسد الدين رأس شاور، فقُتل في17 ربيع الآخر564هـ/18 يناير1169م[2]، ثم أمر العاضد بقتل الكامل وأخيه – ابني شاور – وعمّهما بعد أن فروا من القصر[3]، ويعلق المقريزي على تلك الأحداث بالقول:"وكانت وزارة شاور هذه كثيرة الوقائع والنوازل، فإنه أطمع الغز والفرنج في البلاد، وجرّهم إليها، فأحرق مصر، وأزال نعم أهلها، وأذهب أموالهم، وكان السبب في إزالة الدولة الفاطمية من ديار مصر وتملك الغز لها"[4].

لقد كان مقتل شاور خطوة مهمة في بداية التدخل الحقيقي والمؤثر لأسد الدين شيركوه، حيث أن شاور كان يمثل السياسي البارع والمنافس الحقيقي لشيركوه، إذ أنه كان يستعين بنور الدين تارة، وبالصليبيين تارة أخرى، وذلك كله وفق مصالحه الشخصية، وبانتهاء حكم الوزير المستبد شاور تحررت مصر من سياسة استبداد الوزراء الفاطميين الذين استأثروا بالحكم والزعامة طيلة عقود طويلة، لتدخل الدولة الفاطمية مرحلة جديدة يسيطر بها وزير سني موالي للخلافة العباسية في بغداد.

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص23؛ الباهر، ص140؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص38؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص161؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص300؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص268؛ العيني: عقد الجمان، ص58_59.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص24؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص39؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص15_16؛ العبر، ج3، ص42؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ص57؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص281؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص437؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص268؛ العيني: عقد الجمان، ص61. ذكر الأصفهاني أن شاور عزم على قتل أسد الدين وجميع الأمراء الذين جاءوا معه من الشام، فأنفذ العاضد إلى أسد الدين رقعة فأعلمه بالقضية، فبدأ أسد الدين بشاور وقتله. البستان الجامع، ص367.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص22؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ص55؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص275.

(4) اتعاظ الحنفا، ج3، ص301.

بعد أن قُتل شاور خلع الخليفة العاضد خِلع الوزارة على شيركوه، وكتب له تفويضاً جاء فيه"هذا عهد لم يُعهد إلى وزير بمثله، فتقلد ما أراك الله أهلاً بحمله، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الافتخار بخدمتك بيت النبوة، والزم حق الإمامة تجد إلى الفوز سبيلاً"[1]، ولقبه بـ"الملك المنصور أمير الجيوش"، فنزل شيركوه في دار الوزارة، واستقرت له الأمور بلا منازع، "واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه، وأقطع البلاد لجنده"[2]، ولم يكد يسمع نور الدين بخروج الصليبيين من مصر، وتولي قائده أسد الدين الوزراة بمصر حتى غمرته فرحة كبيرة، "وأمر بضرب البشائر في البلاد الإسلامية"[3].

وبذلك تحقق ما كان يصبو إليه نور الدين محمود من تحقيق وحدة إسلامية تمتد من العراق شرقاً حتى مصر غرباً؛ وذلك لوضع الصليبيين بين شقي الرحى تمهيداً لمحاربتهم، لا سيما أنهم تعرضوا لنقص في مواردهم البشرية والمادية من وراء حملاتهم المتكررة على مصر، وحروبهم في جبهة بلاد الشام.

---

(1) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص165؛ العمري: مسالك الأبصار، ص38؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص330؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص269؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص336؛ للاطلاع على كتاب التفويض كاملاً، ينظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج10، ص81_92.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص24؛ الباهر، ص140؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص43؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص163؛ العيني: عقد الجمان، ص63.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص160.

المبحث الثاني

وزارة صلاح الدين على مصر وإنهاء الخلافة الفاطمية

أولاً: وزارة صلاح الدين وموقف الفاطميين منها:

لم تدم وزارة أسد الدين شيركوه في مصر طويلاً إذ وافته المنية في 22 جمادى الآخرة سنة 564هـ/23 مارس 1169م، وذلك بعد شهرين وخمسة أيام من توليه الوزارة للعاضد الفاطمي[1]، وكان شيركوه قد أوصى قادته قبيل وفاته بعدم مفارقة القاهرة، والإحسان إلى أهلها، وعدم التفريط بالأسطول[2].

لمّا أن توفي شيركوه وقع خلاف بين قادة جيشه عمّن يتولى الوزارة بعده، إذ طلب عدد من قادته الوزارة لأنفسهم، وحاولوا تحقيق ذلك[3]، إلا أن مماليك أسد الدين – وعددهم خمسمائة– اجتمعوا على صلاح الدين يوسف وطلبوا وزارته، وتحدثوا بأن أسد الدين أوصى إليه؛ فبعث العاضد إليهم، وسأل الأمراء من يصلح للوزارة فسار إليه شهاب الدين محمود الحارمي – خال صلاح الدين– وأرشده إلى تولية صلاح الدين[4] الذي كان في ذلك الوقت "مباشر للأمور، ومقرر لها، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتّيه وسياسته"[5].

لقد وجد ذلك العرض قبولاً لدى الخليفة العاضد لأن صلاح الدين لم تكن له بطانة بمصر لصغر سنه، ظناً من الخليفة الفاطمي أنه بذلك يستطيع التحكم في أمور مصر وإخضاعها لسيطرته، وبالتالي منع نور الدين من التدخل في شؤون مصر، وقد أيده أصحابه على ذلك الرأي، وقالوا له :"ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأي أن يولّى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه"[6]، وعندئذ يطلب العاضد مساعدة الصليبيين في تحقيق ذلك

---

(1) الأصفهاني: البستان الجامع، ص367_368؛ ابن الأثير: الكامل، ج8، ص24؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص81؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص351؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص36؛ العمري: مسالك الأبصار: ص39؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص431؛ العيني: عقد الجمان، ص70؛ الحنبلي: الأنس الجليل، ج1، 312.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص331.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص24؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص48.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص308.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص47؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص165.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص26؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص103.

الهدف، الذي يسعى إليه أيضاً الملك الصليبي– عموري–، وبالتالي– حسب تفكير العاضد– تقع قوات نور الدين محمود في مصر في خلافاتها الداخلية على وزارة مصر من جهة، وبين القوات الفاطمية والصليبية المشتركة من جهة أخرى، كما كان يهدف العاضد من وراء تولية صلاح الدين الوزارة إيقاع الفتنة بين الأمراء النوريين الكبار، أمثال: عين الدولة الياروقي[1]، وسيف الدين المشطوب الهكاري[2]، وشهاب الدين الحارمي، وغيرهم من الأمراء، وذلك ما حدث بالفعل عندما خلع العاضد خِلع الوزارة على صلاح الدين – وكان آخر منشور للعاضد– إذ رفض بعض أمراء نور الدين تولية صلاح الدين الوزارة إلا الفقيه عيسى الهكاري[3] الذي بذل جهوده لإقناعهم بذلك، فاستجابوا جميعاً عدا عين الدولة الياروقي الذي عاد إلى الشام رافضاً خدمة صلاح الدين[4]، وعندما وصل الياروقي دمشق أنكر عليه نور الدين فراقه لمصر، وعدم طاعته لصلاح الدين الذي بدأ يثبت أقدامه بمصر، ويرسخ بها ملكه نيابة عن نور الدين الذي أقيمت الخطبة له بمصر بعد العاضد، "ولا يتصرفون إلا عن أمره (نور الدين)"[5].

امتنع صلاح الدين عن تولي منصب الوزارة في بداية الأمر، "وضعفت نفسه عن هذا المقام، إلا أنه أُلزم به وأخُذ كارهاً"[6]، وأصر الخليفة العاضد باتفاق مع قادة نور الدين في مصر على تولية صلاح الدين منصب الوزارة، فتقلد صلاح الدين الوزارة بمصر بعد ثلاثة أيام من وفاة عمه شيركوه، وقُرئ سجل (منشور) التقليد بين يدي صلاح الدين يوم جلوسه في دار الوزارة،

---

(1) عين الدولة الياروقي: هو أحد قادة نور الدين محمود، دخل إلى مصر مع أسد الدين شيركوه، ولمّا مات أسد الدين، كان عين الدولة يطمح في أن يتولى الوزارة بعده، وكان أكثر أمراء نور الدين جمعاً. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص19.

(2) سيف الدين المشطوب: هو سيف الدين علي بن أحمد بن أبي الهيجاء الهكاري، المعروف بالمشطوب، من مشاهير الأكراد في العصر الأيوبي. ابن الأثير: الكامل، ج7، ص412. عينه صلاح الدين نائباً له بعكا بعد أن دخلها بصحبة عدد من الأمراء سنة 587هـ/1191م، ثم أسره الصليبيون في جملة من أسروا بعد احتلوا عكا في السنة نفسها، ثم أُطلق سراحه، وولاه بعد ذلك صلاح الدين على نابلس، وتوفي في شوال سنة 588هـ/ أكتوبر 1192م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص648_649. الهكارية جماعة من الأكراد سكنوا بلدة الهكارية شمالي الموصل فسميت باسمهم. الحموي: معجم البلدان، ج5، ص408.

(3) عيسى الهكاري: هو الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد الهكاري، من كبار رجال الدولة الصلاحية، وذكر ابن خلكان أن نسبه يمتد إلى الصحابي الجليل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه–. وفيات الأعيان، ج3، ص497.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص26؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص168

(5) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص49؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص168؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص432؛ الحنبلي: الأنس الجليل، ج1، 313.

(6) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص168؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص48.

وحضر التقليد جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية[1]، ولقبه الخليفة العاضد بالملك الناصر[2].

كتب الخليفة الفاطمي العاضد ذلك المنشور بخط يده مع أن الخلفاء الفاطميين لا يكتبون إلا نادراً، وقد ورد فيه "هذا عهد لا عهد لوزير بمثله"، واحتوى المنشور على تقليد صلاح الدين جميع السلطات التي خولها العاضد من قبل لعمه شيركوه، والمتمثلة في سيطرته على الجيش والقضاء والدعوة، عوضاً عن أموال الدولة[3]، وكان منشور الوزارة مكتوب في ثوب أبيض (وهو شعار الفاطميين)، وكانت الخِلعة من القماش المطرز بالذهب، فضلاً عن الخيل وأشياء أخرى أهداها العاضد لصلاح الدين رغبة في كسبه إلى جانبه ضد معارضيه بمصر[4]، إلا أن تلك الخلعة، وذلك اليوم المشهود لم تجعل صلاح الدين يتأثر بالعاضد ومذهبه، ولم تكن إلا مجرد مظاهر خارجية لم يلتفت إليها صلاح الدين إذ "هانت عنده الدنيا، وشكر نعمة الله عليه، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمّص بلباس الجد والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جداً..."[5].

في الحقيقة كان تولي شيركوه ومن بعده ابن أخيه صلاح الدين الوزارة للفاطميين بمصر بمثابة إيذان بقرب سقوط الدولة الفاطمية، إذ احتفظ صلاح الدين بقواته العسكرية بعد أن أصبح نائباً لنور الدين في مصر، وكان القضاء على الخلافة الفاطمية، وعودة المصريين إلى المذهب السني أمراً تمليه ضرورة الموقف الإسلامي، وذلك لتحقيق وحدة إسلامية بين مصر والشام تمكنهم من الوقوف في وجه الصليبيين الذين استفادوا كثيراً من ذلك التشتت.

لقد شعر صلاح الدين بأهمية التنسيق بين جبهتي مصر والشام، وضرورة الجهاد في سبيل الله تعالى، إذ قال لصديقه ابن شداد: "لمّا يسّر الله لي الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع في نفسي ذلك"[6]، كما أن الصليبيين أنفسهم أدركوا أنه بتحقيق الوحدة بين مصر والشام على يد المسلمين أن مملكتهم في بيت المقدس سوف تنهار[7].

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص32.

(2) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص48؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص35؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص281؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص431؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص269؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص6؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص349؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص350.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، ج10، ص308. للنظر في المنشور الكامل، ينظر: المصدر نفسه، ج10، ص91_98.

(4) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص5.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص81.

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص41.

(7) الفيتري، يعقوب: تاريخ بيت المقدس، ص142.

ومن أجل تحقيق ذلك الهدف بدأ صلاح الدين بإجراء الإصلاحات في مصر، وكان عليه أولاً أن يعمل على استقرار الأمور في البلاد، فبدأ باستمالة المصريين ببذله الأموال والهبات لهم، "فمالوا إليه وأحبوه، وضَعُف أمر العاضد"[1]، كما خلع السلطان صلاح الدين على جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، واستمر صلاح الدين على نهجه الإصلاحي، فقام "في الرعي بسياسة الشريعة، ونظّم بحسن تدبيره من الدولة بدَدَها، وجرى في مناهج العدل على جددها.. وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان.. وقرب من أهل الفضل.. وأفاض على الناس من كرمه... وسُرّ قلوب الأصدقاء بما صار إليه السلطان"[2] الذي أمر بإقامة الخطبة لسيده نور الدين على منابر مصر من بعد الخليفة العاضد[3]، وبذلك اتضحت سياسة صلاح الدين، وكُشفت نواياه تجاه الخلافة الفاطمية، وتجلى حرصه في القضاء عليها، وإعادة مصر إلى المذهب السني، ثم توحيدها مع بلاد الشام من أجل مواجهة الصليبيين.

أقام صلاح الدين في السنة الأولى من حكمه علاقات حسنة مع جميع مراكز القوى في مصر، خاصة الخليفة العاضد، وقد كان صلاح الدين يهدف من وراء ذلك تثبيت أقدامه في مصر قبل الشروع نهائياً في القضاء على المذهب الفاطمي، ويروي ابن أبي طي عن ذلك بالقول :"ولما استولى الملك الناصر على الوزارة مال إليه العاضد، وأحبه محبة عظيمة، وبلغ محبته له أنه كان يدخل إلى قصره راكباً، فإذا حصل عنده اليوم والعشرة في قصره لا يعلم أين مقره"[4].

يبدو أن الخليفة العاضد كان ضعيفاً غير قادر على مواجهة صلاح الدين وإصلاحاته، إذ أُجبر على تعيين صلاح الدين في الوزارة – معتقداً لصغر سنه أن ذلك لصالحه–، ولو سنحت الفرصة للعاضد من التخلص من صلاح الدين ومن معه من الأمراء لما تردد في فعل ذلك؛ إذ كان لا يحب أهل السنّة على الإطلاق، حيث كان "شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة– رضوان الله عليهم – وإذا رأى سنياً استحل دمه"[5].

بعد أن دعّم صلاح الدين مركزه في مصر بعث إلى نور الدين محمود يرجو منه أن يرسل أهله إلى مصر، إلا أن نور الدين رفض ذلك في بداية الأمر حرصاً على صلاح الدين ومركزه، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين رسالة يقول له فيها:"أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص26؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص174.

(2) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص77.

(3) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص48.

(4) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص271.

(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص110؛ القرماني: أخبار الدول، ج2، ص249.

البلاد"[1]، ثم أرسل نور الدين إليه أخاه شمس الدولة تورانشاه، وعدد من القادة الآخرين مدداً لصلاح الدين لمواجهة أي تآمر فاطمي أو خطر صليبي متوقع، واشترط نور الدين عليهم طاعة صلاح الدين، والقيام بأمره ومساعدته، ولما وصلوا مصر "كلّهم فعل ذلك"[2].

لمّا كان صلاح الدين – كغيره من أهل السنة – يرى أن الفاطميين قد انحرفوا عن الدين، وتبعهم عامة الشعب المصري في ذلك، نجد أنه قد حاول تسوية ذلك بتقوية المذهب السنّي في مصر، واعتبر ذلك واجباً عليه، وعمل على تحقيق ذلك الهدف باتخاذ إجراءات جديدة من شأنها أن تقوِّض دعائم الحكم الفاطمي في مصر؛ فبعد أن بذل الأموال للناس أضعف العاضد باستنفاذ ما عنده من المال، وأبعد أهل مصر عن مناصب الدولة المهمة، واستبد بالأمور، ومنع العاضد من التصرف حيث "لم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة فقط، وأُبطل ركوبه من ذلك الوقت، وصار لا يخرج من القصر البتة، وتتبع صلاح الدين جند العاضد، وأخذ دور الأمراء وإقطاعاتهم فوهبها لأصحابه"[3]، ولا شك أن صلاح الدين كان يعتمد في حماية تصرفاته تلك على قوتين؛ أولاها: القوة العسكرية التي جاءت من بلاد الشام مع عمه شيركوه سابقاً ثم مع أخيه تورانشاه فيما بعد، والثانية: قوة الجماعات السنّية التي كانت مبعدة عن نظام الحكم وتعتبره زيغاً، وتشارك صلاح الدين في ذلك الرضى الديني عن عمله[4].

لمّا ثقلت وطأة صلاح الدين على أهل القصر الفاطمي، وتجلى استبداده بأمر الدولة الفاطمية، واستبدل مذهب أهلها، وقطع أرزاق قادتها، وحرمهم مكانتهم، وأضعف خلافتهم، وقبض على أكابر دولتهم حنق عليه رجال القصر الفاطمي، ودبروا له المكائد للتخلص منه، وكان يتزعمهم مؤتمن الخلافة[5]، وقد اتفق رأيهم على مكاتبة الصليبيين "والتقوِّي بهم على صلاح الدين

---

(1) ابن الأثير: الباهر، ص143؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص156؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص272. كان نور الدين يخاطب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار. ابن الأثير: الكامل، ج8، ص26؛ الباهر، ص143؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص351؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص49؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص371_372؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص272؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج29، ص50. تعني الاسفهسلار "مقدم العسكر"، وهي كلمة مركبة من لفظين أولها فارسي وهو "أسفه" ومعناه المقدم، والثاني تركي وهو "سلار" ومعناه العسكر. القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص483؛ ج6، ص7_8.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص26؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص87؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص156؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص371؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص272.

(3) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص48_49؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص19.

(4) مصطفى، شاكر: صلاح الدين، ص91.

(5) مؤتمن الخلافة: هو جوهر أحد الأستاذين المحنكين بالقصر. مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص19. وذكر عدد من المؤرخين أنه مقدم جند السودان بمصر. العمري: مسالك الأبصار، ص41؛ ابن خلدون، ج5، =

ومن معه"، ودعوتهم إلى مصر – كما فعل شاور من قبل– ويقبضوا على الأسدية – أتباع أسد الدين شيركوه– والصلاحية– أتباع صلاح الدين الأيوبي–، فإذا ما خرج صلاح الدين هو وجنده لمواجهة الصليبيين قبضوا على من بقي من أصحابه بالقاهرة، وبذلك تجتمع قوى الفاطميين والصليبيين في محاربة صلاح الدين والقضاء عليه[1].

أرسل مؤتمن الخلافة رسالته إلى الصليبيين مع رجل يثق به، وأمسى بالقاهرة ينتظر هو ومن معه رد الملك الصليبي عموري على رسالته، إلا أن رجلاً تركمانياً رأى رسول مؤتمن الخلافة بمكان يقال له البئر البيضاء[2]، وهو يحمل نعلين جديدين، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين "فوجد في البطانة خِرَقاً مكتوبة، مكتومة، مختومة، بالشرّ محتومة، وإذا هي للفرنج من القصر، يرجون بالفرنج النصر"[3]؛ فأخذ صلاح الدين الكتاب، وقال دلّوني على كاتب هذا الخط، فدلوه على رجل يهودي، فلمّا جاءوا به أمام صلاح الدين ليسألوه عن ذلك نطق بالشهادتين، واعتصم بالإسلام، واعترف أنه قام بكتابة ذلك الكتاب بأمر أهل القصر[4].

أدرك صلاح الدين حجم المؤامرة التي تحاك ضده في مصر من قِبل رجال القصر الفاطمي، إلا أنه لم يظهر ذلك أمامهم، حيث كان مدركاً مدى قوتهم وقوة أنصارهم بمصر، إلا أن مؤتمن الخلافة استشعر بذلك، وخاف على نفسه، ولازم القصر لا يخرج منه، وإذا خرج لا يبتعد عنه "وصلاح الدين مُعرِض عن ذكره البتة، فصار لا يأمر فيه ببسط ولا قبض"[5]، بانتظار فرصة

=ص332؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص337. الأستاذون: هم الموظفون الذين يقومون بأعمال القصر المختلفة، وكان يشرف على هذا الجهاز الضخم رؤساء يعرفون بالمحنكين. القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، 484_485.

(1) البنداري: سنا البرق الشامي، ص43؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص86؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص174_175؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص332؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص371؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص273–374؛ بدوي، عبد المجيد: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص228.

(2) البئر البيضاء: هو مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون، يقع بالقرب من مدينة بلبيس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص376.

(3) البنداري: سنا البرق الشامي، ص43؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص86؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص175؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص44؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج29، ص20.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص27؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج29، ص20؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص471؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص274.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص87؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص175؛ للمزيد، ينظر: البنداري: سنا البرق الشامي، ص43؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج29، ص20؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص354–355؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص433؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص371؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص274؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص100.

مناسبة للتخلص منه دون أن يثور عليه أحد من بقايا الفاطميين بمصر.

لمّا اطمأن مؤتمن الخلافة لعدم تعرض صلاح الدين له مدة من الزمن ظن أنه لن يقدم عليه، فأصبح يخرج من القصر إلى قرية يقال له الخرقانية[1] كان له بها قصر ذات متنزه وبساتين[2]؛ فلمّا علم صلاح الدين بذلك أرسل إليه جماعة من أصحابه فقاموا بقتله يوم الأربعاء 25 ذي القعدة سنة 564هـ/20 أغسطس1169م[3]، ثم عزل صلاح الدين الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة، واستبدلهم بجند تابعين له، وجعل عليهم بهاء الدين قراقوش[4]، وهو خصي أبيض تحكم في شئون القصر، بحيث "كان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره وحكمه (صلاح الدين)"[5].

ما أن علم جند السودان بمقتل مؤتمن الخلافة، وعزل رجال القصر الفاطمي ثاروا على صلاح الدين مع من انضم إليهم من الأمراء والعامة، حتى أصبح عددهم خمسين ألفاً[6]، ثم ساروا إلى دار الوزارة التي يقيم فيها صلاح الدين، والذي ما لبث أن استعد لمواجهتهم وجعل قائده أبا

---

(1) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص371؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص20. الخرقانية: قرية صغيرة من مديرية القليوبية تقع على الشط الشرقي للنيل. مبارك: الخطط التوفيقية، ج10، ص97. ذكر المقريزي أن الخرقانية تقع بالقرب من بلبيس. الخطط المقريزية، ج2، ص371.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص175_176.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص28؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص176؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص20؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص371؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج1، ص20؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص100.

(4) قراقوش: هو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين، كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم عمه أسد الدين، فأعتقه، ولما استقل صلاح الدين بمصر جعله زِمَام القصر، توفي مستهل رجب سنة 597هـ/7 ابريل 1201م بالقاهرة، وقراقوش تعني طائر العقاب. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص91_92. زِمَام القصر: هي وظيفة إدارية كانت موجودة في العهد الفاطمي ويقوم صاحبها بمراقبة ما يجري داخل قصر الخليفة، وقال القلقشندي بأن هذه الوظيفة تمثل زِمَام الدور في زمانه. صبح الأعشى، ج3، ص485.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص28؛ العمري: مسالك الأبصار، ج42؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص355؛ ابن خلدون، ج5، ص332؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص274؛ العيني: عقد الجمان، ص87.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص87؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص176؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص434. ذكر السبكي أن عدد الثائرين على صلاح الدين كانوا نحو مائة ألف كان نصفهم من الفرسان والنصف الآخر من المشاة. طبقات الشافعية، ج7، ص356؛ أورد الذهبي أن عددهم بلغ نحو مائتي ألف. تاريخ الإسلام، ج41، ص356. أشار المقريزي إلى بعض الفرق السودانية التي شاركت في تلك الواقعة. الخطط المقريزية، ج2، ص372.

الهيجاء على رأس جيشه، وتواجه الجيشان يوم السبت 28 ذي القعدة 564هـ/23 أغسطس1169م لمدة يومين قام خلالهما الجيش الصلاحي بإحراق أي مكان يلجأ إليه جند السودان حتى اضطروهم للخروج من القاهرة[1]، "وأصبح أمر السودان كأن لم يكن قط"[2].

لقد أظهرت تلك المعركة أن العاضد لم يكن يرحب بوجود صلاح الدين على كرسي الوزراة، وأنه يرغب بالتخلص منه، إذ ساند العاضد ثورة السودان حيث أمر بقذف العساكر الشامية بالنشاب والحجارة، إلا أنه عدل عن ذلك لما رأى ضعف جند السودان، وعدم قدرتهم على مواجهة جيش صلاح الدين، وقيام عدد من قادة صلاح الدين بإحراق أجزاء من قصر العاضد[3].

لم ينجح العاضد في تحقيق هدفه في استعادة السلطات التي فقدها في عهد الوزير شاور بتعيين صلاح الدين وزيراً له، ثم حاول العاضد التخلص من صلاح الدين بإضعافه ومساندته للجند السودان الثائرين عليه في مصر، لكن كانت الغلبة في ذلك الصراع لصلاح الدين وجند الشام، وقد مثّل ذلك الصراع إحدى المراحل المهمة في توطيد نفوذ صلاح الدين في مصر، إذ أصبح هو الحاكم الفعلي حيث أكد ذلك من خلال القيام بمصادرة مخصصات العاضد "إذ أتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك، ولم يبق عند العاضد غير فرس واحد، فطلبه منه وألجأه إلى إرساله، وأُبطل ركوبه من ذلك الوقت، وصار لا يخرج من قصره البتة"[4].

ثانياً: موقف الصليبيين من وزارة صلاح الدين الأيوبي:

لم تكن الصعاب التي واجهت صلاح الدين- عندما كان وزيراً للعاضد- مقتصرة على الفتنة التي أثارها رجال القصر الفاطمي، بل كان الصليبيون في بيت المقدس يرقبون عن كثب ازدياد نفوذ نور الدين في مصر، حيث أنه "لمّا ملك أسد الدين مصر قد خافوه، وأيقنوا بالهلاك"[5]، وخشوا على مملكتهم الصليبية في بلاد الشام، وأدركوا أنهم قد وقعوا بين شقي الرحى، وأن القوات الإسلامية قد أحاطت بالصليبيين من الشمال الشرقي والجنوب الغربي، إذ تلك هي المرة الأولى التي تصبح فيها القوات الإسلامية في مصر والشام تحت قيادة إسلامية واحدة كان لها ثقلها في الصراع مع الصليبيين في بلاد الشام، على عكس جبهة مصر الفاطمية التي حصدت إخفاقات

---

(1) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص87؛ العيني: عقد الجمان، ص87.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص177.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص28؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص355؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص87_88؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص434؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص274.

(4) المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص48_49.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص31.

عديدة في صراعها مع الصليبيين في ذلك الوقت، وبذلك يمكن القول أن سيطرة نور الدين محمود وقائده صلاح الدين على القواعد البحرية في شمال مصر– مثل الإسكندرية ودمياط وغيرها من المدن الساحلية– من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحرية، وتجعل تلك السيادة للمسلمين في الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط[1].

أدرك الملك الصليبي عموري خطر توحيد نور الدين محمود لبلاد الشام ومصر، فأرسل إلى ملوك أوروبا، وإلى الإمبراطور البيزنطي يطلب منهم المعونة العسكرية لإخراج جيش نور الدين محمود من مصر لما يشكله من خطر على مملكة بيت المقدس الصليبية[2]، إلا أن ملوك وأمراء أوروبا لم يتمكنوا من تقديم أية مساعدة لعموري نظراً للخلافات والنزاعات التي كانت قائمة بينهم[3]، أما الإمبراطور البيزنطي مانويل كومينين، فقد اغتنم فرصة استنجاد عموري به، فلبى الدعوة لتحقيق مكاسب للإمبراطورية على حساب الصليبيين، وذلك بإدخال مصر ضمن النفوذ البيزنطي في حال طرد نور الدين منها والسيطرة عليها، فأمدّ الإمبراطور عموري "بالمال والرجال والسلاح"[4]، علاوة عن توقيعه اتفاقية معه يتم بموجبها السير إلى مصر، والنزول على دمياط والسيطرة عليها، واتخاذها قاعدة للانطلاق على بقية مدن مصر معتقدين أنه "إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه"[5].

انطلقت القوات الصليبية والبيزنطية من سواحل بلاد الشام متوجهة نحو مصر، واصطحبوا معهم المنجنيقات والدبابات[6]، وغيرهما من آلات الحصار[7]، ووصلوا دمياط مستهل شهر صفر565هـ/25 أكتوبر1169م، وقاموا بحصارها والتضييق على من بها براً وبحراً[8] "فوقع اليأس والبؤس وقنطت النفوس"[9] نتيجة ذلك.

---

(1) عاشور، سعيد: الناصر صلاح الدين، ص85.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص31؛ الباهر، ص143؛ ابن قاضي شهبة، ص275.

(3) الغامدي، مسفر: الجهاد ضد الصليبيين، ص313.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص332.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص31؛ الباهر، ص143؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص92.

(6) الدبابة: هي آلة من الجلد والخشب يدخل فيها الرجال، ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه، وتقيهم ما يرمون به من فوقهم. ابن منظور: لسان العرب، ص1315.

(7) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص92؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص180.

(8) الأصفهاني: البستان الجامع، ص368؛ ابن الأثير: الكامل، ج8، ص31؛ الباهر، ص143؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص41؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص24؛ العمري: مسالك الأبصار، ص42؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص284؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص103؛ العيني: عقد الجمان، ص105_106.

(9) البنداري: سنا البرق الشامي، ص41.

واجه صلاح الدين خطر الصليبيين والبيزنطيين، وأعد لذلك جيشاً بقيادة أحد مقدمي نور الدين محمود، وهو قطب الدين الهذباني[1]– كان نور الدين قد أرسله مدداً لصلاح الدين بمصر–، وأمره بالمسير إلى دمياط بعد أن زوده بالمال والسلاح والرجال مع ما كان سبق إليها من قوات بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر، وخاله شهاب الدين الحارمي[2].

أما صلاح الدين فقد ظل بالقاهرة حيث كان يخشى من حدوث انقلاب يقوم به بقية الفاطميين، وأرسل إلى نور الدين يقول له :"إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها وأموالها بالشر، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج من أمامي، فلا يبقى لنا باقية"؛ فسيّر نور الدين مدداً إلى صلاح الدين، ثم سار نور الدين بنفسه نحو مملكة بيت المقدس الصليبية، وقام بالإغارة عليها واستباحتها، ونهب بعض ممتلكاتها، ووصلت غاراته "إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع"[3]

كما أن العاضد نفسه أمدّ صلاح الدين بالأموال الجزيلة، إذ ورد عن صلاح الدين قوله:"ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب وغيرها"[4]، وربما يرجع ذلك إلى خشية الخليفة العاضد من بطش صلاح الدين إذا وقف إلى جانب الصليبيين وساندهم في تحقيق مشروعهم الاستعماري في مصر.

نتيجة لتضافر جهود نور الدين محمود – تلك الجهود التي تمثلت في المساعدات والإمدادات التي أرسلها لصلاح الدين بمصر، وما قام به من غزو الصليبيين ونزوله على الكرك وحصاره لها– مع ما قام به صلاح الدين من إمدادات عسكرية للدفاع عن دمياط، فقد أُجبر الصليبيين والبيزنطيين على التراجع عنها والعودة إلى بلاد الشام[5] بعد خمسين يوماً من

---

(1) قطب الدين الهذباني: هو قطب الدين خسرو بن تُلَيّل الهذباني، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني صاحب إربل. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص153.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص181؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص93؛ العريني، السيد الباز: الشرق الأدنى، ص42.

(3) ابن الأثير: الباهر، ص143_144.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص31؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص355؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص183؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص125؛ الذهبي: تاريخ الاسلام، ج39، ص24؛ العبر، ج3، ص45؛ العمري: مسالك الأبصار، ص42؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص440؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص601؛ العيني: عقد الجمان، ص107.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص83_84؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص440_441؛ ابن خلدون: ج4، ص103_104؛ ج5، ص332_333؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص7؛ الغامدي، مسفر: الجهاد ضد الصليبيين، ص314.

حصارها[1]، وكان رحيلهم عنها في 25 ربيع أول 565هـ/17 ديسمبر1169م بعد ما غرق لهم نحو ثلاثمائة مركب، وقتل عدد كبير من مقاتليهم[2]، وقد عبّر ابن الأثير عن فشل الصليبيين والبيزنطيين في تحقيق أهدافه بالمثل المشهور عن النعامة، وهو "خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين"[3].

وقد سُرّ نور الدين محمود وصلاح الدين والمسلمون جميعاً بذلك النصر، وأرسل نور الدين إلى العاضد الفاطمي يهنئه برحيل الصليبيين والبيزنطيين عن مصر، ويثني على الأتراك، فطلب العاضد بإخراجهم من مصر، والاقتصار على صلاح الدين، إلا أن نور الدين رفض ذلك وكتب إلى العاضد يخبره "بأنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات[4] الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يُرعبون إلا بهم، ولولاهم لزاد طمعه في الديار المصرية، ولحصلوا منهم على الأمنية"[5].

ويُظهر طلب الخليفة العاضد من نور الدين إخراج الجنود الأتراك من مصر، والإبقاء على صلاح الدين فقط أنه قد أدرك أن زمام الأمور بمصر قد خرجت من يده رغم أنه كان يرغب في بقاءه على سدة حكم مصر، والاستئثار بها دون قوات نور الدين، إلا أن نور الدين – بخبرته وحنكته العسكرية– أبقى قواته بمصر تحت قيادة صلاح الدين لما لها من أهمية في ضبط مصر ،العمل على استقرار أحوالها؛ لإعادة توحيدها مع بلاد الشام، ومن ثم محاربة الصليبيين في الشام.

لقد أدى فشل الحملة الصليبية البيزنطية على مصر إلى تضييق الخناق على الصليبيين في بلاد الشام، إذ أصبحوا محاصرين بين نور الدين محمود في بلاد الشام، وبين قوات قائده صلاح الدين في مصر، وقد ظهر ذلك جلياً عندما تشجع صلاح الدين على مهاجمة أملاك الصليبيين في جنوب الشام، فخرج على رأس قوة عسكرية كبيرة، وأغار على عسقلان والرملة،

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص31؛ الباهر، ص144؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص125؛ الذهبي: العبر، ج3، ص45؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص440؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص601؛ العيني: عقد الجمان، ص105؛ الحنبلي: الأنس الجليل، ج1، ص313. بينما ذكر آخرون أن مدة الحصار بلغت واحداً وخمسين يوماً. البنداري: سنا البرق الشامي، ص45؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص355.

(2) المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص601.

(3) الكامل، ج8، ص31.

(4) القنطاريات: لفظ من أصل يوناني، وتعني نوع من الرمح يصنع من الخشب. ابن ممّاتي: قوانين الدواوين، ص364؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص183، هامش2.

(5) السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص19_20؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص94؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص183؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص27.

وهجم على ربض غزة وقام بنهبه، وهناك نشبت معركة بين صلاح الدين وعموري الأول، وأشرف فيها عموري على الوقوع في الأسر، ولم يكتف صلاح الدين بذلك إذ أمر فور عودته إلى مصر بمهاجمة أيلة بعد أن حُملت المراكب البحرية على الجمال في البر، وقام بحصارها حتى حُرّرت في ربيع الآخر سنة 566هـ/أكتوبر 1170م[1].

ثالثاً: وفاة الخليفة العاضد وزوال الدولة الفاطمية:

بعد أن استكمل نور الدين محمود توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بضم الموصل إلى ملكه سنة 566هـ/1170م، عقب وفاة أخيه قطب الدين مودود[2] شرع في إنهاء خلافة الفاطميين، وإعادة الخلافة العباسية بمصر، إذ أرسل إلى صلاح الدين يخبره برغبته في الإطاحة بالخلافة الفاطمية الشيعية[3]، لا سيما بعد أن قويت شوكته بقدوم أهله إلى مصر، وعلى رأسهم نجم الدين أيوب – والد صلاح الدين– الذي خرج العاضد بنفسه لاستقباله والمبالغة في احترامه وتقديره[4]، وخلع عليه الخليفة العاضد ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الهدايا

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص40؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص57؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص356؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص118؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص127_128؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص30؛ العمري: مسالك الأبصار، ص44؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص333؛ ابن قاضي شهبة، ص283_284؛ الحنبلي: الأنس الجليل، ج1، ص313؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص105.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص38_39.

(3) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص99.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص185؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص25؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص297_298؛ المقفى الكبير، ج2، ص380؛ العيني: عقد الجمان، ص82. ينفرد المؤرخ الشيعي ابن أبي طي بالإشارة إلى أن الخليفة المستنجد بالله العباسي أرسل من بغداد إلى نور الدين "يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر (نور الدين) الأمير نجم الدين، وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك وحمّله رسالة" بذلك. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص99. ويجدر القول بأنه لا يمكن ربط سفر نجم الدين أيوب برسالة المستنجد بالله، وأمر نور الدين لأسباب عدة، وهي:

- أولاً: أن نور الدين اشترط على قادته عند توجههم من دمشق إلى مصر طاعة صلاح الدين ومساندته وعدم الخروج عليه، وقد ذُكر ذلك آنفاً.
- ثانياً: أن العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين علاقة حسنة، ولا تخالطها أي شائبة، والدليل على ذلك أن نور الدين عندما أرسل إليه أبيه وأهله رافقهم بالحماية حتى بلدة الكرك، وأرسل معهم هدية لصلاح الدين. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص98_99.
- ثالثاً: أن الرواية نُقلت عن ابن أبي طي الذي يُتهم فيما ينسبه إلى نور الدين، ويبدو أن ذلك يرجع إلى أن نور الدين قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم، وقوّى أهل السنة بها، وكان والد ابن أبي طي من رؤوس الشيعة بحلب، فنفاه نور الدين منها. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص77.=

والتحف[1].

لمّا دخل نجم الدين أيوب القاهرة عرض عليه ابنه صلاح الدين أمر مصر وتدبيرها، على أن يكون صلاح الدين ومن معه أمراء لنجم الدين، إلا أنه رفض ذلك، وقال لصلاح الدين "يا ولدي ما اختارك الله لهذا إلا وأنت أهل له"[2]، فاستمر صلاح الدين على نهجه الإصلاحي في مصر، وقام بعزل الأمراء الفاطميين من مناصبهم واستبدلهم بقادته الشاميين، وحكّم أبيه في أموال مصر وخزائنها[3]، كما صادر إقطاعات الفاطميين، ومنحها لأهله وللأمراء الذين معه "فازدادوا له حباً وطاعة"[4].

لم يكن صلاح الدين أقل تحمساً من سيده نور الدين في الإسراع بخلع العاضد، وإقامة الدعوة العباسية في مصر، إلا أنه سار بخطى بطيئة في ذلك خشية فتنة بمصر يقوم بها الفاطميين وأعوانهم [5].

اتبع صلاح الدين خطوات ثابتة ومهمة من أجل توحيد مصر مع بلاد الشام، وإعادتها تحت الخلافة العباسية؛ فقام بمحاربة المذهب الشيعي، وإقامة المذهب السنّي بمصر، وذلك من خلال تحويل بعض الدور التي كانت سجوناً إلى مدارس للشافعية، كما اشترى تقي الدين عمر منازل العز[6] بمصر وأقامها مدرسة للشافعية، كما بنى مدرسة للمالكية أيضاً[7]، وقام صلاح الدين

=ولو صحّ أن نور الدين قد أرسل نجم الدين لمعاتبة ابنه صلاح الدين بتأخير إقامة الدعوة للخلافة العباسية فإنه كان يهدف من وراء ذلك الحصول على "الفضيلة الجليلة، والمنقبة النبيلة" حسب قول ابن أبي طي نفسه. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص99. كما أن صلاح الدين كان دائماً "تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود". ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص7. المستنجد بالله: هو أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله الهاشمي العباسي البغدادي، ولد سنة 518هـ/1124، وتولى الخلافة سنة 555هـ/1160م، وتوفي سنة 566هـ/1171م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص366.

(1) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص99.

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص85؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص186؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص290؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج2، ص380؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص6.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص85؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص99.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص26.

(5) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص200.

(6) منازل العز: بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز، ولم يكن حينها أحسن منها، وكانت مطلة على نهر النيل، وكانت معدة لتتنزه الخلفاء الفاطميين، وفي العهد الأيوبي حُوّلت إلى مدرسة سميت بالمدرسة التقوية منسوبة إلى تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب. المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص334.

(7) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص198.

بعزل قضاة مصر الشيعة[1]، وولّى صدر الدين عبد الملك بن درباس[2] القضاء والحكم بالقاهرة وأعمالها[3]، وعلاوة على تلك الإصلاحات الدينية التي قام بها صلاح الدين بمصر قام بقطع إقطاعات العاضد، وقبض على جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور وأوكلها بمن فيها إلى قراقوش الخادم، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية، وأبطل من الأذان (حي على خير العمل)، كما أنكر الانتساب إلى المذهب الفاطمي[4]، وأبطل الجمعة في الجامع الأزهر وجامع الحاكم، كونهما أهم مراكز الدعوة الفاطمية بمصر[5]، وألغى مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره من الجوامع، وأمر بالقبض على أمراء الدولة الفاطمية، ومصادرة أملاكهم – من أهل ومال وخيول وعبيد وجوار –، فأصبح أمراء الشام سادة مصر، والفاطميين معتقلين، ولما علم العاضد بذلك شُقّ عليه، وأرسل إلى صلاح الدين يسأله عن سبب القبض عليهم، ويرجو منه إطلاق سراحهم، فأجابه بأنهم كانوا عصاة للعاضد، والمصلحة تقتضي التخلص منهم[6]، واستمر صلاح الدين على امتهان الفاطميين – قبل الإجهاز على خلافتهم– حتى قال عمارة اليمني[7] أن صلاح الدين فعل بالفاطميين أكثر ما يفعله الصليبيون[8]، وبذلك أحكم صلاح الدين قبضته على مصر، "وبقي

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص41؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص57؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص118؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص198_199؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص128؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص447_448؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص103؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص319؛ الخطط المقريزية، ج2، ص49؛ العيني: عقد الجمان، ص118.

(2) صدر الدين بن درباس: هو عبد الملك بن عيسى بن درباس الهذباني، ولد بالموصل سنة 516هـ/1122م، ثم ذهب إلى مصر، وتولى القضاء فيها بعد أن كان قاضي الغربية، وقد ناب عن أخيه في حكم مدينة القاهرة، وتوفي سنة 605هـ/1207م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص242_243؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص408.

(3) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص118.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص448؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص49؛ ج3، ص209؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص284؛ العيني: عقد الجمان، ص114.

(5) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص237.

(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص320، 321.

(7) عمارة اليمني: هو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني الملقب نجم الدين، الشاعر المشهور، وهو من تهامة باليمن، من مدينة يُقال لها قرطان، وكان فقيهاً سنّيّاً شافعي المذهب، دخل مصر سنة 550هـ/1155م، وكان على رأس المؤامرة الفاطمية ضد صلاح الدين بمصر سنة 569هـ/1174م، وقُتل بأمر من صلاح الدين. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص431_433؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39؛ ص351_353؛ العبر، ج3، ص58؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص295؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص474.

(8) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص213.

العاضد معه صورة"[1].

اختتم صلاح الدين شروعه في القضاء على الخلافة الفاطمية بإبطال المكوس والضرائب التي كانت تؤخذ من الناس، وما كان يُفرض على الحجاج، وبذلك "اندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية، وانمحى أثره، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به"[2].

لمّا علم نور الدين بثبات أقدام قائده صلاح الدين بمصر، وزوال "المخالفون له، وضعف أمر الخليفة العاضد بها" كتب إليه يأمره بقطع الخطبة للعاضد وإقامتها للمستضيء بأمر الله العباسي[3]، إلا أن صلاح الدين اعتذر عن ذلك – في بداية الأمر– لتخوفه من ثورة المصريين الذين يميلون إلى الفاطميين[4]، إلا أن نور الدين كان يستعجل صلاح الدين في ذلك وألحّ عليه، "وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته"[5]، وفي هذه المرة استجاب صلاح الدين لأوامر سيده نور الدين، وذلك بعد أن "خلت بلاد مصر من معاند ومنابذ"[6]، وقبل أن يُقدِم صلاح الدين على تلك الخطوة استفتى الفقهاء، فأفتوه بجواز ذلك لما كان عليه الفاطميين الشيعة من فساد الاعتقاد[7].

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص324.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص198.

(3) المستضيء بأمر الله: هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله، ولد سنة 536هـ/ 1142م، وبويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة 566هـ/1171م، وتوفي سنة 575هـ/1180م، وبويع من بعده لولده الناصر لدين الله. الذهبي: سير، ج21، ص68، 70.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص42؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص200؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص325. يضيف ابن الأثير أن صلاح الدين قد كره قطع الخطبة للعاضد وإقامتها للمستضيء، وبأنه يريد بقاء الفاطميين خوفاً من نور الدين، حيث– حسب قول ابن الأثير – أنه كان يخشى من دخول نور الدين إلى مصر ويأخذها منه. الكامل، ج8، ص42. وهذا القول مخالف لرأي ابن الأثير نفسه وغيره من المؤرخين كما هو في المتن، كما أن ذلك لا ينطبق مع حقيقة الأمر، إذ أن صلاح الدين عندما عزم على قطع الخطبة استشار زعمائه وقادته من ردة فعل المصريين على ذلك وليس خوفاً من نور الدين محمود. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص42؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص124؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص157؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص200. كما أن صلاح الدين كان طيلة المدة السابقة يمهد للقضاء على المذهب الفاطمي بمصر، متتبعاً سياسة التدرج في ذلك حتى لا يثور الفاطميون، ومن يميل إليهم من المصريين عليه، إذ أنهم "يؤثرون عَوْدهم (الفاطميين)". ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص21. ذكر البنداري أيضاً أن صلاح الدين كان "لا يخرج البتة عن أمر نور الدين، ويرجع في جميع النصائح إلى رأيه المتين". سنا البرق الشامي، ص60.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص42؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص200؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص337؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص325؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص338.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص129.

(7) ابن أيبك: الدر المطلوب، ص47.

استغل صلاح الدين مرض العاضد الفاطمي، وعزم على قطع الخطبة له، وإقامتها للمستضيء بأمر الله، فلمّا كانت الجمعة الأولى من محرم سنة 567هـ/10 سبتمبر 1171م تقدم رجل يُقال له الأمير العالم، وصعد إلى المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء العباسي فلم ينكر أحد عليه ذلك، وفي الجمعة التي تلتها أمر صلاح الدين الخطباء بقطع خطبة العاضد، وإقامتها للمستضيء ففعلوا ذلك، "ولم ينتطح فيه عنزان"[1]، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يُعلمه أحد بقطع خطبته، وقالوا :"إن عُوفِي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته"[2]، فمات بعد ثلاثة أيام من إعلان الخطبة العباسية في القاهرة في العاشر من محرم سنة 567هـ/ 13 سبتمبر 1171م[3].

يتضح مما سبق أن الهدف الذي كان يسعى إليه كل من نور الدين محمود، وقائده صلاح الدين هو إلغاء الخلافة الفاطمية سياسياً، وإنهاء المذهب الشيعي الذي كان له انتشار واسع في مصر، وقد حانت الفرصة لصلاح الدين عندما ضعف الخليفة الفاطمي، فقام صلاح الدين باعتقال الأمراء الفاطميين الذين لم يصبح لهم أي تأثير بمصر، كما أن عدم معارضة أهل مصر على إلغاء الخلافة الفاطمية، وإنهاء مذهبهم الشيعي قد بيّن أنهم – رغم طول مدة حكم الفاطميين لهم– لم يعتنقوا ذلك المذهب على اقتناع وعن عقيدة، بل نجد أن الظروف هي التي أملت عليهم ذلك.

لمّا وصلت بشارة إقامة الخطبة بمصر للخليفة المستضيء ضُربت البشائر، وزُيّنت بغداد، وظهر من الفرح ما لا حد له، وأرسل المستضيء الخِلع والهدايا لنور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، ولخطباء مصر، كما أُرسلت الأعلام السود – شعار العباسيين – إلى مصر[4]، وعلاوة على ذلك فقد ضُربت العملة باسم الخليفة العباسي، وباسم الملك العادل نور الدين محمود، فنُقش اسم كل منهما على وجه[5].

بعد أن ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية بمصر وأقامها للعباسيين استولى على الكنوز

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص42_43.

(2) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص123_124؛ ابن خلكان، ج7، ص157؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص373_374؛ ابن قاضي شهبة، ص284_285؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص235.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص42_43؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص128؛ العمري: مسالك الأبصار، ص45؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص337؛ ابن خلدون، ج4، ص105_106.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص44؛ الباهر، ص257؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص129؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج29، ص51؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص450؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص235؛ بدوي، عبد المجيد: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص172.

(5) المقريزي: السلوك: ج1، ص151.

التي كان خلفاء الفاطميين قد كدسوها منذ مجيئهم إلى مصر في خزائنهم الخاصة، حيث كانت من كثرتها لا يُمكن أن تحصى[1]، وكلما استولى صلاح الدين على خزانة من المال يقوم بتوزيعها على عساكره، "ولا يُبقي لنفسه شيئاً"[2].

أما الكتب التي كانت بالقصور الفاطمية – وكانت كثيرة–، فتخلص منها صلاح الدين لاحتوائها على أفكار الشيعة وعقائدهم، أما أهل العاضد وأولاده فأخرجهم قراقوش من القصر، وأفرد لهم مكاناً خاصاً، وقرر لهم الكسوة والنفقة، وما يحتاجون إليه، وجمع أقاربهم واحترز عليهم، وأبعد عنهم النساء لئلاّ يتناسلوا، كما تخلص من عبيد وجواري القصر إما بمنحهم حريتهم، وإما بإبقائهم بالرق[3].

بإلغاء الخلافة الفاطمية بمصر، ووفاة العاضد – آخر الخلفاء الفاطميين – سقطت الدولة الفاطمية التي لم تعرف طعم الاستقرار في مصر نتيجة الثورات الداخلية والحروب الخارجية التي كانت بين الحين والآخر، ويمثل زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين، وإعادة الخطبة للعباسيين بعد أن قطعت في مصر – كسائر الولايات الفاطمية الأخرى – انتصاراً للسنة على الشيعة.

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص43؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج7، ص20.

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص86؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص320.

(3) ابن الأثير: الباهر، ص156؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص59؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص203؛ الذهبي: العبر، ج3، ص49؛ ابن خلدون، ج4، ص106؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص347.

المبحث الثالث

التآمر الفاطمي الصليبي ضد صلاح الدين الأيوبي

لم يكن القضاء على جند السودان، ثم سقوط الخلافة الفاطمية، ووفاة الخليفة العاضد يعني استقرار الأوضاع الداخلية بمصر نهائياً لصلاح الدين، فبالرغم من إعلان نهاية الخلافة الفاطمية وموتها على يد صلاح الدين إلا أن ذلك قد أغضب المخلصين الشيعة في مصر، عوضاً عن أتباع النظام القديم والمستفيدين منه، وجلّهم من الانتهازيين الذين عزّ عليهم أن ينقضي زمن الفوضى، وأن يسيطر على البلاد رجل قوي يحطِّم أحلامهم، ويصادر ممتلكاتهم[1].

لذلك قام الفاطميون بمحاولات عديدة للإطاحة بصلاح الدين، منها ما كان في حياة العاضد – كثورة مؤتمن الخلافة، وجند السودان –، ومنها ما بعد وفاته وسيطرة صلاح الدين على مصر، ومن بين تلك المحاولات اجتماع قوم من الشيعة المصريين على داوود بن العاضد ومبايعته بالخلافة، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل أيضاً إذ قبض عليه صلاح الدين، وسجنه سنة 569هـ/1174م، ولم يُخرجه إلاّ بعد أن أمِن خطره بعد مقتل مؤيديه، ولم تسكن الدعوة السرية للشيعة، فقد خرج من الصعيد سليمان بن داوود، فقبض عليه صلاح الدين، وسجنه حتى توفي[2]، لتؤكد تلك الحركات الشيعية فشلها في إعادة الدعوة والحكم للفاطميين مرة أخرى، عوضاً عن أنه لم يكن لها أثراً كبيراً على صلاح الدين، ويبدو أن تلك المحاولات كانت تفتقد إلى التخطيط رغم مشاركة أبناء العاضد بها، عوضاً عن قلة من أراد إعادة الخلافة الفاطمية بمصر مرة أخرى.

ولم تلبث أن دُبرت مؤامرة في القاهرة سنة 569هـ/1174م اشترك في حبك خيوطها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد بمصر، مؤامرة كان الهدف منها إحياء الخلافة الفاطمية بمصر "وإقامة الدعوة العلوية، وردّها إلى ما كانت عليه"[3].

وكان على رأس تلك المؤامرة الشاعر عمارة اليمني الذي وصفه ابن واصل "بأنه كان شديد التعصب لهم (الفاطميين)"، على الرغم من أنه كان سنياً شافعياً، وفسّر ابن واصل ذلك بأنه وفد عليهم من اليمن "فأحسنوا إليه، وخوّلوه، فرعى لهم ذلك، ووفّى لهم"، وصار "صنيعة الإحسان"[4].

وكان عمارة اليمني قد تأثر بفقدانه مكانته التي أولاها له الفاطميين، وما ترتب على ذلك

---

(1) عاشور، سعيد: الناصر صلاح الدين، ص102.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص106_107.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص243.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص212.

من حرمانه من منصبه وأرزاقه، ونستدل على ذلك بعدة أبيات من قصيدة له يرثي فيها الفاطميين:

قدمـتُ إلى مصر فأولتني خلائفها ... من المـكارم ما أربى على أمـلي

أبكي على مأثـرات من مـكارمـكم ... حـال الزمـان عليها وهي لم تـحل

كـــــانت رواتبـــكم للوافـــدين ... وللضيف المقيم وللطاري من الرسل[1]

وذكر عدد من المؤرخين أن هناك عدداً آخر من أعيان الدولة الفاطمية شاركوا في التآمر ضد صلاح الدين إلى جانب عمارة اليمني، ومن بينهم: عبد الصمد الكاتب، والقاضي العويريس (متولي ديوان النظر ثم القضاء)، وداعي الدعاة ابن عبد القوي[2]– الذي كان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه–[3]، إضافة إلى المفضل بن كامل القاضي[4]، وعبد الصمد القشة – أحد الأمراء الفاطميين – ونجاح الحمَّامي[5]، عوضاً عمّن بقي من جند الفاطميين والسودان وحاشية القصر الفاطمي[6]، كما أن بني رزيك وبني شاور قد اشتركوا في تلك المؤامرة، إلا أنهم اختلفوا في تعيين الوزير في حال نجاح مؤامرتهم ضد صلاح الدين، فرأى بعضهم إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لأحد أولاد العاضد وإن كان صغيراً[7].

اجتمع عمارة اليمني مع "جماعة من دعاة الدولة المصرية (الفاطمية) المتعصبة، المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفية.. وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير.. وتقاسموا الدور والأملاك"[8]، ولتكتمل خيوط المؤامرة اتفقوا على مراسلة الصليبيين الذين

---

(1) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص212_215.

(2) ابن عبد القوي: هو عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوي الملقّب بداعي الدعاة، ويُقال له الحاج بن عبد القوي، كان من بقايا أنصار الفاطميين بمصر، قُتل سنة 569هـ/1174م نتيجة اشتراكه في المؤامرة ضد صلاح الدين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص70؛ الزركلي: الأعلام، ج3، ص274.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص63؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص29؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص186؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص246_247؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص54؛ العمري: مسالك الأبصار، ص50؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص162؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص115.

(4) ابن كامل القاضي: هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة، وقاضي القضاة للفاطميين، وكان يلقّب عندهم بفخر الأمناء، وكانت له مكانة كبيرة عند الفاطميين. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص194.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص186؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص311.

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص63؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص115.

(7) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص188_189؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص249.

(8) البنداري: سنا البرق الشامي، ص29؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص244.

ببلاد الشام وصقلية، وبذلوا لهم الأموال، ووعدوهم على اقتسام البلاد، وكانت الخطة تتمثل في أن يقصد الصليبيون مصر، وعند خروج صلاح الدين لمواجهتهم يثور بقايا الفاطميين بالقاهرة والفسطاط، ويُعيدوا الدعوة للفاطميين، وفي حال بقاء صلاح الدين بالقاهرة وإرساله العساكر للتصدي للصليبيين، يثور الفاطميون بالقاهرة ويقوموا بالقبض على صلاح الدين، كما أن عمارة اليمني قد أقنع الصليبيين بالقول ":أنا قد أبعدتُ أخاه (تورانشاه) إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده، وتجتمع الكلمة عليه بعده (صلاح الدين)...[فوافق الصليبيون على تلك الخطة]، وتقررت القواعد بينهم، ولم يبق إلا رحيل الفرنج"[1].

لم يكتف المتآمرون الشيعة بالاتصال بالملك الصليبي عموري، وإنما اتصلوا أيضاً بوليام الثاني النورماني[2]– ملك صقلية– حتى يهاجم أسطوله الإسكندرية في الوقت الذي يداهم فيه الصليبيون مصر من ناحية الشرق، فتتشتت قوى صلاح الدين ويثور الفاطميون في القاهرة[3]، واستعان قادة التآمر الفاطمي أيضاً بالنصارى واليهود الذين يقيمون بمصر[4].

أدرك المتآمرون الفاطميون أنه لابد من الاستعانة بقوى أخرى – إلى جانب الصليبيين بالشام وجزيرة صقلية– تساند مشروعهم في إعادة الخلافة الفاطمية بمصر، وفي هذه المرة أقدموا

---

(1) الأصفهاني: البستان الجامع، ص369؛ ابن الأثير: الكامل، ج8، ص63_64؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص244؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص55؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص337؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص161. لم تكن تلك المؤامرة الأولى بين الفاطميين والصليبيين إذ ذكر بعض المؤرخين المسلمين أن الفاطميين كانوا قد راسلوا الصليبيين وطلبوا منهم المجيء إلى مصر، ويقوم الفاطميون– ممثلون بحاشية القصر، وطائفة الجند، ومن يناصر النهج الشيعي– بالثورة على صلاح الدين، وكانت تلك المراسلة عندما توجه صلاح الدين بعساكره إلى الكرك والشوبك. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص189؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص367. كان صلاح الدين قد توجه إلى الكرك والشوبك سنة 567هـ/1172م باتفاق مع نور الدين محمود ثم عاد إلى مصر بعد ما بلغه بأن الشيعة العلويين بمصر أرادوا الوثوب عليه وإعادة الحكم الفاطمي مرة أخرى. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص44_45. وكان المتآمرون – قبل ذلك– كثيراً ما كانوا يقومون بمراسلة الصليبيين للقدوم إلى مصر من بلاد الشام، و"يزينون لهم الإقدام والقدوم" أبو شامة: الروضتين، ج2، ص188. ويبدو أن عموري كان متخوف من القيام بتلك الخطوة في ظل وجود قوات نور الدين محمود في مصر، عوضاً عن أن نور الدين كان كثيراً ما يقوم بمهاجمة حصون وقلاع الصليبيين في بلاد الشام.

(2) كان حاكم صقلية هو وليام الثاني بن وليام الأول بن روجر الأول، وهذا الأخير هو مؤسس مملكة النورمانديين في صقلية سنة 1103م، وتسمي الكتب العربي وليام الثاني ب"غليالم بن غليالم بن رجار متملك صقلية". ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص12، هامش1؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص164.

(3) عاشور، سعيد: الناصر صلاح الدين، ص103.

(4) الأصفهاني: البستان الجامع، ص369؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص188.

على الاتصال بسِنان[1] زعيم الحشيشية[2] الباطنية، وأرسلوا إليه "بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنه ما بين أهلها خلاف يجب به قعود عن نُصْرة، واستدعوا منه من يقم على الملوك غيلة، ويثب عليه مكيدة وحيلة"[3] بغرض قتل صلاح الدين والتخلص منه، كخطوة أولى لنجاح مؤامرتهم، وتحقيق هدفهم.

تعد تلك المؤامرة خيانة صريحة من قبل الفاطميين، إذ كيف يستعين المتآمرون – على قتال ومحاربة أبناء ملتهم– بالصليبيين والنصارى واليهود من أجل تحقيق مصالح شخصية، والغريب في أمرهم أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك أيضاً إلى تحطيم دولة صلاح الدين الناشئة، التي تجاهد ضد أعداء الإسلام، ذلك الجهاد الذي كان له وجهة نظر أخرى لدى الفاطميين تتمثل فقط في استمرار نفوذهم السياسي والديني في بلاد الشام طيلة فترة الحروب الصليبية، رغم أن الجهاد الحقيقي في مدن الساحل الشامي ضد الصليبيين كان على عاتق سكان البلاد الأصليين، وليس الحكام الفاطميين.

في الوقت الذي بدأ فيه الثوار الفاطميون ينتهون من حبك خيوط مؤامرتهم للإطاحة بصلاح الدين، علم الواعظ زين الدين على بن نجا المعروف بابن نجيّة[4] بتلك المؤامرة، وحضر إلى صلاح الدين، "وأعلمه حقيقة الأمر، فأمره (صلاح الدين) بملازمتهم، ومخالطتهم، ومواطئتهم على ما يريدون أن يفعلوه، وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا

---

(1) سنان: هو راشد الدين أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد بن راشد البصري، مقدم الإسماعيلية، وصاحب دعوتهم، أصله من البصرة، وكان في حصن ألموت في حدود الديلم، قرأ كتب الفلسفة والجدل، انتقل إلى بلاد الشام في أيام نور الدين محمود، وعمل على نشر مذهبه، وتمكن من الاستيلاء على عدة قلاع بالشام، وأقام بالشام مدة 30 سنة، ولم يذعن بالطاعة لصلاح الدين، إلا أنه اضطر إلى مصالحته بعد أن عزم صلاح الدين على قصده، واستمر في استقلاله إلى أن مات سنة 588هـ/1192م. القلقشندي: صبح الأعشى، ج13، ص247_248؛ الزركلي: الأعلام، ج3، ص141.

(2) الحشيشية: طائفة من الشيعة الإمامية الإسماعيلية الغلاة، تزعمهم الحسن الصباح، وصار لهم وجود قوي في إيران، وبخاصة في قلعة ألموت الشهيرة، كما أصبح لهم وجود قوي في بلاد الشام، حيث والوا الصليبيين، وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى أسلوب الاغتيال في التعامل مع خصومهم، ودُعوا بالحشاشين لتعاطيهم الحشيش. كحيلة، عبادة: العقد الثمين، ص249. ذكر ابن خلكان أن نزار بن المستنصر الفاطمي هو جد أصحاب الدعوة بقلعة ألموت، وغيرها من القلاع التابعة لتلك الطائفة. وفيات الأعيان، ج1، ص179.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص249؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص189؛ الشامي، أحمد: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، 156_157؛ شاندور: صلاح الدين الأيوبي، ص119.

(4) ابن نجيّة: هو أبو الحسن زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الحنبلي، وُلد بدمشق سنة 508هـ/1114م، ونشأ بها، واشتغل بالتفسير والوعظ، وكان رسول نور الدين إلى بغداد، توفي سنة 599هـ/1203م. أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص34_35.

عليه"[1]، وطلب ابن نجيّة مقابل ذلك الحصول على كل ما لابن كامل الداعي من العقار والدور والأموال، فوعده صلاح الدين بذلك[2].

لمّا اكتملت ذيول المؤامرة وصل جورج – رسول عموري إلى صلاح الدين– [3] بهدية ورسالة، وهو في الظاهر إليه، وفي الباطن إلى المتآمرين الفاطميين، وقد كان في تلك المرحلة مراسلات بين صلاح الدين وعموري[4]، وكان جورج "رسول مخاتلة وليس رسول مجاملة، وحامل بلية لا حامل هدية"[5]، ولكن ظهرت هنا كفاءة وخبرة صلاح الدين، إذ أظهر إغفاله عن رسول عموري، ووضع عليه بعض من يثق به من النصارى لمراقبة كل ما يصدر عنه من تصرفات، وعندئذ وجد صلاح الدين أن جورج يخرج ليلاً ويذهب إلى الكنيسة، ليجتمع بحاشية القصر الفاطمي ورجاله، وبأمراء الفاطميين، وبجماعة من النصارى واليهود وكتّابهم[6].

لمّا رأى صلاح الدين أن خيوط المؤامرة الفاطمية الصليبية قد اتحدت فيما بينها ضده رأى من الضروري أن يقضي عليها قبل دخولها موضع التنفيذ، فألقى القبض على المتآمرين، وأفتى علماء مصر بقتلهم، فأفتوه بذلك، فشُنقوا وصُلبوا في أحد ميادين القاهرة[7]، وكان من بين الذين أُعدموا عمارة اليمني، وابن كامل القاضي، والقاضي العويريس، وعبد الصمد الكاتب، وابن عبد القوي، ورجل آخر يقال له ابن سلامة، وآخر يلقب بابن المظبَى، وآخر بمصطنع الدولة، ومنجماً نصرانياً كان يبشرهم بأن ذلك الأمر يتم بعلم النجوم، وكان إعدامهم يوم السبت 2 رمضان

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص94؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص29؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص244_245؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص310. ذكر ابن الاثير أن عدداً من أمراء صلاح الدين قد علموا بتلك المؤامرة، ووافقوا عليها عمارة اليمني، واشتركوا بها. الكامل، ج8، ص63. ويُعتقد بأنه لو صحّ ذلك، لكان اشتراكهم وموافقتهم للمتآمرين كان بغرض كشف أخبارهم ونقلها إلى صلاح الدين، كما حدث مع ابن نجية، ولربما أن صلاح الدين قد طلب منهم ذلك بعد أن علم بتلك المؤامرة من قِبل ابن نجية، ولو اشترك أحد قادة صلاح الدين في تلك المؤامرة لما تردد المؤرخون عن ذكر اسمه كما حدث عندما تولى صلاح الدين الوزارة، وحدث خلاف بين زعماء الجيش النوري إلى أن اتفقوا على تولي صلاح الدين الوزارة، والدليل على عدم اشتراكهم في تلك المؤامرة أن صلاح الدين لم يتعرض لهم– حسب ما ذكر ابن الأثير نفسه– بعد أن فشلت تلك المؤامرة وقضى على ذيولها. الكامل، ج8، ص65.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص55؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص163.

(3) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص188.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص64.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص188.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص188؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص367.

(7) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص249؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص163؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص310.

569هـ/6 ابريل 1174م[1]، كما قبض على كل من كان له يد في المؤامرة من قريب أو بعيد، فشنق كثيراً من رجال الحاشية وأجناد وعبيد الفاطميين، وتتبع أنصار الفاطميين بالقتل أو السجن، وعلاوة على ذلك فقد أمر من تبقى من جند مصر والسودان، وحاشية القصر بالرحيل إلى أقصى الصعيد بقصد نفيهم والتخلص منهم، كما ألقى القبض على دعاة الفاطميين بالإسكندرية، حيث كان يتزعمهم رجل يُقال له قديد القفاص، والذي ادعى النسب إلى أهل القصر، فأُعدم كغيره من أمراء الفاطميين[2]، وبذلك تم القضاء على الطرف الرئيسي من أطراف المؤامرة، وهم رجال البيت الفاطمي، ومن يؤيدهم من النصارى واليهود.

لما علم عموري بقضاء صلاح الدين على المتآمرين الفاطميين بمصر وقف عاجزاً عن التدخل، معتقداً بأن عدم وجود أي قوة مساندة له من داخل مصر ستؤدي حتماً إلى فشل أية حملة يقوم بها[3]، ويبدو أن الإسماعيلية الباطنية بالشام كان لهم نفس الموقف إذ لم تُشر المصادر التاريخية إلى قيامهم بالدور المنوط بهم – وهو اغتيال صلاح الدين–، والذي تم الاتفاق عليه مع قادة التآمر بمصر.

أما الطرف الأخير من أطراف المؤامرة والذي كان بصقلية لم يكن يعلم بما حدث لأعوانه الفاطميين من قتل وتشريد على يد صلاح الدين، إذ أعد وليام الثاني – ملك صقلية– أسطولاً كبيراً يتكون من "مائتي شيني[4] تحمل الرجالة، وست وثلاثون طريدة[5] تحمل الخيل، وستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب، وأربعون مركباً تحمل الأزواد، وفيها من الراجل خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمائة.. وكان المقدّم عليهم ابن عم صاحب صقلية (وليام الثاني)"[6].

---

(1) الأصفهاني: البستان الجامع، ص369؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص29؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص246؛ 247؛ أبو الفداء: المختصر، ج2، ص133؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص55؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص55؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص475_476؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص163.

(2) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص190؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص249_250؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص367_368؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص163؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص310.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص45.

(4) الشواني: جمع شاني أو شيني أو شينية، وهي نوع من المراكب يجدف بمائة وأربعين مجدافاً، وفيها إلى جانب الجدافين المقاتلة، وتسمى الغراب أيضاً. ابن ممّاتي: قوانين الدواوين، ص340؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج14، ص81.

(5) الطريدة: جمعها طرائد، وهي مركب مهمته حمل الخيل، وأكثر ما يُحمل فيه أربعون فرساً. ابن ممّاتي: قوانين الدواوين، ص339؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج14، ص81.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص83؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص13_14؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص499. ذكر المقريزي أن اسم قائد الحملة هو أكيم موذقة. السلوك، ج1، ص164.

لما اقترب الأسطول الصِّقلِّي من النزول على ساحل الإسكندرية حاولوا اغتنام عدد من سفن المسلمين التجارية التي على الشاطئ، إلا أن المقاتلين المسلمين سبقوهم إليها، وقاموا بإغراق بعضها، وحرق البعض الآخر، وقُتل عندئذ سبعة من المدافعين عن المدينة بأيدي الصليبيين[1].

ما أن علم أهل الإسكندرية بذلك الخبر خرجوا بعدتهم وعتادهم ليمنعوا الأسطول من النزول على الشاطئ، إلا أن والي المدينة منعهم من الاقتراب من الساحل، وأمرهم بملازمة سور المدينة حفاظاً على حياتهم[2]، وعندئذ ظن قادة الأسطول الصقلي أن الطريق أصبحت مفتوحة وممهدة أمامهم لدخول المدينة، فنزلوا على الساحل يوم الأحد 26 ذي الحجة 569هـ/28 يوليو 1174م[3]، وضربوا خيامهم البالغ عددها ثلاثمائة على البر، ثم توجهوا إلى المدينة وفرضوا حصارهم عليها مصطحبين ست دبابات[4] – تشبه الأبراج في ارتفاعها وكثرة المقاتلين فيه– بكباشها[5]، وثلاثة منجنيقات كبيرة وعظيمة، تضرب حجارة اصطحبوها معهم من صقلية، وضربوا المدينة، فكان لذلك أثراً كبيراً على المدينة وعلى سكانها[6] الذين واجهوا الغزاة الصليبيين رغم قلة الجنود "ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية، وحسن سلاحهم ما راعهم"[7].

رغم صمود أهل الإسكندرية في مواجهة الصليبيين إلا أنهم أدركوا عدم قدرتهم على مواصلة صمودهم دون مجيء إمدادات لهم من مناطق أخرى بمصر، ولذلك أرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون منه الإمدادات، ويستدعونه لدفع العدو عنهم، وقبل أن يصل الخبر إليه وصلت العساكر الإسلامية المتمركزة بالقرب من الإسكندرية إليها "فقويت بهم نفوس أهلها، وأحسنوا القتال

---

(1) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص219؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص164؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص119. ذكر ابن واصل أن عدد من قُتل عند نزول الأسطول الصقلي على شاطئ الإسكندرية سبعمائة نفس من أهلها. مفرج الكروب، ج2، ص14. إلا أنه – فيما يبدو– أن هذا العدد مبالغ فيه إذ لم تحدث معركة حاسمة أو كبيرة في ذلك الوقت تؤدي إلى هذا العدد الكبير من القتلى، إضافة إلى أن أهل الإسكندرية كانوا يتوقعون وصول ذلك الأسطول بعد أن وصلتهم أخباره. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص19.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص73.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص11.

(4) ذكر البعض أنهم اصطحبوا معهم ثلاث دبابات. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص57؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص312.

(5) الكباش: هو آلة من آلات الحرب كانت تستعمل في الحصار لقذف الحصون وهدمها. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص774.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص219_220؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص14؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص164.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص73؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص15.

والصبر"، وشجع ذلك سكان المدينة فخرجوا من أبوابها، وهاجموا دبابات الصليبيين فأحرقوها، وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين[1].

في الوقت الذي نزل فيه الصليبيون على شاطئ الإسكندرية كان صلاح الدين في فاقوس، فبلغه خبر نزول الصليبيين في اليوم الثالث من نزولهم، فشرع في إعداد المقاتلين، وأرسل أحد أتباعه إلى الإسكندرية ليبشر بوصوله، كما أن كفايته الحربية دعته إلى إرسال طائفة من جيشه إلى دمياط[2]، وعلى ما يبدو فإن صلاح الدين كان يتخوف من قيام عموري بمهاجمة مدينة دمياط، والالتفاف على القاهرة بعد أن يصطحب جيشه إلى الإسكندرية للدفاع عنها أمام الجيش الصليبي القادم من صقلية.

لمّا سمع الصليبيون بقرب وصول صلاح الدين بعساكره إلى الإسكندرية خافوا، وازدادوا تعباً وفتوراً، لا سيما في ظل عدم حدوث ثورة بمصر ضد صلاح الدين حسب ما تم الاتفاق الذي عقدوه مع الفاطميين – الذين أُعدموا على يد صلاح الدين– فقام المسلمون بمهاجمتهم عندما حلّ الظلام، وتمكنوا من الوصول إلى خيامهم، وغنموا ما فيها من الأسلحة، وقُتل عدد كبير من المقاتلين الصليبيين؛ فاضطروا للهرب إلى البحر، فسَلِم البعض، وغرق البعض الآخر بعد أن قام عدد من المقاتلين المسلمين بتدمير وإغراق عدد من سفن الصليبيين، فخاف الباقي وولّوا هاربين، وبقي ثلاثمائة مقاتل صقلّي على رأس تل، فقاتلهم المسلمون فقُتل البعض وأُسر البعض الآخر[3]، فلم ينج من الصليبيين "إلا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه"[4]، وغنم المسلمون الكثير من الآلات والأمتعة والأسلحة بعد أن أقلع الأسطول عن الإسكندرية يوم الخميس مستهل محرم سنة 570هـ/أغسطس 1174م[5]، وكان ذلك من "أعظم النعم من الله تعالى على المسلمين، وإمارة كل سعادة ونجاح، ولله الحمد والمنة"[6].

وبذلك فشل الطرف الأخير من أطراف المؤامرة التي حاكها بقايا الفاطميين في مصر، وقُتل جميع من شارك بها من الفاطميين أو أُسر أو نُفي، عوضاً عن أن الأطراف الأخرى هي أيضاً لقيت مصيراً مشابهاً لذلك المصير الذي واجهه بقايا الفاطميين، فالنصارى واليهود الذي آزروا

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص73_74.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص15؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص220.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص74؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص15_16؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص499؛ ص57؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص313.

(4) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص220.

(5) ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص16؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص56.

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص91.

الفاطميين الشيعة على الثورة على صلاح الدين قُتلوا أيضاً، وبذلك خلت مصر من العناصر الموالية للصليبيين الذين لم يُقدموا على القدوم إلى مصر – بناء على الاتفاق مع الأمراء الفاطميين– نتيجة كشف المؤامرة بمصر قبل تنفيذها، علاوة على أن الإسماعيلية الباطنية لم تتمكن من تنفيذ دورها باغتيال صلاح الدين.

ويبدو أن نجاح صلاح الدين في القضاء على تلك المؤامرة، والتصدي للطرف الأخير منها قد أثار حفيظة بقايا الفاطميين في صعيد مصر، حيث ثار والي أسوان[1] المسمى بكنز الدولة[2] على صلاح الدين مع من انضم إليه من مؤيديه، وقتل عدداً من أمراء صلاح الدين[3]، ثم قصد قوص وأعمالها[4]، ثم سار إلى القاهرة في مائة ألف مقاتل "ليعيد دولة العبيديين"[5].

سار حسام بن أبي الهيجاء السمين – أحد قادة صلاح الدين– لقتال كنز الدولة، وكان كنز الدولة قد قَتل أخاً لابن أبي الهيجاء، وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وكثيراً من العسكر، ووصلوا إلى مدينة طَوْد[6]، فضربوا عليها الحصار، وقاتلوا من بها من أتباع كنز الدولة، وظفروا بهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وتمكن كنز الدولة من الفرار بنفسه[7] بعد أن قُتل ثمانين ألفاً

---

(1) أسوان: هي مدينة كبيرة، وكورة في آخر صعيد مصر، وأنول بلاد النوبة، وتقع شرق نهر النيل. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص191.

(2) كان كنز الدولة المذكور والياً على أسوان، وكانت علاقته حسنة بصلاح الدين إذ كان قد أرسل إليه ليخبره بأن السودان والعبيد قد اجتمعوا في جنوب مصر في عدد كبير قاصدين تملك مصر، وبأنهم ساروا من أعمال الصعيد، فأرسل صلاح الدين جزءاً من جيشه إلى الصعيد، وقضى عليهم بمساعدة من كنز الدولة. المقريزي: السلوك، ج1، ص157؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص305. الكنوز: أصلهم من قبيلة ربيعة العربية، استقروا في أسوان بجنوب مصر، و"كنز الدولة" لقب منحه لأول مرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لحاكم الصعيد في عهده أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبي عبد الله بن محمد بن علي عندما ظفر بالثائر أبي ركوة الفار من بلاده، وأرسله إلى الحاكم، وكان آخر من تلقب منهم بهذا اللقب "كنز الدولة " هذا المعاصر لصلاح الدين، وكان كلهم يلقبون بكنز الدولة. المقريزي: البيان والإعراب، ص142_143. وذكر ابن كثير أن اسمه عباس بن شادي. البداية والنهاية، ج16، ص500

(3) البنداري: سنا البرق الشامي، ص80؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص165؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص338؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص167؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص120.

(4) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص221؛

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص13؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص71.

(6) طَوْد: بليدة بالصعيد الأعلى، فوق قوص ودون أسوان. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص47.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص74؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص80؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص212؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص338؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص120. ذكر بعض المؤرخين أن من خرج لقتال كنز الدولة هو سيف الدين أبو بكر العادل بن أيوب – أخ صلاح الدين–. ابن شداد: النوادر

من جنده[1]، ثم أُلقي القبض عليه بعد أن عجز عن مقاومة أمراء صلاح الدين، وكان مقتله في 7 صفر 570هـ/7 رمضان 1174م[2]، وبذلك "انطفت جمرة المصريين (الفاطميين)، ولم تقم بعدها قائمة"[3]، وقد عبر عدد من المؤرخين على ذلك بالقول :"ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وسال دمه، فلم ينتطح فيه عنزاً"[4].

وهكذا نجد أن صلاح الدين قد استطاع أن يفرغ من مشاكله الداخلية في مصر، وأن يدعم نفوذه بها، وذلك بقضائه على الشيعة الفاطميين ومن يناصرهم، وإقامة المذهب السني بدلاً من المذهب الشيعي، ولم يبق على صلاح الدين بعد تحقيق الوحدة بين مصر والشام سوى أن يوجه جهوده ضد الصليبيين في بلاد الشام، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع الصليبي الإسلامي.

السلطانية، ص90؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص165؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص58؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص400.

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص13؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص71.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص75؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص90؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص165؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص167.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص17.

(4) البنداري: سنا البرق الشامي، ص80؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص221؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص13.

النتائج والتوصيات

أولاً: النتائج:

بحمد من الله وتوفيقه انتهى موضوع الدراسة التي تناولت العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين خلال الحروب الصليبية، وقد خلصت الدراسة إلى الكثير من النتائج أهمها:

– أن امتداد النفوذ الفاطمي إلى بلاد الشام لم يكن بسهولة؛ إذ واجه الفاطميون صعوبات كثيرة من قبل القوى المسيطرة على بلاد الشام آنذاك، عوضاً عن عدم ترحيب سكان الشام بهم.

– أن الفاطميين أيّدوا الصليبيين عندما وجّه الأخيرون جيوشهم تجاه الشرق الإسلامي، وذلك بسبب قيام السلاجقة بأخذ بلاد الشام من الفاطميين وردها إلى الخلافة العباسية بعد أن سيطر عليها الفاطميون لأكثر من قرن.

– أن الفاطميين وقّعوا مع الصليبيين اتفاقاً يقضي بمحاربة السلاجقة السُنّيين، ثم اقتسام بلاد الشام مناصفة بين الطرفين بعد طرد السلاجقة منه، على أن يحتل الصليبيون شماله، ويسيطر الفاطميون على جنوبه.

– أن الفاطميين كانوا على علم بخطط وأهداف، وخط سير الصليبيين تجاه بلاد الشام إبان الحرب الصليبية الأولى، بل وساندوا الصليبيين في تحقيق أطماعهم مطلع الحملة الصليبية الأولى.

– تمكن الصليبيون من احتلال بيت المقدس وغيرها من مدن ساحل بلاد الشام بسبب تقصير الفاطميين في مواجهة الأطماع الصليبية في الشرق الإسلامي، رغم أن الفاطميين قد علموا بأهداف الصليبيين الاستعمارية.

– لم يكن الهدف من الجهود التي بذلها الفاطميون في مواجهة الصليبيين تحرير المدن الشامية من نير الاحتلال الصليبي بقدر ما كان هدفهم المحافظة على نفوذهم الديني والسياسي في بلاد الشام، ولو كان ذلك على حساب القوى الإسلامية.

– أن مقاومة الفاطميين للأطماع الصليبية كانت تزداد وطأتها عندما كان يتولى الوزارة الفاطمية أحد الوزراء السُنّة.

– بذل أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين جهوداً عسكرية كبيرة، ومهارة سياسية فذة في مواجهة التحالفات الصليبية الفاطمية، ثم في القضاء على المذهب الشيعي، وإقامة المذهب السني في مصر، وإعادتها تحت عباءة الخلافة العباسية.

ثانياً: التوصيات:

نخلص من هذه الدراسة إلى التوصيات التالية:

- أن تهتم مراكز البحوث الفلسطينية والعربية والإسلامية بدراسة الحروب الصليبية، والاستفادة منها في الحاضر باعتبارها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب.
- أن يتم إقامة مراكز أبحاث مستقلة خاصة بدراسة الحروب الصليبية.
- تقوم الجهات المختصة من جامعات ومؤسسات ومراكز أبحاث بالاهتمام بموضوع الحروب الصليبية، والعلاقات التي تمت خلال تلك الحروب من وجهتي النظر الإسلامية والصليبية عبر ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية، ودراستها دراسة تحليلية.
- أن يستفيد الساسة من دراسة تاريخ العلاقات بين الفاطميين والصليبيين والإستفادة من تلك التجارب في الحياة المعاصرة.
- تناول مواضيع ذات صلة بموضوع الدراسة ومن أبرز تلك المواضيع الجديرة بالاهتمام:
  1- العلاقات الصليبية السلجوقية.
  2- العلاقات بين الفاطميين والمدن الإيطالية فترة الحروب الصليبية.

قائمة المصـــادر والمراجـــع

أولاً- المصـــادر:

أ- المصادر العربية:

1- القرآن الكريم.

أبو داود، الإمام الحافظ سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت 275هـ/889م):

2- سنن أبي داود، 7ج، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العلمية، دمشق، ط1، 1430هـ/2009م،

ابن الأبار، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 658هـ/1260م):

3- الحلة السيراء، جزءان، حققه وعلق حواشيه: حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985م.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الكرم (ت 630هـ/1232م):

4- الكامل في التاريخ، 8ج، علق عليه: سيد بن محمد السناري، د.ط، دار الحديث، القاهرة، 1431هـ/2010م.

5- الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر طليمات، د.ط، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1962م.

الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت 561هـ/1166م):

6- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدان، د.ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1414هـ/1994م.

الأصفهاني: عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني (ت 597هـ/1201م):

7- البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية)، سهيل زكار، ط1، ج11، دار الفكر، دمشق، 1416هـ/1995م.

8- تاريخ دولة ال سلجوق، د.ط، شركة طبع الكتب العربية، 1318هـ/ 1900م.

الأنطاكي، يحي بن سعيد (ت 458هـ/1067م):

10- تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، حققه وصنع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، د.ط، مطابع جروس برس، طرابلس- لبنان، 1990م.

ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت 930هـ/1533م):

11- بدائع الزهور في وقائع الدهور، 5ج، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1402هـ/1982م _1404هـ/1984م.

ابن أيبك، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الداوداري (ت 732هـ/1331م):

12- الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، د.ط، القاهرة، 1380هـ/1961م.

13- الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، وهو الجزء السابع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، د.ط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1391هـ/1972م.

البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت 622هـ/1225م):

14- سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، د.ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979م.

البيروني، برهان الحق أبو الريحان محمد بن أحمد (ت 440هـ/1048م) :

15- الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: د.س.إدوارد، د.ط، ليبزيغ- ألمانيا، 1878م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت 874هـ/1469م):

16- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16ج، تعليق: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/1992م.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري (ت 429هـ/1038م):

17- يتيمة الدهر، 5ج، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ/1983م.

الجوذري، أبي علي منصور العزيزي الجوذري (ت 390هـ/1000م):

18- سيرة جوذر، تقديم وتحقيق: محمد حسين ومحمد شعيرة، دار الفكر العربي، د.ط، د.م، د.ت.

ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت 597هـ/1201م):

19- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 19ج، دراسة وتحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ/1992م.

ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت 852هـ/1448م):

20- رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ/ 1998م.

الحريري، أحمد بن علي الحريري المغربي (ت 926هـ/1519م):

21- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق: سهيل زكار، د.ط، مكتبة دار الملاح، دمشق، 1981م.

الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (ت 575هـ/1179م):

22- أخبار الدولة السلجوقية، اعتني بتصحيحه. محمد إقبال، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1984/1404م.

ابن حماد، أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد (ت 628هـ/1231م):

23- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق ودراسة: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، د.ط، دار الصحوة، القاهرة، 1401هـ.

الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت 676هـ/1228م):

24- معجم البلدان، 5ج، د.ط، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م.

الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت 727هـ/1327م):

25- الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، مكتبة لبنان، ، د.م، 1984م.

الحنبلي، مجير الدين (ت 927هـ/1521م):

26- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، مكتبة المحتسب، د.ط، عمّان، د.ت.

ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي (ت 367هـ/977م):

27- صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، د.ط، بيروت، د.ت.

ابن خرداذبة، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة (ت 280هـ/893م):

28- المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1889م.

خسرو، أبو المعين ناصر خسرو (ت 482هـ/1088م):

29- سفرنامه، ترجمة: يحي الخشاب، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.

ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي (ت 776هـ/1374م):

30- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، 3ج، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، د.ط، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1406م):

31- المقدمة، وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، د.ط، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2001م.

32- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 8ج، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، د.ط، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2001م.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت 681هـ/1282م):

33- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 8ج، تحقيق: إحسان عباس، د.ط، دار صادر، بيروت، 1414هـ/1994م.

الداعي عماد الدين، إدريس (ت 872هـ/1488م):

34- عيون الأخبار، تحقيق محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748هـ/1374م):

35- تاريخ الإسلام، 53ج، تحقيق: عمر تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1408هـ/1988م-2000/1421م.

36- العبر في خبر من غبر، 5ج، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، ط1، دار الكتب، بيروت،1405هـ/1985م.

37- سير أعلام النبلاء، 25ج، تحقيق: بشار معروف وش وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1401هـ_1409هـ/1981_1988م.

38- دول الإسلام، تحقيقك: حسن إسماعيل مروة، جزءان، ط1، دار صادر، بيروت، 1999م.

الروحي، أبو الحسن: علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي السرور (ت 640هـ/1243م):

39- بلغة الظرفاء في تواريخ الخلفاء، تحقيق: محمد زينهم عزب، د.ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

ابن سباهي زادة، محمد بن علي البروسوي (ت 997هـ/1589م):

40- أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق: المهدي عيد الرواضية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1427هـ/ 2006م.

سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف قزوأغلي البغدادي (ت 654هـ/1256م):

41- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (الحقبة 345-447هـ)، دراسة وتحقيق: جنان جليل الهموندي، د.ط، الدار الوطنية، بغداد، 1990م.

السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت 771هـ/1369م):

42- طبقات الشافعية الكبرى، 10مج، تحقيق: محمود الطناحي ومحمد الحلو، ط1، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، 1383هـ/ 1964م.

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي (ت 902هـ/1497م):

43- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، تحقيق: فرانز روزنتال، ترجمة صالح أحمد العلي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1407هـ/ 1986م).

السيوطي، جلال الدين بن الكمال أبي بكر (ت 911هـ/1505م):

44- تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 1424هـ/2003م.

45- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، د.م، 1387هـ/1967م.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت 665هـ/1267م):

46- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 5ج، وضع حواشيه وعلّق عليه، إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، 1422هـ/2002م.

47- الذيل على الروضتين، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، ط2، دار الجيل، لبنان، 1974م.

48- عيون الدولتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومي، د.ط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م.

أبو شجاع، ظهير الدين الروذراوري محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله (ت 488هـ/1095م):

49- ذيل تجارب الأمم، تحقيق سيد كسرويه حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1424هـ/2003م.

ابن الشحنة، قاضي القضاة أبي الفضل محمد (ت 890هـ/1485م):

50- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، د.ط، دار الكتاب العربي، دمشق-سورية، 1404هـ/1984م.

ابن شداد، بهاء الدين (ت 632هـ/1234م):

51- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط2، مكتبة الخانجي، 1415هـ/1994م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1362م):

52- أمراء دمشق في الإسلام، ط2، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1403هـ/1983م.

53- الوافي بالوفيات، 29ج، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ/2000م.

ابن الصيرفي، تاج الرئاسة أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان (ت 542هـ/1147م):

54- الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1410هـ/ 1990م.

ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت 709هـ/1311م):

55- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت،

ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الطاهر المصري (ت 692هـ/1293م):

56- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1417هـ/ 1996م.

ابن العبري، غريغوريس أبي الفرج بن أهرون الطبيب الملطي (ت 685هـ/1286م):

57- تاريخ مختصر الدول، تصحيح: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، ط2، دار الرائد اللبناني، الحازمية- لبنان، 1415هـ/1994م.

ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم الحلبي (ت 660/1262م):

58- زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ،1417هـ/1996م.

ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي (ت 695هـ/1295م):

59- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 3ج، تحقيق: ج.س كولان و إ. ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت 571/1175م):

60- تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، 80 مج، تحقيق: محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/ 2001م.

العظيمي، محمد بن علي العظيمي الحلبي (ت 556هـ/1161م):

61- تاريخ حلب، حقق وقدم له: إبراهيم زعرور، د.ط، د.ن، دمشق، 1964م.

ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن الحنبلي، الدمشقي (ت 1089هـ/1679م):

62- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 10ج، حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق- بيروت،(1410هـ/1989م).

عمارة اليمني، أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن علي بن زيدان بن أحمد (ت 569هـ/1174م):

63- النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تصحيح: هرتويغ درنبرغ، د.ط، مطبع مَرْسَوْ، شالون، 1897م.

العمري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحي بن أحمد (ت 749هـ/1349م):

64- مسالك الأبصار (الجزء الخاص بالحروب الصليبية)، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية لسهيل زكار، ج23، دمشق، 1416هـ/1995م.

العيني، بدر الدين أبو محمد (ت 855هـ/1451م):

65- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية)، سهيل زكار، ط1، ج24، دار الفكر، دمشق، 1416هـ/1995م.

الغزالي، الإمام أبي حامد (ت 749هـ/1349م):

66- فضائح الباطنية، اعتنى به وراجعه: محمد علي القطب، د.ط، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت،(1422هـ/2001م).

الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت بعد 577هـ/1181م):

67- تاريخ الفارقي (الدولة المروانية)، تحقيق بدوي عوض، د.ط، الهيئة العامة لشؤون المطابع العامة، القاهرة، 1379هـ/1959م.

أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن نور الدين علي بن شاهنشاه بن أيوب (ت 732هـ/1332م):

68- تقويم البلدان، تصحيح: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1840م.

69- المختصر في أخبار البشر، جزءان، علق عليه ووضع حواشيه: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت،(1417هـ/1997م).

ابن فهد، محمد بن محمد بن محمد بن محمد (ت 885هـ/1480م):

70- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، جزءان، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، د.ط، دار الجيل القاهرة، د.ت.

ابن قاضي شهبة، تقي الدين أحمد (ت 851/1448م):

71- الكواكب الدرية في السيرة النورية، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية)، ط1، ج23، دار الفكر، دمشق، 1416هـ/1995م.

القاضي النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن حيون المغربي(ت 363هـ/974م):

72- الأرجوزة المختارة، تحقيق: قربان حسين بونا وآلا، ط1، معهد الدراسات الإسلامية، مونتر يال، 1970م.

73- افتتاح الدعوة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ط، بيروت، 1426هـ/ 2005م.

74- المجالس والمسايرات، تحقيق: الحبيب الفقي وآخرون، ط1، دار المنتظر، بيروت، 1996م.

القرماني، أحمد بن يوسف (ت 1019هـ/1610م):

75- أخبار الدول وآثار الأول، 3 مج، ط1، دراسة وتحقيق: فهمي سعد وأحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت،1412هـ/1992م.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م):

76- آثار البلاد وأخبار العباد، د. ط، دار صادر، بيروت، د. ت،

ابن القطان، أبي محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك المراكشي (ت حوالي 648هـ/1250م):

77- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، د.ط، دار الغرب الإسلامي، ، د.ت.

ابن القلانسي، أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي **(ت 555/1160م):**

78- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، د.ط، بيروت، 1908م.

القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت 821هـ/1418م):

79- صبح الأعشى، 14جزء، د.ط، دار الكتب المصرية، القاهرة، (1331هـ/1913م-1338هـ/1919م).

80- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، 3ج، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، د.ط، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

81- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1400هـ/1980م.

القيرواني، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت 1109هـ/1698م):

82- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ.

ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774هـ/1373م):

83- البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله التركي، ط1، دار هجر، د.م، 1417هـ/1997م-1419/1999م.

الكندي، أبي عمر محمد ين يوسف الكندي المصري (ت 350هـ/961م):

84- الولاة والقضاة، تهذيب وتصحيح: رفن كَست، د.ط، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.

ابن المأمون، جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي (ت 588هـ/1192م):

85- نصوص من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، د.ط، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، د.ت.

المستنصر بالله الفاطمي، أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز الله الفاطمي (ت 487هـ/1094م):

86- السجلات المستنصرية (سجلات وتوقيعات الخليفة المستنصر بالله الفاطمي إلى دعاة الفاطميين باليمن)، تقديم وتحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، 1954م.

ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه (ت 421هـ/1030م):

87- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسرويه حسن، 5ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1424هـ/2003م.

المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 985/375م):

88- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، مطبعة بريل، ليدن، 1909م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م):

89- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، 3ج، (ج1 تحقيق: جمال الدين الشيال، ج2 و3 تحقيق محمد حلمي أحمد)، ط2، ، د.ن، د.م 1416هـ/ 1996م.

90- إغاثة الأمة بكشف الغمة، قدم له وعلق عليه: ياسر سيد صالحين، د.ط، د.ن؛ د.م. د.ت.

91- الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، 3ج، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م.

92- السلوك لمعرفة دول الملوك، 8ج، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/ 1997م.

93- المقفى الكبير، 8ج، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (1411هـ/1991م).

ابن مَمّاتي، القاضي أبو المكارم أسعد بن الخطير مهذّب بن مينا المصري (ت 606هـ/1209م):

94- قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سور يال عطية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1411هـ/1991م.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرّم بن علي بن منظور (ت 711هـ/1311م):

95- لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، د.ط، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة، بن مرشد الكناني الشيزري (ت 584هـ/1188م):

96- الاعتبار، تحرير: فيليب حتي، د.ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/1298م):

97- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، 5مج، تحقيق جمال الدين الشيال وآخرون، مطبعة جامعة فؤاد الأول، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1953_1977م.

اليافعي، أبي محمد عبد الله بن أسعد، بن علي بن سليمي اليافعي اليمني المكي (ت 768هـ/1366م):

98- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، 4ج، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997/1417م.

اليماني، أبي عبد الله محمد بن ماك بن أبي القبائل الحمادي المعافري (ت 470هـ/1077م):

99- كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، حققه وعلق حواشيه: محمد الحِوالي، ط1، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء،1415هـ/1994م.

ب- المصـــادر الأجنبية:

1- Robert the Monk's: history of the first crusade, Ashgate Publishing Company, Burlington,2005.

ت- المصـــادر الأجنبية المترجمة:

أنا كومنينا:

1- الالكسياد، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية)، ج6، ط1، دار الفكر، دمشق، 1416هـ/1995م.

أوتو أسقف فريزنغ:

2- المدينتان، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية)، ج28، ط1، دار الفكر، دمشق، 1418هـ/1997م.

تودبيود، بطرس:

3- تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة وتعليق: حسين محمد عطية، د.ط، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1999م.

ثيوديريش:

4- وصف الأماكن المقدسة، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي ورياض شاهين، ط1، دار الشروق، عمّان2003م.

دانيال الراهب:

5- وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة، ط1، دار الشروق، عمّان، 2003م.

روجر أوف ويندوفر:

6- ورود التاريخ، جزءان، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية)، ج39، دار الفكر، دمشق، 1421هـ/ 2000م.

سايولف:

7- وصف بيت المقدس والأراضي المقدسة (1102-1103م)، ترجمة: سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمّان،1997م.

الشارتري، فوشيه:

8- تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، ط1، دار الشروق، عمّان، 1990م.

الصوري، وليم:

9- تاريخ الحروب الصليبية، 4 أجزاء، ترجمة:حسن حبشي، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991_1994م.

فورزبورغ، يوحنا:

10- وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمّان،1997م.

الفيتري، يعقوب:

11- تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمّان، 1998م.

لودولف فون سوخم:

12- وصف الأرض المقدسة، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية لسهيل زكار)، ج37، دمشق، 1420هـ/1999م.

مجهول:

13- يوميات صاحب أعمال الفرنجة، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية لسهيل زكار)، ج6، ط1، دار الفكر، دمشق، 1416هـ/1995م.

ميخائيل السوري الكبير:

14- رواياته، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية لسهيل زكار)، ج5، ط1، دار الفكر، دمشق، 1416هـ/1995م.

ثانياً- المراجـع:

أ- المراجـع العربية:

بدوي، جمال:

1- الفاطمية.. دولة التفاريح والتباريح، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1424هـ/2004م.

برجاوي، سعيد:

2- الحروب الصليبية في المشرق، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1404هـ/1984م.

توفيق، عمر:

3- الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م.

جمال الدين، عبد الله:

4- الدولة الفاطمية "قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش"، د.ط، دار الثقافة، القاهرة،(1411هـ/1991م).

الجنزوري، علية:

5- الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، 1999م.

جودة، صادق:

6- مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام 492هـ/1099م، ط1، دار عمّار، بيروت، 1406هـ/1986م.

حبشي، حسن:

7- الحرب الصليبية الأولى، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

حسن، إبراهيم حسن:

8- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، 4ج، ط14، دار الجيل، بيروت، 1416هـ/1996م.

حسن، إبراهيم حسن وطه أحمد شرف:

9- المعز لدين الله، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963م.

الحسن، عيسى:

10- تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 2008م.

حسنين: عبد المنعم محمد:

11- دولة السلاجقة، د.ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1975،

الحصني، محمد أديب آل تقي الدين:

12- منتخبات التواريخ لدمشق، 3ج، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1399هـ/1979م.

الحريري، سيد علي:

13- الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط1، المطبعة العمومية، مصر،1317هـ.

خليل، محمد محمود:

14- الاغتيالات السياسية في مصر في عصر الدولة الفاطمية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2006م.

الزحيلي، وهبة:

15- الفقه الإسلامي وأدلته، 8ج، ط3، دار الفكر، دمشق، 1409هـ/1989م.

زكار، سهيل:

16- مدخل إلى الحروب الصليبية "المشرق" (وهو الجزء الأول من الموسوعة الشامية)، دار الفكر، دمشق، 1415هـ/ 1995م.

زيان، حامد زيان غانم:

17- الصراع السياسي والعسكري بين القوي الإسلامية زمن الحروب الصليبية، د.ط، دار الثقافة، القاهرة، 1403هـ/1983م.

الزين، أحمد:

18- تاريخ صيدا، د.ط، مطبعة العرفان، صيدا، 1331هـ/1913م.

سالم، السيد عبد العزيز:

19- تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م.

20- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982م ص186_187.

سالم، سحر السيد عبد العزيز:

21- تاريخ مصر في العهدين الأيوبي والمملوكي، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2006م.

سرور، محمد جمال الدين:

22- تاريخ الدولة الفاطمية، د.ط، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

أبو سعيد، حامد:

23- الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، ج1(جبهة الشام وفلسطين ومصر)، ط1، دار السلام، القاهرة، 1428هـ/2007م.

سيد، أيمن فؤاد:

24- الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، (1420هـ/2000م).

الشامي، أحمد:

25- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1405هـ/1985م

ابن الشدياق، طنوس بن يوسف الشدياق:

26- أخبار الأعيان في جبل لبنان، طباعة: بطرس البستاني، د.ط، د.ن، بيروت، 1859م.

الشرقاوي، مديحة:

27- الحمدانيون، تاريخهم في الموصل وحلب، ط1، دار العالم العربي، القاهرة، 1431هـ/ 2010م.

الشيال، جمال الدين:

28- مجموعة الوثائق الفاطمية (وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة)، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م.

الشيخ، محمد:

29- عصر الحروب الصليبية في الشرق، د.ط، د.ن، د.م، 1417هـ، 1996م.

الصاوي، أحمد:

30- مجاعات مصر الفاطمية...أسباب ونتائج، ط1، دار التضامن، بيروت، 1988م.

الطباخ الحلبي، محمد راغب بن محمود بن هاشم:

31- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق: محمد كمال، 8مج، ط2، دار القلم العربي، حلب، 1408هـ / 1988م.

طقوش: محمد سهيل:

32- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام (471_511هـ/ 1078_1117م)، ط3، دار النفائس، بيروت، 1430هـ/2009م.

العارف، عارف:

33- المفصل في تاريخ القدس، ج1، ط5، مطبعة المعارف، القدس، 1999م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح:

34- أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسي)، ج1، ط8، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1981م.

35- أضواء جديدة على الحروب الصليبية، د.ط، دار القلم، القاهرة، 1964م.

36- الحركة الصليبية، جزءان، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م.

37- الناصر صلاح الدين، د.ط، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، د.ت.

عاشور، فايد:

38- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي)، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ/1985م.

العبادي، أحمد مختار:

39- في التاريخ العباسي والفاطمي. مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، الإسكندرية، 1982م.

عدوان، أحمد:

40- الدولة الحمدانية، ط1، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع، القاهرة، 1431هـ/ 2010م.

العريني، السيد الباز:

41- الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون)، د.ط، دار النهضة العربية، د.ن. د.ت.

عطا الله، خضر:

42- علاقات الدولة الفاطمية بالدول الإسلامية والأجنبية، ط1، دار ابن زيدون، بيروت، لبنان، د.ت.

عمران، محمود سعيد:

43- تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1291م)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000م.

عنان، محمد عبد الله:

44- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ط3، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، (1404هـ/1983م).

عوض، محمد مؤنس:

45- الحروب الصليبية، دراسة تاريخية ونقدية، دار الشروق، عمّان، ط1، 1999م.

الغامدي، مسفر:

46- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر، ط1، دار المطبوعات الحديثة، جدّة، 1406هـ/1986م.

الغزي، كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي:

47- نهر الذهب في تاريخ حلب،3ج، د.ط، المطبعة المارونية، حلب، د.ت.

غنيم، أسمت:

48- الدولة الأيوبية والصليبيون، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م.

فراج، سمير:

49- الدولة الفاطمية، مركز الراية للنشر والإعلام، د.ط، القاهرة، 2007م.

الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف:

50- الدول المستقلة في المشرق الإسلامي "منذ مستهل العصر العباسي حتي الغزو المغولي"، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1420هـ/ 1999م.

فوزي، فاروق عمر ومحسن محمد حسين:

51- الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط (13هـ/634م_ 923هـ/ 1517م) ، ط1، دار الشروق، عمَّان، 1999م.

قاسم، عبده قاسم:

52- ماهية الحروب الصليبية، د.ط، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م.

كحيلة، عبادة بن عبد الرحمن رضا:

53- العقد الثمين في تاريخ المسلمين، ط1، دار الكتاب الحديث، الكويت، (1417هـ/ 1996م).

كرد علي، محمد:

54- خطط الشام، 6ج، ط3، مكتبة النوري، دمشق، 1403هـ/1983م.

الكناني، مصطفى:

55- العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى (أضواء جديدة على الحركة الصليبية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، الإسكندرية، 1981م.

ماجد، عبد المنعم:

56- تاريخ الخلافة الفاطمية، ط1، دار الفكر، عمّان، 1432هـ/2011م.

57- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، جزءان، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1973.

مبارك، علي باشا:

58- الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، 20ج، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، 1306هـ.

مجمع اللغة العربية:

59- المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة، 1425هـ/2004م.

محمد، علي جمعة:

60- المكاييل والموازين الشرعية، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة، ط2، 1421هـ /2001م.

محمود، علي عبد الحليم:

61- الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ط2، عكاظ للنشر والتوزيع، د.م، 1402هـ/1982م.

مصطفى، شاكر:

62- التاريخ العربي والمؤرخون، 3ج، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1983_ 1990م.

63- صلاح الدين الفارس المجاهد، والملك الزاهد المفترى عليه، ط1، دار القلم، دمشق، 1419هـ/1998م.

المطوي، محمد العروسي:

64- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1982م.

مقامي، نبيلة:

65- فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام (في القرنين الثاني والثالث عشر)، د.ط، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، 1994م.

موسى، تيسير:

66- نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، د.ط، الدار العربية للكتاب، د. م، د. ت.

وهبة، مصطفى:

67- موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة- مصر، 1418هـ/ 1997م.

يوسف، جوزيف:

68- الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى، ط1، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 1986م.

69- تاريخ الدولة البيزنطية ، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.

70- العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1983م.

ب- المراجـع الأجنبية:

Archer,T.A:

1- The Crusades: The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1894.

Gabrieli, Francesco:

2- Arab historians of the Crusades, vol1, England, 1969.

Hillenbrand, Carole:

3- Crusades: Islamic perspective, Routledge, New York, 2000.

Roscoe,Thomas:

4- History of Chivalry and the Crusades, vol1, Edinburgh, 1829.

Smith, Jonathan Riley:

5- The crusades A history, Second edition, Britain,2005.

ت- المراجـع الأجنبية المترجمة:

باركر، آرنست:

1- الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

بالار، ميشيل:

2- الحملات الصليبية والشرق اللاتيني (من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر)، ط1، ترجمة: بشير السباعي، مؤسسة عين، القاهرة، 2003م.

براور، يوشع:

3- الاستيطان الصليبي في بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ البنا، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001م.

4- عالم الصليبيين، ترجمة: قاسم قاسم ومحمد خليفة، ط1، عين للدراسات والبحوث، 1999م.

بردج، أنتوني:

5- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد سبانو ونبيل الجيرودي، د.ط، دار قتيبة، دمشق، 1985م.

الدشراوي، فرحات:

6- الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ/909-975م) التاريخ السياسي والمؤسسات، ترجمة: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.

رنسيمان، ستيفن:

7- تاريخ الحروب الصليبية، جزءان، ترجمة: السيد الباز العريني، ط3، د.م، 1413هـ/1993م.

زابوروف، ميخائيل:

8- الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، د.ط، دار التقدم، موسكو.

زامباور:

9- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: حسن محمود وآخرون، د.ط، دار الرائد العربي، 1400هـ/ 1980م.

سميث: جوناثان- ريلي:

10- الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد الشاعر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.

11- ما الحروب الصليبية، ترجمة: محمد الشاعر، ط1، دار الأمين، القاهرة، 1999م.

سميل، ر. سي:

12- الحروب الصليبية، ترجمة: سامي هاشم، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982م.

13- فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (1097_1193م)، ترجمة: محمد وليد الجلاد، ط1، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1985م.

سيمينوفا، ل.أ :

14- تاريخ مصر الفاطمية (أبحاث ودراسات)، ترجمة وتحقيق: حسن بيومي، د.ط، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية، 2001م.

شاندور، البير:

15- صلاح الدين الأيوبي، البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة: سعيد أبو الحسن، ط2، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1993م.

كاهن، كلود:

16- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، ط1، دار سينا للنشر، 1995م، القاهرة.

معلوف، أمين:

17- الحروب الصليبية كما رآها العرب، ترجمة: عفيف دمشقية، ط2، دار الفارابي، بيروت – لبنان، 1998م.

مولر، فولفغانغ فينر:

18- القلاع زمن الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، ط2، دار الفكر، دمشق، 1984م.

هايد، ف:

19- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.

ثالثاً- الرسائل العلمية:

الأغا، حسام:

1- الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 1428هـ/ 2007م.

بدوي، عبد المجيد:

2- التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، رسالة دكتوراة منشورة، ط2، دار الوفاء، المنصورة – مصر، 1408هـ/1988م.

حسن، علي إبراهيم:

3- تاريخ جوهر الصقلي "قائد المعز لدين الله الفاطمي"، رسالة ماجستير منشورة، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963م.

سلامة، جلال حسني:

4- الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة، رسالة دكتوراة غير منشورة، (جامعة عين شمس- القاهرة وجامعة الأقصى-غزة)، 1425هـ/2004م.

الشيخ عيد، يوسف:

5- أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، رسالة ماجستير منشورة، ط1، دار المعالي، عمّان، 1419هـ/1998م.

الغامدي، عبد الله:

6- استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1401-1402هـ.

الغامدي، علي محمد:

7- بلاد الشام قبل الغزو الصليبي(463--491هـ/1070-1098م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1401هـ-1402هـ/1981-1982م.

محاسنة، محمد حسين:

8- تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي، رسالة دكتوراة منشورة، ط1، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 2001م.

المسحال، حسن:

9- عسقلان في فترة الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس- القاهرة، كلية التربية الحكومية- غزة، 1420هـ/1999م.

المعاضيدي، خاشع:

10- الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي (359_567هـ/969_1171م)، رسالة دكتوراة منشورة، ط1، دار الحرية، بغداد، 1975_ 1976م.

نبهان، عادل:

11- عسقلان منذ منتصف القرن الرابع الهجري، وحتى النصف الثاني من القرن السابع الهجري (دراسة تاريخية وحضارية)، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القري، مكة المكرمة، 1421هـ/ 2000م.

رابعاً- الأبحاث والمقالات:

خرابشة، سليمان:

1- ثورة شريف مكة أبو الفتوح على الحكم الفاطمي في مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، مج10، العدد3، 1415هـ/ 1994م.

2- المأمون البطائحي وزيراً للخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي، أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، مج19، ع3، سبتمبر 2003م.

3- حركة الأمير أفتكين التركي ضد الحكم الفاطمي في بلاد الشام (364_368هـ 975_978م)، مؤتة للبحوث والدراسات، جامعة مؤتة، مج14، العدد3، ابريل_ يونيو، 1999م.

الزيبق، إبراهيم:

4- شاور بن مجير السعدي، مجلة الكاتب الفلسطيني، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ع 23، 1991م

سيد، أيمن:

5- الأفضل بن بدر الجمالي وسياسة الفاطميين تجاه الصليبيين، مجلة الإسراء، دار الفتوى والبحوث الإسلامية في القدس والديار الفلسطينية. ع12، جمادى الأولى- جمادى الآخرة 1418هـ.

شاهين، رياض:

6- قلعة جزيرة فرعون ساحة للصدام الصليبي الإسلامي، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، مج31، ع3، عمّان، 2004م.

العاوور، صلاح حسن:

7- القرامطة "نشأتهم- عقيدتهم- قيام دولتهم- علاقتهم بالدولة الفاطمية"، مجلة كلية التربية، كلية التربية الحكومية بغزة، مج2، ع1، رمضان 1418هـ/ يناير 1998م.

عثامنة، خليل:

8- فلسطين في خمسة قرون، من الفتح الإسلامي حتي الغزو الفرنجي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت، نيسان _ ابريل، 2000م.

علي، سرور:

9- جودفري دي بويون حاكماً للكيان الصليبي في بلاد الشام، بحوث الشرق الأوسط، ع14، مارس، 2000م.

ماجد، عبد المنعم:

10- بيت المقدس بين الفاطميين والسلاجقة، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين العرب، ع 11، 1420هـ/ 1999م.

Abstract

The crusades have formed a new milestone in the history of relations between the Islamic east and western Europe, as with those wars, conflict increased, and a lot of hostility effects of which still remain to our time.

The crusaders managed during their first crusade to configure three crusade emirates for them in the east, close to the kingdom of Jerusalem. It is noted that what has helped in the success of the crusaders in their campaign is the fragmentation of the islamic forces, disparate and frequent infighting among themselves, as it led to the loss of islamic forces to its unity and cohesion in the face of the crusader invaders.

In the midst of the first crusade, we find that the largest islamic forces represented by the Fatimid's state had welcomed the crusader invaders, and the two parties have agreed together to expel Seljuk Sunni from the Levant, and the sharing of Sham between the crusaders and the Fatimid's to keep the north for the crusaders and the south for the Fatimid's, to prove that the peaceful political and military relations hosted by the Fatimid's with the crusaders at the beginning of the first crusade was enough to the success of crusaders in their basic mission represented in the occupation of the holy Jerusalem.

After the crusaders occupation to Jerusalem, they have reneged on their promises towards the Fatimid's sharing Levant between the two sides, turning the peaceful relations between the parties to the relationship runner in which its highlighted chapters was ,the Fatimid's sent several campaigns to Palestine in an attempt to recover Jerusalem, but these campaigns failed in their missions because of the Fatimid's ignorance to real Jihad in the way of Allah, and their disregard to establish an islamic unity including the shores of Egypt and the Levant, rather than the weakness of these campaigns and the loss of firm and wise leadership.

Once the crusaders occupied Jerusalem and its environs of the cities, they have confirmed their power, and then extended their influence to the fortified coastal cities which represented the spearhead of the Fatimid's in attacking cities of the crusade kingdom of Jerusalem, but Fatimid's were delinquents in defending those cities, despite their large human and material potentials.

The military effort, which was carried out by the Fatimid's against the Crusaders in the Levant was getting the brunt at the time who was in the Fatimid's ministerial position, ministers on the Sunni sect, as what happened with the minister Al Adel bin Alsllar who tried to achieve a kind of military unity between Egypt and the Levant, but his efforts were unsuccessful because of his assassination by the leaders of the Fatimid's when he was about to carry out a campaign against the crusaders.

Muslim leader Nur al-Din Mahmoud has realized Egypt's importance in the future of the islamic- crusade conflict, and took advantage of the weakness of Fatimid's and their poor internal conditions, and deterioration of their military power, and has sent several campaigns ended in entering his forces to Egypt, despite addressing him by the Fatimid's and crusaders both, to be able to then commander Saladin from the overthrow of the Fatimid's in Egypt and eliminate them politically and religiously, despite plotted their remains in line with the crusaders and the other powers, then start a new phase of islamic- crusade conflict entitled with the real islamic jihad against the crusaders in the Levant.